

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغرداية



مَجَلَّةُ الْوَأَحَاتِ لِلْبَحْثِ وَالدِّرَاسَاتِ

مجلة أكاديمية دورية محكمة تصدر عن المركز الجامعي غرداية - الجزائر

العدد العاشر



محرم 1432 هـ / ديسمبر 2010 م

طبع المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

الجملة الاعتراضية والإعجاز

محمد السعيد بن سعد

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة:

عنوان البحث ورد في جملة خبرية في منطوقها، إنشائية في مفهومها ذلك أننا نقول: إن العنوان يجنب إشكالية نصها؛ ما علاقة الجملة الاعتراضية بالإعجاز، ما مدى إسهام الجملة الاعتراضية في الإعجاز، أين الجملة الاعتراضية من الإعجاز... إلخ. كل هذا يلخص إشكالية الموضوع ويضع القارئ أمام نافذة من نوافذ أهداف البحث والتي منها:

– الكشف عن مستوى من المعالجة يعتمد بناء الإعجاز على أساس بلاغي.

– ما مدى إسهام التركيب الاعتراضي في الإعجاز .

ذلك أن حقيقة الجملة الاعتراضية في نظم القرآن الكريم وما يتعلق بها من الخصائص القرآنية والتي من أمعن نظره وفكره، واستجمع في تقريرها خاطره أطلعته على حقائق مجهولة تحت الستار، وكشفت له عن وجه الإعجاز .

هذا بحث نحلق به في زاوية زوايا سماء القرآن الكريم الفسيحة؛ لنباحث ظاهرة من ظواهر النص الشريف التي تحتاج وقفة متأنية وتأملا عميقا وبحثا جادا، على أننا لا ندعي لأنفسنا مكان المفسر ولا موقف الباحث في الإعجاز وبحاجة ونحن ندرك أن للبحوث القرآنية خطرهما بين الدراسات الإنسانية والعقلية .

وإذا بنا نضع الخطوة التالية في عرض الموضوع:

أولا: مقدمة تناولنا فيها إشكالية البحث.

ثانيا: مدخل وقراءة في منظومة العنوان. الجملة الاعتراضية، خصائصها، الإعجاز .

رابعاً: البسط وبه:

1- في الإعجاز وعنا ره.

2- الإعجاز الغيبي.

خامساً: خاتمة: ضمنت نتائج البحث.

مدخل:

بداية نحدد دائرة البحث ونضبطها، وذلك بالاعتراض ناعة "الجملة الاعتراضية".

الجملة الاعتراضية عرفت من قبل البعثة قديما و حديثا ، ولذلك سنصطفي هنا ما اطمأنت نفوسنا إليه ولمسنا فيه من الدقة والشمولية وهذا ليس قبل أن نمدكم بالحد اللغوي للاعتراض.

فالاعتراض من عرض، واعترض يعترض اعتراضا، ورد في العين واعترض الشيء، أي مار عارضا كالحشبة المعترضة في النهر، واعترض الفرس في رسنه إذا لم يستقم لقائده.

ورجل عريض يتعرض للناس بالشر...، وسحابة عارض، والعارض من كل شيء ما استقبلك كالسحاب، والعروض طريق في عرض الجبل، وهو ما اعترض في عرض الجبل... ويقال جرى في عرض الحديث ودخل في عرض الناس، أي وسطهم عارضة الباب: الحشبة التي هي مسلك العضادتين من فوق¹.

وورد في الصحاح: اعترض الشيء مار عارضا كالحشبة المعترضة في النهر، يقال اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه²...، وفي الحديث: "لا جلب ولا جنب ولا اعتراض"³ فهو أن يعترض رجل بفرسه في السباق فيدخل من الخيل، ومنه حديث سراقه، "أنه عرض لرسول الله ﷺ وأبي بكر الفرس أي اعترض به الطريق بمنعهما من السير"⁴ واعترض انتصب ومنع و مار عارضا كالحشبة المنتصبة في النهر والطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها، ويقال اعترض الشيء دون الشيء أي: حال دونه⁵. هذا الاعتراض في اللغة .

أما الاعتراض ا طلاحا: يكون جملة أو شبه جملة، أو الكلمة الجملة، أولا ننقي من الحدود أدقها وأشملها، على أن التعريفات الا طلاحية لا تخرج عن التعريفات اللغوية،

فالتعريف اللغوي يعد جذرا للتعريف الاطلاحي أو هو كالحقيقة والجاز، لأن التعريف الاطلاحي تفنن في المنع والعدول والظهور في مواضع غير متوقعة كالإقحام ومن المفاهيم التي وردت للجملة الاعتراضية:

لنبداً بتعريف القزويني، يقول: "وحدها أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب"⁶.

ومن تعاريف المحدثين نأخذ تعريف الدكتور تمام حسان، يقول: "اعتراض مجرى النمط التركيبي بما يحاول دون اتصال عنا ر الجملة ببعض اتصالاً تتحقق به مطالب النظام النحوي فيما بينها"⁷.

يقول أبو القاسم السجلماسي: "... لأنه يكون جملة بمعنى الجملة في ناعة النحو ويكون كل ما أريد من الجملة، وقصة، والنحو أخص وضعاً لأنه يكون جملة بالمعنى الأول النحوي فقط، ولذلك معناه عند النحاة (أي الاعتراض) جملة غرى تتخلل جملة كبرى..."⁸.

تخبرنا من جملة التعاريف هذه الثلاثة نحسبها تفي بالمطلوب كحد دقيق للاعتراض الصناعي ويتضح ذلك من خلال هذه الخصائص كونها: جملة تتخلل أو تأتي في أثناء الكلام أو تعترض مجرى الكلام، نقول عنها: هي من وسائل الإطناب أو وسائل الفصل أو وسائل الإطالة والزيادة، أو من عوامل الترخص وانتهاك الرتبة، ولكنها في كل هذا هي تشكيل لغوي عدولي ينبى عن نفسه في التركيب لأنه يحدث تغييراً في الدلالة الأصلية للتركيب.

من خصائص الجملة المعترضة كمبحث بلاغي:

1- إن التركيب لا يستمد روعته وجماله إلا من خلال الجملة الاعتراضية "اللافية" والتي تبين عن نكت ما كانت لتكون لو لا وجود الجملة الاعتراضية.

لأجل هذا ألفينا الدكتور محمد أبو موسى يقول: "الجملة الاعتراضية تشبه في الكلام الثمرة الكرمة التي تسقط فور نضجها لا تبالي في أي موقع سقطت، لو أن المتكلم هياً لها مكاناً غير الاعتراض لما التفت السامع إليها، إلا بقدر ما يلتفت لغيرها من الجمل"⁹.

ويقول الدكتور عبد المطلب: "ولا شك أن التركيب الذي يحتوي على الاعتراض يفرز دلالة في شكلها المتجدد من خلال هذا الاعتراض"¹⁰.

ويضيف الدكتور أحمد ماهر البكري: "الجملة الاعتراضية، ويعني اعتراضها أنها دخلت في سياق وهي أجنبية عنه لحاجة في نفس القائل يريد التعبير عنها"¹¹.

2- ارتباط الجملة الاعتراضية بالأبواب النحوية حيث الجمل التي لا محل من الإعراب وبالأبواب البلاغية حيث المعاني والبديع.

يقول الأستاذ سلامة جمعة: "... إذا كان للنحو لمة وثيقة بالاعتراض الواقع بين جزئي الجملة، فإن الاعتراض بين المعاني المتصلة يفتح أمام البحث البلاغي رؤية واسعة ومجالات خصبة ثرية"¹².

3- الجملة الاعتراضية ضرب من البلاغة والتعبير الراقى، يقول الدكتور عبد القادر حسين: "والرمانى لم يفته أن يتناول الإطناب - ومنه الاعتراض - بالذكر ويعتبره نوعا من البلاغة لأن المعنى يحتاج إلى تفصيل، فالحاجة أشد والاهتمام به أعظم"¹³.

ويضيف الدكتور محمود السيد شيخون قائلا: "والاعتراض فن عظيم من فنون البلاغة والبيان يشتمل على كثير من اللطائف والأسرار، وإذا تأملت شواهد في القرآن الكريم استبان لك أنها تنطوي على كثير من الدقائق والعجائب..."¹⁴.

وفي قول الدكتور أحمد قدور: "ويرى بعض الدارسين أن هذه الصفة تشع في التعبير الراقى..."¹⁵.

4- ومن خصائص الجملة الاعتراضية أنها تحول دون اتصال عناصر الجملة بعضها ببعض، ومن ذلك تكسب مزيتها في التركيب وخصوصيتها كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

5- الجملة الاعتراضية محور الحركة في التركيب، فهي إذا تحدث حركة أفقية ورأسية اعتمادا على عنصر العدول، يقول الدكتور محمد عبد المطلب: "وهكذا تظل الدلالة في النص مشدودة في اتجاه داخلي يلتقي في بؤرة واحدة تكون جملة الاعتراض هي محور الحركة....."¹⁶.

6- الجملة الاعتراضية ذات خواص تعبيرية ترتبط بالمبدع تعبيرا عما في نفسه وبالمتلقي الذي يلتفت إلى ذلك من خلال هذه الجملة وهذا العدول وبالصياغة التي تعكس ذلك في حركة أفقية ورأسية معا.

7- الجملة الاعتراضية تعبير شائع في متن اللغة العربية، يقول ابن جني: "والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير حسن دال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه، وقد رأيت في أشعار المحدثين، وهو في شعر إبراهيم بن المهدي أكثر منه في شعر غيره من المولدين"¹⁷.

وقد رأينا أن الدكتور حواس بري قد و مل من خلال نتائجه إلى أن الاعتراض في القرآن الكريم قد تكرر بقدر لافت. بل ذهب الباحث سلامة جمعة إلى أنه تواتر في القرآن الكريم سبعا وتسعين وتسعمائة.

8- الجملة المعترضة لا تأتي إلا لفائدة ونكتة بلاغية: وهذا مما يتفق عليه، فما من تعريف إلا ويشير إلى هذا.

يقول الدكتور تمام حسان: "وللاعتراض وظيفة بلاغية مهمة هي المبادرة بإبلاغ السامع معنى لولا إبلاغه إياه في حينه لورد على الكلام بدونه ما لا يرد عليه معه"¹⁸.

ويقول الدكتور عبد العزيز عتيق: "الاعتراض هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة غير دفع الإبهام، ومن هنا يفهم أن الإطناب بالاعتراض يؤتى به في الكلام لفائدة أو لغرض بقصد إليه البليغ"¹⁹.

9- الجملة الاعتراضية يشار إليها في اللغة المكتوبة بعلامة ترقيم (- -).

وعلى العموم فإن المستمع لتعاريف الجملة الاعتراضية يجدها تفرز خصائص جمّة تنفرد بها أما الإعجاز ففي اللغة من عجز، والعجز نقيض الحزم، وعجز عن الأمر يعجز، والعجز: الضعف، والتعجيز: الشيط، ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق، وعجز عن الأمر: إذا قصر عنه.

وفي الا طلاح أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر و يعجزهم عن معارضته. ولهذا اتصف القرآن بأنه معجز؛ لعجز البشر عن الإتيان بمثله في كامل مستوياته، وكان هذا دليل مدق نبوة محمد ﷺ.

في الإعجاز وعنا ره: لا يخفى على ذي لب أن مفهوم الإعجاز كان قائما وواردا من أول آية نزلت من القرآن الكريم {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...}²⁰.

إن الوقوف على التركيب الشريف "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" وحده كافيا لاستجلاء أسرار لا

تُخصي، هذا التركيب إيدان بمنهج جديد ينبغي أن يتبع، وإبطال للنداء باسم الأ نام أو غيرهم، ثم إن هذه الأفعال: اقرأ، خلق بها خروج وعدول عن القاعدة النحوية الزمنية : الماضي المضارع الأمر (المستقبل) إذ الزمنية غير محددة ولا محصورة ولا بداية لها ولا نهاية، وقل مثل هذا في الأمكنة. إن لفظة "علق" إشارة إلى ما ينطوي في أ مل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم²¹، بله ما في الآيات من إعجاز أسلوبي، ألا ترى أن الآيات الخمس من السورة على قصرها أ ول الصفات الإلهية: فو ف الرب دل على الوجود والوحدانية بما تقتضيه المولية، وو ف: الخلق، والعلم، يقتضيان فات الأفعال، وو ف الأكرم يتضمن فات الكمال والتنزيه عن النقص.

وهكذا تأتي الجملة الاعتراضية لتضع بصماتها في أول آية بتركيب مو ولي "الذي عَلمَ بالقلم"، ذلك أن "رُبُّكَ" مبتدأ خبره الجملة الفعلية "عَلمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعلَمَ". والتقدير "وَرُبُّكَ الْأَكْرَمُ" معلم الإنسان، والجملة "الَّذِي عَلمَ بالقلم" معترضة أي: إن الذي علم الناس الكتابة بالقلم والقراءة قادر على أن يعلمك القراءة والكتابة.

يقول الشيخ ابن عاشور: "وفي الاختصار على أمر الرسول ﷺ، ثم إخباره بأن الله علم الإنسان بالقلم إيماء إلى استمرار فة الأمية للنبي ﷺ لأنها و ف مكمل لإعجاز القرآن"²².

وينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم يشير إلى هذا الإعجاز والذي يؤ له التركيب الاعتراضي، يقول تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}²³ الجملة الشريفة: "مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ" جملة معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته، "أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه"²⁴. على اختلاف في المراد بالكتاب.

وفي ضوء هذه الآية يقول مالك بن نبي: "إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد طبقاً لتعبير القرآن نفسه"²⁵.

ويضيف قائلاً: "فهو يبدأ أحاديثه -أي القرآن الكريم- من ذرة الوجود المستودعة في باطن الصخرة والمستقرة في أعماق البحار: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْثِقَالٍ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيَ حَجْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}²⁶، إلى

النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}²⁷، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، وهو يتجه إلى ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتباراً...²⁸.

وإلى مثل هذا يسوقنا الدكتور زغلول النجار وهو يقول: "تعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعداد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي وكل مجموعة من الآيات وكل سورة من السور - طالت أو قصرت - شهدت لكتاب الله تعالى بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية، أو ضوابط سلوكية، أو أحداث تاريخية، أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات، فكل تشريع وكل قصة وكل واقعة تاريخية وكل وسيلة تربوية، ويتميز عن كل بياغة إنسانية، مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد، كما يشهد بعجز الإنسان عن الإتيان بشيء من مثله"²⁹.

نعم لقد كانت آيات الله البينات أشعة يتألق فيها الوحي الإلهي وهي تبعث بنورها وهداياها إلى الناس أجمعين، فإذا بصوت القرآن ينطلق ليكون المعجزة اللغوية الأدبية الخالدة في لسان العرب، وما إن ظهر حتى بهر، وبدأت بظهوره الحركة الفكرية في حياة المسلمين لتدب فيها مظاهر الحيوية والقوة والنشاط.

فقد اقتضت حكمة الله أن توج آخر رسالاته إلى هذا العالم بالقرآن الكريم ليكون منهاجاً كاملاً للحياة ومعجزاً في كل وجه من وجوهه، وهو رسالة مفتوحة للأمم والأجيال كلها، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة للبعيد والقريب أيضاً، وظل هكذا وسيظل كتاباً مفتوحاً ومنهاجاً واضحاً يثبت للعالم أجمع بأنه ما اتخذاه أهل زمان إماماً لهم إلا وقد ولي حاجتهم كاملة، وقادهم في حياتهم كلها إلى خير ما تتطلع إليه الأمم والشعوب.

يقول ملاح الدين عبد التواب: "إن هذا القرآن يعطي الإنسان بقدر ما يعطيه، ويفتح عليه في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإحياءات بقدر ما يفتح له نفسه، وهو يبدو له في كل مرة جديداً كأنه يتلقاه اللحظة، وكأنه لم يقرأه ولم يسمعه من قبل... وإن في هذا القرآن سرّاً كما يشعر به كل من يواجهه نصوّ له ابتداء قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز

فيها... ويشعر أن هناك شيئاً ما وراء المعاني... ولكن يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أو هو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصورة أو الظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع المتميز عن سائر فنون القول؟، أهى هذه العنا . كلها مجتمعة؟³⁰.

ولعل هذا ما أدى ببنت الشاطئ إلى القول: "من إعجاز القرآن أن يظل شغلة الدارسين العلماء جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح عالياً يفوق طاق الدارسين"³¹.

لقد تباينت الأقوال والآراء في وجوه إعجاز القرآن الكريم بين موسع ومضيق، ومطلق ومقيد غير أن هناك إجماعاً على أن الإعجاز البياني هو أساس كل إعجاز قرآني، ففيه تستكن كل وجوه إعجازه، ما بين غيبي، وعلمي وشرعي وإعلامي، وعلى أساس ما ندرك من تراكيبه ومفرداته يكون تصورنا لآيات الله في مضمونها، يقول تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}³²، يقول عبد الصبور شاهين: "فالآية تقرر أن الله سبحانه وتعالى جاء عباده بكتاب فصله على علم، أي بيناه على علم بمحتواه ومضمونه"³³ فالقرآن الكريم إذا عجز عن الإتيان بمثله أساطين البلاغة والفصاحة والبيان، فانبهروا ببيانه المنفرد في حروفه ومقاطعته وألفاظه وفي آياته وسوره، تأملوه في كل ذلك فلم يجدوا كلمة نائية عن مكانها، بل وجدوا اتساقاً بمر العقول، ونظاماً والتأما وإحكاماً عجز عنه الناس، وقد غدا مصدراً لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية والإسلامية، فهو يمثل اللغة العربية في أدق مستوياتها وأعلاها، يقول نور الدين عتر: "إننا كلما قرأنا القرآن الكريم لفت نظرنا بعض الخصائص الصرفية إلى جانب الخصائص الصوتية والتركيبية"³⁴.

ذلك أن خير ما توف به الجملة في القرآن الكريم أنها بناءً أحكمت لبناته ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبؤ عن موضعها، أو لا تتعاش مع أخواتها، حتى مار من العسير بل من المستحيل أن تغير كلمة بأخرى أو تستغني فيها عن لفظ، أو تزيد فيها شيئاً، ومار قصارى أمر من يريد معارضة جملة من القرآن أن يرجع بعد لأي إليها كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء، جاء في إعجاز القرآن: "وانك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وفه، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز...

فترى اللفظ قارا في موضعه لأنه الأليق في النظم، ثم إنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يتأخر عليه...³⁵.

إن المتأمل في بنية القرآن الكريم يلفيها بنية تتكون أساسا من:

1. انسجام العنا ر الأساسية مع بعضها وجمالها.

2. جمال المعنى ونبيل المقصد.

3. العنا ر الأساسية هي الكلمات القرآنية والتي جاء توليفها من أ ووات متناسقة، خفيفة³⁶ سجد له تناسبا وتناسقا مع السياق حتى إنك لا تجد ما تستبدله به إلا هو لأنه الأ لمح والأقدر والأنسب لأداء المعنى، ثم إن هذه الكلمات القرآنية تجتمع لتؤلف الجملة القرآنية، ومنها الجملة القرآنية الاعتراضية، والتي نحسبها ورة على غاية من الروعة والجمال، "وهي منزع بلاغي أ يل"³⁷ له دلالاته في توضيح المعنى المراد التركيز عليه أو العناية به أو تخصيصه، لأن التركيب الاعتراضي إذا وقع موقعه المناسب في السياق، فإنه يكون من مقتضيات النظم ومتطلبات المقام ذلك لأن التركيب الاعتراضي كثيرا ما يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه، ومقررا له في نفوس السامعين من خلال ظاهرة التصوير القرآني، "قاعدة التعبير في النص الشريف، والأداة المفضلة فيه"³⁸.

ونقف على هذا في كل أوجه الإعجاز: الإعجاز الغيبي بكل مستوياته، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي والإعجاز البلاغي والأسلوبي وهو الوجه الأعظم إذ به كان القرآن قرآنا.

البسط: لتأمل معا التركيب الشريف والذي ورد في سياق القصص: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ}³⁹ إنه موقف تصويري عجيب، كان التركيب الاعتراضي به بؤرة ومركز ثقل "وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ" حال معترضة أبانت عن موقف الأبوة، وقد تدخلت الحكمة الإلهية لثدكر نوحا وهو الأب ولكنه النبي، بالحك الذي ينبغي أن يعتمد ويحفظ ويحافظ من القدوة، هذا المشهد الذي به الأحداث والشخوص والحوار والحركة، ذلك هو التصوير.

ولنتأمل قوله تعالى: {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}⁴⁰ تركيب معترض بين جملتين من قصة

واحدة: "يَجْعَلُونَ أَعْيُنَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ" و "يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ"، ظلمات، برق، رعد موقف مهول شديد ينعكس في كل لفظة من الآيات ليأتي التركيب الاعتراضي: "والله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ" ليؤكد أنه لا نجاة هؤلاء ولا مهرب، فقد أطالتهم قدرة الله بالهلاك من كل ناحية .

ففي الجملة الاعتراضية الأولى إشارة إلى تمرد البنية العاقبة كادت أن تجر معها الأبوّة الصالحة التي تمثل المنهج جاء في تصوير قصصي رائع.

والجملة الاعتراضية الثانية تأتي لتقر قدرة الله وإحاطته بكل شيء في مشهد تصويري أيضا.

لنتوقف عند هذا ولنعود إليه في التحليل بنفا يله الدقيقة وحسبنا أننا نبهنا إلى إسهام التركيب الاعتراضي في هذا الإعجاز بكل أوجهه سواء التي مثلناها أو التي ليس بعد.

لنعود فنقول، إن البحث في قضية الإعجاز ليس في حقيقته إلا بحثا عن السمات الخاصة بالنص الذي ينفرد بها عن النصوص الأخرى وتجعله يبرزها ويعلو عليها، ذلك ما نسعى إلى مباحثته في هذا الموضوع من خلال التحليل البلاغي الأسلوبي، متبينين منهج علماء العربية في التحليل، كما عبر عنه ابن خلدون وعلق عليه الدكتور محمد الصغير بناني: "النص عبارة عن شبكة من الخيوط المتداخلة الممتدة طولا وعرضا، سطحا وعمقا مثل خيوط السدى والنير في المنسج"⁴¹ وهي خمس شبكات:

- (1) شبكة المفردات اللغوية.
- (2) شبكة التراكيب النحوية.
- (3) شبكة التراكيب البلاغية.
- (4) شبكة الإيقاع والموسيقى.
- (5) شبكة التراكيب الأسلوبية.

لنبداً في كل جملة اعتراضية بإبراز أصل المعنى، وهو الرجوع بالتركيب إلى معناه الأول المجرد عن الوجوه البلاغية والمزايا الفنية، برد المعنى إلى أدنى ما يمكن أن يؤول إليه، أي الرجوع به إلى ما يسميه السكاكي : "متعارف الأوساط"⁴² المعنى المعجمي كما يعبر عنه بعض المحدثين.

وقبل أن نلج التحليل نشير: إن النص القرآني نص إلهي منزّه عن كل نقص، والخوض فيه مغامرة علمية حقيقية، ولكنها جميلة رائعة ومثيرة لطيفة، ولا يسعنا إلا أن نقندي بأستاذنا عبد المالك مرتاض لنردد ما قال: "فنحن لا نحاول – ونحن نحلل ونقف على اللطائف والأسرار القرآنية من خلال إبراز إسهام التركيب الاعتراضي في إعجازية النص الشريف – إخضاع النص القرآني لقواعد الإعراب ولا لضوابط البلاغة فهو يند عن ضوابط هذا وذاك، لأنه أعلى من النحو، وأشرف من الإعراب وأسمى من تحريجات النحاة، لأنه فريد نسجه في الكلام وخارق لعادة البلاغة"⁴³.

بحسب أوجه الإعجاز قسمنا البحث إلى عنا ر أربعة:

الإعجاز الغيبي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي، الإعجاز البلاغي الأسلوبي (البياني) الذي لا تخلو منه آية في كتاب الله.

الإعجاز الغيبي: ومن الآيات التي تم اختيارها في ذلك:

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ ءَادِقِينَ، فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} ⁴⁴.

أولاً: أ ل المعنى "وَلَنْ تَفْعَلُوا" الله سبحانه يخاطب الناس، يقول لهم: لن تقدروا في المستقبل أيضاً كما هو في الحاضر على الإتيان بمثل القرآن الكريم.

ثانياً: شبكة المفردات اللغوية: إن التركيب اللغوي سهل بسيط، ألفاظه ومعانيه في متناول القارئ، غير أنه يمكن التساؤل عن: لم عبر الله تعالى بالفعل لا بالإتيان؟ لنحاول الإجابة عن ذلك في مستوى الدراسة الأسلوبية.

ثالثاً: شبكة التراكيب النحوية: ونعني بها المعاني الناشئة عن التراكيب السطحية بصرف النظر عن خصو ياتها البلاغية.

"لَنْ تَفْعَلُوا" به ثلاثة مقومات، وسط (أساس) و طرفان سابقة ولا حقة.

الوسط الفعل (فعل) أضيفت له التاء (تفعل) لتخرج من دائرة الصيغة الأ ل إلى مصطلح (المضارع) وليلد على المخاطب فالتاء تحمل دالتين المضارع لأنها من حروف

(أنيت)، ودلالة المخاطب، فالهمزة للمتكلم، والياء للغائب، والتاء للمخاطب.

واللاحقة (الواو) والتي أخلصت الفعل لجماعة المخاطبين.

أما السابقة فهو مقوم (لن) من حروف النفي، يدخل على المضارع فينقله من الرفع إلى النصب، وهنا (تفعلوا) منصوب بحذف النون.

فالتركيب الاعتراضي جاء في شكل جملة فعلية مضارعية.

منفية = أداة نفي "لن" + فعل مضارع "يفعل" + فاعل "واو الجماعة"، والمفعول محذوف. في كل هذا يمكن أن نقف على إشكاليات لنجيب عنها في الشبكة اللاحقة وفي الدراسة الأسلوبية.

رابعا: شبكة التراكيب البلاغية: لتخير منها الوجوه المعنوية، ولا غرو في ذلك إذ هي امتداد للشبكة النحوية، ذلك أن التراكيب النحوية قد تكون وحدها كافية للدلالة على المزايا الفنية، وما يدرس في بعض أبواب علم المعاني هو في الحقيقة دراسة نحوية⁴⁵.

"وَلَنْ تَفْعَلُوا" خبر منفي غرضه تأكيد التقرير، وهنا لا بد من ربط الجملة الاعتراضية بالسياق، فهي جملة اعتراضية بين الشرط: "فإن لم تفعلوا" وبين جزائه "فاتقوا النار...". ولن تنفي المضارع نفيا مؤكدا وتخلصه للاستقبال⁴⁶ والآية هنا مقصودة لذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن. فالجملة المعترضة إذا واردة في سياق التحدي.

إن الله تعالى يدعوهم أن يستعينوا بمن شاءوا، فقد جاءت الإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل: {لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}⁴⁷ وظهيرا أي معينا، جاء في مختصر ابن كثير: "تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و"لن" لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبدا، وهذا أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر -سبحانه- خبرا جازما قاطعا، غير قاف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الدهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا..."⁴⁸

فالغرض من التركيب الاعتراضي: التحدي، والاستفزاز، إلى جانب التقرير والتأكيد. فانظر كيف اجتمعت كل الأغراض في هذا التركيب القصير.

خامساً: شبكة الدراسات الأسلوبية: وما الدراسة الأسلوبية إلا امتداد للدراسة البلاغية وتعميق لها على سبيل الشمولية في اكتشاف الجمالية والفنية، وفيها تتجلى لنا نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

"وَلَنْ تَفْعَلُوا" أسلوبية التركيب الاعتراضي نحللها بالتركيز على عنصرين أساسيين في الأسلوب: الاختيار والانزياح دون مراعاة للترتيب في ذلك.

إن المستقري لجملة الاعتراض يجد أن الله قد اطفى "لن" دون "لا" مثلاً، وأول ما يمكن أن يقال على مستوى الدلالة أن: لن مقطع متوسط مقفل على عكس لا مقطع متوسط مفتوح، والمقطع المتوسط المقفول يدل على التوقف والعجز وذلك مراد.

ثم إن قوله: لن تفعلوا، ليس كقوله لا تفعلون، حذف وإثبات للنون والحذف فيه أحياناً معنى العجز والقصر. ذلك ما نجد في حذف المفعول على الرغم من أنه جاء في كثير من آي القرآن محذوفاً لوجود ما يدل عليه .

جاء في التحرير والتنوير: "لم تفعل ذلك... وهذا حذف شائع في كلامهم - أي العرب - فيقولون: فإن فعلت، أو فإن لم تفعل..."⁴⁹.

والتعبير الاعتراضي جاء فاملاً بين الشرط "فإن لم تفعلوا" فعبّر الحق سبحانه بإن دون إذا، وإن شأنا في الكلام عدم اليقين بوقوع الشرط، مع أن عدم فعلهم هو الأرجح بقرينه مقام التحدي والتعجيز وذلك ما عبرت عنه فعلاً الجملة الاعتراضية "لن تفعلوا"، "لأن القصد إظهار هذا الشرط في ورة النادر مبالغه في توفير دواعيهم على المعارضة بطريق الملاينة والتحريض"⁵⁰.

ثم إننا نقول: إن حرف الشرط "إن" للتردد فقطع هذا التردد بالجملة الاعتراضية المؤكدة للمستقبل.

ورد التعبير "تفعلوا"، دون "تأتوا"، لمناسبة فأتوا بسورة...، ذلك أن الفعل باستعمال الوسائل الممكنة المعتادة على اختلاف الإتيان.

ثم إن في لفظ تفعلوا من الإيجاز ما ليس في لفظ لن تأتوا، يقول في تفسير النسفي: "عبر عن الإتيان بالفعل لأنه من الأفعال، والفائدة فيه أنه جرى مجرى الكتابة التي تعطيك

اختصاراً...⁵¹.

فتأمل معنا الآن الآية في الجملة الاعتراضية وما حدث فيها من اختيار وانزياح:

مقوم "لن" عدول بـ: "لن" بدل "لا"، يقول صاحب الكشف: "لا ولن أختان في نفي المستقبل إلا أن في "لن" توكيدا وتشديدا، تقول لصاحبك لا أقيم غدا فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غدا"⁵².

"لن تفعلوا" عدول عن الإثبات إلى النفي، وذلك مقصود بذاته.

عدول عن المؤقت إلى التأييد، "تفعلوا" فعل مضارع للحاضر خصصته لن للمستقبل المتجدد (المؤبد).

عدول عن المعلوم إلى المجهول، لم يأتوا بمثل القرآن ومعلوم ولن يأتوا وهنا مجهول ومتجدد.

عدول عن الزمكانية إلى سلب هذه الزمكانية التي تكون في الفعل والاسم، فالفعل يتجاوز الأزمنة التي قررها النحاة والفاعل يتجاوز ذلك أيضا ويتجاوز المكان.

عدول عن المفرد إلى الجمع، فالكل جن وإنس عاجز عن الإتيان بمثل القرآن.

عدول عن الحركة إلى السكون المتمثل في الاستسلام والإيمان بالقرآن من عند الله وليس لكائن أن يأتي بمثله.

عدول عن الإخفاء إلى الظهور، ذلك ما يأتي تحت السطور، ومن مقامات التخلية والتحلية والاستجلاء والكشف.

عدول على مستوى الغرض البلاغي، تحد مطلق لبيان العجز التام وإظهار القدرة المطلقة.

جاء في النيبا العظيم: "... فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: "ولن تفعلوا" ثم هددهم بالنار ثم سواهم بالحجارة، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما حتموا عن منافسته ... وقد أبا منهم موضع عزهم وفخرهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلما يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طول شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"⁵³.

التركيب الاعتراضي "ولن تفعلوا" من أكبر المعجزات في القرآن، معجزة من وجوه منها:

- (1) أثبت أن القرآن الكريم لن يعارض، ودلت على إثبات النبوة.
- (2) معجزة من نوع الإخبار عن الغيب، مستمر على تعاقب السنين.
- (3) لا يخفي على ذي لب ما فيها من إعجاز لغوي بياني.

فلا غرو أن تلقى الرافي يقول: "... ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما يُنفخ الرماح الهامد، فقال: " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة ... فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار..."، فقطع لهم لن تفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من عند الله، ولا يقولها عربي من العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا"⁵⁴، وجاء في الجامع لأعراب القرآن: "ولن تفعلوا" جملة معترضة بين الشرط وجزأيه فيها نوع من الإعجاز، ودليل على إثبات النبوة، لما فيها من إخبار بغيب لا يعلمه إلا الله..."⁵⁵، لأن قال الشواء فيها نوع من الإعجاز، نقول بل فيها كل الإعجاز. علما بأن هذا التحدي، يمثل أقل من 1 % من القرآن باعتبار أن القرآن يحتوي على 114 سورة⁵⁶. أبعده هذا شك في إعجاز هذه الآيات الشريفة!؟

يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} ⁵⁷.

أولاً: أ ل المعنى: أي أن مغفرة الذنوب والمواخاة عليها تقتصر على الله وحده دون سواه وهو متصف بذلك، ومن أسمائه الحسنى الغفار، بصفة المبالغة الدالة على الكمال.

ثانياً: شبكة المفردات اللغوية: السجل اللغوي للتركيب الاعتراضي يمكن رده إلى متعارف الأوساط، وهذه المفردات وإن كانت في ظاهرها بسيطة إلا أنها من النوع الذي يسبق فيه "اللفظ المعنى والمعنى اللفظ" فقد يتمثل القارئ المعنى العام حتى وإن خفيت عنه جوانب منه، وهكذا يتشكل المعنى في ذهن القارئ ابتداء من المقوم الأول حتى إذا كان هو ذاته مصاب بالغموض كما هو الشأن في "من"، والتي لا يتجلى معناها إلا بشيء من التأمل والعمق، وبخاتمة حينما تعاضدت مع الاستثناء، وهذا دور الشبكة الموالية.

ثالثاً: شبكة التراكييب النحوية: "وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ" جملة اسمية "من" مبتدأ، خبره الجملة الفعلية يغفر الذنوب الله. وبهذا وجدنا التركيب الخبري الفعلي فيه تقديم للمفعول على الفاعل، أي يغفر الله الذنوب. ولكن كيف يتلاءم الاستفهام مع الاستثناء، والمستثنى يكون منصوباً على الاستثناء فكيف جاء هنا مرفوعاً. تلکم ما تتكشف في شبكة التراكييب البلاغية والدراسة الأسلوبية.

رابعاً: شبكة التراكييب البلاغية: "وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ"، "من" اسم للعاقل أشرب معنى النفي، فتصبح الجملة: "لا يغفر الذنوب إلا الله" أي أننا أمام استثناء مفرغ تكون فيه أداة الاستثناء ملغاة، وبهذا تنتقل من الاستثناء إلى أسلوب القصر طريقة النفي والاستثناء، تحقق بالدالين المتقطعين لا وإلا، فغفران الذنوب لا يكون إلا من الله، فمة خاصة بالله سبحانه، ومن اسم الاستفهام هي المستعملة عادة في التركيب القصري مع إلا وهي التي أشربت معنى النفي.

هكذا فإن الجملة الاعتراضية "وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ" جاءت في أسلوب القصر.

وأبلغ ما في القصر أنه نفي وإثبات في الوقت نفسه، وأمل الجملة يغفر الله الذنوب، في هذا التركيب الاحتمالي يغفر الله الذنوب، ويمكن لغيره أن يتصف بذلك، ولما حصر الفعل في الفاعل قدم المفعول، أي لا يغفرها أحد سواه⁵⁸.

خامساً: شبكة الدراسة الأسلوبية: ذلك أننا نتجاوز التركيب الاعتراضي "وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ" إلى السياق، هذه الجملة جاءت معترضة بين المتعاطفين، بين فاستغفروا لذنوبهم وبين لم يصروا، أي أن الاعتراض جاء في سياق المبادرة بالتوبة والرجوع إلى الله مالك الصفح والعفو.

والتركيب الاعتراضي جاء في ثوب إنشاء (استفهام) ولكنه في جوهره خبر ذلك أول تنبيه على مستوى الخطية الأفقية. وفيه تطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبیان أن الذنوب وإن جلت، فإن عفو الله أجل ورحمته أوسع.

هذه الجملة اسمية تدل على الثبوت دلالة على أن الله تعالى يغفر الذنوب دوما تفرعت عن الجملة الاسمية جملة فعلية "يغفر الذنوب" للدلالة على تجديد المغفرة وأن باب التوبة مفتوح، فكلما أذنب العبد وآب إلى ربه وجده غفورا رحيمًا، جاء في الظلال: "إن الله -

سبحانه- لا يدعو الناس إلى السماح في ما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماته - سبحانه وتعالى - معهم ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا"⁵⁹، فما أحوجا إلى هذه المعاني!

فالتركيب الاعتراضي جاء ليأخذ بيد المذنب ويدله على طريق النجاة، يعيد له الأمل، وهو عطف من الخالق العليم ليحلق بالإنسان إلى الأفق من جديد وليأخذ بيده إلى مراقي الصعود.

ويمثل لذلك سيد قطب بقوله: "إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط لا سواء - في الدار - سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا، فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره، حين يستغفر من الخطيئة... فإنه سيعود"⁶⁰.

إنه منهج تربوي ساقه لنا الله من خلال هذه الآيات والتي نحسب أن التركيب الاعتراضي بؤرة ذلك.

ومما وجدناه في الجملة الاعتراضية هذا الاختيار والعدول: عدول عن لا إلى من، ذلك أن لا كما أسلفنا مقطع طويل مفتوح، ومن مقطع قصير مغلق والحال أن التوبة ندم ورجوع وتوقف عن اقتراف الذنوب، ثم إن اعتماد من لتكون بداية الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، هذا الثبوت يمتزج بالتجدد فالمغفرة ثابتة لله سبحانه وحده وباب التوبة مفتوح، كما أن من وتبها متوسطان بين الشدة والرخاوة ويجمع بينهما أن مجرى الهواء مع كل من الميم والنون هو التجويف الأنفي وحده⁶¹ (وجود غنة). هذا التوسط تأخذ منه الجملة في دلالتها، وبخانة العذوبة والخفة على مستوى الإيقاع دلالة على الترغيب هذا ما لا يوجد في "لا" وبخانة حينما تقترن بالياء قراءة.

وأن من يتأمل التركيب الاعتراضي يلقي ذلك الإيجاز البليغ: "وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ" كبنية سطحية نجد البنية العميقة "يغفر الذنوب الله" وهذا معناه: يغفر الذنوب الله لا يغفر الذنوب غير الله. الجملتان عبرت عنهما الجملة الاعتراضية بهذا القصر. أضف إلى ذلك: "وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ" بهذا حذف وهو: العدول عن الإضافة يشير إلى الذات المذنبية: أي "ومن يغفر ذنوب المذنبين إلا الله. نرى في التعبير بالذنوب دلالة على غفران كل الذنوب على مستوى الكم والنوع إلا ما استثنته الآية: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ

مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ⁶²، ذلك فضل من الله لعباده. وفيه دلالة على أن الغفران يشمل كل من أذنب دون استثناء، وذلك في إطار سياق الآية: أي المتقين، وقد عبر على ذلك ابن عاشور، يقول: "... إذا كان عطف فريق آخر، فهم غير المتقين الكاملين، بل هم فريق من المتقين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وإن كان عطف فئات، فهو تفصيل آخر لحال المتقين بأن ذكر أولاً حال كمالمهم، وذكر بعده حال تداركهم ونقائصهم"⁶³.

ففي التركيب إعجاز:

- غيبي إذ ليس بوسع أحد أن يقرر غفرانه للذنوب، ما عدا الله سبحانه.

- أسلوبي لما رأينا فيه من عدول واختيار وإيجاز على الرغم من قصره، وما فيه من تربية بالحث على مبادرة العباد إلى استغفار الله عقب الذنب إلى جانب ذلك به تعريض للمشركين الذين يتخذون أنامهم شفعاء لهم عند الله، وبالنصارى في زعمهم أن عيسى عليه السلام رفع الخطايا عن بني آدم ببليّة لبيه، وألفينا في وقتنا هذا من يوزع كوك الغفران.

كما وجدنا مثل هذا الإعجاز الغيبي متناثراً في النص القرآني نذكر من ذلك:

{الْم، غَلَبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}⁶⁴.

اشتمل النص على خبرين خطرين:⁶⁵

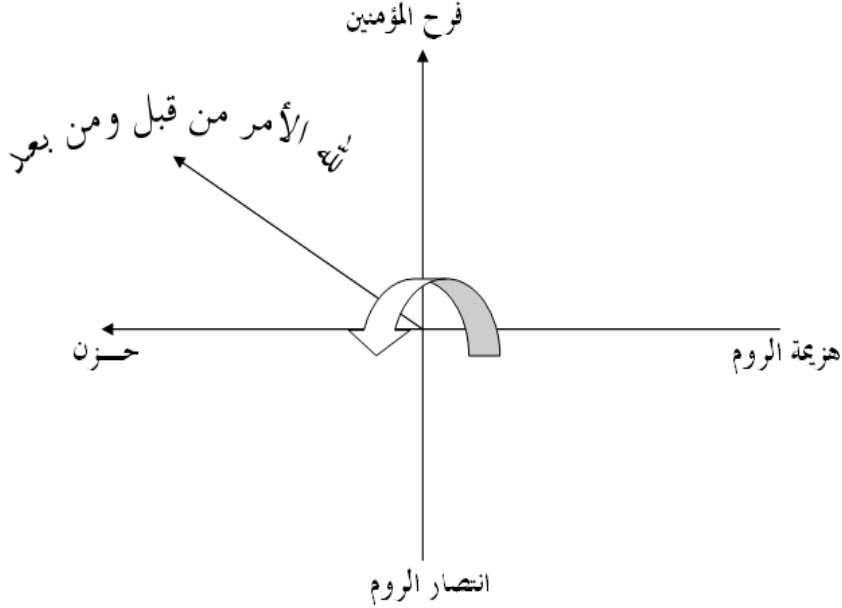
(1) انتصار الروم على الفرس في فترة وجيزة جداً بالنسبة لتغير ميزان القوة بين الدول، ولا سيما في ذلك العصر، وقد تحقق ذلك في سبع سنين .

(2) احتقان ذلك بتغير ميزان القوة لمصلحة المسلمين وانتصارهم على المشركين في موقعة بدر الكبرى، فرح المؤمنون بنصر الله لهم، كما فرحوا بنصر الروم، وهم أهل كتاب على الفرس عبدة النار والألنام.

فأخبر القرآن عن عودة النصر للروم بعد هزيمتهم قبل حدوث هذا النصر، وهذا يدخل في النبوءات التاريخية⁶⁶، فهي في الغيب الذي لا يعلمه إلا خالق الكون سبحانه ذلك ما أثبتته الجملة الاعتراضية: "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ" ذلك التركيب القصري،

فالنصر من الله وحده لا غيره. في السابق واللاحق على امتداد الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك ما يؤكد التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، فما أوجنا اليوم إلى هذه الثقة بالله، بل إلى العمل لنكون أهلاً لهذه الثقة وللنصر على الأعداء المتربصين بنا في كل مكان، إذ لم يكن نصراً استحقاقياً، يكون نصراً تفضلياً.

يمكن أن تمثل هذه الآية الكريمة لتبين أن محوراً ومركز الثقل فيها الجملة الاعتراضية:



تنبأ القرآن بنصر الروم منذ سبع سنين قبل حدوثه، فحدث، ذلك لأن الأمر كله لله وحده.

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْتَى وَيُزَكِّي أَيْتَهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ⁶⁷.

"وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" جملة اعتراضية بين المتعاطفين، مكونة من مبتدأ وخبر، وهناك بعض العلاقات السياقية في الجملة الشريفة المتصلة بالتركيب النحوي: فإن "ما" اسم مؤول مفعول به لاسم الفاعل، والاسم المؤول يتطلب لمة، جاءت هنا مكونة من "كان واسمها وخبرها" كنتم تكتُمون، والتعبير "ما" للدلالة على العموم كل ما كنتم وتكتُمون حالا ومستقبلاً وأياً كان المكتوم، ثم عدل عن الفعل إلى اسم الفاعل للفاعلية والتجدد وقطع الزمنية ففقدرة الله لا يحدها زمن ولا مكان.

وفائدة الجملة الاعتراضية التقرير في نفوس السامعين بأن تدافع بني إسرائيل في قتل النفس ومحاولة إخفاء القاتل ليس بنافع لهم⁶⁸، لأن الله تعالى مظهره وكاشفه وذلك حصر على الله، لأن تقدم المعمول "الله" على عامله الجملة الفعلية معناه الله مخرج لا غيره. سبحانه لا تخفاه خافية، وهذا إكراماً لموسى عليه السلام ورحمة بالأمة لئلا لا تضل. لنتقي الله ونعتبر. الجملة الاعتراضية تدل على سعة علم الله مهما خفيت الأشياء ودقت، وقيمة الاعتراض لم تظهر من خلال الموضوع فقط (الإعجاز الغيبي)، وإنما ظهرت كذلك من النظم الذي جاءت عليه الجملة حيث مدرت بلفظ ليشعر أنه تعالى محيط بكل الأمور ومطلع على كل شيء "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، فسبحان من أحى الميت ببعض الميت.

حسبنا في الإعجاز الغيبي ولنطرق بقية عنا ر الإعجاز في بحث آخر تال إن شاء الله تعالى.

خاتمة:

من النتائج التي وقفنا عليها في موضوعنا هذا نذكر:

– الجملة الاعتراضية طالت موضوعات النص الشريف ومقام الشرع وبخانة ما يتعلق بأمور العقيدة.

– الجملة الاعتراضية تجلت بنسبة لافتة في موضوعات العقيدة، ذلك أن العقيدة تحتاج إلى شيء من الترسخ والتثبيت.

– الجملة الاعتراضية تأتي للتأكيد والتقرير ولها أغراض أخرى يقررها السياق، تدرك بالدوق الرفيع.

– الجملة الاعتراضية تغيير عدولي يطرأ على الجملة لنكتة، وبدونها لا تظهر هذه الفائدة.

– الجملة الاعتراضية تمنح النص الشريف كثيراً من عنا ر قوته كناحية معنوية إعجازية، ففي اللحظة التي يتم فيها تدخل الجملة الاعتراضية يرتقي النص إلى أعلى درجات القوة، ويحذفها يخسر النص الكثير من قوته، وما كان لها أن ترد إلا بهذه القوة التي أرادها الله لها.

– الجملة الاعتراضية أسهمت بشكل لافت في إبراز الإعجاز ، بخانة منه الغيبي.

الهوامش

- ¹ معجم العين، الخليل، (مادة عرض)، ص: 271/1-272، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، د.ط، دار مكتبة الهلال.
- ² مختار الصحاح، الرازي، (مادة عرض)، ص: 425، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. 1981/1401.
- ³ سان العرب، ابن منظور، ص: 165/7، ط: 03، (مادة عرض)، د.ط، دار مادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2004 .
- ⁴ نفسه، ص: 165/7، وينظر الإمام البخاري، ص: 157-159، رقم الحديث: 687، المكتبة الثقافية بيروت.
- ⁵ ينظر، المعجم الوجيز، ص: 410، (مادة عرض)، د.ط، مجمع اللغة العربية، القاهرة .
- ⁶ الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، شرح وتعليق : خفاجي، د.ط، دار الكتاب لبنان، 1998، ص: 214/3.
- ⁷ البيان في روائع القرآن، تمام حسان، ص: 116-115/1، ط: 01، 1993/1413، عالم الكتب، القاهرة.
- ⁸ المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، ص: 148-149، تح: علال الغازي، ط: 01، 1980/1401، مكتبة المعارف الرياض.
- ⁹ مراجعات في أول درس البلاغي، محمد محمد أبو موسى، ص: 127، ط: 01، 2005/1426، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ¹⁰ جدلية الأفراد والتركيب، محمد عبد المطلب، ص: 167، ط: 01، 1995، شركة لو نجمان، المصرية العالمية، للنشر.
- ¹¹ النحو العربي (شواهد ومقدمات)، أحمد ماهر البقري، ص: 161-162، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988.
- ¹² الاعتراض في القرآن الكريم، سلامة جمعة، ص: 03-04، (رسالة ماجستير)، جامعة الأزهر، 1993/1413.
- ¹³ ينظر، فن البلاغة، عبد القادر حسين، ص: 179 وما بعدها، د.ط، عالم الكتب، القاهرة.
- ¹⁴ ينظر، من أسرار البلاغة في القرآن، محمود السيد شيخون، ص: 04 و 18، سلسلة إسلاميات، العدد: 86، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة.
- ¹⁵ ينظر، مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، ص: 225، ط: 01، 1999/1419، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- ¹⁶ جدلية الأفراد والتركيب، سابق، ص: 165 و 181 .

- ¹⁷ الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، ص: 289/1، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1957.
- ¹⁸ البيان في روائع القرآن، سابق، ص: 386 .
- ¹⁹ في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 212 وما بعدها، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984/1405.
- ²⁰ سورة العلق، الآية: من 01 إلى آخر السورة.
- ²¹ يرجع في هذا إلى كتب الإعجاز العلمي وبخامة ما تعلق بخلق الإنسان.
- ²² ينظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص: 44/30، د. ط، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- ²³ سورة الأنعام، الآية: 38
- ²⁴ ينظر فوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ص: 389/1، د.ط، د.ت، شركة الشهاب الجزائر.
- ²⁵ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: 206، ط: 2، 2006، مكتبة النافذة، القاهرة.
- ²⁶ سورة لقمان، الآية: 16
- ²⁷ سورة يس، الآية: 40
- ²⁸ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: 207، ط: 02، 2006، مكتبة النافذة، القاهرة.
- ²⁹ قضية الإعجاز العلمي (للقرآن وضوابط التعامل معها)، زغلول النجار، د. ص: 08، ط: 01، يناير 2006، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ³⁰ النقد الأدبي (دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، ملاح الدين عبد التواب، ص: 03 – 05، د.ط، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2003/1423.
- ³¹ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية وبيانية) بنت الشاطي (عائشة عبد الرحمن)، ص: 95، ط: 3، دار المعارف القاهرة.
- ³² سورة الأعراف، الآية: 52.
- ³³ عربية القرآن، عبد الصبور شاهين، ص: 83 – 84، ط: 1، 2006، مكتبة النافذة القاهرة.
- ³⁴ في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز (علميا وبيانيا)، نور الدين عتر، ص: 06، ط: 2، 1999/1420، مطبعة الصباح دمشق.
- ³⁵ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى مادي الرافعي، تح: عبد الله المنشاوي، ص: 281 – 282، ط: 01، مكتبة الإيمان، المنصورة، 1997/1417 .
- ³⁶ كلمة " ضيزى " والتي وردت في تركيب اعتراضى، لنقف عندها في التحليل من هذا الفصل.

- ³⁷ ينظر، التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص: 09، 36 و58، ط: 10، 2004/1425، دار الشروق القاهرة.
- ³⁸ ينظر، علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص: 209، ط: 06، 1997/1416، مطبعة الصباح، دمشق.
- ³⁹ سورة هود، الآية: 42.
- ⁴⁰ سورة البقرة، الآية: 19.
- ⁴¹ ينظر، فك الإسرار في شعر الهزار، محمد الصغير بناني، د. ص: 12، د.ط، مركز البحث والإعلام، الجزائر، 1996.
- ⁴² مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 176، تح: أكرم عثمان يوسف، ط: 01، 1982، مطبعة الرسالة.
- ⁴³ نظام الخطاب القرآني (تحليل سيميائي مركب سورة الرحمن)، عبد المالك مرتاض، د. ص: 32، د.ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2001
- ⁴⁴ سورة البقرة، الآية: 23، 24.
- ⁴⁵ فك الإسرار في شعر الهزار، محمد الصغير بناني، ص: 24، د.ط، مركز البحث في الإعلام، الجزائر، 1996.
- ⁴⁶ ينظر، الجملة العربية والمعنى، الخ فاضل السمرائي، د. ص: 244، ط: 01، 2000/1421، دار ابن حزم للطباعة، بيروت، لبنان .
- ⁴⁷ سورة الإسراء، الآية: 88.
- ⁴⁸ ينظر، مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، ص 41/1، د.ط، دار القرآن الكريم، بيروت، 1982/1402.
- ⁴⁹ ينظر، تفسير التحرير والتنوير، سابق، ص: 342/1 و 261/6.
- ⁵⁰ نفسه، ص: 342/1 .
- ⁵¹ ينظر، تفسير النسفي، الإمام النسفي، ص: 802/1، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982/1402.
- ⁵² تفسير الكشاف، الزمخشري، ص: 248/1، د.ط، د. ت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- ⁵³ النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، محمد عبد الله دراز، د. ص: 85، د.ط، دار القلم الكويتية، 1984/1404.
- ⁵⁴ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص: 169، تح: عبد الله المنشاوي، ط: 01، 1997/1417، مكتبة الإيمان، المنصورة.
- ⁵⁵ الجامع لإعراب جمل القرآن، أيمن الشواء، ص: 56، ط: 01، 2000/1421، دار الفحاء، بيروت.
- ⁵⁶ ينظر، القرآن معجزة الإسلام (دراسات حول القرآن)، مصطفى ثابت، ص: 20، ط: 1، 2006، مكتبة النافذة، القاهرة.

- ⁵⁷ سورة آل عمران، الآية: 135.
- ⁵⁸ ينظر، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص: 119/2، ط: 6، 1984/1404، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- ⁵⁹ في ظلال القرآن، سيد قطب، ص: 476/1، د.ط، دار الشرق، بيروت، 1976/1393.
- ⁶⁰ في ظلال القرآن، سابق، ص 476.
- ⁶¹ ينظر، الأوقات اللغوية، إبراهيم أنيس، د. ص: 58-66، ط: 04، 1999، مكتبة الأنجلو المصرية.
- ⁶² سورة النساء، الآية: 48.
- ⁶³ ينظر تفسير التحرير والتنوير، سابق، ص: 92/4.
- ⁶⁴ سورة الروم، من الآية: 1-4.
- ⁶⁵ ينظر، علوم القرآن، ص: 216.
- ⁶⁶ ينظر، البرهان على صدق تنزيل القرآن، د. نبيل عبد السلام هارون، ص: 145، ط: 02، 1994/1415، دار النشر للجامعات، القاهرة.
- ⁶⁷ سورة البقرة، الآية: 72-73.
- ⁶⁸ ينظر، الكشف، سابق، ص: 279/1 و ص: 17/2، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان، ص: 269/1، د.ط، مطبعة السعادة، مصر، 1329، والدر، ص: 435/1. وينظر المثل السائر، ابن الأثير، ص: 186/2، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط: 02، 1995/1416، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص: 59/3، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 02، 1957، مطبعة البايي الحلبي.

نحو النص من الجذور التراثية إلى الأفق المعاصرة

عبد العليم بوفاتح

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عمار ثليجي - الأغواط

تقديم:

مما هو جدير بالملاحظة في مجال الدراسات اللغوية العربية على العموم، والنحوية منها على الخصوص، أنّ هذه الدراسات ما زالت لم تحقق الغاية المنشودة ولم تؤدّ الدور المنتظر منها، إذ بقي فريق من الباحثين متمسكاً بالدراسات العربية القديمة من غير سعي إلى تطويرها واستثمارها، ونحنا الفريق الآخر منحى بعيداً عن روح العربية، فغدا متأثراً بما يفد من إملاءات الغرب - من غير نظر أو تمحيص - وبين هذه الحال وتلك، حاد كلا الفريقين عن النهج القويم، وتفرقت جهود الجميع وتضاربت في كثير من الأحيان من غير أن تحقق النتائج المرجوة منها من خلال توحيد هذه الجهود بما يضمن لها الفاعلية والاستمرار... وهذا على عكس ما نرى في الدراسات الأخرى غير العربية من تعاون وتكامل بين جهود الباحثين مع استغلال ما أثمرته من نتائج.

ومن جهة أخرى ذهب دارسو الأدب مذاهب شتى عزف أكثرها عن المسلك اللغوي عموماً، ومنه النحو على الخصوص، وظنّ أصحاب هذا الاتجاه أنّ الدراسة النحوية لا تعنيهم في فهم النصوص الأدبية وتحليل معانيها وتفكيك شفراتها الدلالية. ومع هذا العزوف تأثرت الدراسات الأدبية والنقدية العربية الحديثة بما أنتجته القرائح الغربية، بدءاً بالافتتان بالمصطلح الذي كثر حوله الاختلاف وتباينت حوله الرؤى، فكان ذلك عائقاً حقيقياً حال دون التقدم في هذه الدراسات...

وإذا كانت الحال على ما ذكرنا، فإنّ التفكير في توحيد الجهود اللغوية العربية الحديثة

بات أمراً ضرورياً إذا أُريدَ لها الإثمار والاستمرار، على أن تقوم الدراسات الحديثة على ما يخر به تراثنا الثري من المنطلقات التأسيسية التي تضمن فاعلية هذه الدراسات وتوحيدها وتكاملها، بما يحقق النتائج المتوخاة منها، بدلاً من توسيع هوة الاختلاف نتيجة تشعب الروافد والتيارات المختلفة التي أصبحت مرجع الدارسين، وأدّت إلى تفريق هذه الجهود وتبديدها.

مفهوم النحو وأهميته في بناء النص:

لعل من الجدير أن نقدّم مفهوماً للنحو على النهج الذي أردنا أن نسلكه في بيان فكرة إثبات طبيعة التكامل القائم بين النحو والأسلوبية في دراسة النص وتحليله، أو على الأقل ما ينبغي أن يتحقق من التكامل بينهما، محاولين أن نثبت تلك السمات الأسلوبية التي عُرفت لدى نخبة العربية الأوائل، أو لنقل تلك السمات النحوية التي تلقفها البلاغيون من النحاة وبنوا عليها منهجهم الفني في التحليل.. وبعد ذلك نقوم بإبراز المسالك التي ترتقي بالنحو إلى آفاق الأسلوبية الحديثة، في سبيل أن نجعل من النحو أداة فاعلة في تحريك النص من الداخل، متجاوزين بذلك نحو الجملة إلى آفاق أرحب تتمثل فيما يسمّى نحو النص.

ونستأنس في تعريفنا للنحو هنا بما قاله ابن جني في عبارته الشافية من أنّه "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالثنائية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها . وهو في الأصل مصدر شائع، أي: نحوت نحواً: كقولك: قصدت قصداً، ثم خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم."⁽¹⁾

فالنحو على رأي ابن جني هو الكلام الصحيح السليم من اللحن، على طريقة العرب وسجيتهم. وهو في نظره يعلم المستعربين ليكونوا مثل العرب في الفصاحة والبلاغة. وقد شمل تعريف ابن جني للنحو عدة فروع من علوم العربية كالدراسة الصرفية والدراسة الصوتية والدراسة التركيبية، وغيرها...

وفي إشارة ابن جني إلى الفصاحة والتركيب ما يدل على أنّ النحو عنده ليس مجرد الإعراب الذي تمثله الحركات، ولا هو مجرد قواعد وقوانين ينبغي تطبيقها. وإنما هو الإعراب الذي يتصل بالمعاني والأغراض الكامنة وراء مختلف التراكيب. وعليه فإنّ الفصاحة عنده هنا تعني البلاغة بما تحمله من أساليب تعبيرية تتميز بها العربية. وهذه إشارة منه إلى أهمية النحو

في الدراسة التركيبية التي تتجاوز حدود القواعد إلى تناول مختلف الأنماط الأسلوبية وما يترتب عليها من المعاني والدلالات.

ولا شك أنّ النظرة العميقة التي نفذت أكثر إلى حقيقة النحو هي تلك التي خرج بها الجرجاني في نظرية النظم عنده، إذ أحاط بحقيقة هذا الفن، ونظر إليه نظرة حديثة في زمنه القديم عندما أكد " أن نظم الكلام يقتضي فيه آثار المعاني وترتيبها حسب ترتب المعاني في النفس وليس النظم في مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو.... فلا معنى للنظم غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم... والفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة مجردة عن معاني النحو، أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوحيها فيها."⁽²⁾

فالنحو على هذا هو نظم تنسجم فيه الكلمات على مستوى التراكيب، بحيث لا تُعرف إلا من خلالها، وذلك وفق نظام محكم لتأليف جمل ذات معان تعبر عن مراد المتكلم وتبلغ فكرته كاملة إلى السامع وفق سياقات معينة ومواقف متغيرة تحيط بعملية التخاطب. ذلك أنّ "معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشتقاقي والصيغة التي صيغت بها لا تكفي غالبا لتحديد معناها تحديدا تاما دقيقا... ولهذا كان للسياق قيمة في تحديد المعاني وفهم الكلام."⁽³⁾

وانطلاقا من هذا الانسجام والتكامل بين التراكيب يتم الوصول إلى البنية الكلية للنص، وتلك هي الغاية من الدراسة المتكاملة التي يكون للنحو فيها حظّ الأوفر، إذ يتحول من المستوى الأول، وهو مستوى الصحة والسلامة، إلى مستوى أرقى منه يتمثل في المستوى الفني الذي يترتب على ما يطرأ على الكلام من ظواهر نحوية تكون أساساً ومنطلقاً للدراسة على المستوى الثاني.

نخلص ممّا سبق إلى أنّ النحو هو "دراسة العلاقات التي تربط بين الكلمات في الجملة الواحدة وبيان وظائفها، وهو لبّ الدراسات اللغوية على اعتبار أنه قلب الأنظمة اللغوية جميعها فهو الذي يصل بين الأصوات والمعاني. والنحو أكثر ملامح اللغة نبضا بالحياة. وهو من الوسائل التي لولاها لما استطاع البشر التفاهم أبدا، بل هو القوة المحركة التي تسمح لنا بالتكلم وفهم مئات الجمل الجديدة كل يوم، والتي لم نسمعها من قبل، فالنحو وسيلة نحو التفسير النهائي لتعقيدات التركيب اللغوي... وله دور كبير في توضيح النص وتفسيره وإنارته. والنحو - كما قد يظن كثير من الناس - ليس هو الإعراب، وإنّما هو معنى عام يشمل كل

ماله صلة بالتركيب شكلاً أو مضموناً...⁽⁴⁾

وإذا كان النحو شبكة من العلاقات بين وحدات التركيب فإن النص يمثل شبكة أكبر من التركيب المتواشجة بوساطة المعاني التي تحكمها. وقد حظيت الدراسة التركيبية بعناية علماء العربية من نخبة وبلاغيين ومفسرين وغيرهم إذ "ليس الغرض من الوضع إفادة المعاني المفردة بل الغرض إفادة المركبات والنسب بين المفردات كالفاعلية والمفعولية وغيرها..."⁽⁵⁾

وما دامت المعاني هي المرجع في الدراسة النحوية فإن الإعراب لا يمكن أن يكون -كما يعتقد البعض- مجرد "وسيلة تفكيك الجملة إلى قوالب وأجزاء ميتة لا حياة فيها... وإذا ما قرأنا ما يقوله بعض اللغويين العرب القدماء "الإعراب فرع المعنى" فإننا نرى أن على القارئ المغرب أو المحلل المفكك أن لا يبدأ بتحليل الجملة إلا بعد أن يعرف معناها... إذ إن الإعراب وسيلة من وسائل المعنى وخدام من خدمه."⁽⁶⁾ ذلك أن النظرة الصحيحة للإعراب يجب أن تكون من حيث كونه وسيلة للإفصاح عن المعاني والإيضاح للمقاصد. فهو يستمد مفهومه من معناه اللغوي المرادف للإبانة والوضوح، لا من ذلك المعنى الاصطلاحي الذي شاع لدى بعض النحاة المتأخرين.

إن النحو هو دراسة الجمل وتحليلها في مختلف اللغات قصد إيجاد نظام معين يندرج فيه استعمال هذه اللغة. والنحو "هو المحور الأساس في اللغة لمعرفة المعاني التي في الجمل ولمعرفة الأبواب التي تنتمي إليها الجمل أو تصنف فيها. ومهمة النحو أن يعطي مجموعة من القواعد الخاصة بالكلمة وارتباطها مع غيرها في الجملة وارتباط الجملة بغيرها من جمل النص اللغوي، مبنية على استقرار واسع للغة."⁽⁷⁾

ولقد أشار ابن جني إلى الدلالة النحوية من خلال كلامه عن الفرق بين رفع الفاعل ونائبه ونصب المفعول⁽⁸⁾ فبين ذلك انطلاقاً من موقع الكلمة داخل التركيب وما يوجد من علاقة بينها وبين غيرها من الكلمات المجاورة لها. فرفع الفاعل ناتج عن معنى الفاعلية وإسناد الفعل إليه. ومعنى النيابة عن الفاعلية ناتج عن وجود المرفوع بعد الفعل بالنيابة. والمراد بالنيابة هو أن نائب الفاعل أخذ موضع الفاعل لا معناه. فهي في الحقيقة نيابة موضوعية لا معنوية، لأن الإسناد - وهو قائم عن المعنى - لم يتم لنائب الفاعل، وإنما هو لفاعل غير مذكور في التركيب، سواء أكان معلوماً أم مجهولاً. ذلك أن نائب الفاعل هو مفعول به في المعنى إذا عدنا إلى أصل التركيب...

هذه هي النظرة التي تبعث النحو من جديد وتبث فيه الحياة، بدلاً من الركود الذي أصبح يعاني منه نتيجة الوقوف عند الحدود الأولى دون تجشّم البحث في سبل تطويره وتوسيع مجالاته فيتم الانتقال من نحو المفردات إلى نحو التراكيب فنحو النصوص، وتلك هي الغاية التي ننشدها.

دور البناء اللغوي في التحليل الأسلوبي:

تأخذ الأسلوبية الحديثة اتجاهات شتى، وتسلك مناهج متباينة في الدراسة، غير أنّ أبرز هذه الاتجاهات ذلك الذي يتناول دراسة الأسلوب وتحليله انطلاقاً من مبدأ الاختيار بين الإمكانيات اللغوية المختلفة، من غير اقتصار على المستوى اللفظي وحده، ولا اكتفاء بمستوى الجملة، وإنما يتجاوز تلك الحدود إلى مستوى النص، بما يزيد من توسيع هذا الاختيار. وهذه هي نقطة الالتقاء والتداخل، في آن واحد، بين اللسانيات والأسلوبية..

ويتعامل هذا النوع من التحليل الأسلوبي مع اللغة على مستوى النص، أي أنّه يتناول الأسلوب الأدبي الذي يتجاوز الأسلوب المباشر. فهو إذاً ينطلق من اللغة إلى الأدب ويمثل التحليل اللغوي للنص الأدبي. وهذا يدفعنا إلى طرح التساؤل الآتي: هل تُعدّ الأسلوبية من اللغة أم هي من الأدب؟

لقد أثّر جدل كبير بين علماء اللغة المعاصرين حول العلم الذي ينبغي أن ينتمي إليه علم الأسلوب: هل ينتمي إلى اللغة أم إلى نظرية الأدب؟ فرأى ويليك وورين أنّ علم الأسلوب إذا استخدم استخداماً أدبياً جَمالياً فهو فرع من الأدب، ورأى جيرو Guiraud أنّ لعلم الأسلوب فرعين بناءً على اختلاف وظيفته، وهما: علم الأسلوب اللغوي وعلم الأسلوب الأدبي؛ وخرج انكفست Enkvist بتسمية جديدة لعلم الأسلوب اللغوي، وهي: علم اللغة الأسلوبي، ودعا إلى تجاوز التحليلات الأسلوبية لعلم اللغة لتكون خطوة أولى على طريق الدراسة البنائية والأدبية والتاريخية للنص أو للغة، مبيناً أنّ الأسلوب نمط من أنماط التنوع اللغوي.⁽⁹⁾

فالدراسة الأسلوبية إذاً تقوم على جانبين: أحدهما لغوي والثاني أدبي. فهي تستعمل الوسائل اللغوية في دراسة الأدب. وهذا ما نجده مثلاً في الدراسة النحوية بجلاء من خلال علم المعاني الذي تجمع موضوعاته بين الطابع اللغوي النحوي والطابع الأدبي البلاغي... وعلى هذا فالأسلوبية من النحو كما أنّها من الأدب.

ومما يتميز به التحليل الأسلوبي أنه يأتي تابعا للنص، على عكس الأحكام النحوية والبلاغية التي تكون كالقوانين السابقة التي ينبغي أن يخضع لها النص. وعلى هذا فإن "النظرة إلى الأدب تختلف في المنظار الأسلوبي عنها في المنظار البلاغي. فالأسلوبيات تتعامل مع النص بعد أن يولد، فوجودها تال لوجود الأثر الأدبي، وهي لا تنطلق في بحثها من قوانين سابقة أو افتراضات جاهزة؛ كما أنه ليس من شأنها الحكم على قيمة العمل المنقود بالجوودة أو الرداءة.

أما البلاغة فتستند -في حكمها على النص- إلى معايير ومقاييس معينة، وهي من حيث النشأة موجودة قبل وجود العمل الأدبي في صورة مسلمات واشتراطات تهدف إلى تقويم الشكل الأدبي حتى يصل إلى غايته المرجوة ويبلغ به المنشئ ما يسعى إليه من إيصال الفكرة أو المعنى، والتأثير والإقناع وبث الجماليات في النص.⁽¹⁰⁾

ولكن التحليل الأسلوبي لا ينفصل عن النحو أو البلاغة، فهو يقوم على المرتكزات النحوية والبلاغية التي تعكسها لغة النص وبنية التركيبية وما تتضمنه من القيم الفنية. ذلك أن مكونات الأسلوب لا تعدو أن كونها مستمدة من اختيار الألفاظ وصياغة التراكيب وصناعة الصور الفنية من خلال كل شكل من الأشكال اللغوية المعروفة، بما يتلاءم مع الرؤى والظروف التي ينشأ فيها النص.

إن النظرية الأسلوبية يجب أن تكون مؤسسة تأسيساً دقيقاً، على اعتبار أنها نظرية لغوية متكاملة، كما يبدو لنا ذلك في مجال اللسانيات الحديثة التي تمثل الدراسة العلمية للغة، وهذه العلمية تتأتى لها من مبدأ تطبيق المناهج والمعطيات اللسانية على البحث الأسلوبي. ولكي نستطيع أن نتصور هذا التمازج بين النظريتين في التراث العربي لا بد أن نتصور العلاقة بين النحو والأسلوب. وهذا يتطلب منا أن ننطلق من مفهوم إيجابي موسع للنحو يرتبط بالسياقات والمقامات والمواقف التي يبني عليها شكل الخطاب. وبهذا نكون قد انطلقنا من النحو في فهم النص الأدبي.

فالأسلوبية إذاً منهج لغوي لتحليل النصوص الأدبية، وعلى هذا تكون وظيفة الأسلوبية هي وصف أدبية هذه النصوص وبيان خواصها الفنية وجمالياتها. لذا يمكن القول إنها تقف عند حدود التشخيص والوصف الفني للأثر المدروس، ولا تتجاوز حدود الوصف إلى الحكم على الأثر، كما نجد في النقد الأدبي. ومع ذلك فهي تلتقي مع البلاغة من جهة تحليل النصوص.

ومن جهة أخرى نجد أنّ الأسلوبية لا تنفذ إلى أغراض النص ومقاماته واستراتيجياته الخطائية على الطريقة التي نجدّها في المنهج التداولي... غير أنّ ثمة علاقة حتمية بين الأسلوبية والتداولية، على اعتبار أنّ كليهما يجعل من البلاغة مادته الخام التي يمتح منها... أمّا من حيث الأسبقية في التحليل فإنّ التحليل الأسلوبي هو السابق على التحليل التداولي...

ويمكن الكلام عن وجود أربعة مكونات أسلوبية هي: المكون اللفظي بجانبه الصوتي والدلالي؛ والمكون المعنوي الذي يمثل رؤية الكاتب الخاصة التي تضمنها نصه؛ والمكون التصوري الذي ينجم عن التركيب بما يثير الخيال ويبعث الفكر ويستثير الوجدان والعاطفة، وهو ما يعرف في النقد القديم بالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، وجمعها النقد الحديث تحت مصطلح (الصورة الفنية) وأما المكون الرابع فهو المكون التركيبي، وهو ما ينجم عن التركيب النصي للألفاظ والمعاني في بُعدها التوزيعي من تجاوزات للأصول اللغوية كالتقديم والتأخير والحذف، وما يتميز به التركيب من تشاكل وتناسب والتكرار، أو مخالفة كالاتفات، إذ تشكّل هذه المباحث أهم الظواهر التركيبية التي تجسد أشكال الانحرافات⁽¹¹⁾ الأسلوبية النوعية والكمية، وتكشف بنحو أو بآخر عن النظام الأسلوبي للغة النص.⁽¹²⁾ فما هذه المكونات في حقيقتها إلّا مكونات لغوية نحوية تنطلق من البنية التركيبية إلى البنية العامة للنص، وتلك غاية التحليل الأسلوبي.

ولقد قدم شبلنر Spillner نموذجاً للتحليل الأسلوبي المتكامل يتلخص في ثلاثة أجزاء هي: الجزء اللغوي الذي يتعامل مع التعابير المنتظمة لغوياً؛ والجزء العملي الذي يسهّل تناول أجناس: المؤلف والقارئ والسياق التاريخي وموضوع الحديث؛ والجزء الجمالي الأدبي الذي يرتبط بالتأثير على القارئ، كما يرتبط بالشرح الأدبي والتقديم.⁽¹³⁾

الجزور الأسلوبية في التراث اللغوي العربي:

لقد بدأ النحو قديماً لصون اللسان العربي من اللحن، وحفظ النص القرآني من التحريف. فكانت نشأته بين أحضان النص القرآني، ثم امتدّ لدراسة هذا النص وفهمه، إلى جانب النصوص الشعرية المتنوعة. وهكذا فإنّ "حيوية النحو في القديم نبعت من أنه علم نصّي".⁽¹⁴⁾ ذلك أنّ الدراسات التي أُقيمت حول النص القرآني وحول بعض النصوص من الشعر القديم كانت تقوم على فهم العلاقات النحوية القائمة على مستوى هذه النصوص، وهذا ممّا ضمن للدرس النحوي العربي بقاءه واستمراره على امتداد القرون.

إننا إذا ما تصفّحنا كُتُبَ التفسير أو شروح الدواوين الشعرية القديمة وجدناها تلجأ إلى تفسير المقاصد وتحليل المعاني والدلالات والأغراض الكامنة في النصوص، وذلك باستعمال الأدوات النحوية وسيلةً لهذه الغاية المتمثلة في فهم النصوص. وتكرر هذه الظاهرة في كتب الأقدمين بدءاً بكتاب سيبويه الذي كان يصف الكلام العربي ويفسر مختلف الأنماط التركيبية والاختبارات الأسلوبية، مستحسنًا منها ما كان موافقًا لسنن العرب في مخاطبتها، ورادًا منها ما خالف هذه السنن. يقول سيبويه، مثلاً، في قول العرب: (ما كان أحد مثلك، وما كان أحد خيراً منك، وما كان أحد مجترئاً عليك). "... وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأنّ المخاطب قد يحتاج إلى أن تُعلمه مثل هذا. وإذا قلت: كان رجلاً من آل فلان فارساً حسناً، لأنه قد يحتاج إلى أن تُعلمه أنّ ذاك في آل فلان. وقد يجهله. ولوقلت: كان رجلاً في قوم عاقلاً، لم يُحسن لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقلاً، وأن يكون من قوم. فعلى هذا النحو يُحسن ويُقبح". (15)

فالملاحظ على هذا التحليل للكلام أنه مبني على تحكيم الذوق في استحسان الخطاب أو استهجانته، ولم يلجأ سيبويه إلى قاعدة نحوية تجيز الابتداء بالنكرة حسب مسوغات محدودة وشروط معدودة، وتمنع الابتداء بها فيما سوى ذلك، كالذي ساد لدى النحاة المتأخرين... وما أكثر ما في كتاب سيبويه من هذه النماذج التي يظهر لنا فيها بوضوح ذلك الحُكم المبني على أغراض الكلام والمعاني المرادة منه. وهذا النهج الذي سلكه سيبويه إنما استمدّه من الكلام العربي الذي كان كثيراً ما يصفه بعبارات متنوعة، ولم يخرج عن سمت العرب في كلامهم. وقد كانت العرب كما يقول ابن جني: "تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تُفسد الإعراب لصحة المعنى". (16)

إنّ التفاعل الحاصل بين التراكيب هدفه المعاني ومنطلقه الاختيار على المستوى الأول (النمطي) ثم الاختيار على المستوى الثاني (الفني). ولا يكون هذا الاختيار عبثاً أو عملاً تلقائياً، وإنما تحكمه أغراض ومقاصد، حتى وإن لم يند لنا ذلك جلياً، لأنّ ذلك يكاد يكون من طبيعة اللغة. ونستطيع أن "نقول بأنّ متقدّمي الباحثين رأوا أنّ من الممكن البحث في كل نظام لغويّ يوصف لأول وهلة بأنه من قبيل العرف السائد أو العادات اللغوية المتبعة، أي أنّ في كل ما نقول من كلام عادي توجد به بذور الفن. لكنّ هذه البذور يجب أن نلاحظ صلتها

الشديدة بما نسميه باسم النحو. فالدراسة النحوية في مجال الشعر متميزة بالضرورة عن الدراسة النحوية في مجالات أخرى. ومن هنا يجب أن نلاحظ أنه في داخل كل لغة يوجد أكثر من نحو. وكذلك يمكن في بنية العبارة نفسها احتمالات نحوية، والاحتمالات النحوية تفتح الباب أمام أساليب متنوعة. وفكرة الأساليب من هذه الناحية وثيقة الصلة بالنظام النحوي الذي يمكن افتراضه. ويمكن أن ندعي أن الباحثين المتقدمين فطنوا منذ وقت بعيد إلى أن النحو وثيق الصلة بكل تبصرة حقيقية، بما نسميه الخبرات الأسلوبية. وقد عاشت الخبرات الأسلوبية في عقول (الأدباء) غامضة لا يناها الوضوح ولا يعترها التحديد. وفي أكثر كتب النقد الأدبي عبارات تدل على انطباعات مبهمة لا تفيد شيئاً في توضيح النشاط اللغوي، حتى إذا تمت الدراسة النحوية أمكن التساؤل من خلالها عن موضوع الأساليب...⁽¹⁷⁾

هذا، ولم يغيب عن أذهان علماء العربية الأوائل ذلك الربط بين تراكيب النحو بما تتضمنه من علاقات بين وحداتها، وما يدخل تحتها من الأغراض والمعاني. وكما فطن البلاغيون لهذه العلاقة، وأدركوا أهميتها التواصلية، كذلك " فطن كبار النحاة أيضاً إلى أن الخبرة بتراكيب العربية هي في الوقت ذاته خبرة بالأغراض التي تعبر عنها اللغة. وبعبارة ثالثة أدرك النحاة أن هناك التحاماً بين ما يسمى تراكيب، وما نسميه باسم المعاني أو الخواطر. فالمعقولات العامة لم تكن عائقاً يعوق النحاة دون الإحساس الواضح أو المبهم بالصلة المتبادلة بين ما كان يسمى أحياناً باسم المعنى، وما يسمى باسم اللفظ. وظل إحساس النحاة قائماً بالعلاقة المتينة بين ما يسمى باسم اللغة وما يسمى باسم الأغراض أو المعاني...⁽¹⁸⁾

إننا لنجد كثيراً مما يثبت أن " جذور الأسلوبية متأصلة في التراث العربي، خصوصاً عند عبد القاهر الجرجاني؛ ففكرة الاختيار، وهي من الركائز النظرية للأسلوبية، لم تكن خافية عن البلاغيين، وبخاصة في علم المعاني، يشهد بذلك كلامهم عن مراعاة مقتضى الحال، إذ كان على المتكلم في نظرهم أن يجعل كلامه مطابقاً لمقتضى الحال؛ ومعنى ذلك أن يختار من تراكيب الكلام وأساليبه ما يناسب حال المخاطب، فيؤكد لمن يشك، ويطنب لمن يحتاج إلى ذلك، وعليه أن يختار الأسلوب المناسب من بين الخبر والإنشاء، أو الإثبات والنفي، بحسب المخاطب أيضاً.⁽¹⁹⁾

وهذا الاختيار يشمل موضوعات كثيرة هي موضوعات بلاغية، كالقديم والتأخير والدُّكْر والحذف والفصل والوصل والتذكير والتعريف، وغيرها... "وبدل هذا الاختيار أو

الانتقاء على إثثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين. وكون الأسلوب اختياراً لا يعني أن كل اختيار يقوم به المنشئ لا بد أن يكون أسلوبياً، والمتكلم ليس حراً حرية مطلقة في الاختيار من التنوعات الأسلوبية، فهناك أسس نسقية (ثقافية) وأسس عرفية... وينظر بعض الباحثين إلى مزايا علم الأسلوب من خلال كونه خرقاً للأسلوب المعياري، أو انحرافاً عنه؛ وقد كان البلاغيون على وعي بأن هناك مستوى منحرفاً عن المستوى العادي للغة، وأن المستوى الفني لا يتحقق إلا بتجاوز المؤلف⁽²⁰⁾. ولذا كان البحث عن الغايات الجمالية التي يهدف إليها المنشئ من إيراد العبارة على هذه الصورة غير المألوفة، مثال ذلك: موقفهم من بعض الظواهر الأسلوبية، مثل ظاهرة الحذف، فقد نظروا إلى حذف جواب الشرط على أنه ذو ضربين، أحدهما: أن يحذف بمجرد الاختصار؛ والثاني: أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا يجوز أن يكون الأمر أعظم منه...⁽²¹⁾

إنّ الظواهر الأسلوبية كثيرة في التراث النحوي والبلاغي، ونستطيع أن نبينها من خلال معالجة مسائل المعاني، سواء من خلال مباحث علم المعاني المعروفة، أو من خلال دراسة المعاني بصفة عامة. وإذا ما طالعنا مناهج التحليل الأسلوبي وجدناها من عناصر البحث البلاغي بمفهومه الواسع الذي يقوم على دراسة التراكيب ومضامينها وسياقاتها، وتتبع الأثر الجمالي فيها وما له من تأثير على المتلقي.

هذا، وقد "تنبه النحاة واللغويون بعامة والعرب منهم بخاصة إلى خطورة هذا الاتساع الذي يحدث لبساً في فهم دلالة المكونات والتراكيب والأساليب، فعني بعضهم بتسجيل مجموعة من السمات يتسم بها كل مكون حين يؤدي وظيفة نحوية معينة في تركيب معين. فابن هشام نصح المعرب بأن يراعي المعنى الصحيح، مع النظر في صحة الصناعة، ويبدو أن ابن هشام يريد بهذا المعنى: المعنى الوظيفي، ويريد بالصناعة: جانب الشكل، الذي يتمثل في نظام عناصر الجملة في ترتيبها وما تخضع له من ضوابط. ويشهد على ذلك ما أورده ابن هشام من أمثلة في هذا الموضع، ومنها: قول بعضهم في: (وتموداً فما أبقى) [النجم/51]: إنّ تموداً مفعول مقدم، وهذا ممتنع، لأن ل: ما النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وإنما هو معطوف على (عاداً) أو هو بتقدير: وأهلك تموداً..⁽²²⁾ والأمثلة من هذا القبيل كثيرة في

النحو العربي، نجدها في كتاب سيبويه، ونجدها في الكتب التي تلته كذلك.. وهي دليل على ما وصل إليه الفكر النحوي العربي من الرقي والازدهار، وأنه حريّ بنا أن نقف عنده وقفة منصفة.

فالأسلوب لا ينفك عن المعاني المستفادة من التراكيب، انطلاقاً من الصور اللفظية وما يترتب عليها من الدلالات على المستويين: الأول والثاني. وهذا من صميم فكرة النظم . وقد صرح بذلك الأستاذ أحمد الشايب بقوله: " إنّ تعريف الأسلوب ينصب بداهة على هذا العنصر اللفظي، فهو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعنى، أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني." (23)

وهذا الجانب هو ما يتواشج فيه النحو والبلاغة والأسلوبية، على أنّ الأسلوبية امتداد لهما واستمرار لما حققه البحث النحوي البلاغي منهجاً وتطبيقاً. وليس الأمر كما يرى بعض الباحثين من أنّ الأسلوبية تتجاوز البلاغة، وأنّها ورثتها الشرعي، وما ظهرت إلا بسبب ما عرفته البلاغة من قصور في تحليل النصوص، بمعاييرها ووقوفها عند حدود التعبير والمسميات، وإغراقها في الشكلية والاهتمام بالمصطلحات على حساب القيم الجمالية.. (24) وهو رأي تداوله بعضهم متجاهلاً كون المادة البلاغية، من الناحية التطبيقية، هي وسيلة التحليل الأسلوبي للنصوص؛ على حين نجد من النقاد الغربيين من "يدعو النقاد والدارسين إلى وجوب اعتماد النظرية المعيارية للوجه البلاغي القديم، لأنّ قواعد البلاغة القديمة تساعد على فهم الأدب وأسبابه، فهي ما تزال تدقق الوصف وتصيب -إلى يومنا هذا- بفضل قوالبها الأسلوبية كالاستعارة والكناية والتورية والطباق والتكرار... وينتهي إلى أنّ كل أسلوبيات تفضي إلى بلاغة، وأنّ كل نظرية لا تفسر: لماذا لا تصبح كل أسلوبيات بلاغة لن تبلغ منابع سر الأسلوب الحقيقية." (25)

وإذا تأملنا المنهج النقدي العربي قديماً، ونظرنا في الأسس التي يقوم عليها وجدناه منهجاً لغوياً وجهته دراسة بنية النص، ذلك أنّ "تجربة النقاد العرب القدماء عندما تتعمق تدور حول بنية النص نفسه؛ ومن هنا كانت نظرات ابن سلام وابن قتيبة والأمدي والقاضي الجرجاني - على تفاوت بينها - تكتسب قيمتها كلّما اقتربت من النص نفسه وانطلقت منه. وأمّا عبد القاهر الجرجاني فهو الذي استطاع أن يقدم نظرية نصّية واضحة عُرفت بنظرية النظم، وسرّ بقاء هذه النظرية وحيويتها يكمن في اعتمادها على أهمّ ما يعتمد عليه النص،

وهو البناء النحوي، بما يضمه ويحويه من مفردات. والنحو هو الركيزة الأساسية للمعنى كما يقرر جاكبسون بعد عبد القاهر بقرون.⁽²⁶⁾

إنّ ما يعنيه الجرجاني بالنحو إنما هو نحو المعاني والدلالات لا نحو الإعراب وحسب؛ إذ وسّع مفهومه ليتجاوز إلى المستوى التركيبي. وعلى هذا فالنحو عنده مرادف للدراسة التركيبية التي تتصل بمباحث علم المعاني التي هي من صميم البحث الأسلوبي.. بل إنّنا نجد الجرجاني في أكثر من موضع يجمع في كلامه عن معاني النحو بين موضوعات علم المعاني وموضوعات علم البيان كذلك، وذلك من خلال الأمثلة التطبيقية التي يوردها شاهداً على الأحكام التي يتوصل إليها في نظرية النظم. فمن ذلك، مثلاً، تحليله لبیت بشار بن برد:⁽²⁷⁾

كأنّ مَثار النقع فوق رؤوسنا ** وأسيافنا ليل تهاوى كواكبُه

إذ يقول الجرجاني: "وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم ببالة أفراداً عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأنّ) في نفسه من غير أن يكون قصّد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكّر في (مَثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكّر في (فوق رؤوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى الرؤوس، وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها ب(الواو) على (مثار)، وفي (الواو) من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكّر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً لـ (كأنّ)، وفي (تهاوى كواكبُه) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلاً للكواكب، ثم يجعل الجملة صفةً لليل ليتمّ الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تخطر هذه الأشياء ببالة إلّا مراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها؟ وليت شعري، كيف يُتصوّر وقوع قصّد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى. ومعنى القصّد إلى معاني الكلم أن تُعلّم السامع بها شيئاً لا يعلمه؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تُقصّد أن تُعلّم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها..."⁽²⁸⁾

فهو يستحضر حال السامع عندما يتحدث عن شكل الخطاب الذي يتألف من تفاعل التراكيب اللغوية على مستوى النص، وعن مبدأ الاختيار الأسلوبي الذي تترتب عليه مقاصد المتكلم. وهل النص إلّا شبكة من المعاني المتعاقبة فيما بينها لأداء فكرة موحدة يسعى الكاتب إلى إيصالها. وهل هذه الشبكة من المعاني إلّا نتيجة لاختيارات تركيبية متكاملة فيما بينها لبناء سدى النص ولحمته.

لقد وضع الجرجاني - انطلاقاً من عنايته بالمعاني النحوية - منهجاً فريداً جمع فيه بين المستوى النحوي والمستوى الأدبي الأسلوبي في تكامل عجيب جعله ينفرد بنظريته المتميزة.. وقد كان أولى بمن جاؤوا بعده "أن يحاولوا تطبيق هذه النظرية فيكثروا من ذلك، لأن حياة هذه المعاني النحوية في التطبيق المتجدد المستمر، وكان يمكن عن طريق هذا التطبيق المتكرر المتنوع أن يكون لدينا سبيل واضح إلى تناول النص الشعري عن طريق الفهم النحوي الناضج، ولو كان ذلك قد تمّ واتّصل لأصبح لدينا الآن منهج عربي في تحليل النص وتفسيره بدلاً من (الترقيع) الذي يعتمد على الاقتباس من الاتجاهات الأجنبية دون أن تجد هذه المقتبسات تربةً ملائمة لاستنباتها وتنميتها وتلاحمها مع النسيج العربي، فتبقى هذه المقتبسات أجساماً غريبة في جسم الثقافة العربية." (29)

إنّ المعنى النحوي هو الخطوة الأولى التي يتم الانتقال منها إلى المعنى الأسلوبي، أو البلاغي على اعتبار أنه يتصل بالموضوعات البلاغية . وبهذا يكون لدينا معنيان يتعانقان على مستوى علم المعاني وكذلك على مستوى علم البيان. وإذا كانت المزية الفنية للكلام تتحقق على المستوى الثاني فإنّ المستوى الأول هو المنطلق الذي يتم فيه نسج العلاقات التركيبية، لأنّ التوسع في المعاني والدلالات على نطاق واسع من النص لا ينفصل عن المعنى النحوي في المقام الأول، قبل العُدول عن الأصل أو ما يسمّى في الدراسات الأسلوبية بظاهرة الانزياح (30) التي هي خروج الكلام عن التعبير اللغوي المؤلف، ليكتسب الخطاب مزايا تعبيرية وقيماً فنية، انطلاقاً من اختيارات المتكلم ومقامات الكلام وسياقاته.

ونجد لدى الجرجاني - كغيره من القدماء - كثيراً من الأمثلة والنماذج التطبيقية التي نتبين من خلالها المفهوم الصحيح للنحو بما يتناسب مع الدراسة الأسلوبية الأدبية..

لقد كان منطلق الجرجاني هو اللغة، وقد خطا خطوات معتبرة في وصفه للغة من خلال النحو بمفهومه الإيجائي، إذ "ارتفع مستوى النحو فلم يعد موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، بل هو مشغلة الفنانين والشعراء، وهم الذين يفهمون في النحو. وصار الفهم الجديد يجعل النحو زخارف اللغة كزخارف الفنون الجميلة، وارتاد عبد القاهر أفقاً واسعة من خلال منظاره النحوي، واكتشف كثيراً من طبائع العلاقات في الدعوة الإسلامية من خلال تراكيب لغوية مثل القصر، بل إنه ربما استشرّف مناطق التفريق بين لغة القصة ولغة الشعر، وأرسى القراءة الفنية

للشعر على أسس نحوية. وهناك قضايا تشغل الأسلوبية الحديثة... مثل تفرقة عبد القاهر بين التركيب المنطقي والتركيب غير المنطقي. وتنبه الزمخشري في الكشف إلى فروق دقيقة في الصيغ وعلاقة الغائب والحاضر، والدعوة من خلال ذلك كله إلى إنعاش نقد لغوي يكشف حياة الصيغة وعقباتها...» (31)

إن دراسة النص وتحليله - حسب منهج عبد القاهر - تقوم على الأداة النحوية، فهي "تبدأ من النحو في خارج العمل الأدبي، ثم تنتهي إلى النحو في داخله. وبعبارة أخرى حديثة تبين لعبد القاهر أن الانفصال بين الدراسة اللغوية والدراسة الأدبية انفصال قد ينجي على كليهما. فإذا بلغت الدراسة اللغوية نضجها عطف على الأدب وما يستحدثه في مجال الأساليب. وإذا أُريد لدراسة الأدب أن تتجو من الكلمات المهمة والعبارات المرسلّة والانطباعات الشخصية فلا بد أن تُقيم بناءها على أساس من درس اللغة. وبعبارة أخرى: إن اللغة أنظمة يعطي بعضها بعضاً، ولا بد أن نعرف من وجه آخر ما يعطيه النحو للأدب..." (32)

لقد عالج الجرجاني نصوص الشعر على الخصوص من هذا المنظور اللغوي النحوي الذي جعله منفذاً إلى المعاني والدلالات الخفية، ورأى أن الشعر لا يُدرس بناءً على موضوعات تحدّد له سلفاً، وإنما يُدرس بناءً على أنظمتها اللغوية وتشكيلاته النحوية. ولهذا فإنّ الجرجاني لم ينسق وراء الأغراض الأدبية المعهودة في تحليل الشعر، بل غاص نظره مستويات النص كالانتقال من المستوى الإخباري إلى المستوى الأدبي.

إنّ الشعراء لا يعبرون من خلال الكلمات التي يؤثرونها، وإنما تأخذ هذه الكلمات أهميتها من كلمات أخرى تعتمد عليها اعتماداً يحتاج إلى بيان. وربما أدى حذف الكلمات في موضوع الأطلال أحياناً وظيفة أشبه بالنداء وإقامة الحوار. ولكنه قد يؤدي في سياقات أخرى وظيفة مناقضة إلى حد ما... وحسبنا الآن أن نقول إنّ التأويل النحوي الذي يبنى على نظام نثري يفيد فائدة غير مباشرة في تبين الخصائص التي يقوم عليها نظام التعبير في الشعر. وكان عبد القاهر شديد الإعجاب ببيت أورده سيبويه في كتابه:

ديار مية إذ ميّ تساعفنا * ولا يرى مثلها عجم ولا عرب [البسيط]

ففي هذا البيت قدر سيبويه فعلاً محذوفاً، كأن الشاعر قال: اذكر ديار مية. وهذا النمط من التأويل النحوي يؤدي إلى باب آخر من شرح الشعر.. من حيث اعتماده على

حاسة الحذف. تلك الحاسة التي تجعل الديار موضوعاً سحرانياً قابلاً للحوار وقابلاً في الوقت نفسه لإثارة الإحساس بتراجع الذات. وليس هذا الحذف إذاً نمطاً من الحلي أو الزينة... وإنما يبنى بناءً فكرياً خاصاً من خلال اللغة. وبينما يبدو الطلل شاخصاً أمامك إذا به يبدو من خلال كلمات محذوفة غائباً عنك. وقد يستنتج من ذلك – من الناحية النظرية – أنّ البنية النحوية السطحية صالحة للمقارنة مع البنية النحوية التي يعتمد عليها الشاعر. ومن خلال ما يتبدى بين هاتين البنيتين تتضح وجوه الدلالة. وبعبارة أخرى يقارن عبد القاهر بين البنية النحوية السطحية أو النثرية والاستعمال النحوي الخاص أو الدالّ في الشعر...⁽³³⁾ ومن خلال المقارنة تتضح أوجه من شرح الشعر جديدة بالعناية. بل إنّ الكثير من القيم الفنية لا يمكن اكتشافها والوصول إليها إلا من خلال المقارنة بين البنيتين المذكورتين. "فالمعنى النفسي مبني على المعنى النحوي في السياق اللغوي. وإنّ ترتيب الألفاظ في استعمالها في السياق اللغوي قائم على المعاني النفسية المبنية على المعاني النحوية".⁽³⁴⁾

وإذا أخذنا بهذا المفهوم الصحيح للنحو على أنه يتناول التراكيب والأساليب، استطعنا أن ندرك تلك التنوعات الدلالية الناتجة عن تفاعل هذه التراكيب والأساليب على مستوى بنية النص. وسنورد في هذا الشأن أمثلة للتوضيح. ففي باب ذكر المسند إليه مثلاً، يقول الشاعر: [من البسيط]

بالله يا طيبات القاع قلن لنا ** ليلاي منكن أم ليلى من البشر

"ففي ذكر المسند إليه "ليلاي" (كمبتدأ) وهي علم محدد الدلالة مع تكريره، وارتباطه بهذا السياق الزاخر بالمشاعر التي تفيض بها نفس الشاعر يجعل استحضاره له مصدراً ثراً بالسعادة له، ومحققاً لمزيد من المتعة التي تكشف عنها هذه الصياغة التي توحى للمتلقى بمثل هذه الدلالات".⁽³⁵⁾

ويمكننا أن نقارن بين أثر الحذف والذكر في الدلالة لتبين كيف يسهم كل منهما متآزراً مع غيره من الوسائل في الكشف عن القوة التعبيرية للتراكيب المختلفة. ففي قوله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله... (الآية)" [الزمر/ 38] حذف المسند لأنّ الآية جاءت في سياق الرد الحاسم الذي يقتضي ذكر المسند إليه (الله) لأنه المسؤول عنه.. وفي قوله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم" [الزخرف/ 9] ذكر المسند (خلقهنّ) لأنّ الآية جاءت في سياق البسط والعرض للإقناع

بعظمة الله وقدرته سبحانه وتعالى. مع أنّ الآيتين الكريمتين يعرض بهما القرآن الكريم لموقف المشركين وتناقضهم واعترافيهم بخلق الله للسموات والأرض والشرك به.. فالملاحظ أنه لما تنوع السياق تنوعت التراكيب بحيث نستشعر أهمية الحذف في مكانه وأهمية الذكر في موضعه حتى تتساوق الدلالات. (36)

ونستطيع أن نتيّن أيضاً علاقة التركيب النحوي بالدلالة من خلال أسلوب التقديم والتأخير، وهو باب واسع كثير الفوائد كما قال الجرجاني، لكننا نكتفي منه بمثال عن أثر التركيب المنفي مع التقديم في توجيه الدلالة. فعندما يقول الشاعر مثلاً: [من المتقارب]:

وما أنا أسقمت جسمي به ** ولا أنا أضرمت في القلب نارا

فهو قد قدّم النفي على الفاعل المذكور ليدلّ بذلك على أنه ليس هو الفاعل. ولكنه في الوقت نفسه لم ينف الفاعل عن كل فاعل، إذ يمكن أن يكون غيره هو الفاعل لذلك الفعل. ولو قال: ما أسقمت جسمي من غير أن يجعل النفي مسلطاً على المسند إليه لكان للتركيب دلالة أخرى تتمثل في نفي الفعل مطلقاً لا عن نفسه فقط. ومن أمثلة التقديم في التركيب المنفي قول الشاعر أبي النجم:

قد أصبحت أمّ الخيار تدعي ** عليّ ذنباً كلّ لم أصنع

برفع لفظ (كلّ) على الابتداء وما بعده خبر له. ليدلّ ذلك على أنّه يريد أن ينفي عن نفسه كلّ ذنب صغيراً كان أم كبيراً، فهو لم يصنع منه شيئاً. ذلك أنه لما جاء لفظ العموم سابقاً للنفي مسلطاً عليه دلّ على عموم النفي كما يسمّيه البلاغيون.. ولو نصب لفظ (كلّ) لتغيّرت الدلالة إلى إثبات بعض الذنب لنفسه. ويكون المعنى على العكس من ذلك لو جاء النفي سابقاً للفظ العموم مسلطاً عليه، فيحمل التركيب عندئذ دلالة أخرى تتمثل في نفي بعض الفعل وإثبات بعضه، كما في قول المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ** تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

وشتان بين هذا المعنى وذاك. ففي الأول نفي للفعل على الإطلاق، وفي الثاني إثبات له... والذين لا يدركون قيمة تنوع التركيب وما ينتج عنه من تنوع الدلالة يجيزون رواية البيت برفع (كلّ) ونصبها.

والأمثلة كثيرة على توجيه الدلالة عن طريق تنوعات التركيب وما يحمله من المعاني. ونستطيع أن نتيبها من خلال منهج النحاة والبلاغيين في دراسة أبواب علم المعاني. وهي معانٍ نحوية بلاغية أسلوبية في آن واحد.

وكان هذا النهج هو الذي سلكه النحاة الأوائل ثم اتخذه البلاغيون منطلقاً في تناولهم لموضوعات المعاني، وهي موضوعات تتجلى فيها دراسة الأسلوب بجلاء، إذ لم يكن همّ البلاغيين تقعيد القواعد وسنّ الأحكام، ولم تكن وجهتهم نحوية محضة، وإنما كانوا يهتمون بجانب آخر من النظام اللغوي، ألا وهو الجانب الفني الإبداعي، فكانوا يبحثون في جماليات اللغة من خلال تناولهم لكثير من القضايا الفنية كما نجد ذلك في مدارسهم لنصوص القرآن الكريم أو الشعر العربي، وكشفهم لما وراء التراكيب من القضايا الدلالية والأسرار الجمالية الكامنة في التراكيب، متجاوزين أحياناً نُظم اللغة وما فيها من أطراد في ترتيب أجزاء الكلام وأحكامها، لأن المبدع إذا كان "يلجأ إلى تطبيق هذه النظم في شكل كلام أدبي فإنه لا يحافظ على هذا الأطراد، وإنما تحكمه سياقات الكلام فيتخلّى عن الرتب المحفوظة إلى انحرافات أو تكراريات أو منبهات أسلوبية تبدو في شكل دفقات تعبيرية لها طبيعة مختلفة عن النظام المطّرد".⁽³⁷⁾

وجدير بالملاحظة أنّ العدول عن الأصل في التراكيب - مع ما بينها من علاقات على أساس من هذا العدول - هو الذي يطبع النص بطابع الأدبية . ولكي يكون كذلك ينبغي أن لا يخلو من المزايا الفنية الناشئة عن التصرف في تعليق أجزاء الكلام على نحو معين. وذلك هو المعنى البلاغي الفني الذي لا يتكشف إلّا من وراء هذا التصرف متجاوزاً بذلك حدود المعيار الذي يوجد على الطرف المقابل للعدول الذي يسمّى في الدراسات النقدية المعاصرة، كما ذكرنا، بـ (الانزياح). ويجعل جون كوهن هذا المعيار أكثر تداولاً في النشر منه في الشعر، إذ " نجده عند الكاتب الذي هو أقل اهتماماً بالأغراض الجمالية، وإن وُجد الانزياح في لغته فهو قليل جداً... ويمكن إذاً أن نشخص الأسلوب بخط مستقيم يمثل طرفاه قطبين: القطب الشري الخالي من الانزياح، والقطب الشعري الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة. ويتوزع بينهما مختلف أنماط اللغة المستعملة فعلياً. وتقع القصيدة قرب الطرف الأقصى، كما تقع لغة العلماء بدون شك قرب القطب الآخر. وليس الانزياح فيها منعداً، ولكنه يدنو من الصفر...".⁽³⁸⁾

إنّ من بين ما توصلت إليه الدراسات الحديثة تلك "الدعوة الجديدة في النقد الأدبي التي تحاول جاهدة توجيه النقد في الأدب العربي وجهة لغوية عن طريق النقد التطبيقي استناداً إلى أنّ العمل الأدبي فنّ لغويّ في المقام الأول؛ ولذلك ينبغي الدخول إلى النص الأدبي بغية تحليله من باب الملائم، وهو اللغة بكل مستوياتها وأبعادها التي يستخدمها العمل الأدبي في تكوين شكلها الفنيّ . والقصيدة قبل كل شيء تركيب أو بناء لغوي، ومهمة الناقد حيالها ليست هي إطلاق الأحكام العامة القائمة على الاستحسان أو الاستهجان الذاتيين غير المبرهن عليهما، من خلال العمل نفسه، أو رصد اتجاهات غير أدبية كالاتجاهات السياسية أو الاجتماعية أو النفسية أو غيرها، ونسبة العمل الأدبي أو قائله إليها، والاكتفاء ببعض الإشارات التي تساعد على هذا، بل مهمة الناقد الحقيقية هي إضاءة العمل وتنويره واستكشاف جوانبه الفنية وعلاقاته في ضوء ما يسمى بالقراءة الفاحصة للنص الأدبي".⁽³⁹⁾

إنّ هذه النظرة إلى البنية النصية تجعلنا نستبعد ذلك المنهج الذي يربط بين الأسلوب والحالة الاجتماعية للمنتج اللغوي، ويستبعد بقاء علم الأسلوب بمنأى من التأثير بنتائج اللسانيات الاجتماعية الحديثة التي تدرس العلاقة الوثيقة بين الأثر اللغوي والظروف الاجتماعية التي ولد فيها هذا الأثر.

وبهذا نخلص إلى أنّ الأسلوبية منهج لغوي في تحليل النص، وهو ما يعني استعمال الأدوات اللغوية في التحليل، ويمثل النحو أولى هذه الأدوات. لذلك وجب أن تكون النظرة إلى النحو نظرة تركيبية دلالية هدفها الوصول إلى بنية النص وتحديد دلالاته الكلية ...

الهوامش

- 1- ابن جني: الخصائص – تحقيق: النجار: 34/1
- 2- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة – تح: محمد عبد المعيم خفاجي/مكتبة القاهرة / ط3
1399هـ/1979م) 80/1
- 3- محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية – دار الفكر – ط7 (1401هـ/ 1981 م) 182-183
- 4- د/ عاطف مذكور: علم اللغة بين القديم والحديث : 173-176
- 5- السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 41/1
- 6- د/ خليل أحمد عمايرة: في نحو اللغة وتراكيبها : 28
- 7- في نحو اللغة وتراكيبها : 28
- 8- ينظر: الخصائص: 18/1
- 9- د/ محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي – الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي/ ط2 (2007م) ص25
- 10- الأسلوبيات وتحليل الخطاب: ص49 ؛ وينظر (الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية ص27
- 11- لا يبدو لنا مصطلح (الانحراف) مناسباً، على الرغم من تداوله بين كثير من الباحثين، وأفضل منه في نظرنا مصطلح (العدول) المستمد من استعمالات علماء العربية.
- 12- د/ سامي محمد عبانة: التفكير الأسلوبي: رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث: ص117 – 118 وما بعدهما..
- 13- ينظر: برنرد شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية – ترجمة الدكتور محمود جاد الرب – الدار الفنية للنشر والتوزيع – القاهرة / ط1 (1987م) ص31
- 14- د/ محمد حماسة عبد اللطيف : اللغة وبناء الشعر – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – مصر (2001م) ص17
- 15- سيبويه: الكتاب – تحقيق عبد السلام هارون: 54/1
- 16- ابن جني: المختص في تبين شواذ القراءات والإيضاح عنها : 211/2
- 17- د. مصطفى ناصف: اللغة بين البلاغة والأسلوبية – النادي الأدبي الثقافي – جدة (1409هـ / 1989م)
251-250
- 18- المرجع نفسه: ص242
- 19- عبير محمد الأمين: المعنى الوظيفي للصيغة بين النظر والتطبيق في التراكيب اللغوية العربية – رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم – جامعة الفيوم – مصر (2003م) ص177 – 178.
- 20- تجاوز المؤلف: يعني تجاوز الدلالات المألوفة للغة إلى دلالات سياقية أخرى مقصودة من التراكيب، وهو ما يدل عليه مصطلح (الانزياح) في علم الأسلوب الحديث. أي الانحراف باللغة عن دلالتها الأصلية إلى دلالات

- أخرى فنية، ويظهر ذلك في لغة الفنون الأدبية، ولا سيما الشعر.
- 21- المعنى الوظيفي للصيغة بين النظر والتطبيق في التركيب اللغوية العربية ص181-182.
- 22- المرجع نفسه: ص182
- 23- أحمد الشايب: الأسلوب: ص29
- 24- البلاغة والأسلوبية: ص191
- 25- المرجع نفسه : ص242
- 26- اللغة وبناء الشعر: ص10
- 27- ينظر ديوان بشار: ص43 وما بعدها..
- 28- دلائل الإعجاز: ص388
- 29- اللغة وبناء الشعر : ص24
- 30- هناك عدة مصطلحات مستعملة في هذا الشأن: كالانزياح والانحراف والمخالفة، وأحسنها مصطلح العدول المستمد من التراث العربي، فهو أنسب في الاستعمال وأدّل على المراد .
- 31- د/ أحمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - مصر (1998م) ص78-79
- 32- د/ مصطفى ناصف: اللغة بين البلاغة والأسلوبية -النادي الأدبي الثقافي بجدة (1409هـ / 1989م). ص258.
- 33- د/ مصطفى ناصف: اللغة بين البلاغة والأسلوبية - النادي الأدبي الثقافي بجدة (1409هـ / 1989م) ص244
- 34- الفكر البلاغي عند النحويين العرب: 59
- 35- د/ سعد أبو الرضا : في البنية والدلالة - منشأة المعارف بالإسكندرية (1987) ص23
- 36- ينظر المرجع نفسه: ص118 - 119
- 37- د/ محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية. ص305
- 38- نزار التجديتي: نظرية الانزياح عند جون كوهن. ص47
- 39- اللغة وبناء الشعر : ص27-28

آلية التقديم المباشر للشخصية في روايات مؤنس الرزالي

شرحيل المحاسنة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة شقراء-الأردن

تمهيد

تقوم آلية التقديم المباشر للشخصية في السرد الروائي على وصف الشخصية، ورصد سلوكها وردود أفعالها وكل ما يتعلق بها من حيث شكلها ووجودها إذ يعتمد الروائي فيها إلى: "تقديم مقاطع وصفية من الرواية يرسم فيها ملامح الشخصية وطبائعها بوساطة الراوي، أو يكل هذه العملية إلى شخصيات أخرى في الرواية، أو يترك الشخصية نفسها تقوم بهذا العمل"⁽¹⁾.

إن اختيار طرق تقديم الشخصية يعود إلى رغبة الروائي وفكره، فهو صاحب الحق في الاختيار "فهناك مثلاً الروائيون الذين يرسمون شخصياتهم بأدق تفاصيلها، وهناك من يحجب عن الشخصية كل وصف مظهري.

ومن جهة أخرى، هناك منهم من يقدم شخصياته بشكل مباشر؛ وذلك عندما يجبرنا عن طبائعها وأوصافها أو يوكل ذلك إلى شخصيات تخيلية أخرى، أو حتى عن طريق الوصف الذاتي الذي يقدمه البطل نفسه (Auto-Description) كما في الاعترافات"⁽²⁾، التي غالباً ما يتجلى فيها ضمير المتكلم الذي "يستخدم للتعبير عن الشخصية الرئيسة في الرواية، إذ تختبئ الشخصية خلف هذا الضمير، وتكون مشاركة في الحدث، وهذا ما يصطلح عليه بالسرد الذاتي الثابت، إذ يكون الراوي هو الشخصية الرئيسة أو البطل، (الراوي حاضر هنا كشخصية في الحكاية)"⁽³⁾.

إن ضمير المتكلم، كما هو معهود يجعل المتلقي يلتصق بالعمل السردى ويتعلق به

أكثر، متوهماً أنّ المؤلف فعلاً هو إحدى الشخصيات التي تنهض عليها الرواية، فكان السرد بهذا الضمير يلغي دور المؤلف بالقياس إلى المتلقي الذي لا يُحس، أو لا يكاد يحس بوجوده... فهو المتحكم، وهو المنشط، وهو المزدجى، وهو الموجّه⁽⁴⁾. ولعلّ هذا الضمير يتسم بالفنية التي يسعى إليها الروائي "على اعتبار أنه وسيلة ناجحة للتخفي، فالكاتب يلجأ إليه شكلاً من أشكال الاستتار وتخفيفاً من حدة الإشارة إلى العمل، لكونه عملاً مختلفاً مكتفياً بذاته لذلك فهو وسيلة سهلة للتحرك في العمل دخولاً وخروجاً، دون أي إشكالية تواجهه"⁽⁵⁾.

طرق تقديم الشخصية الروائية

إنّ أبسط طريقة في التقديم المباشر للشخصية هي "الطريقة التقليدية التي يتبعها المؤلف، وهي إيراد وصف جسماني لها وموجز عن حياتها"⁽⁶⁾. ولعلّ هذه الطريقة لم تقتصر فقط على الرواية التقليدية، بل إننا نلاحظ وجودها في كثير من الروايات الحديثة التي يظهر فيها وصف البعد الخارجي للشخصية "الذي يشمل المظهر العام للشخصية والسلوك الظاهري لها"⁽⁷⁾. وكما يتمثل في "صفات الجسم المختلفة، ويعرض لأثر هذه الصفات في سلوك الشخصية"⁽⁸⁾.

ومن الجدير بالذكر أن التقديم المباشر للشخصية لا يقتصر الروائي على الوصف الخارجي، الذي يتعلق برصد الملامح الجسدية والسلوك، بل قد يتجاوز الروائي ذلك ليصف البعد الداخلي للشخصيات، "فيتوغل توغلاً عميقاً في نفسها، فيكشف عن هواجسها بشكل مباشر، وأجود الوصف هو "الذي يستطيع أن يحكي الموصوف حتى يكاد يمثل له للسامع، ولذلك قال بعض النقاد: أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً"⁽⁹⁾.

وبناءً على ما سبق ؛ يمكن القول: إن الوصف الذي يقوم به الروائي في التقديم المباشر يتفرع إلى قسمين: الوصف المادي الذي يقتصر على الملامح الجسدية والحسوسة، والوصف النفسي الذي يبدو مباشراً على لسان الروائي أو إحدى الشخصيات الروائية، وهذا القسم "ملوّن الشعور لأنه يسلط على الأشياء عدسة الحدس والبصيرة لا البصر"⁽¹⁰⁾. وفيه يتمكن الروائي عن طريق الراوي من تصوير وصف ما يدور في العالم الداخلي للشخصية من أفكار، وما يتصارع فيه من عواطف وانفعالات، وما تتناوب عليه من خلجات نفسية، مع حرصه على الاختفاء من أمامها دون أن يقصد "أن يفقد حيوية أسلوبه وعفويته، ودون أن يتحول إلى عالم من علماء النفس"⁽¹¹⁾.

والأمر الآخر الذي نود الإشارة إليه أن الروائي يجب عليه أن ينتبه إلى عدم استخدام الوصف الطويل في تقديمه لشخصياته سواءً أكان ذلك في البعد المادي أم البعد النفسي، فالروائي المبدع هو الذي ينجح إلى الإيجاز؛ "لأن الإيجاز من دلائل العبقرية، كما تقول "نيللي كورمو"⁽¹²⁾.

الوصف الخارجي والداخلي:

لجأ الرزاز في كثير من رواياته إلى هذا النمط من التقديم، ولعلّ لجوءه إلى هذا النمط ساعده على عرض شخصياته، وتقديم سماتها الأولية التي تتجسد في مظهرها الخارجي والداخلي، ففي رواية "أحياء في البحر الميت" ذلك "العمل الفني العظيم"⁽¹³⁾ كما يقول عبد الله رضوان يظهر هذا النمط في الوصف الخارجي والداخلي، ولكن نلاحظ الوصف الخارجي جاء قليلاً فيها فنحن نلاحظ مثل هذا الوصف على لسان عناد، ظهر عندما أشار إلى جمال امرأة صدفها في طريقه، "وقفتُ بالباب مبهوراً، فإذا بي إزاء امرأة وجهها وجه هالة البدر وصدرها صدر النهار"⁽¹⁴⁾.

ولعلّ قلة هذا اللون من الوصف يعود إلى انشغال المؤلف بتحديد الملامح النفسية أكثر من الملامح المادية؛ فشخصيات رواية "أحياء في البحر الميت" هي في طبيعتها شخصيات مأزومة، تعاني من واقع مرير تعيشه فهي "تبحث عن معنى للحياة فلا تجده إلا في وسط عالم الخواء والموت، وهي دائماً لا تحصد إلا الخيبة على الرغم من وجود رموز مناضلة"⁽¹⁵⁾. وفي رواية "اعترافات كاتم صوت" لم نثر على الوصف الخارجي إلا مرة واحدة، ظهرت في وصف الراوي يوسف مصوراً ملاحمه الخارجية، "وجه يوسف الغض ذو العينين السوداوين البراقطين الحالمتين"⁽¹⁶⁾.

أما في رواية "متاهة الأعراب في ناطحات السراب" فظهر الوصف الخارجي فيها مرتين جاء على لسان حسنين، في المرة الأولى وصف جدّه لأبيه كاشفاً عن مظهره وشكله "وجدني لأبي... المعروق الوجه، الغزير الحاجبين، المدور الجسم"⁽¹⁷⁾.

وفي المرة الثانية جاء في كشف المفارقة بين شكل رجل يتحدث عنه، ومكانة ذلك الرجل الاجتماعية، يقول في معرض حديثه عن الرجل: "كان أقرب إلى حجمه منه إلى وجهه: منخسف الخدين، بارز الوجنتين، غائر الفم والعينين معروق العظام، لكن عينيه ... عينان واسعتان هائلتان تبرقان وتومضان، وتشتعلان"⁽¹⁸⁾.

يبدو لي من خلال روايات الرزاز أنه لم يحفل بالوصف الخارجي لشخصياته الروائية كثيراً، وإنما كان جلّ ارتكازه في هذا النمط على الوصف النفسي المباشر لباطن شخصياته، وإذا ما حاولنا معرفة السبب وجدنا أن السبب الرئيسي يعود إلى طبيعة المؤلف الجوانية التي فرضت الطابع النفسي على شخوصه الروائية، فشخصياته في أغلب رواياته هي شخصيات مأزومة يجتاحها طابع المأسوية.

ونستطيع أن نحكم على طبيعة الرزاز الجوانية من خلال سيرة حياته والظروف التي شهدتها أسرته وعاشتها ومرت بها "فوالده منيف الرزاز كان طبيباً يحترف السياسة ويتصدر مركزاً مرموقاً في كوادر حزب البعث، بيد أنه أكتوى بنار السياسة، حيث انتهى به المطاف محاصراً في منزله قيد الإقامة الجبرية في بغداد إلى أن وافته المنية عام 1984م" (19).

ولعل الإقامة الجبرية التي أجبرت والده على الرحيل عن الوطن تركت في نفس الرزاز أثراً لا يمحي من ذاكرته، ووصلت به إلى معاناة نفسية حادة انعكست على إبداعه "فوالده مات في الوقت الذي كانت تجري فيه محاولات للإفراج عنه فموت والده، ماتت الحرية في حياة مؤنس، قبل السماح لها بالتحليق في منزل الأسرة وفي سماء الوطن. فكان لهذه الحادثة -بما حملته من معان ودلالات- أثر كبير في صياغة حياة مؤنس وعذاباته روحه التي ظلت تقاوم طلاب التجربة المرة، في الفترة التي قضتها أسرته في الإقامة الجبرية، اضطر مؤنس للبقاء في بيروت بعيداً عن أسرته، يكابد ويقاوم ما يكابده في آن معاً؛ وهذا ما عرّضه لمعاناة نفسية هائلة" (20).

والراجح لدي أن رهافة حسه وشعوره جعله غير قادر على قبول فكرة تحول منزل عائلته في العراق إلى سجن صغير، والوطن إلى منفى كبير. ويبدو أن هذه المعاناة جعلته يفقد القدرة على التعامل مع من حوله حتى وصل به الأمر إلى مرض نفسي، فطلب أهله منه أن يعرض نفسه على طبيب نفسي لعله يساعده على العلاج. يقول الرزاز "بعد سنوات الإقامة الجبرية التي كانت فيها أسرتي حبيسة المنزل، وجدت صعوبة في التعامل مع العالم من حولي، فقد كان من الصعب عليّ القفز عن ذكرى المعاناة التي مرّ بها والدي في حياته والتي انتهت بوفاته وهو قيد الإقامة الجبرية، ولما لاحظ أهلي ذلك ضغطوا عليّ لاستشارة أطباء نفسيين" (21)؛ لذلك فمن الطبيعي أن يحفل الرزاز بالوصف الباطني لشخصياته أكثر من الوصف الخارجي الذي يقتصر على إبراز الملامح الخارجية ورصدها.

لا نبالغ إذا قلنا: إنّ شخصياته في الحقيقة ما هي إلا امتداد له؛ نظراً لجوانبتها الممتدة على طول أعماله الروائية، فالوصف النفسي المباشر كان لا مناص له أن يأخذ حيزاً كبيراً في رواياته فمثلاً في رواية "متاهة الأعراب في ناطحات السراب" يقدم لنا الراوي الصفات النفسية "لآدم" على لسان والده، بقوله: "آدم سريع الغضب، سريع الخاطر، براق العينين، عالي العنق"⁽²²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأوصاف التي قدمها لنا الرزاز جاءت منسجمة مع مسار الشخصية في الرواية، فآدم إنسان عربيّ يحمل طابع العروية الأصيل، فيه من السمات البدوية الشيء الكثير، فهو فارسٌ وبطلٌ وصاحب أمل كبير يسعى إلى تحقيق اليقظة العربية، وزيادة على ذلك فهو يشعر بحالة الفراغ والخواء التي تعيشها الأمة؛ لأنّها فقدت الدليل والمرشد سواء كان ذلك على المستوى الإيديولوجي أم السياسي، وهي بالضرورة لبطل ذي شموخ وكبرياء، والروائي يشير مباشرةً إلى طموح هذا الفارس والمهمة التي ينبغي أن ينجزها. يقول: "لكن آدم كان بعيد الأمل، عظيم الأطماع، يدرك أنّ هذه الصحراء أشبه بمسرح تاريخيّ يبحث عن بطل، ويعتقد أنه صاحب هذا الدور بلا منازع"⁽²³⁾.

وفي رواية "جمعة القفاري" يظهر مثل هذا الوصف المباشر التقريري، الذي يسعى إلى الانتهاء بالقارئ إلى تسجيل انطباع عام عن غرابة الأطوار على لسان إحدى الشخصيات اسمها الغلباوي إذ يصف شخصية جمعة الذي يتسم بصفات غير مستقرة، جاء على لسان الغلباوي: "جمعة القفاري شخص يصعب العيش معه. قد ترى في رفقته متعة، وقد تجد في الجلوس إليه مرة كلّ أسبوع راحة. أما أن تعيش معه في نفس البيت، فإنّها الكارثة عينها. ذلك أنه غريب الأطوار"⁽²⁴⁾.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأوصاف التي جاءت على لسان الغلباوي تعد مؤشراً واضحاً على اضطراب شخصية جمعة، حتى يمكن القول: إنّ هذه الأوصاف جاءت متناسبة مع سلوكه في أحداث الرواية كافّة؛ فالقارئ بعد قراءة الرواية يدرك أنّ هذه الشخصية عاجزة وفاقدة للقدرة على التواصل مع المجتمع الذي تعيش فيه، على الرغم من كلّ محاولاتها للتواصل مع البيت والزواج والناس والحب والعمل، الأمر الذي أدى بها إلى الانهيار.

الوصف الذاتي في روايات الرزاز:

يتجلى الوصف الذاتي في التقديم المباشر من خلال ما يسمى بالاعترافات، التي

أخذت حيزاً واسعاً في أغلب روايات الرزاز؛ إذ يقوم كثيرٌ من شخصياته الروائية بوصف نفسها، فكشفت عن سيرتها ومعاناتها النفسية التي تعيشها، وقد جاءت أحياناً على شكل مقاطع متناثرة كما في روايتي "أحياء في البحر الميت" و"الذاكرة المستباحة"؛ ففي رواية "أحياء في البحر الميت" نلاحظ اعترافات الرائد الذي يمثل تحول الثورة إلى سلطة، والذي بدا من خلال فك كل ارتباط له بالمرحلة السابقة حتى بزوجه أم مصطفى، واتجاهه إلى المرحلة الجديدة التي مارس فيها القتل والتطويع لمن وقف في وجه السلطة⁽²⁵⁾، فنحن نلاحظه يدلى باعتزافاته مُشيراً فيها إلى منصبه السلطوي، وفيها يرى أنّ هذا المنصب قد قدر له في الصغر، استطاع أن يُحسّه من خلال الوحي والإلهام، وليس من خلال المعيار العلمي الذي يستند إلى الأدلة والبراهين، والرزاز يسعى من خلال هذا التقديم إلى إضفاء سمات صوفيّة على الشخصية، ويقدم إدراكها من خلاله، فهي ترى نفسها مصطفىاً من بين الآخرين تتمتع بقدرات مزيدة من حيث إدراك الأمور بالإلهام والحدس، فضلاً عن القدرة على فك ما يستغلّق من الأمور بفضل ما يودعه القدر في قلبه.

بيد أن البوح خاضع للمراجعة؛ لأنه يُقدّم من زاوية السارد المشارك الذي يرى نفسه هكذا، ولا يمثل بالضرورة طبيعة الشخصية من منظور الروائي، ولا بد من فرض هذا الوصف على ما تقدمه الشخصيات الأخرى عنه. يقول في اعترافه: "صحيح أنني لم أصبح قائداً بعد... ولكنني رائد في أية حال... ورائد على جانب كبير من الخطورة. منذ صغري وذلك الإحساس الغامض بأي رجلٍ قدر ومصير يلح على نفسي ويستولي على كياني دون أن أتبين له مصدراً بيّناً أو علّة علمية. وهنا يكمن خطأي فمثل هذا الإحساس لا يرصد بالدلائل العقلية والبراهين المنطقية... فهو ينتمي إلى عالم النداء الروحي الذي لا يبلغه الباحث المتوسل إلا بالمعرفة المباشرة. شأنه شأن الوحي والإلهام والنداء. لكن القدر يلقي في قلب اللبيب المُصطَفَى إشارات خفية ورموزاً تستغلّق على العامة فلا يدركها إلا الذي يصطفيه النداء"⁽²⁶⁾.

وفي "الذاكرة المستباحة" نلمس كذلك بعض الاعترافات التي ساعدت المؤلف على تقديم شخصياته، جاءت هذه الاعترافات بصورة مقاطع، ففيها نلاحظ مقطعاً روائياً يحمل اعتراف منقذ عن نفسه، مُشيراً فيه إلى أنّه سيكون كما سمّاه أبوه منقذاً ومخلصاً للأمة العربية من كل ما يشينها، وهو في اعترافه يعدّ أن يعمل على تحقيق حلم والده، في تخليص

الأمة العربية وتحريها يقول: "أنا أعدكم ... بأن أجوب شوارع العالم كله باحثاً عن كلّ شير خبيث لأضع حداً لشره وحياته. هذه هي رسالتي: أن أنقذ العالم من الشر. أعداء العرب والفقراء... أنا سأتكفل بهم، لا داعي لأن ترهقوا أنفسكم، أنتم رجال الشرطة، مهمتكم تقتصر على القبض على اللصوص ومخالفة السيارات، أما أنا فسوف أضع حداً للشركات التي تستغل العرب، الشركات المتعددة الجنسية. سوف أطلق النار على هذه الشركات. قلت أنني لست مجنوناً"⁽²⁷⁾. ولكن منقذاً لم يكن اسماً على مسمى ولم يكن كما أراد له أبوه أن يكون فهو رجل بحاجة إلى من يساعده في فهم كلّ شيء إلى من يترجم له كلمات سعاد، كلمات البقال فتحي، ومراودة (آريا) وهو محتاج إلى من يعرفه بنفسه، وبما يقوله له الطبيب، وهكذا يتحرك منقذ في الاتجاه المضاد لتحرك الأب، فهو لا يهتم بالحملات الانتخابية، ولا بالمرشحين، ولا يهتم بمرضه، ولا يستطيع أن يفهم المرض العقلي الذي أصيب به، وكل ما يريد أن يعرفه هو هل سعاد صادقة في حبها له أم أنها صادقة فقط في حب الآخر الذي باع أرضاً واشترى "مرسيدس"⁽²⁸⁾. فتقديم الشخصية بوساطة الاعتراف قدم للقارئ معلومات جاهزة عن ما يخرج في نفس منقذ وما كان يدور في خلده، وهنا يسخر الكاتب في شخصيته؛ إذ إنّ العمل الفردي لا يحقق علاقة آمالها وطموحاتها؛ بل إنه يدين الفردية المفتقرة إلى التنظيم والمرجعية الإيديولوجية، التي تتوفر على مجموع من الناس القادرين على تحريك الأمور وتغيير الأشياء، ومقاومة تغلغل الآخر واستغلاله؛ ومن هنا اختلط الأمر على الشخصية التي ما فتئت ترد تهمة الجنون عن نفسها. وزيادة على ذلك، فإن هذه الشخصية تعاني من حالة رهاب شديدة من الموت، فتجمع إلى هلوستها وهستيريتها ملمحاً آخر وجودياً؛ ناجماً عن التشبث بالحياة، من خلال الجمود والثبات المنافي أصلاً للحياة، مما يشكل مفارقة صارخة، وهذا ما يؤكد اعتراف آخر يكشف عن شخصية منقذ، ومدى حالة التأزم النفسي التي عانت منها، فهي مهزومة لا تستطيع المواجهة بل تحب الجمود والتوقع حول نفسها، دون التوق إلى النمو والحركة. يقول في اعترافه: "إنني حجر، والحجر لا ينمو، ولا تظنوا أنني حزين لأنني لا أنمو، على العكس... بقائي داخل لحظة زمنية محددة تجعلني خالداً. الشجرة تنمو... فتموت، والإنسان العادي ينمو في سبيل أن يموت... وأنا جامد في برهة زمنية لا أتوقف. مثلي كمثل الأزل. وأنا لا أحب أن أموت"⁽²⁹⁾.

امتد أسلوب الاعتراف في بعض روايات الرزاز، ليشمل صفحات طويلة وتجلى ذلك في رواية "متاهة الأعراب في ناطحات السراب" و"جمعة القفاري" و"اعترافات كاتم صوت"،

و"مذكرات ديناصور" فقد كان الرزاز يلجأ إلى هذا الأسلوب ليجعل المتلقي على اتصال مباشر مع شخصياته دون تدخل من الراوي أو أي شخصية أخرى في الرواية.

إن فأسلوب الاعتراف، كما يرى بورنوف وصاحبه في سياق مختلف، حقق وظيفته المتصلة بمهمة "الكشف عن سيرة الشخصية وحالها، والهادف إلى الإعراب عن الحياة الباطنية تبعاً وحسب جريانها، فقد تحاول الشخصية فيه التعبير عن تردد وتطور شعور منغمس في الحياة اليومية المعتادة"⁽³⁰⁾. ولعل شغف الرزاز بأسلوب الاعتراف جاء من تأثره بأنواع الروايات العالمية؛ فقد كان يحاول أن يفيد من "الرواية النفسية والوجودية واللامعقول ورواية تيار الوعي، والرواية الجديدة لأعلام في القرن العشرين أمثال "كافكا" و"جيمس جويس" و"فوكنر وسارتر" و"البير كامو" و"بكيث" و"غريية" و"ساروت... وغيرهم"⁽³¹⁾.

لا نبالغ إذا قلنا: إن حضور هذا الأسلوب في رواياته يعد من آليات التجريب في الرواية الأردنية الحديثة، وهذا يدل على محاولته النهوض بالفن الروائي الأردني إلى مستوى عالٍ من البراعة والتميز، ففي رواية "متاهة الأعراب" يتجلى هذا الأسلوب في بداية الرواية وفي مواطن متعددة منها، فقد ظهر في بدايتها على لسان آدم الحسنيين، الذي تحدث عن طبيعة نفسه وعائلته وشجاعة والده. يقول: "أنا أخاف، أبي لا يخاف العتمة، أبي بطل. قال: إنه أقوى من أديب الدسوقي، ومن شمشون الجبار، وأقوى من فريد شوقي كمان، لكن أمه البدوية في السماء، ووالده الذي نزع من الشام وحيداً، عاد فنزع من الشام إلى مسقط رأسه وحيداً، وعائلة أبيه شبه المنقرضة ظلت غامضة المصير"⁽³²⁾.

إن اعتراف آدم الحسنيين يجعل المتلقي يدرك منذ البداية ملمح الضعف، المتمثل باعتزافه بالخوف ويدرك أصالة والده التي تعود إلى البداوة العربية الأصيلة، والمتلقي المتابع لأحداث الرواية يستطيع أن يدرك أن حسنين هو الإنسان العربي الأردني المنفصم المقيم في عمان والمنتمي إلى أصول مختلفة من كل بقاع الوطن العربي، وقد سجن والده بسبب ثقته الكاملة بالقومية العربية، وقد انحارت ثقته بهذه الرابطة، ولعل الصراع بين الوعي بالحاضر المعاش واللاشعور الجمعي، ورفض التحولات التي أدركها بعد صحوته من غيبوته الطويلة هو الذي أدى به إلى الانقسام والتشطي، فنحن نلاحظ أنه انفصم إلى حسن الأول وحسن الثاني، وقد أخذ حسن الأول يدلي باعتزافه للدكتور كاشفاً عن نفسه وعن حسن الثاني الذي عده شبحاً يسكنه. يقول حسن الأول: "أقول لك يا حكيم: إنه كائن عجيب. تصور يا حكيم. قال إنه

ترك جسده هناك في بيتي مسجىً داخلًا في غيبوبة واختفى هو ... للتمويه... حسن الثاني هو الذي ورطني يا دكتور. إنه كائن خرافي يا دكتور. اعتقد أنه عصائي ممسوس، ولكنه سكنني. أعني أنني مسكون به، أقصد أنني أسكنه⁽³³⁾. ففي اعتراف حسن الأول نستطيع القول: إن حسن الثاني يمثل عالم اللاشعور الجمعي بينما هو يمثل عالم الواقع واتضح ذلك من خلال قوله: "أنا يا دكتور شخص علماني، مؤمن بحقائق العلم والتكنولوجيا"⁽³⁴⁾. فقله ذلك لا يجعل منه شخصاً إلا بالمادية المحسوسة المستندة إلى النظريات العلمية البحتة.

وفي مكان آخر من الرواية يقدم لنا الرزاز طفولة حسن الثاني، عن طريق الاعتراف إذ يجعل حسناً يتحدث إلى الدكتور ويعترف أنه مجرد شيخ، وهو بهذا الاعتراف يكشف عن رؤية فكرة عامة تحيل إلى ضرورة تكوين الجماعة ذات السمات والآفاق والمهموم المشتركة، ولعله هنا يشير إلى القومية العربية التي تعاني من عقبات لا حصر لها. يقول للدكتور: "ماذا يا حكيم؟ تريدني أن أحكي لك عن طفولتي؟ ماذا أقول؟ كان لي أسرة وعصبة كان أبي شيخ العصبة. والناس قلوبهم متعلقة به، وأنظارهم شاخصة إليه. ثم نمت يا حكيم، واستيقظت، فإذا أنا عارٍ بلا أسرة ولا عشيرة ولا عصبة ولا امرأة، أبي اختفى وأمي قضت هما وغماً وأبو التوت سقط ... لست سوى شيخ يوقظ عاصف الذكريات لدى زوجتي والعصبة والمعارف كأن خروجي على الناس، بعد غياب أرواحهم، بات أشبه بغارة من غارات الأقدار أو غزوة من غزوات القلق"⁽³⁵⁾.

يستطيع القارئ أن يدرك من خلال اعتراف حسن الأول ووصفه لشخصية حسن الثاني، أن حسناً الأول كان مصيباً. فيما قال عن طبيعة حسن الثاني الذي لا يتعدى في ماهيته وكيونته صفة الظل والخيال؛ لأنه فقد كل شيء فلم يعد يعني شيئاً، ولم يعد موجوداً فتحول إلى ظل وشبح، ولعل كثرة الاعترافات في "متاهة الأعراب" على لسان حسنين، وإصرار المؤلف على هذه الشخصية وجعلها تصل إلى الانفصام يجعلنا نرى أن حسنين في الحقيقة الرزاز، وأن الرزاز استخدم هذه الشخصية كقناع لنفسه، يدلي من خلالها بما يضمر في نفسه، وما يكتنفها من أوضاع نفسية صعبة، فنحن نعرف أن الرزاز كان يعاني من انفصام في الشخصية حتى إنه كان يتردد على أطباء نفسيين بريطانيين وأمريكيين، يقول: "لقد قمت باستشارة أخصائيين في بريطانيا وأمريكا، ولكن بدون جدوى، كنت على قناعة بأن علاجي ليس في متناول علماء نفس غربيين"⁽³⁶⁾.

لعل الرزاز أراد من هذه الاعترافات التي قدمها من خلال شخصياته الروائية الوصول إلى حالة من التطهير والتوازن النفسي نظراً للحالة النفسية والاضطراب الذي يعانيه، وهذا ما أكدّه نزيه أبو نضال في حديثه في اللقاء المفتوح، الذي حمل مسمى "شهادات حول مؤنس الرزاز". يقول: "الاعتراف أمام الطبيب النفسي هو نوع من التطهير، والتوازن النفسي يعني أن يتطهر ذاتياً ويحصل على التوازن النفسي، وهذا هو الجانب الذي كان مؤنس حريصاً عليه"⁽³⁷⁾. ولا عجب في ذلك فمؤنس يعترف بأنه لجأ إلى أسلوب الاعتراف؛ من أجل التطهير. يقول مؤنس: "أقر بأن كتابة الاعترافات سلاح خطير قادر على تطهير النفس والروح، واعترف بأني لجأت إلى هذا السلاح عندما أدركت بأنّ البحر من ورائي وأتوّن المرائر من أمامي"⁽³⁸⁾.

يبدو للنّاظر في روايات الرزاز أن أسلوب الاعتراف أيضاً أخذ سمة فنية بارزة في رواية "اعترافات كاتم صوت" و "جمعة القفاري"؛ إذ نلمح فيهما كثيراً من الشخوص تفصح مباشرة عن سماتها وتعرّف بنفسها، ففي رواية "اعتراف كاتم صوت" ظهر فيها يوسف ليفصح عن نفسه ويعرّف القارئ بأنه ليس خارقاً للعادة، بل هو إنسان عادي. يقول: "إنني بشر، إنسان عادي يحب ويكره... أؤكد لكم أنني بشر مثلكم، حتى إنني أحببت امرأة أمريكانية ذات مرة..."⁽³⁹⁾. ثم بعد عدة صفحات من الرواية نجده في اعترافه يشير إلى ثقافته التي اكتسبها من الحياة، دون أن يكون قد تخرج من أي جامعة "إنني خريج مدرسة الحياة، أعظم مدرسة في العالم. أكثر عراقة من أوكسفورد التي لم أرها، وأعظم اتساعاً من جامعة بيروت العربية التي رسبت فيها وترددت على مكتبتها"⁽⁴⁰⁾. ويوسف يودّ الاعتراف عن الجوانب الإنسانية في شخصيته وعن ماضي طفولته الذي تعرض فيها للقمع والاضطهاد⁽⁴¹⁾. وهو ينفر من الاعتراف به لأنه أخفق في فهم البطولة. يقول: "إنني عاجز عن فهم البطولة، لا أفهم الأبطال أبداً، حين أموت لا أريد أن أترك سطوراً في كتاب التاريخ، ولا فاصلة ولا ضمة، لا أرغب في أن أترك بصمة واحدة على لحظة من لحظات الزمن الأبدية الهاربة"⁽⁴²⁾. واللافت للنظر أن هذه الاعترافات التي قدمها يوسف لم تأتِ دفعةً واحدةً في مقدمة الرواية أو في منتصفها أو في آخرها، بل جاءت تدريجياً، بحيث جعلت القارئ يكشف عنها موزعة على طول الرواية، والحق أنّ هذه براعة فنية تسجل للرزاز؛ لأنّ تقديم الشخصية من خلال اعتراف واحد في مقدمة الرواية مثلاً يحرم القارئ من لذة الكشف والبحث، التي غالباً لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق متابعة القارئ للسرد الكلي على طول الرواية، ونحن هنا لا

نطالب الروائي بأن يجعل في روايته حشوداً اعترافية مكثفة على طولها، ولكن نقول في رواية تجريبية كرواية "اعترافات كاتم صوت" قد تكون أكثر نجاحاً من مجرد الاكتفاء باعتراف يلخص معلومات كاملة في ذهن القارئ.

أما في رواية "جمعة القفاري" فقد غطى حديث جمعه واعترافه حيزاً كبيراً على طول الرواية، إذ بدأ في اعترافه الأول يقدم لنا نفسه أنه فتى عاش في عمان الغربية، وأنه فتى يحب المغامرات والنساء، يقول: "أنا جمعة القفاري (ما غيره) الذي عاش طوال حياته في عمان الغربية، لم يغادرها إلا في سفرات سياحية إلى أوروبا، أو للعلاج في أمريكا، ... أنا جمعة القفاري الذي أحب المغامرات ولم يخض في لجتها، جمعة الذي أحب عشرات النساء" (43). ويتابع جمعة في موطن آخر اعترافه؛ ليكشف عن اخفاقاته في الحياة. يقول: "أنا جمعة الذي ورث عن أبيه عشرات دونمات الأرض. كانت تساوي في الخمسينات مائة دينار، في الستينات، أيام الطفرة باتت تساوي مليون دينار. وها هي اليوم لا تكاد تساوي مائة ألف دينار، الخطير في الأمر أنني بعت نصفها قبل الطفرة، والنصف الثاني بعد الطفرة، وأنفقت نقودي على الزواج والمستشفيات، وفي أمور سخيفة لكنها نبيلة، وكنت مليونيراً ذات يوم. مع أنني عاطل عن العمل" (44).

يبدو للقارئ أن الرزاز في رواية "جمعة القفاري" جعل جمعة يفصح عن نفسه وعن اضطرابه الذي سيطر على مجمل حياته فمنذ البداية يعترف بأنه نكرة بلا وجود في المجتمع الذي يحيا فيه، ويحاول جمعة أن يمدح هذه الصفة، ولكن سرعان ما يعود، ويثبت سلبية هذه الصفة عندما يتحدث عن نفسه، ويتذكر المرحوم ميشيل النمري. نسمعه يقول: "نعم، أنا مجرد نكرة: وما العيب في ذلك؟ هل تستطيع أنت أن تتمتع بهذه النعمة؟ هل سمعت بالمرحوم ميشيل النمري؟ ميشيل النمري لم يكن نكرةً، فانظر إلى أي مصير انتهى، إنها الأضواء يا عزيزي! كان هذا الشاب الجريء يرغب في تغيير العالم، خاض غمار السياسة ثم الصحافة، أنبأني "كثير الغلبة" أن المرحوم ميشيل كان تحت الأضواء، وأنه ذو طموح، لهذه قتلوه... كان المرحوم في عز شبابه ولم يكن نكرة مثلي، ولأنه لم يتمتع بامتيازات النكرة... قتل" (45). ومن خلال هذا البوح المباشر، يستطيع القارئ أن يدرك ماهية هذه الشخصية وانفعالاتها وتأزمها، فجمعة يلزمه شعور فقدان الذات، وأنه نكرة في المجتمع مع أنه لا يحب هذه الصفة ويسعى للتخلص منها، فهو شخصية قلقة مؤرقة مقطوعة من شجرة امتداداً لشخصيات

روايات مؤنس السابقة، تحاول أن تبحث عن هويتها التي أضاعتها، فمن تابع لماوتسي وجيفارا إلى مرتاد لدار القرآن يشهد "حضرة" المتصوفة ويفعل كما يفعلون بحثاً عن حل لأزمته الروحية⁽⁴⁶⁾.

اللافت للنظر أنّ اعتراف شخصيات مؤنس، يجعل القارئ خاضعاً للخدعة الفنية، فمثلاً في اعتراف جمعة، يتوهم القارئ أن جمعة شخصية حقيقية عانت من ماضٍ صعب وحملت هموماً وطموحات كثيرة، ومصابة بداء الانفصام لتصبح في ذهنه شخصية واقعية من لحم ودم، ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها ولا تجاوزها هي أنّ شخصية جمعة شخصية خيالية لا يمكن وجودها إلا في ذهن المؤلف، فالرزاز يبت أفكاره وما يعتلج في فكره وشعوره في روح هذا الكائن الورقي "جمعة"، ولا نبالغ إذا قلنا إن الرزاز نجح في أسلوب الاعتراف، الذي ساعده على التعبير عن هذه الشخصية الورقية وما يختمر في ذهنها من أفكار، وليس بعيداً أن يكون الرزاز أراد أن يعبر من خلالها عن اغترابه عن المجتمع الذي يعيش فيه، ويدين الأوضاع العامة التي يعيشها المجتمع العربي والتحول التي شهدتها المجتمع الأردني في فترات مختلفة بأسلوب فني بارع، ويخلق عالماً روائياً يناسب فكره ومنهجه. يقول سعود قبيلات: "مؤنس الرزاز إضافة إلى أنّه كان يحس بهموم الناس في الوطن العربي، فقد كان يعبر عنها بطريقة متميزة فنياً، وهو كاتب أحدث تجديدات مهمة على الرواية سواء محلياً أو عربياً، ولم يكن هاجسه فقط التعبير بأيّ طريقة وبأيّ شكل عن أفكاره أو عن هموم الناس الذين يجهم، إنما كان لديه أيضاً هاجس فني، وسعى دائماً إلى تحقيق إنجازات فنية"⁽⁴⁷⁾.

أخذ أسلوب الاعتراف في رواية "مذكرات ديناصور" شكلاً آخر حين كانت تقوم شخصية رفيقة للشخصية المذكورة في السرد بالاعتراف عنها، متضمنة الحديث عن ماضيها وكشف طبيعتها ونفسياتها وماهيتها، ولعل مثل هذا الشكل وغيره في أسلوب الاعتراف يميل إلى ضمير المتكلم، الذي يساعد في إبعاد الملل عن القارئ ويجعل حديث الشخصية أكثر قبولاً لديه وأكثر مصداقية، خاصة حين تتحدث شخصية أخرى عن شخصية في السرد؛ ففي رواية "مذكرات ديناصور" تكشف لنا زهرة في اعترافاتها عن زوجها عبد الله الديناصور، وعن مدى الحب والرغبة التي كان يجنح بها إليها. تقول: "أرغبُ في مجال حيوي يتركه لي، يحاصرني أحياناً حد الارتطام الخانق. أحبه، لكن دون أن أتخفف من وهلة الجلوس إلى نفسي، احتاج إلى الاختلاء بي أحياناً، لكنّه حتى في المنام، يتحدث إليّ وإلى أشباح وأطياف، ويفرض

عليّ سماع حوارهِ مع عوالم لا واعية⁽⁴⁸⁾. فهو يلازمها ولا يستطيع العيش دونها لأنها أصبحت كظله.

الخاتمة

ومما سبق؛ نستطيع أن نخلص إلى أن التقديم المباشر الذي لجأ إليه الرزاز في رواياته ساعده كثيراً على تحقيق الفنية العالية التي كان دائم التوق إليها في أعماله الروائية فقد استطاع أن يحفز ذهن القارئ من خلال هذا النمط الأسلوبي على فهم الشخصيات، وتزويد القارئ بمعلومات تفصيلية ساعدته على الوصول إلى تحديد ماهية الشخصية، وما ينتابها من أزمت نفسية، خاصة من خلال أسلوب الاعتراف الذي جاء على لسان الشخصيات مباشرة. كما يتبين لنا أن الوصف الخارجي للشخصيات في أغلب رواياته لم يحتل حيزاً واسعاً مقارنة بأسلوب الاعتراف الذي أخذ مساحة واسعة في كثير من رواياته، وفي ظني أن هذا يعود إلى أن رواياته حملت الطابع الجواني، ويبدو أن تقديم الشخصية برسم هذه الملامح النفسية ساعد الروائي على جعل عالم الرواية عالماً أقرب إلى عالم الحقيقة الإنسانية بالرغم من أن شخصيتها في الحقيقة مجرد وهم نسجته مخيلة الروائي.

الهوامش

- (1) الفیصل: بناء الشخصية الروائية "بناء الشخصية الروائية"، الموقف الأدبي، دمشق، ع 345، 2000م ص: 67.
- (2) بحراوي: حسن: بنية الشكل الروائي (الفضاء-الزمن-الشخصية)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م، ط1: 223.
- (3) جيرالد: قاموس السرديات المصطلح السردی (معجم المصطلحات) ترجمة: عايد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م: 24.
- (4) انظر: بوتور، ميشال: بحوث في الرواية الجديدة، ت: فريد انطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، 1982م: 64-65.
- (5) بارت، رولان: الدرجة الصفر للكتابة، ت: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 2002م: 47، وانظر: جنيت، جبرار: عودة إلى خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م: 134.
- (6) لودج، ديفيد: الفن الروائي، ت: ماهر البطوطي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002: 78.
- (7) السمرة، محمود: في النقد الأدبي، الدار المتحدة للنشر، القاهرة، ط1، 1974: 25.
- (8) أبو شريفة، عبد القادر، وقرق، حسين لافي: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان 1993: 133.
- (9) عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، وزارة الثقافة، دمشق، ط1: 552.
- (10) المرجع نفسه: 553.
- (11) هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1987م: 550.
- (12) كورمو، نيللي: فيزيولوجية القصة، الآداب، بيروت، كانون الثاني، يناير، 1954: 77.
- (13) رضوان، عبد الله: البنى السردية (2)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2003: 339.
- (14) الرزاز، مؤنس: الأعمال الكاملة (ج1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003: 169.
- (15) السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن، منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة الكتاب الأمم في تاريخ الأردن، رقم 32، عمان، 1995: 259.
- (16) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 320.
- (17) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 505.
- (18) المصدر نفسه: 764-765.

- (19) اللجنة العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية، الرواية في الأردن، منشورات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربي، ط1، 2002: 12.
- (20) العمدة، سلوى: لحظة من تجربة التصوف عند مؤنس الرزاز، أفكار، عمان، ع 163، 2002: 39.
- (21) المرجع نفسه: 39-40.
- (22) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 700.
- (23) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 715.
- (24) المصدر نفسه (ج2): 31.
- (25) انظر: المصدر نفسه (ج1): 7-280.
- (26) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 204-205.
- (27) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج2): 286-287.
- (28) انظر: خليل، إبراهيم: الرواية في الأردن في ربع قرن (1968-1993)، دار الكرمل للنشر، ط1 1994: 119، وانظر: محيلان، منى محمد، التجريب في الرواية العربية الأردنية (1960-1994)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2000: 128.
- (29) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج2): 286.
- (30) بورنوف، رولان، وريال اونيليه: عالم الرواية، ترجمة: نهاد التكريلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. ط1، 1991م: 160.
- (31) مساعدة، نوال: البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000م: 176.
- (32) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 505.
- (33) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 546.
- (34) المصدر نفسه: 546.
- (35) الرزاز: الأعمال الكاملة: 587-588.
- (36) العمدة، سلوى: لحظة من تجربة التصوف عند مؤنس الرزاز، أفكار، عمان، ع 163، 2002م: 40.
- (37) كرم، ثريا: في اللقاء المفتوح: شهادات حول مؤنس الرزاز، أفكار، عمان، ع 163، 2002: 73.
- (38) اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة: ملتقى الرواية في الأردن: 316.
- (39) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج1): 283.
- (40) المصدر نفسه: 487.
- (41) انظر المصدر نفسه: 433.
- (42) المصدر نفسه: 475.

(43) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج2): 7

(44) المصدر نفسه: 9.

(45) الرزاز: الأعمال الكاملة: 11.

(46) انظر: السعافين، إبراهيم: الرواية في الأردن: 296، وانظر: الفاعوري، عوني صبحي: أثر السياسة في الرواية الأردنية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999: 80.

(47) كرم، ثريا: في اللقاء المفتوح: (2002)، "شهادات حول مؤنس الرزاز"، أفكار، عمان، ع 163 : 68.

(48) الرزاز: الأعمال الكاملة (ج2): 349.

الاقتصاد الرقمي ومنه البات استجابة البنوك إلى التغيرات الجارية

جمال حود موسىة

العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير جامعة التكوين المتواصل غرداية

تمهيد:

تؤدي تكنولوجيا المعلومات دورا إستراتيجيا في زيادة معدلات النمو الاقتصادي وإصلاح الآليات الاقتصادية والتجارية والمالية، وتحديدًا تقوم هذه التقنية وأدواتها المختلفة بتحويل وتغيير أنماط الأداء الاقتصادي في المال والأعمال والتجارة والاستثمار من الشكل التقليدي إلى الشكل الفوري بما يحقق تحسين المراكز التنافسية.

وإن إدخال تكنولوجيا المعلومات والاتصال في العمل المصرفي أصبح من الضرورة بمكان في ظل التطورات العالمية الراهنة في هذا المجال، وذلك باعتبار أن القطاع المصرفي يعد من بين القطاعات التي يبنى عليها الاقتصاد الجديد، لذلك وجب التفكير في وضع الإستراتيجيات التي يمكن اعتمادها في مواجهة تحديات التحول إلى العمل المصرفي الإلكتروني، وكذلك الإتجاهات الأمنية حماية البيانات والبيئة المصرفية، فبقدر ما تدخله هذه الخدمة من تسهيلات في الوقت والجهد والمال، فهي تحمل مشاكل ومخاطر كبيرة.

1- ماهية الاقتصاد الرقمي:

1-1 تعريف الاقتصاد الرقمي¹:

يقصد بالاقتصاد الرقمي التفاعل والتكامل والتنسيق المستمر بين تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات من جهة، وبين الاقتصاد القومي والقطاعي والدولي من جهة أخرى بما يحقق الشفافية الفورية والإتاحة لجميع المؤشرات الاقتصادية المساندة لجميع القرارات الاقتصادية والتجارية والمالية في الدولة خلال فترة ما.

1-2 خصائص الاقتصاد الرقمي:

يتميز الاقتصاد الرقمي بالعمل على نشر مجتمع المعلومات والمعرفة وتشجيع بناء ا كومات الإلكترونية، وشركات المساهمة الإلكترونية والتجارة الإلكترونية والبنوك الإلكترونية والإدارة الإلكترونية، وفيما يلي ندرج أهم مزايا وخصائص الاقتصاد الرقمي²:

- سهولة الوصول إلى مصادر المعلومات.
- المنافسة والهيكل السوقى في ظل الاقتصاد الرقمي.
- مستقبل الاقتصاد الكلى في ظل الاقتصاد الرقمي.
- الاقتصاد الرقمي يوفر المعلومات لاتخاذ القرارات.

1-3 آليات الاقتصاد الرقمي:

يساعد الاقتصاد الرقمي في معرفة أثر الاقتصاد على المجتمع وتشخيص المشكلات الاقتصادية من حيث الأسباب والنتائج والمساهمة في اقتراح ا لمول الاقتصادية المثالية والعملية.

ومن تطبيقات الاقتصاد الرقمي نظام يستخدم لتمييز وتحديد وتبادل المعلومات الخاصة بحقوق الملكية الفكرية والاختراعات في بيئة رقمية، حيث يمكن إدارة الاختراعات و تنوياتها مع ربط الطلب على البحوث والتطوير مع المعروض منها لتسهيل حركة التجارة الإلكترونية.

1-4 هيكل الاقتصاد الرقمي³:

يتكون الاقتصاد الرقمي من مجموعة من المؤسسات الإلكترونية التي تتشابه مع بعضها البعض من خلال شبكات المعلومات الداخلية والدولية، ويعتبر البريد الإلكتروني ومواقع الإنترنت القاعدة العريضة لتحقيق التشابكات الاقتصادية بين المؤسسات لتنفيذ التجارة الإلكترونية أي تبادل السلع والخدمات والأموال إلكترونياً.

ويشمل الاقتصاد الرقمي أيضاً تسويق العديد من المنتجات المصرفية بالجملة أو التجزئة عن طريق قنوات التوزيع الإلكترونية وهو ما يسمى بالبنوك الإلكترونية،

ويتحقق ذلك بسرعة المعاملات والتجديد فيها.

وتقوم شركات المساهمة الإلكترونية في الاقتصاد الرقمي بتصميم مواقع على شبكة الإنترنت وكتالوج إلكتروني للتعريف بالشركة ونشاطها وخططها ومراكزها المالية وأسواقها وأهداف تصديرها، وذلك لتحقيق الإتصال الفوري بالأسواق العالمية.

2- ركائز ومتطلبات الاقتصاد الرقمي.

2-1 الركائز التي يقوم عليها الاقتصاد الرقمي: يقوم الاقتصاد الرقمي على أربع ركائز رئيسية، هي⁴:

- البنية التحتية للتجهيزات التقنية؛

- توفير البيئة القانونية المنظمة لتأمين المنافسة العادلة؛

- قدرة القطاع المالي على توفير وتطوير الإستثمارات ورؤوس الأموال المخاطرة من أجل دعم ومساندة الأفكار الذكية؛

- رأس المال البشري المتمثل في الموارد البشرية التي تعنى بقطاع التعليم والتدريب.

2-2 متطلبات الاقتصاد الرقمي في المؤسسة المالية:

يشترط الاقتصاد الرقمي من المؤسسات المالية ضرورة الإحتفاظ بملفات دقيقة لكل من⁵:

إدارة القروض، إدارة الحسابات بالبنوك، إدارة سياسات التأمين. إدارة الإستثمارات، كما أن أساس الدقة في الإحتفاظ بالبيانات المالية وتوفير أمن تلك المعلومات يتم عن طريق إدارات تكنولوجيا المعلومات في تلك المؤسسات المالية، وتشمل تلك الإدارات وحدات لتحليل النظم والبرمجة وتشغيل الحاسب الإلكترونية ومراقبة وإعداد البيانات إلكترونياً.

ويتم تشغيل المؤسسات المالية إلكترونياً عن طريق المكاتب الإلكترونية التي تستخدم:

- البريد الإلكتروني والإنترنت؛

- النشر الإلكتروني؛

- البيانات المرئية وقواعد البيانات الفورية.

ويفيد كل ذلك في إدارة الإستثمار واستخدام آلات التحويل، كما تستخدم نقاط البيع الإلكترونية والسداد بالبطاقات الإلكترونية، كما تتم عمليات المقاصة والتسويات بين البنوك إلكترونياً.

3- الفجوة الرقمية:

يفتح التطور المذهل لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة آفاقاً عديدة لتشجيع العلوم والتقنيات، وانتشار المعرفة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والفرص التي يقدمها فيما يتعلق بالتعاون والاتصال بين الشعوب.

ومع هذا، فإن المجتمع الدولي اليوم يتصف باختلال في التوازن فيما يرتبط بتكنولوجيا المعلومات والاتصال والمتمثل في الفجوة الرقمية.

3-1 إشكالية الفجوة الرقمية:

1- تعريف الفجوة الرقمية⁶:

شاع استخدام مصطلح "الفجوة الرقمية" في خطاب التنمية المعلوماتية، وتعرف الفجوة الرقمية بأنها الفجوة التي خلقتها تكنولوجيا المعلومات والاتصال بين الدول المتقدمة والدول النامية، وتقاس بدرجة توافر أسس المعرفة بمكونات الاقتصاد الرقمي الذي يستند إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصال، ودرجة الإرتباط بشبكة المعلومات العالمية وتوافر طرق المعلومات السريعة والهواتف النقالة وخدمات التبادل الرقمي للمعلومات.

إن الفجوة الرقمية بين الدول تتزايد فإرضة العديد من التحديات التي أوجدت عوائق ضخمة أمام جهود التنمية، وقد أصبحت تشكل خطراً حقيقياً في تهميش الدول التي تفتقد إلى مقومات إنشاء البنية الأساسية للشبكة العالمية للمعلومات والاتصالات والتبادل الرقمي.

ولتحديد عمق الفجوة الرقمية، لا يكفي مجرد النظر إلى مدى توافر البنية الأساسية للمعلومات وشبكة الاتصالات، بل يجب النظر إلى نوعية العنصر البشري المتعلم والمؤهل للتعامل مع التكنولوجيا الحديثة والذي يرتبط بمستويات الدخل، التعليم والثقافة.

2- أسباب الفجوة الرقمية:

تتفق الآراء على أن الفجوة الرقمية تنأى من تأخر البلدان النامية في مجال البنى التحتية والخدمات المرتبطة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة، ويمكن أن نحصر الأسباب الأساسية لهذه الظاهرة فيما يلي⁷:

- قلة الإستثمارات الخاصة والعامة في مجال البنى التحتية مما يحد من التغطية الوطنية ومن نوعية طرق الإرسال.

- انخفاض مستوى معيشة السكان، والذي يزيده انخفاض إرتفاع التعريفات لإستخدام البنى التحتية.

- نقص الموارد البشرية المؤهلة لإدارة الشبكات واستخدامها لتطوير الخدمات.

- إرتفاع نسبة الأمية بين السكان مما يحد من استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة وضعف مشاركة القطاع الخاص الوطني في تطوير الخدمات الجديدة.

- إطار البيئة الجديدة التجارية والمؤسسية الذى لا يكون مناسباً ولا يشجع غالباً أي مبادرة من القطاع الخاص في هذا الميدان.

- هروب الأدمغة العلمية المؤهلة في جميع التطبيقات المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة.

وهكذا تظهر أن الفجوة الرقمية هي نتاج تراكم عوامل عديدة مترابطة أكثر مما هي نتاج ظاهرة واحدة معزولة، ويتطلب حلها جهوداً متضافرة طويلة الأمد من قطاعات متعددة مع مشاركات إقليمية ودولية.

3- شروط امتصاص الفجوة الرقمية:

من مصلحة البلدان الغنية امتصاص هذه الفجوة كي تنفذ إلى أسواق جديدة وتحقق آفاق نمو كبيرة، ومن مصلحة الدول النامية من جانب آخر أن تنفذ بشكل تام إلى مجتمع المعلومات وتستفيد من الفرص التي تقدمها العولمة ولا يمكن إمتصاص الفجوة الرقمية إلا إذا⁸:

- جاء الممولون من البلدان الغنية بأموال واستثمروها في مشاريع مفيدة للطرفين تقام في سوق الإتصالات الضخمة للبلدان النامية.

- فتحت البلدان الفقيرة أسواق إتصالاتها للمستثمرين من البلدان الغنية الذين يمتلكون التكنولوجيات والخبرات والأموال.

ولتحقيق هذا الهدف لابد من تطوير التعاون بين البلدان النامية والبلدان الغنية المتقدمة، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق تنفيذ برامج وطنية لتنمية الاتصالات تنسق باعتماد جميع البلدان "استراتيجية دولية لامتصاص الفجوة الرقمية" على المدى الطويل.

4- وضع الفجوة الرقمية في العالم والمعوقات الأساسية لها:

4-1- وضع الفجوة الرقمية في العالم:

لمعرفة وضع البنية الأساسية لمجتمع المعلومات والاقتصاد الرقمي خاصة في الدول النامية نشير إلى 1 قائق التالية⁹:

- أكثر من 80% من سكان العالم لا يتصلون بالهاتف ولا يستخدمون شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) أو البريد الإلكتروني أو التجارة الإلكترونية. - يقدر عدد المشتركين في شبكة الإنترنت حالياً بحوالي 2% من سكان العالم فقط رغم أن أعدادهم تتضاعف بسرعة غير مسبقة. - تستحوذ الدول المتقدمة، التي يقطنها نحو 15% من سكان العالم على حوالي 88% من مستخدمي الإنترنت، بينما تبلغ نسبة المشتركين في الإنترنت في دول جنوب آسيا التي يقطنها 20% من سكان العالم، ما نسبته 1% فقط. أما في إفريقيا التي يقطنها 12% من سكان العالم، فإن عدد المشتركين يبلغ نحو

مليون شخص فقط.

- ارتفاع عدد أجهزة ااسوب المتصلة بشبكة الإنترنت في العالم من مليون جهاز إلى 30 مليون جهاز خلال الفترة (1992 – 1998).

- ارتفاع حجم المبادلات المالية والتجارة الإلكترونية.

- يقدر حجم الإنفاق على البنية المعلوماتية للفرد في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بنحو 129 دولار، مقارنة مع 28 دولار في أمريكا اللاتينية، 23 دولار في دول أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وأقل من 12 دولار في إفريقيا.

4-2- المعوقات الأساسية:

تقف العوامل التالية كمعوقات أمام دخول الدول النامية إلى مجتمع الاقتصاد الرقمي¹⁰:

- افتقار الدول النامية للموارد البشرية والمادية والخبرات التكنولوجية التي تمكنها من الإنتفاع إقتصادي من تكنولوجيا المعلومات والإنصال.

- انصراف الاهتمامات اكومية إلى توفير الاحتياجات الأساسية في الدول والمجتمعات الفقيرة.

- انعدام أو ضعف الوعي بأهمية التكنولوجيا وتطبيقاتها، بل وتبني مواقف سلبية منها في بعض الأحيان.

- غياب البنى التحتية التي تتيح الإتصال بالإنترنت من تكنولوجيا لاسلكية وأقمار صناعية وهواتف نقالة.

- ارتفاع تكلفة استخدام الإنترنت.

- استخدام اللغة الإنجليزية في 80% من مواقع الإنترنت، مع ضعف الإلمام بها في الدول النامية.

- انعدام الثقة عند إجراء المعاملات والسداد عبر الإنترنت، وعدم انتشار اعتماد التوقيع الإلكتروني ومصداقية الوثائق التي يتم تبادلها عبر الإنترنت مع ضمان

الأمان.

- غياب الإطار التشريعي الذي ينظم المعاملات الإلكترونية في ظل انفتاح الأسواق وانتشار الإنترنت و فهاظ على حقوق الملكية.

3-4 استراتيجيات سد الفجوة الرقمية:

أ- العوامل الهامة في سد الفجوة الرقمية: تتمثل هذه العوامل أساسا في¹¹:

- الوعي: ينبغي أن تعي الدولة ويعي الأفراد تماما أهمية التكنولوجيات الرقمية وتطبيقاتها.

- إمكانية النفاذ: ينبغي توسيع البنى التحتية وتحسينها لإتاحة النفاذ اللازم للتمكن من استعمال تكنولوجيا المعلومات والإنصال استعمالا فعالا.

- القدرة على تحمل التكلفة: ينبغي التوصل إلى أساليب لتقديم الخدمات إلى المستعملين بتكلفة منخفضة، ومعدات بأسعار منخفضة والتدريب على الإستعمال الفعال لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات لأغراض التنمية الوطنية والفردية.

- البنية التحتية: حيث تعتبر عاملا حاسما في سد الفجوة ومواجهة صعوبات النفاذ إلى الشبكات الرقمية.

- مشاركة المشاريع التجارية في أي أنشطة تمويلية: سواء كان ذلك من ناحية تقديم الخدمات المطلوبة أو الدعم المالي.

- التعاون والتضامن الدوليين: وذلك لإتاحة فوائد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للجميع.

ب- أساليب سد الفجوة الرقمية: يمكن التغلب على قضية الفجوة الرقمية من خلال¹²:

- قيام المؤسسات الدولية بتقديم المساعدة المالية اللازمة لدعم جهود إقامة البنية الأساسية لمجتمع المعلوماتية، ووضع برامج للتمويل والمساعدة الفنية لتحويل الفجوة الرقمية العالمية إلى فرص رقمية عالمية.
- التزام الدول المتقدمة بالقيام بدور ريادي لبناء "مجتمع المعلومات" ودعم جهود تضيق الفجوة الرقمية.
- إطلاق المبادرات المشتركة بين القطاع الخاص ومؤسسات دولية لتضيق الفجوة الرقمية، وتقديم الدعم الفني والقانوني والإداري لتعزيز قدرات هذه الدول وتسريع إدخال الإنترنت وتطبيقاتها.
- تنامي دور الشركات العالمية الضخمة المصنعة للتكنولوجيا لدعم جهود تضيق الفجوة الرقمية. توسيع دائرة استخدام الإنترنت على مستوى الأفراد والمؤسسات.
- زيادة الدعم الحكومي والإهتمام بمجالات التعليم والتدريب.
- مواصلة أعمال البحث والتطوير الموجهة نحو الابتكارات لتخفيض التكاليف وتعزيز الاهتمام والطلب على المعلومات عن طريق الإنترنت.
- تعزيز التنوع الثقافي عبر الإنترنت (اللغات - 1 توى - الثقافة).
- تطوير المعدات الملائمة المنخفضة التكلفة لتكنولوجيا المعلومات والاتصال التي تتيح النفاذ واسع النطاق.
- ج- دور الحكومات¹³:
- يمكن للحكومات أن تساعد على سد الفجوة الرقمية من خلال القيام بالإجراءات التالية:
- ممارسة الإرادة السياسية لدفع مبادرات تضيق الفجوة الرقمية.
- تعزيز تحرير قطاع الاتصالات وإتاحة المستوى الصحيح من التنظيم لغرس الثقة وتعزيز المنافسة في تقديم الخدمات بما يؤدي إلى زيادة الكفاءة التشغيلية وتخفيض التكلفة على المستعمل.

- منح الإستقلال للهيئات التنظيمية لكفالة حصول جميع المواطنين على فرصة الإستفادة من التكنولوجيات الرقمية الجديدة، ولكي تكون سوق الإتصالات جذابة للإستثمارات الرأسمالية.

- إتاحة التدريب على إستعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال والإنترنت.

5- التحديات، الإستراتيجيات والتخطيط في العمل المصرفي في ظل الاقتصاد الرقمي:

5-1 أهم التحديات التي تواجه البنوك في ظل الاقتصاد الجديد.

هناك العديد من التحديات التي تواجه تطبيق الخدمات المصرفية عبر شبكة الانترنت، ويلاحظ أن صعوبة التحدي تكمن في الخدمات التي تجتهد البنوك في تحويلها إلى خدمات إلكترونية، وهي في واقع الأمر "منتجات مشتركة" أي يشترك البنك مع العديد من الأطراف في ظهورها وانتشارها، وبمعنى آخر فإن إنتاجها وإستهلاكها يعتمد على مداخلات وسلوكيات الكثير من الأطراف ليس خارج البنك فقط بل خارج مجال الصناعة المصرفية، وعموما فإن أهم التحديات تتمثل في¹⁴:

1- التحديات القانونية في حقل البنوك الالكترونية:

أ- تحديات التعاقدات المصرفية الالكترونية ومشكلات الإثبات.

ب- أمن المعاملات والمعلومات المصرفية الالكترونية.

ج- تحديات وسائل الدفع.

د- تحديات الأعمال المرتبطة والمعايير الإشرافية.

و- التحديات الضريبية.

2- تحديات الاقتصاد الرقمي والنقد الإلكتروني.

إن أكبر تحد تواجهه البنوك فضلا عن تحدي المنافسة، هو ضرورة التجديد في طرق وفي وسائل الدفع مع شرطية توفير الأمان لزبائنها المستفيدين من النقود الإلكترونية، فهي مطالبة إذا بمزيد من الإستثمار في هذا المجال، أما البنوك التي ما تزال

تعتمد على وسائل الدفع التقليدية فهي مهددة بفقدان العديد من زبائنها الذين يفضلون التعامل الرقمي على الأقل في بعض معاملاتهم، وبالتالي ستجد البنوك نفسها مجبرة على الإستثمار من أجل عصنة أنظمتها.

3- الاندماجات المصرفية.

4- خصخصة البنوك.

5- تحديات التجارة الإلكترونية.

5-2 استراتيجيات العمل المصرفي الإلكتروني¹⁵:

أ- تنمية الموارد البشرية: إن العنصر البشري من العناصر المكملة في العمليات المصرفية الإلكترونية، ويزداد انتشار التعامل على الخدمات المصرفية الإلكترونية كلما انتشر عدد مستخدمي القنوات الإلكترونية ومنها الانترنت، ويعتمد زيادة عدد مستخدمي الانترنت على العديد من العوامل، منها مدى انتشار اللغة التي يمكن للمستخدم التعامل بها، ومدى توافر الماسبات، ورخص ثمنها، وحسن صيانتها، ومدى فعالية التغلب على الأمية المعلوماتية، ومدى اعتماد نظم التعليم على استخدام التكنولوجيا، ورخص الدخول إلى الانترنت.

ب- تبني المفهوم الحديث للعمليات المصرفية عبر الشبكة:

تعتبر شبكة الإنترنت وسيط تفاعلي لبيئة الأعمال بوجه عام، فمن وجهة نظر المستخدم الفرد، البيئة الملائمة لإنجاز العمليات المصرفية مثل: تدقيق وفحص الماسبات الشخصية، دفع الفواتير... الخ، وتوفر على المستخدم مجهود انتقال وتعبئة النماذج وتساهم في التخلص من متطلبات ومجهود المقابلة (الفيزيائية) مع الموظف، أما من وجهة نظر المنشأة فإنها وسيلة لتخفيض التكاليف التشغيلية والتأسيسية للفروع، وبالتالي زيادة الأرباح وخفض رسوم خدمة العملاء على العمليات المختلفة وزيادة فوائد الإيداع وخفض فوائد الإقراض وابتكار برامج جديدة وتحفيز الخدمات وجذب الزبائن ودخول أسواق جديدة.

إن أول بنك افتراضي على شبكة الانترنت هو نت بنك www.netbank.com تمت أعماله من عام 1995، وترى مؤسسة الأبحاث الدولية

www.idc.com أن تطبيقات وبرامج التعاملات وبرامج التعاملات المصرفية الالكترونية ستكون بمثابة الوصفة الجاهزة لمساعدة البنوك على دخول سوق البنوك الالكترونية والاحتفاظ بزبائنها، وقد بلغت مبيعات ا زم الجاهزة 93 مليون و326 مليون دولار عامي 98 و99 على التوالي، وفي أمريكا وحدها وقعت 1200 مؤسسة ائتمانية عام 1998 اتفاقيات توريد حلول برمجية الكترونية، وقد زادت إلى 7200 عام 1999.

والبنوك الالكترونية ليست حكرا على المؤسسات المصرفية بل وربما تكون الريادة في مشروعاتها راجعة إلى تدخل جهات غير مصرفية لتلبية احتياجات التسويق الالكتروني التي تمارسها عبر مواقعها.

ولقد وجدت قطاعات غير بنكية قد دخلت بقوة سوق الاستثمار في البنوك الالكترونية إما عن طريق:

أ- الاستثمار المباشر.

ب- بتوفير منصات خدمات للتعاملات المصرفية.

ت- تقديم خدمات بنكية بالنيابة: .

ث- المشاريع الشاملة.

التحدي في ميدان الصناعة البنكية الالكترونية هي في تنويع الخدمة والقدرة على جذب الزبائن، ولغاية الآن، تقوم استراتيجيات التسويق في هذا الميدان على تقديم برامج تحفيزية إلى جانب برامج الترويج والتوعية، لكن اتساع نشاط بعض المؤسسات عن غيرها يرجع في الحقيقة إلى مدى شمول الخدمات المقدمة والفكرة هنا إن موقع البنك يتعين أن يتيح للمستخدم البقاء لأن انتقاله إلى مواقع خدمية أخرى قد لا يعيده إلى موضع البنك خاصة أن الكثير من المؤسسات غير المصرفية تقدم الخدمة المصرفية من موقعها مباشرة مثل:

أ- سوفت بانك عبر شركاته الفرعية:

ب- اندماجات بنكية ضخمة لتوفير الخدمات الالكترونية الشاملة:

د- تعميق استخدام التكنولوجيا:

إن العمل المصرفي الالكتروني بمعناه الواسع عمل ممارس فعلا وواقعا في مختلف المؤسسات المصرفية والمالية كبيرها وصغيرها، إما بمعناه المتصل بالانترنت أي البنوك الالكترونية أو بنوك الويب فانه ليس خيار سائر البنوك مع أن الكل يؤكد على أهميته. وتسود مفاهيم ومستويات خاطئة في تحديد المراد بالبنوك الالكترونية، ولقد لوحظ أن البنوك العربية صممت مواقعها منذ فترة طويلة ولم تزل على ذات ا تتوى حتى دون تطوير لموادها التعريفية، وكان المراد هو مجرد الوجود على شبكة الانترنت مع أن هذا ليس هو المطلوب ولا هو بالاستراتيجية الصحيحة للتوائم مع متطلبات العصر، كما أن بنوك أخرى اكتفت باستثمار الشبكة لتنقل عليها الخدمات المصرفية على الخط التي كانت تمارسها دون شبكة كمزودات النقد والاستعلام عن ا سابات وغيرها، وأيضا لا يمكن أن نعد ذلك من قبيل البنوك الالكترونية وبعض البنوك وجد إن العمل على الشبكة ما هو إلا خدمة تضاف إلى خدماته ووحدة إضافية تضاف إلى وحداته الإدارية بذات البنية التقنية والتأهيلية والتسويقية والإدارية والقانونية القائمة، وهذا وإن كان يمثل دخولا إلى عوالم العمل البنكي الالكتروني فانه يتناقض مع استراتيجياته التي ينبغي أن تنطلق من بيئة العمل الافتراضي وليس المادي ومن بيئة المعلومات وليس الموجودات.

والعمل البنكي الالكتروني إفادة من بيئة تفاعلية جديدة تتيح الامتداد الخارجي عبر وسيلة هي بطبيعتها عالمية وتتيح التلاؤم مع رغبات العميل، وكما تشير ا قائق المتقدمة فان البنوك الالكترونية من حيث الأنماط وا تتوى تكون بنوكا افتراضية بالكامل، أي لا وجود واقعي لها، وإنما موقع متخصص بالخدمة المصرفية ويسعى إلى تلبية طلبات الزبائن التي تدخل ضمن ثلاث حزم:

- الخدمات والعمليات المصرفية العادية ولكن عبر الشبكة دون تعامل فيزيائي؛

- أنشطة الاستثمار ودراساته تتصل بالمشاريع الممكن ممارستها عبر الشبكة وتلبية متطلبات الإرشاد والتوجيه والاستشارة والدراسة الاستثمارية؛

- حزمة تسويقية لاحتياجات العميل (خدمات التامين وا وصول على البطاقات عندما لا يكون البنك مصدرا لها، التسويق والربط بالوكلاء والمزودين

للمنتجات، خدمات الشحن والسفر...الخ).

وإن كانت ١ زميتين الأولى والثانية مما تمارسه البنوك التقليدية بعد تطور مفهوم العمل البنكي وانتقاله من حفظ الأموال وخدماتها إلى إدارتها وتولي أنشطة الاستثمار المتصلة بها.

أما ١ زمة الثالثة فقد أوجبتها إستراتيجية الاحتفاظ بالزبون وإبقائه ضمن الموقع وتوفير ما يتطلبه متصلاً بالخدمة المصرفية وتنفيذ عبر شركات فرعية للبنك أو مواقع مرتبطة به أو من خلال جهات خارجية ترتبط مع موقع البنك عبر مدخل يوفره موقع البنك تكفل العودة ثانية لموقع البنك لإتمام العملية المصرفية المرتبطة بالخدمة غير المصرفية، وهذا ما يمثل مفهوم البنك الإلكتروني الشامل، ويعبر عنه عدد من الباحثين بالقول بأنه وقفة التسوق الواحدة، فيها ما تحتاجه ولا تتيح لك التفكير في الخروج من الموقع.

6- الرقابة المصرفية ومبادئ إدارة العمليات المصرفية الإلكترونية.

6-1 مفهوم الرقابة المصرفية:

لقد تطور مفهوم الرقابة حيث إنتقل من مرحلة الوقوف على وضع البنك في لحظة معينة إلى مرحلة الرقابة المستمرة للوقوف على التغيرات ١ ماثلة في الأوضاع المالية بالبنك، وإمتد نظام الرقابة بالمخاطر والذي تمّ بموجبه تطوير عناصر الرقابة الميدانية لتشتمل على:

- تقييم الوضع المالي للبنوك بوجه عام.
- إجراء الإختبارات اللازمة للتحقق من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها البنك وحجم كل نوعية ومدى تناسبها مع رأس المال.
- تقييم مدى إلمام البنك بهذه المخاطر ونظم إدارتها.
- تحديد المستويات غير المقبولة من المخاطر ونقاط الضعف في إدارة المخاطر.

- إلزام البنك بوضع ومراجعة خططه بشأن التغلب على أية نقاط ضعف يتم إكتشافها ومتابعة مدى إلزام البنك بتنفيذ هذه الخطط.

6-2 أهداف الرقابة المصرفية:

على الرغم من إختلاف نظم الرقابة في دول العالم إلا أنه يوجد إتفاق عام على ثلاثة أهداف مددة هي¹⁶:

1 - ففاظ على إستقرار النظام المالي والمصرفي.

- ضمان كفاءة عمل الجهاز المصرفي.

- حماية المودعين.

6-3 أنواع الرقابة المصرفية: يمكن تقسيم الرقابة المصرفية التي تمارسها البنوك المركزية إلى نوعين رئيسيين هما¹⁷:

- الرقابة الوقائية: وتركز على تقليص المخاطر التي قد تتعرض لها المصارف، وبالتالي تجنب مشاكل السيولة والملاءة والخسائر اتملة، سواء من خلال فرض معايير مددة لرؤوس الأموال ونسب السيولة الواجب الإحتفاظ بها وتجنب مخاطر أسعار الفائدة وتحديد الأنشطة ا ظهور على البنك ممارستها وكذلك حدود الإقراض ومدى تركزه.

- الرقابة ا مائية: وهي تنصب على مساندة البنك المركزي للبنوك في حالة تعرضها للأزمات، وذلك من خلال مؤسسات ضمان الودائع وغيرها من المؤسسات.

6-4 الإطار العام للرقابة المصرفية:

يتلخص الإطار العام للرقابة المتطورة وفقا لرؤية لجنة بازل للرقابة المصرفية في:

- يجب أن يتكون أي نظام رقابي فعال من بعض أشكال الرقابة من داخل نطاق العمل (الفحص الداخلي)، وكذلك الرقابة من خارج نطاق العمل (الفحص الخارجي).

- ضرورة وجود إتصال رسمي وبصورة منظمة بين المراقبين وإدارة البنك وذلك في إطار تفهمهم لعمليات تلك المؤسسات المصرفية.
- امتلاك المراقبين للوسائل اللازمة لتجميع ومراجعة وتحليل التقارير والنتائج الإحصائية من البنوك وفقا لقواعد مددة.
- يجب توافر الإستقلالية التامة للمراقبين المصرفيين في الوصول على المعلومات، من خلال الإختبارات داخل البنك والمراجعين الخارجيين.
- يجب أن يكون المراقبون مؤهلين وقادرين على مراقبة مجموعة الأعمال المصرفية وفقا لقواعد موحدة، حيث يتم إلزام البنك بتقديم بيانات دورية معينة ومعدة بطريقة مددة للجهات الرقابية، وتقوم لجنة التفتيش بتقييم العديد من القضايا الهامة التي تغطي جوانب متعددة من أنشطة البنوك وأساليب عملها مثل التأكد من دقة البيانات المستلمة من البنك وكفاية نظام إدارة المخاطر وإجراءات الرقابة الداخلية ونظام المعلومات...إلخ.

7- مخاطر العمليات المصرفية الالكترونية¹⁸:

لا شك أن للعديد من العمليات المصرفية عموما مخاطرها، خاصة التفاعلي منها، وبالذات تلك الخدمات التي يترتب عليها حقوق والتزامات، ولا شك أن تلك المخاطر قد تزداد أو تقل لدى إتمام تلك العمليات المصرفية عبر الأنترنت، الأمر الذي يلزمه حصر أو بيان لتلك المخاطر والمتاح حاليا من السيطرة عليها وأفاق المزيد من السيطرة فيما بعد ا مدائة، وتتلخص أهم مخاطر العمليات المصرفية عبر الأنترنت فيما يلي:

7-1 مخاطر تنظيمية:

نظرا لأن شبكة الإنترنت تسمح بتقديم الخدمات من أي مكان في العالم، فإن هناك خطرا في أن تحاول البنوك التهرب من الإشراف والتنظيم، فعلى جهات التنظيم مطالبة البنوك باصول على ترخيص بذلك، والترخيص وسيلة مناسبة بصفة خاصة عندما يكون الإشراف ضعيفا وعندما لا يتوافر التعاون بشكل كاف بين البنك الإلكتروني المرخص له العمل وجهة الإشراف ا لمية.

7-2 مخاطر التشغيل:

تنشأ هذه المخاطر من عدم التأمين الكافي للنظم أو عدم ملاءة تصميم النظم أو إنجاز العمل أو أعمال الصيانة وكذا نتيجة إساءة الاستخدام من قبل العملاء وذلك على النحو التالي:

أ- عدم التأمين الكافي للنظم: تنشأ مخاطر التأمين الكافي للنظم عن إمكانية اختراق غير مرخص لنظم حسابات البنك، بهدف التعرف على المعلومات الخاصة بالعملاء واستغلالها سواء تم ذلك من خارج البنك أو من العاملين به ، بما يستلزم توافر إجراءات كافية لكشف وإعاقة الاختراق.

ب- عدم ملاءة تصميم النظم أو إنجاز العمل أو أعمال الصيانة: حيث تنشأ من إخفاق النظم وعدم كفاءتها لمواجهة متطلبات المستخدمين وعدم السرعة في حل هذه المشاكل وصيانة النظم وخاصة إذا زاد الاعتماد على مصادر خارج البنوك لتقديم الدعم الفني بشأن البنية الأساسية اللازمة.

ج- إساءة الاستخدام من قبل العملاء: ويرد ذلك نتيجة عدم إحاطة العملاء بإجراءات التأمين الوقائية أو بسماعهم لعناصر إجرامية بالدخول إلى حسابات عملاء آخرين أو القيام بعمليات غسيل الأموال باستخدام معلوماتهم الشخصية أو قيامهم بعدم اتباع إجراءات التأمين الواجبة.

7-3 مخاطر السمعة¹⁹:

تنشأ مخاطر السمعة في حالة توافر رأي عام سلبي تجاه البنك، الأمر الذي قد يمتد إلى التأثير على البنوك الأخرى، نتيجة عدم مقدرة البنك على إدارة نظمه بكفاءة أو حدوث اختراق مؤثر لها²⁰.

7-4 مخاطر قانونية²¹:

تنطوي المعاملات الإلكترونية المصرفية على درجة كبيرة من المخاطر القانونية بالنسبة للبنوك، ويمكن للبنوك توسيع النطاق الجغرافي لخدماتها عن طريق البنوك الإلكترونية ومع ذلك فإنه في بعض الحالات قد لا تكون لدى البنوك المعرفة الكاملة بالقوانين والتنظيمات المطبقة في بلد ما قبل أن تبدأ في تقديم خدماتها فيه، سواء كان

ذلك بترخيص أو بدونه إذا لم يكن مطلوباً.

والمخاطر القانونية هي المخاطر التي يتعرض لها البنك المتعامل عبر الأنترنت وتؤثر على ربحيته ورأسماله نتيجة المخالفة أو عدم التوافق أو عدم المعرفة بالقوانين والقواعد والتعليمات والمعايير التشريعية أو الأدبية التي تحكم التعامل المصرفي عبر الأنترنت في بلد ما، وتنشأ المخاطر القانونية وتسمى أيضاً مخاطر التوافق في بعض الأحيان عندما تكون القوانين والقواعد والتعليمات والمعايير هذه غير واضحة ويرة التطبيق.

ولقد ساهمت الخدمات الإلكترونية في تسهيل عمليات غسل الأموال وهي عمليات متتابة ومستمرة في ماولة متعمدة لإدخال الأموال غير المشروعة الناتجة عن الأنشطة الخفية غير المشروعة.

وبالرغم من تلك العقبات القانونية إلا أن مؤسسات المجتمع الدولي تسعى حالياً للتغلب على هذه العقبات القانونية، وتعمل على تطوير التشريعات ا مديثة التي تتماشى والتطور التكنولوجي الذي يعيشه العالم، بالإضافة إلى توقيع الاتفاقيات الدولية لتسيير العمل المصرفي في إطار الأمان والسرية.

5-7 مخاطر العمليات:

إن الإعتماد على التكنولوجيا في تقديم الخدمات المصرفية الإلكترونية يعد خطراً على أمن النظام المصرفي ووجوده، إذ أن تعرض شبكة المعلوماتية لأي تخريب قد تؤثر على مجمل العمليات المصرفية وينتهك ضمان سرية المعلومات المتعلقة بالعملاء، وفي هذه المالة كثيراً ما يعزف عن التعاملات المصرفية الإلكترونية.

6-7 مخاطر المنافسة الضارة:

ذلك أنه ليست كل المنافسة بناءة وحميدة، بل منها أحياناً المنافسة الضارة التي تحدث غالباً عندما تشتت إلى الدرجة التي يضيق فيها السوق على المنافس، فيضطر للمضاربة على الأسعار وأحياناً بالخسارة، ومما تقع معه هذه المنافسة الضارة والخدمات المصرفية الإلكترونية بما تحدثه من ضغوط وشفافية وطرق لرغبات واحتياجات العميل قد تؤدي إلى تهيئة المناخ لتلك المنافسة الضارة، وهذه المخاطر

تنكسر حدتها على المقولة الاقتصادية "العملة الجيدة تطرد العملة الرديئة"²².

7-7 مخاطر أخرى:

يرتبط أداء العمليات المصرفية الالكترونية بالمخاطر الخاصة بالعمليات المصرفية التقليدية ، ومن ذلك مخاطر الائتمان والسيولة وسعر العائد ومخاطر السوق مع احتمال زيادة حدتها على سبيل المثال فاستخدام قنوات غير تقليدية للإتصال بالعملاء وامتداد نشاط منح الائتمان إلى عملاء عبر الحدود CROSS-BORDER قد يزيد من احتمالات اخفاق بعض العملاء في سداد التزاماتهم²³.

7-8 مبادئ إدارة مخاطر العمليات المصرفية الإلكترونية.

للوصول إلى الضوابط الإضافية اللازمة لبناء نظام رقابي شامل للعمليات المصرفية الالكترونية يحتاج الأمر إلى استعراض للمبادئ العامة لإدارة مخاطر هذا العمل الالكتروني، ذلك ان إدارة المخاطر تشتمل على مراحل وهي²⁴:

1- تقييم المخاطر.

2- الرقابة على التعرض للمخاطر.

3- متابعة المخاطر.

8- التخطيط الإستراتيجي لنشاط البنوك في ظل تكنولوجيا المعلومات والإتصال.

يعد التخطيط للعمل المصرفي من الوسائل الهامة لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبيرة للمصارف، وتماشيا مع التطورات الالكترونية والرقمية التي تشهدها المصارف في الوقت الحاضر، مما يستوجب إعادة النظر في عملية التخطيط ضمن رؤية شاملة بعيدا عن التخطيط الكلاسيكي.

8-1 مفهوم التخطيط الإستراتيجي²⁵:

التخطيط الإستراتيجي هو عبارة عن التبصر بالشكل المثالي للمؤسسة في المستقبل وتحقيق هذا الشكل. كما يعرف على أنه عملية اتخاذ قرارات مستمرة بناء

على معلومات ممكنة عن مستقبلية هذه القرارات وآثارها في المستقبل، ووضع الأهداف والإستراتيجيات والبرامج الزمنية والتأكد من تنفيذ الخطط والبرامج ا مددة.

يعتمد التخطيط الإستراتيجي على تحليل العلاقات المتداخلة بين التوقعات الخاصة برغبات وحاجات كل الأطراف المعنية بنشاط البنك.

8-2 عناصر التخطيط الإستراتيجي: تتكون من ²⁶:

- وضع الإطار العام للإستراتيجية.
- دراسة عوامل البيئة ا خطة.
- تحديد الأهداف والغايات.
- وضع الإستراتيجيات البديلة والمقارنة بينها.
- استيفاء المتطلبات التنظيمية لتنفيذ الإستراتيجية.
- وضع السياسات والخطط والبرامج والموازنات.
- تقييم الأداء.
- اختيار البديل الإستراتيجي.

8-3 الخطوات العملية للتخطيط في البنوك.

إن التخطيط لنشاط البنك بمعناه الجديد، يشتمل على تحليل شامل لهذا النشاط في الماضي وا ماضر وما يتوقع في المستقبل، وذلك بوجود جهاز تخطيط في البنك ذو رؤية مستقبلية للقيام بهذه المهمة بصورة جيدة، فعملية التخطيط لنشاط البنك تشمل الخطوات التالية: ²⁷

- 1- وجود جهاز تخطيط.
- 2- القيام بتحليل شامل لنشاط البنك واتجاهاته.
- 3- وضع الخطة واختيار البدائل.
- 4- مرحلة الخطة العملية.

خلاصة:

يتميز الاقتصاد الرقمي بالعمل على نشر مجتمع المعلومات والمعرفة وتشجيع

بناء ا كومات الإلكترونية، وشركات المساهمة الإلكترونية والتجارة الإلكترونية والبنوك الإلكترونية والإدارة الإلكترونية

تتضح أهمية تكنولوجيا المعلومات والاتصال، حيث تعمل على تطوير وتعزيز القدرة على العمل الجماعي نتيجة لوفرة المعلومات وسهولة تداولها مما يحقق الاندماج والتكامل.

كما أن نجاح ونمو الاقتصاد الرقمي يعتمد على مدى قدرة المجتمعات على المشاركة في شبكات المعلومات ومواقع الإنترنت مما يساهم في تقليص الفجوة الرقمية. و يمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصال والاقتصاد الرقمي المساهمة في تطور العمل المصرفي والتحول إلى العمل المصرفي الإلكتروني، والذي يعد السمة البارزة في العمل المصرفي في الوقت ا مالي وأحد أهم متطلبات الاندماج في الاقتصاد العالمي.

الهوامش:

- ¹ - فريد راغب النجار، الاستثمار بالنظم الإلكترونية والاقتصاد الرقمي، مؤسسة الشباب الجامعية، الإسكندرية، 2004، ص 11
- ² - نفس المرجع، ص ص 12- 17.
- ³ - نفس المرجع، ص 16.
- ⁴ - أحمد حسين، السوق الإلكترونية حلم الخليج،
- ⁵ <http://www.islamonline.net/arabic/economics/2001/04/article.htm,p>
- ⁶ فريد راغب النجار، مرجع سابق، ص ص 23- 24.
- ⁷ المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، الفجوة الرقمية، سلسلة الخلاصات المركزة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، السنة 03، إصدار 2000/06، ص 01.
- ⁸ المؤتمر العالمي لتنمية الاتصالات، سد الفجوة الرقمية، 01-08 مارس 2002
- ⁹ <http://www.itu.int/ITU-D/conferences/wtdc/2002/doc/arabic/166A.doc/26-12-2005,p03>
- ¹⁰ - نفس المرجع ، ص 04.
- ¹¹ المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، مرجع سابق، ص ص 02- 03.
- ¹² نفس المرجع السابق، ص 03.
- ¹³ المؤتمر العالمي لتنمية الاتصالات، مرجع سابق، ص 05.
- ¹⁴ - المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، مرجع سابق، ص 04.
- ¹⁵ - المؤتمر العالمي لتنمية الاتصالات، مرجع سابق، ص 06.
- ¹⁶ نفس المرجع السابق، ص 06.
- ¹⁷ - حافظ كامل الغندور ، اور التحديث الفعال في المصارف العربية، اتحاد المصارف العربية، بيروت، 2003، ص ص 130 - 147.
- ¹⁸ - يونس عرب، البنى التحتية لمشروعات البنوك الإلكترونية،
- ¹⁹ [http:// www.arablaw.org/download/e-banking- infrastructure-article.doc](http://www.arablaw.org/download/e-banking-infrastructure-article.doc) ،
- ²⁰ - طارق عبد العال حماد، إندماج وخصخصة البنوك، الدار الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص 05، 211،
- ²¹ أنظر: - حافظ كامل غندور، مرجع سابق ص 138-191.
- ²² - دار الأبحاث والدراسات، البنوك الإلكترونية،
- ²³ <http://www.arablaw.org/download/e-banking-infrastructure article.doc>
- ²⁴ 26-01-2006
- ²⁵ حافظ كامل غندور، مرجع سابق، ص 180.
- ²⁶ نفس المرجع ، ص 181.
- ²⁷ أنظر: بريش عبد القادر - زيدان محمد، دور البنوك الإلكترونية في تطوير التجارة الإلكترونية ملتقى المنظومة المصرفية الجزائرية والتحديات الاقتصادية، مرجع سبق ذكره، ص 11. حافظ كامل الغندور، مرجع سابق، ص 147.

- 19- منير محمد الجنيهي وممدوح محمد الجنيهي، النقود الإلكترونية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2005، ص 06.
- 20- أنظر: - نادر ألفرد قاحوش، العمل المصرفي عبر الإنترنت، 2000، ص ص 118-119.
- عبد المطلب عبد الحميد، العملة واقتصاديات البنوك، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 234.
- 21- بريش عبد القادر، زيدان محمد، مرجع سابق، ص 12.
- 22- حافظ كامل الغندور، مرجع سابق، ص 147.
- 23- محمد ممدوح الجنيهي، مود ممدوح الجنيهي، مرجع سابق، ص 07.
- 24- أنظر: - محمد ممدوح الجنيهي، مود ممدوح الجنيهي، مرجع سابق، ص ص 11-14.
- نادر ألفرد قاحوش، مرجع سابق، ص ص 129-136.
- 25- أنظر: - نادية العارف، التخطيط الإستراتيجي والعملة، الدار الجامعية، الاسكندرية، 2002-2003، ص 08.
- محمد سعيد أنور سلطان، مرجع سابق، ص 88.
- 26 - محمد مود مندورة، محمد جمال الدين درويش، التخطيط الإستراتيجي لنظم المعلومات، سلسلة ثقافة
- الاسلوب، 1994، ص 15-16.
- 27 أنظر: - حافظ كامل الغندور، مرجع سابق ص 220-229
- محمد مود مندورة، محمد جمال الدين درويش، مرجع سابق، ص 20-26
- ناصر دادي عدون، الإدارة والتخطيط الإستراتيجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص 75-80.

واقع التكامل الاقتصادي العربي في ظل التحديات الإقليمية والدولية

مراد علة

كلية العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية

جامعة زيان عاشور – الجلفة

مدخل:

كان للدول العربية العديد من المحاولات لإقامة كتلة عربية موحدة وذلك بهدف بناء إستراتيجية اقتصادية عربية مشتركة لتأمين العوامل اللازمة لبناء قاعدة التنمية ذاتية التوليد؛ والعمل على تحقيق درجة رئيسية من درجات الاستقلال الاقتصادي لمواجهة التحديات التي يفرضها واقع التكتلات الاقتصادية العملاقة، ولكن بدت حصيلة هذا التعاون هزيلة، وذلك لكثرة المشاكل التي عملت على تجميد محاولات الاندماج العربي..، إلا أنه ورغم ذلك يبقى الوطن العربي مالكاً لمقومات لو تُشغل على أكمل وجه لأعطت أثمر النتائج.

لذا سنحاول في هذا المقال أن نعالج واقع التكامل الاقتصادي العربي وسبل تفعيله في ظل التحديات الإقليمية والدولية وذلك من خلال التعرض للمحاور التالية:

- 1/ التكامل الاقتصادي العربي في مواجهة التحديات.
- 2/ آفاق التكامل الاقتصادي العربي ومحاولات الاندماج.
- 3/ الاندماج الاقتصادي العربي عبر الإنماء المشترك مع اقتصاديات الدول.

1/ التكامل الاقتصادي العربي في مواجهة التحديات:

1.1. التكامل الاقتصادي...وقفه عند الإطار المفاهيمي:

يضرّب التكامل الاقتصادي في التاريخ الإنساني إلى أعماق بعيدة تتأرجح صوره المبكرة من مجرد التفاهم والمشاورة إلى توثيق الأواصر بين الدول، فلا يمكن أن تحيا الدول طويلا وتظل حياتها مستمرة وهي في عزلة عن بعضها البعض؛ لأن الطبيعة الإنسانية والتضامن في المصالح، والاشتراك في النهوض بالحضارة يدعوها جميعاً، بل يدفعها إلى إنشاء العديد من العلاقات المتنوعة وإلى إنشاء روابط التكامل الإنساني التي تربط بينها.

إن كلمة التكامل في اللغة معناها وضع الجزأين بجانب بعضهما البعض فيصبحان وحدة واحدة وإذا قلنا أن هذين العاملين متكاملان وكان كل منهما يقوم بعملية إنتاجية معينة، فإن مجهود العامل الأول يكون غير ذي موضوع بدون مجهود العامل الثاني والعكس بالعكس حتى يمكن الوصول إلى وحدة من السلعة على سبيل المثال تكون صالحة لإشباع حاجة اقتصادية، أي أن الإنتاج لا يتم بدون مجهود العاملين.

إن التكامل الاقتصادي وسيلة وليس غاية في حد ذاتها، هدفه تحقيق تنمية اقتصادية بين مجموعة من الدول فيما بينها، والتي تسعى إلى تحقيق معدلات نمو مرتفعة، وتنمية لائقة بها ومتفقة مع إمكانياتها ومواردها، المالية والمادية والبشرية، وطالما أن البلدان النامية تعاني اقتصادياً مثل هذه المعدلات في تنميتها، فإن التكامل الاقتصادي كفيل للنهوض باقتصادياتها.

ومن خلال مدلول التكامل الاقتصادي يمكن أن نلاحظ وجود عدة عناصر يجب أن تكون موجودة لأي عملية تكاملية:

تعدد الأطراف، أي تعدد البلدان المكونة لعملية التكامل، وبخصوص توافر في الإرادات التي ترغب في الانتقال من حالة التفرقة عن بعضها البعض، إلى حالة التكتل والاندماج، وهذه الإرادات هي في الواقع تجسد في الإرادات السياسية، ذلك أن قرار بلد ما للدخول في مجموعة بلدان متكاملة، هو في نهاية المطاف قرار سياسي، فالتكامل له بعد سياسي كبير، إذ أن معظم المحاولات التي جرت في سبيل التكامل الاقتصادي، بين مجموعات شتى من بلدان العالم، إنما كانت الدافع بها في كثير من الحالات هو دافع سياسي، كالمبحث عن السلام، وتفاديا لظهور الحروب الإقليمية في المستقبل، كما أن البعد الجغرافي يلعب دورا أساسيا في نجاح حالات التكامل الاقتصادي إذ يؤدي إلى تخفيض تكاليف المسافات

الاقتصادية، كما أن البلدان المتجاورة يكون الربط بين شعوبها عادة تاريخ مشترك وحضارة مشتركة، وتقارب الثقافات واللغات، يؤدي إلى تقارب الأذواق، الأمر الذي يتيح الفرصة لتكوين سوق واسعة وملتحمة ورائجة، من طرف المستهلكين والمنتجين، وتمهد الطريق إلى التكامل الاقتصادي، مع وضوح الحوافز التي تدفع كل بلد الذي سيكون طرف في العملية التكاملية، ووضوح المنافع والمكاسب والأعباء لكل طرف من الأطراف المعنية.

ويرى "ليب شقيب" أن التكامل الاقتصادي قد يكون تكاملا عاما وشاملا كما قد يكون «تكاملا قطاعي» حيث يقصد بالنوع الأول أن يطبق التكامل في وقت واحد على جميع قطاعات الاقتصاد في الدول المعنية، أما التكامل القطاعي فهو الذي تكون عملية التكامل فيه مقصورة على قطاع واحد أو قطاعات محدودة من اقتصاديات الأطراف المعنية.

وقد عرف "ميردال" التكامل الاقتصادي بأنه عملية اقتصادية واجتماعية، حيث تزول الحواجز بين الوحدات الاقتصادية المختلفة لتحقيق تكافؤ الفرص على المستوى القومي والدولي أمام عناصر الإنتاج.

ومن هنا تعقد فكرة «التكامل الاقتصادي» وعمليته حيث لا تقتصران من حيث دوافعهما وطبيعتهما وأثرهما على الجانب الاقتصادي وحده ولكنهما تخضعان للعديد من العوامل المركبة من سياسية واجتماعية وتاريخية وجيوسياسية، فضلا عن كونهما تجربان حسب كل حالة، في إطار نظام وظروف دولية ذات طبيعة معقدة ومركبة هي الأخرى مما يجعل من الضروري دراسة هذه الجوانب جميعا لفهم الطبيعة الحقيقية والعميقة لعملية التكامل الاقتصادي.

ويتضح من خلال ما سبق أن التكامل الاقتصادي عملية ليست بسيطة، بل هي عملية على درجة عالية من التعقيد والشمول ومن بعد المدى في العلاقات الاقتصادية والسياسية، كما أنها ترتبط بتحقيق تغيرات وآثار شكلية في الاقتصاد الوطني لأطراف ما في عملية التكامل.

التكامل الاقتصادي Economic Integration هو صيغة للتكامل الاقتصادي _ Economic Assimilation تتم بين مجموعة من الدول المتجانسة تاريخياً أو ثقافياً أو حضارياً أو اقتصادياً أو جغرافياً لتحقيق مصلحة اقتصادية مشتركة؛ ويسمى أيضا بالتكامل الاقتصادي الإقليمي، حيث يتم تقسيم العمل والتبادل التجاري بين بلدان المنطقة الجغرافية

الواحدة، والشروط الموضوعية للتكامل الإقليمي يختلف بعضها عن البعض الآخر في أوجه متعددة، فهي تتعلق بأوضاع البلدان المشتركة فيه وعلى مستوى التطور الذي وصل إليه القطر، وكذلك على درجة المصلحة الاقتصادية بين الأقطار المشتركة في التكامل الاقتصادي والشروط الأساسية للاتفاقيات، أما الاندماج الاقتصادي Economic Merger فيمثل صورة من صور التكامل الاقتصادي التي يمكن أن يصل إليها أي مشروع للتكامل الاقتصادي، إذ تتضمن توحيد السياسات الاقتصادية كافة، وإيجاد سلطة إقليمية عليا، وجهاز إداري لتنفيذ هذه السياسات، وفي هذه المرحلة تتفق كل دولة عضوًا على تقليد سلطاتها التنفيذية الذاتية وخضوعها في كثير من المجالات للسلطة الإقليمية العليا.

لقد أصبح لزاماً على الدول العربية الاندماج والتموقع في تكتل اقتصادي واحد على غرار التكتلات الاقتصادية الدولية الأخرى... وحتى يتسنى لنا معرفة قدرة الدول العربية على إنجاح هذا التكتل لا بد أن نعطي فكرة أولية على مقومات والملامح الأساسية للاقتصاد العربي، والتحديات وكذا الجهود المبذولة لتحقيق هذا صرح هذا التكامل.

2.1. الملامح الأساسية والمؤشرات العامة للاقتصاد العربي:

وتتمثل الملامح الأساسية والمؤشرات العامة للاقتصاد العربي في ما يلي: ⁽¹⁾

تقدر مساحة الوطن العربي 1.4 مليار، أي 10.2% من مساحة العالم أما المساحة الزراعية في الوطن العربي فتقدر بـ: 133 مليون هكتار، أي 9.4% من المساحة الصالحة للزراعة، أما مساحة المراعي فتقدر بـ: 250 مليون هكتار أي 17.8% من المساحة الإجمالية.

كما استمر الانتعاش في اقتصاديات الدول العربية، حيث ارتفع الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية من حوالي 291.1 مليار دولار في عام 2006 إلى حوالي 1.472 مليار دولار في عام 2007 مسجلاً معدل نمو بالأسعار الجارية بلغ 14.0 في المائة، مقارنة بحوالي 18.2 في المائة في العام السابق، أما بالأسعار الثابتة فيقدر معدل النمو بنحو 5.6 في المائة، مقارنة مع نحو 6.4 في المائة في عام 2006، وقد حققت اثنتي عشر دولة معدلات نمو حقيقي تفوق المعدلات المحققة في العام السابق، بينما انخفض النمو الحقيقي في باقي الدول في نفس العام مقارنة بالعام السابق، ولقد شهدت الدول العربية خلال عام 2007 تحسناً في مستوى دخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية مقارنة مع عام 2006.

كما وقد بلغ الناتج الزراعي للدول العربية حوالي 89.8 مليار دولار في عام 2007 ، أي بزيادة نسبتها 11.9 في المائة، وبقيت مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية بالأسعار الجارية على مستوى عام 2006 تقريباً.

وقد استمر تحسن أداء قطاع الصناعة في الدول العربية للعام الخامس على التوالي حيث بلغت قيمة الناتج الصناعي العربي عام 2007 حوالي 724 مليار دولار مقارنة بحوالي 643 مليار دولار في عام 2006 ، مسجلاً بذلك نمواً بنسبة 12.5 في المائة، وانخفضت مساهمة القطاع الصناعي العربي في الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية بنسبة ضئيلة في عام 2007 لتبلغ 49.2 في المائة مقارنة بنسبة 49.8 في المائة في عام 2006 ولقد تراجعت مساهمة الصناعة الاستخراجية في الناتج المحلي الإجمالي بشكل طفيف من 40.5 في المائة عام 2006 إلى 39.8 في المائة عام 2007 أما الصناعات التحويلية فقد حقق ناتجها نمواً بلغ معدله حوالي 14.6 في المائة في عام 2007، غير أن نسبة مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي ظلت عند مستواها 9.4 في المائة لعام 2006.

شهدت الدول العربية نشاطاً مكثفاً في مجال الاستكشاف خلال عام 2007 حيث حققت 51 اكتشافاً نفطياً وغازياً مما ساهم في استمرار استحواذها على نصف تقديرات الاحتياطي المؤكد من النفط و 29 في المائة، من احتياطيات الغاز الطبيعي، واستأثر إنتاج الدول العربية من النفط الخام والبالغ 22.1 مليون ب/ي في عام 2007 بما يزيد بقليل عن ربع الإنتاج العالمي، وبلغ إنتاج الدول العربية من الغاز الطبيعي المسوق نحو 386.8 مليار متر مكعب في عام 2006 لترتفع بذلك حصة الدول العربية منه إلى نحو 13 في المائة من الإجمالي العالمي، وازداد استهلاك الطاقة في الدول العربية في عام 2007 بمعدل قدره 4.2 في المائة، ليصل الطلب على مصادر الطاقة المختلفة إلى 9.6 مليون برميل مكافئ نفط يومياً مقارنة بحوالي 9.3 مليون برميل مكافئ نفط يومياً في عام 2006 ومثل النفط المصدر الرئيسي لتلبية متطلبات الطاقة في الدول العربية حيث استأثر بنسبة 53.9 في المائة من استهلاكها من الطاقة في عام 2007 ، تلاه الغاز الذي بلغت حصته 43.5 في المائة من إجمالي الاستهلاك خلال العام، وفي المقابل، تلعب مصادر الطاقة الأخرى، وهي الطاقة الكهرومائية والفحم دوراً ثانوياً ومتناقصاً إذ لم تتجاوز حصتهما معاً 2.5 في المائة من الإجمالي خلال عام 2007 ، وفيما يتعلق بأسعار نفوط التصدير الرئيسية في الدول العربية، فقد شهدت ارتفاعاً في مستوياتها خلال عام 2007 بنسب متفاوتة، مما أدى إلى زيادات ملحوظة في قيمة الصادرات

النفطية في الدول العربية بلغت نسبتها 7.4 في المائة، وذلك على الرغم من انخفاض إنتاج النفط لإجمالي الدول العربية خلال العام بنسبة 4.7 في المائة مقارنة بعام 2006.

استمرت التجارة الخارجية الإجمالية للدول العربية في تحقيق معدل نمو مرتفع للعام الخامس على التوالي، فقد ساهم الارتفاع المتواصل في أسعار النفط الخام العالمية نمو الصادرات العربية الإجمالية بنسبة 16.1 في المائة في عام 2007، بحيث زادت حصتها في الصادرات العالمية بصورة طفيفة إلى 5.7 في المائة، أما الواردات العربية الإجمالية، فقد نمت بنسبة 32.8 في المائة متجاوزة ضعف معدل النمو في الصادرات، الأمر الذي أدى إلى زيادة مساهمتها في الواردات العالمية إلى 3.5 في المائة، ويعود النمو الكبير في الواردات العربية الإجمالية مقومة بالدولار إلى ارتفاع أسعار صرف العملات الرئيسية مقابل الدولار الأمريكي، إضافة إلى ارتفاع أسعار الواردات من السلع الغذائية والسلع الوسيطة.

وعلى صعيد التجارة البينية العربية، فقد نمت الصادرات البينية العربية بنسبة أقل من الصادرات العربية الإجمالية، كما هو الأمر كذلك بالنسبة للواردات البينية العربية مما أدى إلى تراجع حصة التجارة البينية العربية في التجارة العربية الإجمالية إلى 10.2 في المائة في عام 2007.

وعلى صعيد الدين العام الخارجي، فقد ارتفع إجمالي المديونية العامة الخارجية القائمة في ذمة الدول العربية المقترضة بنسبة 9.2 في المائة في عام 2007، بعد أن تراجع خلال عامي 2005 و 2006 وقد تأثر الدين العام الخارجي في عام 2007 بعدة عوامل أهمها انخفاض سعر صرف الدولار مقابل العملات الرئيسية الأخرى، واستمرار ارتفاع أسعار النفط وأسعار السلع الغذائية، أما قيمة خدمة الدين العام الخارجي للدول العربية المقترضة فقد تراجعت بشكل حاد بعد أن بلغت ذروتها في عام 2006 جراء قيام الجزائر بالسداد المبكر لجزء كبير من مديونيتها الخارجية.

وفيما يخص مؤشرات المديونية الخارجية للدول العربية المقترضة كمجموعة، فقد جاءت إيجابية حيث تحسن مؤشر نسبة الدين العام الخارجي إلى الناتج المحلي الإجمالي ومؤشر نسبة خدمة الدين إلى الصادرات من السلع والخدمات في عام 2007 فعلى الرغم من ارتفاع قيمة المديونية العامة الخارجية، إلا أن نسبتها إلى الناتج المحلي الإجمالي انخفضت من 27.9 في المائة في عام 2006 إلى 26.1 في المائة في عام 2007 كذلك، شهدت نسبة خدمة الدين

العام الخارجي إلى الصادرات من السلع والخدمات تراجعاً حاداً من 13.6 في المائة في عام 2006 إلى 6.4 في المائة في عام 2007.

3.1. مقومات التكامل الاقتصادي العربي:

تتوافر في الوطن العربي العديد من المقومات الأساسية لقيام التكامل الاقتصادي وإيجاد بنية ملائمة لعملية التنمية الشاملة، وفي الظروف الراهنة فإن الانطلاق من اعتبار الوطن العربي ككل إطار عام لتحرك المقومات وفعلها هو ضروري عند التركيز على قضية التكامل، وذلك لأنه يسمح بتكامل موارد ومعطيات الأقطار منفردة أو في مجموعات إقليمية وعملية التكامل تسهم في ترميم الخلل القائم في هيكلية الاقتصاد العربي، وذلك إذا تكيف الإطار السياسي والإداري بالشكل الملائم ليفعل حركة الناتج بين الدول العربية، أي داخل الوطن العربي كوحدة اقتصادية، وإن التعامل مع الوطن العربي كوحدة سياسية تركز على وحدة اللغة والتاريخ والعطاء الحضاري والآمال والمصالح المشتركة والوحدة الجغرافية.. وهذه الخصائص والميزات تشكل مرتكزا لعملية التكامل في أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية⁽²⁾، وفي هذا المجال يمكن تحديد المقومات التالية:

1.3.1. مقومات جغرافية:

إن التواصل الجغرافي كأساس للتعاون والتكامل هو واقع تاريخي وطبيعي، وجدت فيه الدول المتجاورة مصلحة للعمل المشترك باتجاه توسيع السوق والتبادلات الاقتصادية، وفيما يتعلق بالعالم العربي مثلاً، فهناك تواصل جغرافي متين بين الدول العربية وعلى منطقة شاسعة تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً، وتبلغ مساحتها 14 مليون كلم².

بالمقابل يمكن القول أن الدول العربية قد سارت ضد التيار، بلجوها إلى افتعال كل الحواجز والموانع الممكنة بالحيلولة دون تسهيل هذا السلوك، والمفارقة هنا هي أن البلدان العربية بقدر ما هي منفتحة على الخارج في إطار علاقات التبعية للمراكز المتقدمة فهي منغلقة تجاه بعضها البعض، إلا أنه وبرغم أهمية الجوار الجغرافي من الناحية التاريخية وحتى العملية لما يوفره من تسهيلات للاتصال والتبادل، فإن التطور الذي وصل إليه المجتمع الدولي اليوم جعله -كما سبق الإشارة- أضيق من أن يكون أساساً للتجمع والتكامل الاقتصادي.⁽³⁾

2.3.1. مقومات اجتماعية:

مراد غلة

يصبح التواصل أو القرب الجغرافي، واقع طبيعي مهم وذو قيمة أكبر عندما تجمع الدول قيد الانتظار خصاء وحدة اللغة، التاريخ، التراث والدين، فتشابه هذه العناصر يساعد على ترسيخ نظرة فوق وطنية بالنسبة للدول قيد التجمع، فهو يشمل تجانس ووحدة في القومية، ولا ريب في أنه ليس هناك من الدول التي تتوافر على هذه الشروط مثل الدول العربية، فهي تشكل أمة واحدة ولغة واحدة وتراث واحد وتاريخ حافل بالنضال المشترك الذي يشكل الذاكرة الجماعية العربية، وهذه كلها عناصر دافعة لعمل اقتصادي عربي مشترك بل إلى تكامل اقتصادي عربي راسخ وعميق.⁽⁴⁾

3.3.1. حجم السوق العربية:

تتوافر في الوطن العربي سوق مناسبة ومساعدة لعملية التكامل تتركز على الامتداد الجغرافي الكبير للوطن العربي وأهمية موقعه الجيوستراتيجي والجيوسياسي والتعداد الكبير، والخارجي سواء بين الأقطار العربية أو المبادلات مع مناطق ودول أخرى على الصعيدين الإقليمي والعالمي، وقد شهدت الصادرات والواردات البينية بين الدول العربية ودول العالم ارتفاعاً كبيراً خلال العقد النفطي أي بين عامي 1973-1982.⁽⁵⁾

وبلغ ذروته عام 1981 بحوالي 389.8 مليار دولار، ويعكس حجم التجارة الخارجية من خلال حركة الصادرات النفطية وما يؤدي إليه بالنسبة لحركة الواردات، وفي عام 1980 بلغت الصادرات النفطية ذروتها بحوالي 217.6 مليار دولار فقدرت نسبة الصادرات إلى اليابان وأوروبا 63% أما الواردات فقدرت بـ: 66%.

4.3.1. المصلحة المشتركة:

إن التكامل الاقتصادي كمنهج سليم تنتهجه الدول قصد تحسين وتطوير مستوى اقتصادياتها، لا بد وأن ينصب على الوصول إلى الهدف المنشود بكيفية مناسبة، بحيث يؤدي إلى تحقيق مصلحة الجميع وإن كانت الاستفادة في الغالب تكون نسبية بالنسبة لكل قطاع على حدى، فقد تستفيد دولة في قطاع الزراعة مثلاً أكثر من غيرها وتنتفع أخرى في ميدان الصناعة بنسبة أعلى من مثيلاتها... الخ.⁽⁶⁾

فالمصلحة المشتركة تقتضي ضرورة تنظيم العلاقات بصورة تكفل توزيع المكاسب بشكل عادل ومتوازن، وعدم استحواذ أطراف بعينها على المكاسب دون الأطراف الأخرى،

وإذا وقع مثلاً هذا الاختلال فعلى الدول المستفيدة أكثر معالجته عن طريق تعويض تكاليف التعامل للدول المتضررة.

3.1. أهم الإشكاليات التي تواجه التكامل الاقتصادي العربي:

ليس صحيح أن ندعي أن الاقتصاديات العربية متكاملة بعضها البعض، كما يفهم من خلال قراءة بعض الأدبيات العربية الاقتصادية في مجال التكامل الاقتصادي العربي وأسباب ذلك كثيرة ومتنوعة سنحاول ذكرها باختصار شديد فيما يأتي: (7)

1.3.1. التبعية الاقتصادية:

تعاني جميع الدول العربية من التبعية الاقتصادية للعالم الخارجي بنسب متفاوتة، كما أن بعض أشكال وأساليب تنفيذ مشروعات التنمية خاصة تلك التي تنفذ على أسس مفتاح باليد قد زادت من التبعية التكنولوجية والعلمية، زد على ذلك سياسات الانفتاح الاقتصادي الذي تبنته أغلب الدول العربية أدت بشكل أو بآخر إلى إعاقة الإنتاج المحلي، مع زيادة الاستيراد، كل هذا انعكس سلباً على التجارة المحلية، ومن المقلق أن يلاحظ أنه في حين بلغ عدد سكان العرب 326.1 مليون نسمة في سنة 2007 أي 4.9% من مجموع سكان العالم، وصادراته لم تتجاوز 5.7% من صادرات العالم خلال نفس السنة.

2.3.1. السياسات الاقتصادية التنموية العربية:

إن هذه السياسات حالت دون إمكانية تحقيق أهداف التنمية المستدامة والهادفة إلى تحرير الإنسان العربي وطاقته المبدعة ورفع مستوى الأداء الاقتصادي وتحقيق العدالة في توزيع المداخيل، هذا ولا يزال الاقتصاد العربي يعاني من محدودية الصادرات وتوسع الواردات، كما ساهمت سياسات الانفتاح بل الانكشاف الاقتصادي في تعزيز وترسيخ الروابط الاقتصادية مع الدول الصناعية المتقدمة، فاستغلت الجهات الأجنبية هذه الحالة واستخدمتها كأداة لزيادة التبعية وإعاقة التكامل الاقتصادي العربي.

3.3.1. غياب منهج تخطيطي قومي:

كما أن غياب المنهج التخطيطي القومي الشامل بين الدخول العربية نابع من ضعف المطلوب بين المشروعات في القطاع الواحد من جهة، وبين مشروعات القطاعات المختلفة على مستوى كل دولة من جهة أخرى، بالإضافة لافتقار الدول إلى الخطط الموضوعية طويلة

الأجل وإلى الاستراتيجيات الواضحة والمحددة، ويزيد هذا الضعف الاتجاه السائد حالياً في اقتصاديات هذه الدول إلى التخلي عن التخطيط والاتجاه نحو الاقتصاد الليبرالي.

4.1. تحديات التكامل العربي:

أجمع الكثير من المفكرين على أن تعثر مسيرة التعاون الاقتصادي العربي يعود إلى ضعف أو غياب الإرادة السياسية التي تقرر الالتزام بالاتفاقيات وتنفيذ المعاهدات، لكن في الواقع يجب البحث عن العوامل التي كبحت جماح الإرادة السياسية وجعلتها عاجزة عن دعم التزامات التعاون الاقتصادي العربي، وهذا حتى يمكن تحديد كيفية التعامل مع هذه العوامل والتأثير فيها.⁽⁸⁾

1.4.1. الاندماج في النظام العالمي:

يواجه الاقتصاد العربي منذ مطلع التسعينات ضغوطاً وتحديات خارجية ذات أبعاد وتأثيرات مباشرة وغير مباشرة على مسيرة التكامل الاقتصادي العربي، وتتولى حركة الضغوط والتحديات مجموعة الدول الصناعية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية التي أعلنت عن قيام النظام العالمي الجديد، والهدف من وراء السعي إلى الاندماج في الاقتصاد العالمي هو الاستفادة من حجم تدفقات الاقتصاد العالمي، وقدرته الكبيرة على إعطاء البلدان العربية مزيداً من القدرة على التبادل التجاري.

2.4.1. التكتلات الاقتصادية:

بدأت فكرة التكامل بعد الحرب الكونية الثانية، حيث قامت تكتلات كالإتحاد الجمركي لدول البنلوكس (هولندا، بلجيكا، لوكسمبورغ) والذي تحول إلى اتحاد اقتصادي فيما بعد، التكامل القطاعي للفحم والصلب الأوروبي، السوق الأوروبية المشتركة، منطقة التجارة الأوروبية الحرة، مجلس التجارة الأوروبية (كوميكون)...، ونظراً لتنامي ظاهرة التكتلات الاقتصادية في العقد الأخير من القرن العشرين بشكل لافت للانتباه؛ جعل منها سمة أساسية للنظام الاقتصادي العالمي الجديد، فأخذت الدول النامية في إقامة وحدة بينها من أجل البقاء في هذا النظام، حيث ظهرت في أمريكا اللاتينية تجمعات كالسوق الجنوبي، والسوق الكاريبي وتجمع الأمين، وصفات اتفاقيات مماثلة بين بعض دول شرق إفريقيا وتجمع دول الجنوب الأفريقي للتعاون والتنمية والجماعة الاقتصادية لغرب إفريقيا، وفيما يخص آسيا نجد تجمع

مراد غلة

الآسيان، تجمع سارك، والأمثلة كثيرة في هذا الخصوص.

فحرصُ الدول المتقدمة في وجودها ضمن أكبر قدر من التكتلات من أجل اية مصالحها الاقتصادية؛ هو ما جعل الدول النامية تتوجه أيضا نحو التكتل...، هذه المتغيرات التي رافقت ظهور النظام العالمي الجديد تعتبر كلها تحديات يمكن توظيفها لخدمة التكامل الاقتصادي بوصفه البديل الوحيد.

ومما تقدم يمكننا أن نعرف مدى الأهمية التي تحتلها مسألة الانخراط ضمن التكتلات الاقتصادية الإقليمية ليس فقط لمواجهة الآثار السلبية المحتملة من تطبيق اتفاقية الجات، ولكن للاستفادة مما توفره هذه التكتلات من مزايا تفضيلية متبادلة بين دول الأعضاء والتي من الصعب الحصول عليها في إطار التبادل التجاري الدولي المفتوح.

3.4.1. العولمة الاقتصادية:

تعني هذه الظاهرة جعل الاقتصاد العالمي مترابطاً ومتشابكاً، وذلك من خلال اندماج الأسواق العالمية في حقول التجارة والاستثمار المباشر، وانتقال الأموال والقوى العاملة والتكنولوجيا ضمن إطار رأسمالية حرية الأسواق، مما يؤدي إلى خضوع العالم لقوى السوق العالمية بطبيعة الحال ويؤدي إلى اختراق الحدود القومية وإلى الانحصر الكبير لدور الدولة.

إن العولمة الاقتصادية تولد عدة مخاطر للبلدان العربية والنامية عموماً، فهي عولمة ذات اتجاه واحد، تتركز مكاسباً ومواقع قوة للدول الصناعية الغنية، في حين تُسلب مصالح البلدان النامية، وحقوقها فتدفع الاستثمارات الأجنبية كثيراً ما يبلغ مستوى يسمح للمصالح الأجنبية بأن تسيطر على الاقتصاديات الوطنية المستضيفة للاستثمار، وبأن تعيد ترتيب أولوياتها الإنمائية ونمط إنتاجها، بل والذوق العام فيها وكذلك ثقافتها الأصلية وتوجهاتها السياسية بما يخدم مصالح البلدان المصدرة للاستثمار لا البلدان المضيفة له.

وتسجل في هذا الصدد النزيف المالي للعالم الغير الغربي الذي لا يتوقف عن الارتفاع والذي تجاوز خلال سنة 1995 ما مقداره 200 مليار دولار سنوياً والناجم على نمو المديونية الخارجية للعالم الثالث والإجراءات الحمائية للبلدان الغربية، وخاصة في أوساط مجموعة السبعة المسيطرة على الاقتصاد العالمي، فاستسلام المنطقة العربية لتيار العولمة الجارفة يقضي كل أمل للتكامل العربي.

2/ آفاق التكامل الاقتصادي العربي ومحاولات الاندماج:

إن أول ما يلفت الانتباه عند دراسة المحاولات العربية للاندماج؛ هو التعارض الموجود بين الأهداف النهائية الشاملة المتمثلة في الاندماج، واختلاف وتنوع الوسائل والطرائق والإمكانيات والطاقت الاقتصادية المتاحة لبلوغ هذا الهدف المشترك، والمقترنة بتعدد المراكز الجماعية صاحبة القرار، كما أن غياب التنسيق بين البلدان الأعضاء وعدم ترابط القرارات الجماعية يؤديان إلى زيادة الفجوة التنموية بين البلدان العربية.

1.2. محاولات الاندماج العربي وأسباب فشله:

1.1.2. محاولات الاندماج العربي:

لقد مر التكامل الاقتصادي العربي بالعديد من التجارب التي حاولت تحقيقه بدءاً من التجارب على المستوى الثنائي القطري، وانتهاءً بالتجارب على المستوى القومي، وقد لوحظ أن جميع المحاولات على المستوى الثنائي القطري قد باءت بالفشل، من الاتحاد الجمركي بين سوريا ولبنان (1943-1950) مروراً بالوحدة الاقتصادية في ظل الجمهورية العربية المتحدة (1958-1961) وتجربة التكامل المصري - السوداني والتعاون الاقتصادي في المغرب العربي...، والسبب الرئيسي في فشل هذه المحاولات هو الإرادات السياسية التي تعارضت مع المصالح الاقتصادية مما أدى إلى انهيارها، وبما أن التجارب على المستوى الثنائي قد فشلت لذلك سنكتفي في هذا البحث باستعراض المحاولات على المستوى القومي.

أ- مجلس الوحدة الاقتصادية العربية:

وهي الهيئة التي عهدت إليها اتفاقية الوحدة الاقتصادية مهمة تنفيذ أهدافها، إذ يتمتع في هذا المجال بأعلى سلطة، ولكل دولة فيه صوت واحد مهما تعدد ممثلوها، ويعاونه في أداء مهمته ثلاث لجان دائمة هي: ⁽⁹⁾

- اللجنة الجمركية.
- اللجنة النقدية والمالية.
- اللجنة الاقتصادية .

إلى جانب هذه اللجان توجد لجنتان هما:

- لجنة نواب الممثلين الدائمين.

- لجنة المتابعة.

وللمجلس أمانة عامة هو جهازه الفني والتنفيذي الرئيسي.

ب- اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية:

وتهدف هذه الاتفاقية إلى قيام وحدة اقتصادية كاملة بين الأقطار العربية، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف حددت الاتفاقية المهام التي يتعين على المجلس القيام بها من الناحيتين التنظيمية والتشريعية وهي:

- وضع التعريفات والتشريعات الهادفة لقيام منطقة عربية جمركية موحدة.
- تنسيق سياسات التجارة الخارجية مما يكفل تنسيق اقتصاد المنطقة حيال الاقتصاد العالمي وبما يحقق أهداف الوحدة.
- تنسيق الإنماء الاقتصادي، ووضع برامج لتحقيق مشاريع الإنماء العربية المشتركة.
- تنسيق السياسات المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية.
- تنسيق السياسات المالية والنقدية تنسيقاً يهدف للوحدة النقدية.
- تنسيق أنظمة النقل الموحدة في البلدان المتعاقدة ووضع أنظمة الترانزيت وسياساتها.

- تنسيق التشريعات الضريبية والرسوم، في سبيل ذلك نظمت الاتفاقية وصفا لما يجب على الدول الأعضاء إتباعه، فنصت على ضرورة تحقيق انتقال الأشخاص ورؤو الأموال وحرية تبادل البضائع الوطنية والأجنبية وحرية الإقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي وحرية النقل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والموانئ والمطارات المدنية.

ج- منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى:

وأهم ما جاء في هذه الاتفاقية من أحكام ما يلي: ⁽¹⁰⁾

- العمل على استكمال إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى خلال عشر سنوات من 1998/01/01.
- تحرير التبادل التجاري بين دول الأطراف.

- عدم خضوع السلع العربية التي يتم تبادلها إلى أية قيود جمركية تحت أي مسمى كان.

- يشترط الاعتبار السلعة العربية أن تتوفر فيها قواعد المنشأ التي يقرها المجلس الاقتصادي والاجتماعي، وبالتالي فإن المنتجات العربية تخضع لقواعد تصنعها لجنة قواعد التي أنشأها المجلس الاقتصادي الاجتماعي.

- تبادل المعلومات والبيانات بشفافية والعمل على إخطار المجلس الاقتصادي والاجتماعي بالمعلومات واللوائح الخاصة بالتبادل التجاري.

- تشكيل لجنة تسوية المنازعات في كل القضايا المرتبطة بالاتفاقية.

- منح معاملة تفضيلية للدول العربية الأقل نمواً.

- التشاور بين الدول الأطراف حول الخدمات والتعاون التكنولوجي والبحث العلمي، وتنسيق النظم والتشريعات والسياسات التجارية واية حقوق الملكية الفكرية.

- وضع آلية متابعة والتنفيذ وفض المنازعات، ولقد حددت الاتفاقية بمهمة الإشراف بالمجلس الاقتصادي الاجتماعي، ويساعده في أداء مهامه لجان تنفيذية وهي:

• لجنة التنفيذ والمتابعة.

• لجنة المفاوضات التجارية.

• لجنة قواعد المنشأ العربية.

• الأمانة الفنية.

ويتم السير بخطوات جدية نحو تحقيق السوق العربية الحرة الكبرى من خلال المناطق والأسواق الحرة الثنائية والجماعية بين الدول العربية، أم من خلال تحرير التجارة بين الأقطار العربية وإلغاء الرسوم والقيود عبر اتفاقيات ثنائية.

2.2. أسباب فشل محاولات الاندماج:

من المفارقات العجيبة التي يمكن للمهتم بالشؤون الاقتصادية العربية أن يقف عليها، ضعف الاهتمام بالتكامل الاقتصادي العربي، وتعرض مسيرته للتعثرات المستمرة في عصر تسوده التكتلات الاقتصادية، وتدويل الحياة الاقتصادية، كما أنه من الغريب أن نلاحظ

النمو في الارتباط غير متكافئ للدول العربية مع الدول المتقدمة، على حساب التكامل الاقتصادي العربي الشمولي المستقل والمتكافئ، بل حتى على حساب التكامل على مستوى التجمعات العربية المستحدثة منذ بداية الثمانينيات.

كما أنه من غير المنطقي أن تنتهي كل أشكال وصيغ التعاون الاقتصادي التي ظهرت خلال أكثر من نصف قرن إلى ما يشبه الفشل، فلم تتجاوز محصلتها النهائية بعد كل هذه السنين نسبة 10% من التجارة البينية بين الدول العربية إلى إجمالي تجارتها الخارجية، بالإضافة إلى قائمة طويلة من المنظمات العربية المتخصصة؛ غطت من حيث الشمول كافة قطاعات النشاط الاقتصادي تقريباً.⁽¹¹⁾

وأهم العقبات التي حالت دون تحقيق التطور المطلوب في التجارب التكاملية العربية رصدناها في صنفين؛ سياسية ومؤسسية، وأخرى موضوعية:

أ- الأسباب السياسية والمؤسسية:

إن الظروف والعوامل السياسية حصرت خطوات التكامل الاقتصادي العربي وحدث من مشروعات الانجاز، وهو ما أوقع الدول العربية في مأزق التناقض بين ما هو مقرر وما هو منفذ، بل يبين ذلك والتطبيق، فالإرادة السياسية هي الحاسمة في إقامة أي مجال إقليمي متعدد الجنسية، ويبدو أن غيابها بصفة فعلية على مستوى العالم العربي، وما اكتنف العلاقات السياسية العربية من صراعات قد لعب دورا بارزا في فشله في مسعاه نحو التكامل الاقتصادي، ذلك أنه ظل ومنذ عقود يواجه صراعات سياسية عديدة، لا يزال البعض منها دون حل إلى يومنا هذا، مع عجز الجامعة العربية في التوصل إلى حلول عملية قابلة للتطبيق لمثل هذه المشكلات.

كما أنه ومن الأسباب التي يُعزى إليها الفشل: الاختلاف في أساليب صناعة القرار السياسي في الدول العربية، وهو ما انعكس بشكل مباشر على العلاقات الاقتصادية، حيث لم تتمكن الدول العربية الاتفاق على سياسة مشتركة يتم تبنيها ضمن النظم والسياسات الوطنية المختلفة، ومُراد ذلك أن كل دولة تتبنى سياسة خاصة بها تحددها مجموعة من المتغيرات الداخلية والخارجية التي تعينها وحدها، حيث تضع سياسات اقتصادية على أسس قطري صرف بدلا من أن تأخذ بعين الاعتبار فرص إمكانيات التكامل الاقتصادي المتاحة في الدول العربية الأخرى، ولا يوجد اختلاف في أن الإغفال المتبادل بين الدول لما تقوم به

مراد غلة

البلدان الأخرى على هذا الصعيد للإطلاع على قطاعات التنمية وسعتها، يؤدي إلى تبديد الموارد وإضعاف الدور الذي يمكن أن تلعبه نظرا لمقيا الدولة الوطنية المتبنى من طرف القيادات، حيث ركزت الدول العربية على بناء الأمن الاقتصادي القطري مما تسبب في إعاقة المحاولات التي تتم في إطار إقليمي أو تحت إقليمي.

ب- الأسباب الموضوعية:

إن التوجه المتزايد لأغلب أفراد المجتمع الدولي نحو العالمية والتكامل الاقتصادي الإقليمي يعتبر تحديا، بل تهديدا للمصالح الاقتصادية العربية، ذلك أنه أصبح من غير المناسب لأي دولة من العالم العربي التعامل مع هذه المستجدات بصفة انفرادية مهما بلغ مستوى ثرائها وتقدمها الاقتصادي، حيث أنه من مميزات التوجه الجديد المنافسة الكبيرة وما يصاحبها من تقدم التكنولوجيا الجديدة والاتصالات، إذ أن الحل المناسب للتعامل مع التوجه الجديد هو التكامل الاقتصادي العربي، غير أن الدول العربية بدلا من أن تتبنى هذا المنهج وتجسده وفق ما يتطلبه ذلك من تنمية وتعزيز للعلاقات الاقتصادية البينية التي تتيح لها إمكانية جلب الاستثمارات، نجدها تشيطة معيقة وخاصة على المستوى التجاري، فأين يكمن الخلل؟⁽¹²⁾

إن لمن الخطأ الاعتقاد بأن اقتصاديات الدول العربية سواء على المستوى الشمولي أو على المستوى الفرعي متكاملة بصورة فعالة، إذ لا يوجد لتكامل اقتصادي عربي على المستويين السابقين بمفهومه السكوني، لكن يمكننا التأكيد على أن الاقتصاديات العربية يمكنها تبني منهج التكامل بالمفهوم الحركي، إذاً السبب الرئيسي لهذا الخلل هو واقع الاقتصاديات العربية المتشابهة والمتزايدة وليس المتكاملة، بسبب تماثل البنيات الاقتصادية، ففي الأسا نجدها تستهلك ما تستورد وما لا تنتج، وتنتج ما لا تستهلك للتصدير.

وعليه فإن قوة الارتباطات الأفقية بين الاقتصاديات العربية ضعيفة ومتواضعة، وأبعد من ذلك فهي تنطلق من حركية ونشاط التبادل بمفهومه التسويقي التجاري الهين، بالإضافة إلى أن الأثر الاقتصادي للقطاع التجاري في تحويل القطاعات الأخرى يبقى ضعيفا.

وإذا أردنا التعمق أكثر في واقع الاقتصاديات العربية على مستوى الفرعي نجد مثلا دول الاتحاد المغاربي متخصصة في إنتاج النفط، الحوامض، الخمور، الزيتون والفوسفات مهمة بذلك الإنتاج الزراعي الغذائي، والذي من شأنه أن يكون أساسا لقاعدة تصنيعية

مراد غلة

حقيقية، أما بخصوص دول مجلس التعاون الخليجي فنجدها تنتج بالأساس البتروكيماويات مما لا يدع مجال للقول بتوافر تكامل اقتصادي سكوني.

كما يمكن للثروة النفطية لهذا المجال العربي أن تكون دافعا في تحريك التكامل الاقتصادي العربي الشمولي إذا ما توفرت الإيرادات السياسية وأحسن استعمال عوائد هذه الثروة في خلق قوة اقتصادية عربية، بالإضافة إلى تشابه الهياكل الإنتاجية للدول العربية، يعتبر التنسيق في مجال النقل والشحن مثلا وارتفاع تكاليفه بشكل كبير، عاملا سلبيا آخر عند مقارنته مع سائر دول العالم، وهو أمر غير مفهوم إذا أخذنا في الاعتبار عنصر القرب الجغرافي بين الدول العربية، يضاف إلى ذلك تفاوت وارتفاع الرسوم الجمركية المطبقة في البلدان العربية.

كما تشير بعض المؤشرات الاقتصادية المتوفرة إلى أن الدول العربية عانت وتعاني من فجوة غذائية خطيرة تقدر بأكثر من 23 مليار دولار سنويا وهي أخذة في الزيادة، ومعدل النمو العربي حوالي 02% فقط، وهو معدل ضعيف مقارنة بالمعدلات المسجلة في الدول النامية ذات الاقتصادات الديناميكية، أو بالنسبة للمعدلات المطلوبة لتحقيق التقدم الاقتصادي المنشود في العالم العربي، كما أن معدل الاستثمار لا يزيد عن 01% في المتوسط، بينما تبلغ المديونية الخارجية ما يقارب 200 مليار دولار، في الوقت التي قاربت فيه الأموال العربية الموجودة في البنوك الخارجية إلى 1000 مليار دولار.

3/ الاندماج الاقتصادي العربي عبر الإنماء المشترك مع اقتصاديات الدول □:

التعاون الاقتصادي العربي في مجال المشروعات المشتركة:

يحدد دليل المشروعات العربية المشتركة، المشروع العربي المشترك بأنه: "المشروع الذي يقوم بين قطرين أو أكثر من الأقطار العربية ويتم توطينه في مجموعة أقطار تساهم في إدارته بصورة مشتركة ويمتد نشاطه إلى نطاق الوطن العربي، وينشأ من قبل قطر أو أكثر ويتم توطينه في قطر واحد إلا أنه له منفعة اقتصادية واسعة لأكثر من قطر".⁽¹³⁾

والمشروعات المشتركة العربية تصب في مسيرة التكامل الاقتصادي العربي، وتأخذ صيغتين: الأولى مشروعات تتم على أسس المشاركة، والثانية على أسس التعاقد وتعتبر في

كل الأحوال وسيلة لتحقيق نوع من التكامل الجزئي لا يمس إلا جزءا من الاقتصاد القومي مما يجعل الدول العربية لا تتردد في قبولها وتفضيلها عن الصيغ الأخرى من الاتحاد الجمركي أو السوق المشتركة وخاصة في المرحلة الأولى من عملية التكامل الاقتصادي وتعتبر المشروعات العربية المشتركة صيغة مرنة تحقق مصالح كل الأطراف المعنية بها، ويمكن أن تتخذ العديد من الصيغ القانونية التي تتفق مع مختلف الظروف والاعتبارات، حيث يمكن إقامتها في شكل شركة قابضة أو في صورة مشاركة مباشرة على مستوى عمليات الإنتاج أو التوزيع أو غير ذلك من الأشكال.

ويلاحظ أن الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي اهتم بالمشروعات العربية المشتركة، كما أكدت التجربة للصندوق أن هدف التكامل الاقتصادي العربي لا يمكن تحقيقه فقط عن طريق إجراءات تحرير التبادل التجاري وحدها، فلا بد أن يرافق هذه الإجراءات جهد تنموي لتوسيع قاعدة الإنتاج وزيادة حجم وأنواع السلع المنتجة في الدول العربية لكي تتوافر فرص التبادل التجاري وقد وجد الصندوق الوطني العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي أن أهم وسائل التغير في نمط وحجم القدرات الإنتاجية العربية هو إنشاء مشروعات عربية مشتركة يتوافر لها موارد من تلك المتاحة للمشروعات الوطنية.

وتشير تجربة المشروعات العربية المشتركة إلى أن تلك المشروعات تصنف من حيث الملكية إلى ثلاث مجموعات هي: ⁽¹⁴⁾

❖ مشروعات مؤسسات التمويل القطرية.

❖ مشروعات في إطار المنظمات العربية.

❖ مشروعات خارج إطار المنظمات العربية.

ويمكن القول أن أهم العوامل الدافعة لإنشاء المشروعات العربية المشتركة في التجربة العربية كانت ترجع إلى تحسين الظروف السياسية العربية بعد حرب 1973، وحدوث نوع من الاستقرار في العديد من الأقطار العربية وبداية نظام عربي جديد وظهور الفوائض العربية البترولية بمقادير كبيرة وبداية تحسين مناخ الاستثمار، بظهور المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وإقرار اتفاقية تسوية المنازعات ومنع الازدواج الضريبي واستثمار رؤو الأموال وانتقالها بين الدول العربية، وظهور مؤسسات جديدة على المستويين العالمي والعربي لتشجيع

الاستثمارات في المنطقة العربية، واتجاه الأقطار العربية المستوردة لرأ المال إلى تشريع العديد من القوانين التي تسمح بمعاملة تفضيلية خاصة للاستثمارات العربية.

خلاصة:

بعد الذي ذكر من عرض مضامين التكامل الاقتصادي العربي، يبقى لنا ضرورة التأكيد على الاقتراحات التي تتجسد في جملة من التوصيات التي من شأنها العمل على تحسين وضعية التكامل الاقتصادي ومستقبل التنمية العربية، وأهمها ما يمكن ذكره على سبيل المثال لا الحصر:

✓ على الأقطار العربية جمع كياناتها الصغيرة والمنتشرة بكيان واحد ذي وزن يُمكن من تفعيل العمل الاقتصادي العربي المشترك.

✓ دعم التجارة العربية البينية وتعزيز القدرة التفاوضية مع التكتلات الاقتصادية الكبرى، ويعتبر تفعيل وإنجاح منطقة التجارة الحرة العربية خطوة حاسمة على هذا الطريق. والانضمام إليها هو رد أكيد على التحديات الخارجية.

✓ إن بناء علاقات شراكة عربية متكاملة يحتاج إلى إقامة علاقة اقتصادية واسعة، والابتعاد عن الخلافات السياسية السائدة والعمل على وحدة المصالح الاقتصادية وكذلك استرجاع وجذب الأموال، واستقطاب الثروات العربية المستثمرة في الخارج إلى الدول العربية من أجل استثمارها، وزيادة قيمة التجارة البينية العربية.

الهوامش:

(1) عبد الرمان تيشوري، التكامل الاقتصادي العربي في مواجهة التحديات، تاريخ النشر 2005/11/04، مجلة الحوار المتمدن، العدد 1360، الموقع الإلكتروني: aatoych@scs-net.org .

(2) إكرام عبد الرحيم، التحديات المستقبلية للتكامل الاقتصادي العربي، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة 2002، ص 13.

(3) خليفة مراد، التكامل الاقتصادي العربي على ضوء الطروحات النظرية والمرجعية القانونية تجارب وتحديات، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي والعلاقات الدولية، كلية الحقوق، جامعة الحاج لخضر، باتنة، دفعة: 2005-2006، ص 13.

- (4) أ د إبراهيم شلي، التنظيم الدولي دراسة في النظرية والمنظمات الدولية، بيروت، الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1984، ص 49.
- (5) جنوحات فضيلة، تنسيق التكامل الاقتصادي العربي وتفعيله في ظل التحديات الإقليمية و الدولية، الندوة العلمية الدولية حول التكامل الاقتصادي العربي كآلية لتحسين وتفعيل الشراكة العربية الأوروبية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عبا سطيف، الجزائر 8-9 ماي 2004، ص 17.
- (6) نزار الربيعي، أزمة التعاون الاقتصادي العربي، المشاكل و الحلول، نموذج المشاريع العربية المشتركة، مجلة التعاون العدد 49، مار 1990، ص 51.
- (7) عائشة راتب، التنظيم الدولي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص 3.
- (8) بوسعدة سعيدة، بوقاعة زينب، التحديات والآفاق المستقبلية للتكامل الاقتصادي العربي، الندوة العلمية الدولية حول التكامل الاقتصادي العربي كآلية لتحسين وتفعيل الشراكة العربية-الأوروبية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عبا ، سطيف، الجزائر، ص 6.
- (9) صلاح الدين حسين الحسن، الإتحاد الأوروبي والعملة الأوروبية الموحدة اليورو والسوق العربية المشتركة، دار النشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2003، ص 8.
- (10) عبد المطلب عبد الحميد، السوق العربية المشتركة الواقع والمستقبل في الألفية الثالثة، الطبعة الأولى، 2003، مجموعة النيل العربية، ص 27.
- (11) نزار الربيعي، أزمة التعاون الاقتصادي العربي- المشاكل والحلول، نموذج المشاريع العربية المشتركة، مجلة التعاون، العدد 49، مار 1990، ص ص 60-70.
- (12) محمد ليب شقيب، الوحدة الاقتصادية العربية و اتجاهاتها و توقعاتها ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى، 1986، ص 147.
- (13) شريط عابد، التحولات الاقتصادية الراهنة ومستقبل التكامل الاقتصادي العربي، العدد 30، سبتمبر ، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2006، ص 17.
- (14) عبد الوهاب يد رشيد، الدور التكاملي للمشروعات العربية المشتركة، كاظمة للنشر، الكويت، 1995، ص 119.

أهمية نظم مصادر المعرفة التنافسية في المنظمة لضمان استمرارها تنافسية

محمد قريشي

كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير

جامعة محمد خيضر - بسكرة

مقدمة:

في عصر العولمة أصبح اللابقيين هو اليقين الوحيد الذي يجمع عليه أغلب مسيري ومدراء الشركات والمنظمات في عالم الأعمال، هذا اللابقيين عندما يلزم عدم إدراك الميزة التنافسية للمنظمة، ومع تسارع دور تكنولوجيا المعلومات، ثم القيمة المضافة المرتفعة الناتجة عن المعرفة في عصر أصبح يسمى عصر اقتصاد المعرفة أو الاقتصاد المبني على المعرفة، أصبح من المهم جدا أن يسعى أفراد الإدارة العليا، وبمساعدة كل الأطراف الفاعلة في صنع واتخاذ القرار داخل المنظمة إلى المعرفة الجيدة لمصادر الميزة التنافسية للمنظمة، ومتابعة توفير كل الشروط الممكنة لاستمرارها، كما يجب أيضا البحث عن مصادر للميزة التنافسية قد لم تكن مدركة في السابق أو اكتسبتها المنظمة مع مرور الزمن والتطورات الحاصلة في مجال تكنولوجيا المعلومات.

لقد كنا ندرك دوما أن الجودة والإبداع والتكلفة المنخفضة تشكل عامل حاسم في تميز المنظمة وقدرتها التنافسية فهل يمكن أن تكون هناك عوامل أخرى فاصلة في هذا المجال؟ وما موقع المعرفة في عصر اقتصاد المعرفة - التي يقول عنها (أنون Anon) "تساعدنا المعرفة على استباق المفاجآت وتجنب الألغام"¹ - من تميز المنظمة أمام منافسيها؟ وكيف تحسم الإدارة الموقف لصالحها؟ أمام عناصر الميزة التنافسية الأخرى.

في السنوات القليلة الماضية نمت شركات جديدة، وبلغت القمة بسرعة فائقة جدا، وفي المقابل اندثرت وتلاشت شركات أخرى كان لها تواجد قوى، وبسرعة فاقت قيام الأولى، رغم أن عناصر التميز التنافسي متوفرة لديها ولو ظاهريا.

تأطرت منهجية بحثنا هذا كما يلي:

إشكالية البحث: قد يحدث في كثير من الأحيان عدم إدراك مسيري المنظمة لجميع مصادر ميزة مؤسستهم التنافسية وبالتالي يكون هناك تقصير كبير في عملية الحفاظ على البقاء والنمو داخل السوق، ومع تزايد شدة المنافسة حول المنظمة أصبح الإدراك الجيد لكل مصادر الميزة التنافسية في غاية الأهمية للنجاح، ومن هذا المنطلق جاءت إشكالية بحثنا هذا على النحو التالي:

كيف تتمكن المنظمة من إدراك وتثمين مصادر ميزتها التنافسية؟ وما هي الآليات اللازمة لضمان استمرارية هذه المزايا؟

ويندرج ضمن هذه الإشكالية التساؤلات الفرعية التالية:

- فيما تتمثل الميزة التنافسية للمنظمة؟
- ما هي مصادر الميزة التنافسية للمنظمة؟
- كيف يمكن للمنظمة المحافظة على ميزتها التنافسية، ومن ثم تطويرها؟

منهج البحث: لكي يتمكن الباحث من دراسة وتحليل هذا الموضوع فقد استخدم المنهج الوصفي التحليلي . كما استعان أيضا بالمنهج الوصفي الوثائقي القائم على جمع وتحليل ما كتب عن هذا الموضوع من كتب ورسائل جامعية ومجلات ومواقع الكترونية لبناء خلفية نظرية جيدة لمشكلة البحث المطروحة.

أهمية البحث: مع تزايد حدة وتسارع الأزمات الاقتصادية والمالية العالمية، في جانبي الركود أو التضخم، ومع مقتضيات العولمة الحديثة إضافة لتسارع التغير التكنولوجي ومفاهيم صنع القرار والأداء تحتل هذه الورقة أهميتها حيث سوف نناقش بعد تبسيط كل المفاهيم إشكالية الميزة التنافسية وتثمينها. والعمل على استمرارها وتجديدها وكما نناقش هل الميزة التنافسية متجددة أم لا؟.

الإطار العام للبحث: من أجل الإحاطة بمختلف جوانب هذا البحث، فقد تم تقسيمه إلى محورين رئيسيين هما: - المحور الأول: ماهية وعناصر الميزة التنافسية.

- المحور الثاني: ضمان استمرارية عناصر الميزة التنافسية.

1: ماهية وعناصر الميزة التنافسية.

عند البحث في موضوع الميزة التنافسية، من المهم الإدراك أن هناك تباين شاسع بين مختلف العلماء الذين تناولوا موضوع التنافسية بالدراسة بداية من مفهوم الميزة التنافسية إلى عناصرها إلى قياسها، ولهذا سنجد من الضرورة التطرق إلى بعض المفاهيم المساعدة في هذا الموضوع.

1.1- تعريف الميزة التنافسية.

تتمثل الميزة التنافسية للمنظمة في تمتعها بقدرة خاصة ناشئة عن امتلاكها موردا متميزا يكون مرشدا أساسيا في اختيار قوتها الدافعة عند صياغة الإستراتيجية المناسبة وهذا ما يُمكنُ المنظمة من تقديم منتجات ذات قيمة ومنافع للعملاء وتفضل عما يقدمه المنافسون الآخرون فتأكد التمييز والاختلاف عنه². وهناك من يعرف الميزة التنافسية على أنها التحكم الجيد والسيطرة التامة على عامل أو أكثر من عوامل النجاح بشكل يكون أفضل من المنافسين³.

وكذلك فإن الميزة التنافسية هي ميزة أو قيمة لمنتج أو منظمة، وإِذاً ميزة أو سمة متميزة أو فريدة، وهكذا تتيح تفوقا للمنظمة في السوق وتمكنها من تعزيز قدرتها التنافسية⁴.

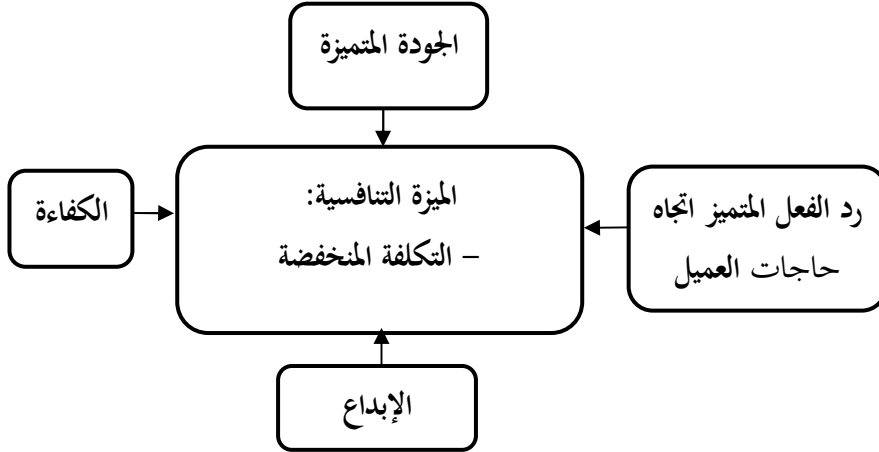
بالإضافة إلى ذلك فإن الميزة التنافسية لمنظمة ما هي القوة الدافعة أو قيمة أساسية تتمتع بها المنظمة، وتؤثر على سلوك العملاء، في إطار تعامله مع المنظمة، وقد تستمر لفترة طويلة بغض النظر عن طول أو قصر دورة حياة السلعة أو الخدمة التي تقدمها هذه المنظمة⁵.

وبشكل عام نجد بأن جل الإدارات العليا في كافة المنظمات تسعى جاهدة إلى تحقيق المزايا التنافسية من خلال ما تقدمه العمليات، إذ تشير الميزة التنافسية على وجه العموم إلى المقدرة على تحقيق حاجات المستهلك أو القيمة التي يتمنى الحصول عليها من ذلك المنتج. وهنا يبرز التساؤل المهم حول الكيفية التي تمكن المنظمة من تحقيق الميزة التنافسية. وإن الإجابة على هذا السؤال يمكن توضيحها من خلال المصادر الرئيسية لبناء الميزة التنافسية.

2.1- مصادر الميزة التنافسية.

إن التوصل إلى تحقيق الميزة التنافسية أو الأفضلية التنافسية المتفوقة يتطلب من المنظمة الاعتماد على عدة عناصر، والتي تساهم بدورها في خلق القيمة، حيث تعتبر الكفاءة والجودة والإبداع والاستجابة للعميل. عناصر جد مهمة في كسب المزايا التنافسية التي يمكن لأية منظمة أن تتبناها بغض النظر عن مجالها الصناعي أو المنتجات والخدمات التي تقدمها. ودون إطالة يمكن توضيح مصادر الميزة التنافسية من خلال الشكل الموالي:

الشكل رقم (01) مصادر الميزة التنافسية



المصدر: تشارلز وجارث جونز. الإدارة الإستراتيجية (مدخل متكامل)، ترجمة رفاعي محمد، رفاعي محمد سيد أحمد المتعال، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، ج1، 2001، ص 196

من خلال الشكل السابق نجد أن هناك علاقة متشابكة بين الجودة والكفاءة والإبداع والاستجابة لحاجات العميل، فنذكر على سبيل المثال:

فالجودة المتميزة يمكن أن تقوم على الكفاءة المتفوقة. في حين أن التجديد يدعم الكفاءة، والجودة، والاستجابة، لحاجات العميل. وفيما يلي سنتطرق لكل عنصر على حدى:⁶

أ. الكفاءة: إن المنظمة تقوم بتحويل المدخلات إلى مخرجات. والمدخلات ما هي إلا عوامل أساسية للإنتاج مثل: العمالة، الأرض، رأس المال، التنظيم (الإدارة) والمهارة التكنولوجية.

أما المخرجات فهي عبارة عن السلع والخدمات التي تنتجها المنظمة. إن أبسط مثال لقياس الكفاءة يتمثل في : مقدار المدخلات المطلوبة لإنتاج مخرجات معينة: أي

$$\text{الكفاءة} = \frac{\text{المخرجات}}{\text{المدخلات}}$$

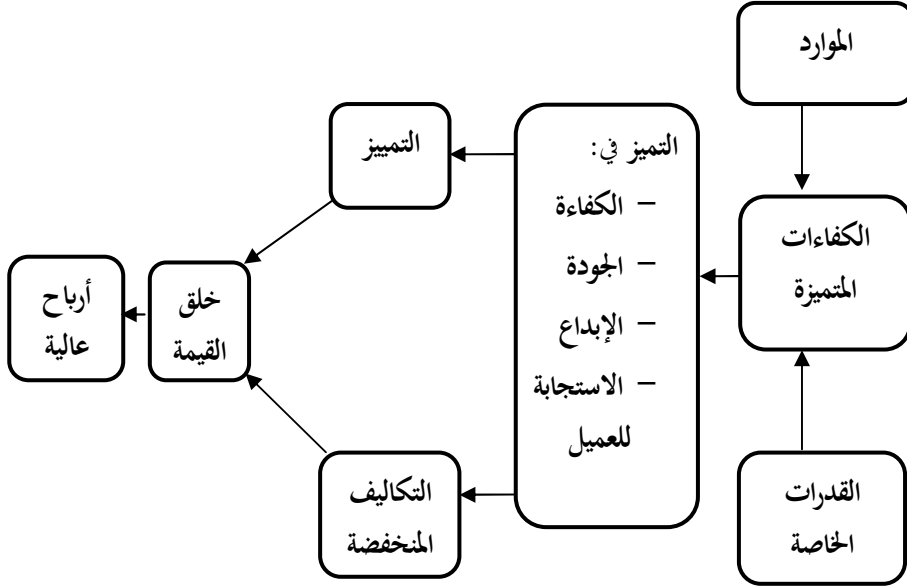
فكلما كانت المنظمة أكثر كفاءة كلما قل مقدار المدخلات المطلوبة لإنتاج مخرجات معينة. إن أهم مكونات الكفاءة للكثير من المنظمات يتمثل في إنتاجية العامل ذلك العنصر الذي يقاس عادة بالمخرجات بالنسبة لكل موظف (عامل). ومع أخذ كل الثوابت في الاعتبار. فإذا ما حققت المنظمة مستوى عال من إنتاجية العامل في مجال صناعي معين فسوف تحقق بالمقابل المستوى الأدنى من تكاليف الإنتاج. بعبارة أخرى فإن هذه المنظمة سوف تمتلك مزايا تنافسية مركزة على التكلفة.

دور الكفاءة المتميزة في خلق القيمة: إن الكفاءة المتميزة ما هي إلا قوة مميزة فريدة من نوعها تمكن المنظمة من إنجاز وتحقيق الكفاءة والجودة والإبداع والاستجابة للعميل. وبذلك يمكن التوصل إلى خلق القيمة والحفاظ على المزايا التنافسية، الأمر الذي يعزز من قدرة المنظمة التنافسية، وإن المنظمة التي تتمتع بالكفاءة المميزة يكون بمقدورها تمييز منتجاتها وتخفيض تكاليفها بالمقارنة مع منافستها. وهذا ما يمكنها من خلق قيمة أكبر مقارنة بمنافسيها، الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى تحقيق أرباح عالية. وعلى سبيل المثال، نستطيع القول بأن شركة TOYOTA تستحوذ على كفاءات متميزة في مجال التطوير والعمليات الصناعية وأصبح لها الريادة في الكثير من تقنيات التصنيع ونظم التخزين اللحظي (Just-In-Time)، وأوقات التجهيز والتهيئة المنخفضة للتجهيزات المعقدة. ولقد ساعد ذلك شركة تويوتا على الاحتفاظ بالكفاءة المتفوقة وجودة المنتج الذين يمثلان القاعدة الأساسية للمزايا التنافسية في مجال صناعة السيارات العالمية.

بالإضافة إلى ما سبق فإن الكفاءة المتميزة تتحقق من خلال وجود مصدرين وهي : الموارد والقدرات، هذا بالإضافة إلى المصادر التي سبق ذكرها ويمكن توضيح

ذلك من خلال الشكل الموالي:

الشكل رقم (02) دور الكفاءة المتميزة في خلق القيمة .



المصدر : تشارلز وجارث جونز، مرجع سابق، ص212.

ويمكن تجزئة الموارد؛ إلى موارد مالية وطبيعية وبشرية وتقنية وتنظيمية، ولكي تتمكن المنظمة من تهيئة كافة الظروف لتحقيق الكفاءة المتميزة فإنه يجب أن تكون موارد المنظمة فريدة وذات قيمة مقارنة بمنافسيها، والموارد الفريدة هي الموارد التي لا تملكها أي منظمة أخرى (مثلا المهارات التقنية) أما القدرات فيمكن ربطها بمهارة المنظمة في تنسيق مواردها ووضعها قيد الاستخدام الإنتاجي وتلك المهارات تكمن في الطريقة التي تعتمد عليها المنظمة على صعيد اتخاذ القرارات وإدارة عملياتها الداخلية من أجل تحقيق الأهداف المرجوة . ويمكن القول بأن قدرات المنظمة تعد نتاج هيكليها التنظيمي وأنظمة الرقابة الخاصة بها وتلك العوامل التي تحدد كيف، وأين، تتخذ القرارات داخل المنظمة، والسلوكيات التي تكافئ عليها المنظمة إضافة إلى اللوائح والقوانين والقيم الثقافية في المنظمة. والجدير بالذكر أن نوضح بأن القدرات تدخل ضمن فئة العوامل المعنوية ، وتكمن تلك القدرات في الأفراد، وفي الطريقة التي

يتفاعل بها الأفراد ويتعاونون ويتخذون القرارات في إطار محيط المنظمة وما يجب الإشارة إليه هو أن هناك فرق واضح بين الموارد والقدرات اللذان يساهمان في إيجاد الكفاءة المتميزة. فالمنظمة التي لها موارد فريدة ومتميزة، ولكن إذا لم يكن لديها القدرة على استغلال تلك الموارد بفعالية فقد لا تستطيع تحقيق الكفاءة المتميزة وبالتالي إن الكفاءة المتميزة لمؤسسات تكون في أقوى درجاتها هذا عندما يتوافر لها الموارد المتميزة ذات القيمة العالية، وبالإضافة إلى القدرات المتميزة والفريدة على إدراك تلك الموارد.⁷

ولعل من أهم متطلبات الكفاءة أيضا اليقظة التكنولوجية التي عنصرا مكونا لليقظة الإستراتيجية. فاليقظة التكنولوجية «تشير إلى الجهود المبذولة من قبل المنظمة، وكذا الوسائل المسخرة بهدف الكشف عن كل التطورات والمستجدات الحاصلة في ميدان التقنيات والتكنولوجيات، والتي تهم المنظمة حاليا، ويمكن أن تهمها مستقبلا»⁸

وأخيرا من متطلبات الكفاءة أيضا اليقظة التنافسية: ويتعلق الأمر هنا بالمتابعة الدقيقة والصارمة لتحركات المنافسين؛ حتى يتم فهم سلوك هؤلاء واستباق المستقبل. ويتم ذلك من خلال جمع المعلومات التي تصنف إلى كمية ونوعية⁹:

المعلومات الكمية: الأداء الحالي للمنافس، إستراتيجية المنافس، الأهداف الجديدة للمنافس، قدرات المنافس، والفرضيات التي تحكم عمل وقرارات المنافس.

المعلومات النوعية: الجهود المبذولة في ميدان البحث والتطوير، العلاقات مع الموردين الجدد، إطلاق المنتجات الجديدة، الأسواق الجديدة، جاذبية تكنولوجيا جديدة، حملة إشهارية جديدة، تطور حصص السوق، تطور التعداد (الإحصاء).

وهذه المعلومات ترتبط بشكل كبير، بحدة المنافسة ضمن قطاع النشاط، ومن حيث أنه نمطي أو متميز.

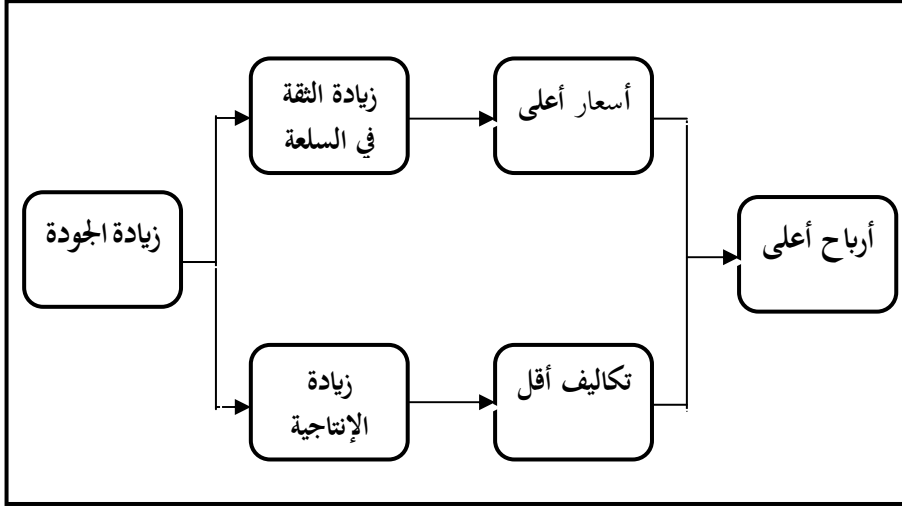
ب. الجودة: تعمل العديد من المنظمات على تحقيق الجودة العالية، لكي تبقى في سوق المنافسة، ولأن الجودة تعني تقليل معدلات التلف أو مطابقة المنتج مع المواصفات المحددة لها في التصميم. لذلك فإن استخدام الجودة كأداة تنافسية، يتوجب على المنظمات أن تنظر إلى الجودة على أنها فرصة إرضاء المستهلك وليس

فقط على الطريقة التي تعالج بها المشاكل أو تقليل تكاليف العمل.

وقد حدد دافيد غارفين David Garvin الخبير في الجودة بجامعة هارفارد الأمريكية خمسة نقاط يتعين على المنظمة إتباعها إذا ما اعتمدت الجودة كأداة تنافسية، وهذه النقاط هي:¹⁰

- يتوجب تحديد الجودة من وجهة نظر المستهلك.
 - يجب النظر إلى الجودة على أنها أداة تنافسية.
 - يتم بناء الجودة في عملية التخطيط الإستراتيجي.
 - لا بد للجودة أن تحصل على التزام المنظمة بالكامل.
- يعتبر تأثير الجودة العالية للمنتجات على المزايا التنافسية تأثيراً مضاعفاً حيث: إن توفير منتجات عالية الجودة يزيد قيمة هذه المنتجات في أعين المستهلكين. وهذا المفهوم المدعم للقيمة يؤدي بدوره إلى السماح للمنظمة بفرض سعر عالي لمنتجاتها.
- أما التأثير الثاني للجودة العالية على المزايا التنافسية يصدر عن الكفاءة العالية والتكاليف المنخفضة للوحدة. بعبارة أخرى؛ أن أقل وقت يضيعه العامل يؤدي إلى خروج منتجات معيبة أو خدمات ذات مستوى أقل من المستوى القياسي، إما اختصار عامل الوقت فيؤدي إلى إنتاجية أعلى للعامل وتكاليف أقل للوحدة وهكذا نجد أن المنتج العالي الجودة لا يسمح للمنظمة فقط بفرض أسعار عالية لمنتجاتها، ولكن يؤدي أيضاً إلى تخفيض التكلفة.¹¹ (انظر الشكل الموالي).

الشكل رقم (03) : تأثير الجودة على الربح



المصدر: تشارلز وجارث جونز، مرجع سابق، ص 201.

لقد زادت أهمية الجودة في مجال بناء المزايا التنافسية بشكل كبير في السنوات القليلة الماضية. ولاشك أن اهتمام الكثير من المنظمات بجودة المنتج لا يمكن النظر إليه على أنه طريقة للحصول على مزايا تنافسية. إذ أن ذلك قد أصبح في كثير من المجالات الصناعية أمرا حتميا من أجل البقاء والاستمرار.

ج. الإبداع: يقول بيتر دراكر Peter Drucker "أن إدارة الأفراد وليس إدارة الأشياء هو الذي يجب أن يحتل الاهتمام الأول والرئيسي للإدارة التنفيذية"¹²، ومن ثم فإن الإبداع يمثل كل عمل يقوم به الأفراد من أجل تطوير المنتجات وأساليب الإنتاج ونظم التسيير والإستراتيجيات التي تعتمد عليها المنظمة. وبالتالي نستطيع القول بأن الإبداع يمثل أحد الأسس البنائية للمزايا التنافسية. وعلى المدى الطويل، يمكن النظر إلى المنافسة كعملية موجهة بواسطة الإبداع. لأنه يمنح المنظمة منتجات فريدة من نوعها ويسمح للانفراد بتمييز نفسها، فضلا عن فرض أسعار عالية لمنتجاتها أو خفض تكاليف منتجاتها بنسبة كبيرة مقارنة بمنافسيها.

إن إدخال الإبداع على المنتجات يساهم في بناء وتدعيم المزايا التنافسية للمنظمات. وفي كل حالة يمكن للمنظمة من خلالها أن تفرض سعرا عاليا وذلك كونها

المورد الوحيد لمنتج جديد. وعندما يحين وقت نجاح المنافسين وفي محاكاة المنتج الجديد، تكون المنظمة المبدعة قد نجحت في إرساء ولاء جد قوي للمنتج وللعلامة، وبالتالي يصعب على المنافسين النيل منها.¹³

د. الاستجابة لحاجات العميل: يقول أريك شولتز "Eric Schultz" في موضوع الاستجابة للعميل "المستهلكون لا يبحثون على أرخص كلفة، بل أعلى قيمة..."¹⁴، فتكون تخفيض التكلفة تناسب القيمة التي يرجى الحصول عليها من هذا المنتج، ولكي تتمكن المنظمات من تحقيق هذا العامل بشكل جيد، يتوجب عليها أن تكون قادرة على أداء المهام بشكل أفضل من المنافسين في تحديد وإشباع حاجات ورغبات عملائها، و بالتالي سيولي المستهلكون قيمة أكبر لمنتجاتها، الأمر الذي بدوره يؤدي إلى خلق التميز القائم على المزايا التنافسية، إن عملية تحسين جودة المنتج يجب أن تتماشى مع تحقيق الاستجابة لحاجات العميل، فمثلاً: إنتاج منتجات جديدة لها مواصفات تفتقر لها المنتجات المتواجدة. ويجب على المنظمة إدراك ذلك يأتي عند إدراك قيمة المنتج أو الخدمة "... ظلت نوعية المنتج أو الخدمة مسألة هامة في تحديد القيمة..."¹⁵

ويجب تسليط الضوء على عنصر جد هام في مسألة الاستجابة للعميل، ألا وهو الحاجة إلى موائمة السلع والخدمات مع المطالب الفردية والجماعية. وتتم عملية فهم المستهلكين بالطرق التالية:

- المسح الكمي للأسواق معرفة كل التطورات التي تطرأ على حالة المستهلكين.
- تقسيم المستهلكين إلى فئات نوعية متجانسة.
- تحليل وتفسير واستخلاص نتائج المسوحات السابقة للشركة أو لطرف آخر أجنبي.
- الحصول على معلومات وتقارير دورية من جميع نقاط التوزيع تخص سلوكيات المستهلك وتساعد على فهم رغباته.

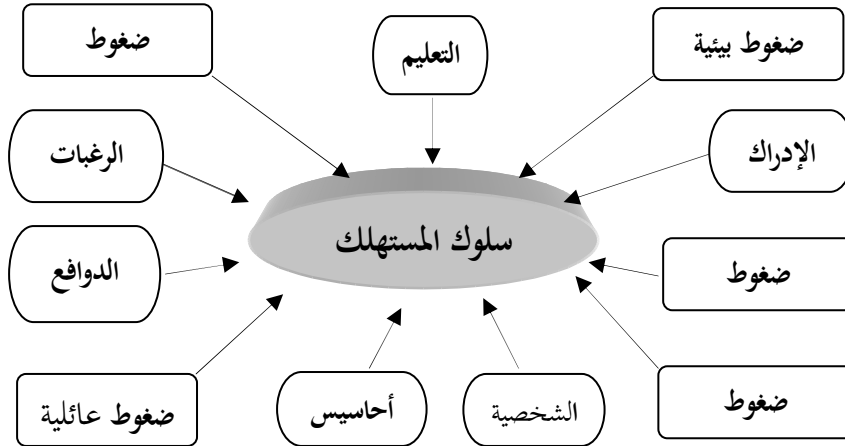
هذا وهناك جانب آخر لا يقل أهمية عن الملائمة ويتمثل في عنصر الوقت، أي وقت الاستجابة للعميل وهو الوقت المستغرق بالنسبة للسلعة حتى تسليمها، أو

الخدمة حتى أدائها.¹⁶

ولقد أصبح عنصر الوقت المصدر الجديد للميزة التنافسية خلال السنوات الأخيرة، مما أدى على ظهور ما يسمى بالمنافسة المعتمدة على الزمن (الوقت). وقد أطلق توم بيتر Tom PETER على السرعة أنها The Hustle Strategy حيث أكد أنها تتطلب نمط جديد من المنظمات التي تتميز بسرعة الحركة وسرعة التأقلم مع تحولات المحيط. ولغرض اعتماد السرعة (الوقت) في المنافسة يتوجب على المنظمة أن تحقق ما يلي¹⁷: تبسيط المنظمة، تجزئة الوظائف، بناء فرق عمل فعالة، التمتع بالمرونة، خلق حالة من الشعور بالطوارئ، لدى العاملين، الرغبة في قبول المجازفة ، تطوير الآليات السريعة العكسية للمعلومات، والتوقع بحدوث التغيرات والتقلبات بشكل مستمر.

إذن يمكن القول أنه يتوجب على المنظمات التي تريد الحصول على مزايا تنافسية عليها أن تستجيب بسرعة لحاجات العملاء، لأنه من الطبيعي أن يتمتع العميل (الزبون) بميزة تجعل الحصول على المنتج بسرعة كبيرة حالما طلبه. وذلك لأن التأخير في إيصال المنتج إلى مستهلكين قد يؤدي إلى التأخير وخلق الاختناقات وزيادة التكاليف وظهور مشاكل عديدة للمستهلكين. وأيضاً معرفة العوامل المؤثرة في سلوك المستهلك والتي يمكن حصرها في الشكل التالي:

الشكل رقم (04):العوامل المؤثرة في سلوك المستهلك



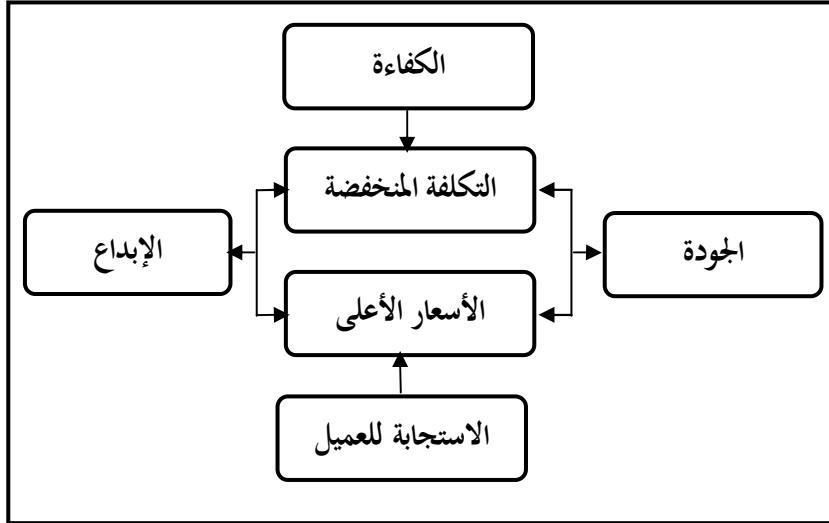
المصدر: محمد الصيرفي، إدارة التسويق، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، مصر، 2005،

ص116.

إذن بعد التطرق للمصادر السابقة للعميل والمتثلة في الجودة والمواصفة ووقت الاستجابة، والعوامل المؤثرة في سلوكه، يجب الإشارة أيضا إلى أن مصادر أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها نذكر منها التصميم المتفوق والخدمة المتفوقة، وأيضا الخدمات المتفوقة لما بعد البيع وعمليات الدعم. وكل تلك العوامل التي سبق ذكرها تدعم مبدأ الاستجابة للعميل وتهيئ الفرصة للمنظمة لتمييز نفسها عن المنظمات المنافسة لها.

إذن بعد استعراض كافة المصادر التي تمكن المنظمة من بناء مزايا تنافسية الأمر الذي بدوره يمكن المنظمة من تعزيز قدرتها التنافسية. يمكن الإشارة أيضا إلى التأثير الذي تفرضه المصادر السابقة (الجودة، الكفاءة، الإبداع، الاستجابة للعميل) على تكلفة الوحدة والسعر، وذلك من خلال الشكل الموالي:

الشكل رقم (05) تأثير الكفاءة، الجودة، الاستجابة للعميل، والإبداع على تكلفة الوحدة والسعر.



المصدر : تشارلز وجاريت جونز، مرجع سابق، ص 205.

كما سبق وأن ذكرنا بأن الكفاءة والإبداع والجودة والاستجابة للعميل هي مصادر أو عناصر هامة في تحقيق وبناء المزايا التنافسية. حيث يمكن القول بأن الكفاءة العالية تمنح المنظمة الفرص لتخفيض تكاليفها، هذا بالإضافة إلى أن الجودة المتفوقة تسمح لها بفرض الأسعار العالية، كما أن الاستجابة الكبيرة والسريعة للعملاء

تسمح أيضا للمنظمة من فرض السعر العالي. دون أن ننسى كذلك بأن الإبداع المتفوق يمكن أن يسمح للمنظمة من تخفيض التكاليف الوحودية ورفع الأسعار.

إذن كافة العناصر المذكورة سابقا تشكل عاملا مساعدا للمنظمة لخلق المزيد من القيمة من خلال تخفيض التكاليف أو تمييز منتجاتها بالمقارنة مع منافسيها.

3.1 - استمرارية المزايا التنافسية:

تسعى جميع المنظمات على اختلاف أنواعها جاهدة الحصول على مزايا تنافسية تمكنها من تعزيز قدرتها التنافسية. وبعد حصولها على هاته المزايا السؤال الذي يطرح نفسه، كم من الوقت سوف تستمر هاته المزايا التنافسية ؟ والإجابة على هذا السؤال تعتمد على ثلاث عناصر:²¹

- عوائق التقليد - قدرة المنافسين - الديناميكية العامة لبيئة صناعية معينة.

أ. عوائق التقليد: بافتراض أن المنظمات هي دائما في سعي مستمر وراء تطوير الكفاءات المتميزة التي من شأنها أن تمنحهم المزايا التنافسية. وعندما تستحوذ المنظمات على هاته الأخيرة سوف تحقق أرباحا أعلى من المعدل المتوسط. الأمر الذي من شأنه أن يلفت نظر المنافسين إلى أن المنظمة تمتلك بعضا من الكفاءات المتميزة ذات القيمة العالية والتي تمكنها من خلق القيمة المتفوقة. وأمر طبيعي أن يحاول منافسوها التعرف على هاته الكفاءات ومحاوله تقليدها. وإذا وافقوا في ذلك ، فإنهم قد يصلون في نهاية الأمر إلى تجاوز أرباح المنظمة، لكن يجب الإشارة إلى أمر جد مهم، وهو كم يلزم من الوقت للمنافسين في تقليد الكفاءات المتميزة للمنظمة، أما العناصر الأخرى فتبقى متساوية.

فكلما وفق المنافسين في تقليد الكفاءات المتميزة للمنظمة في أسرع وقت ممكن، كلما كانت المزايا التنافسية للمنظمة أقل استمرارية. وبالتالي على المنظمة أن تحسن كفاءاتها المتميزة بشكل مستمر لكي تبقى متقدمة خطوة على منافسيها أو بالأحرى مقلديها.

ما يجب الإشارة إليه هو أن الكفاءات المتميزة للمنظمة يمكن تقليدها، لكن هذه المسألة تتطلب وقت، فكلما طال الوقت الذي يستغرقه المنافسون في تقليد

الكفاءات المتميزة للمنظمة، كلما أعطى ذلك فرصة للمنظمة بناء مركز قوي في السوق. هذا بالإضافة إلى زيادة فرصة المنظمات المقلدة في تحسين وتطوير كفاءاتها أو تدعيم كفاءات أخرى. الأمر الذي بدوره يمكن الحفاظ على التقدم في مجال المنافسة. وهنا يمكن القول بأن عوائق التقليد هي المحدد الرئيسي لسرعة إنجاز التقليد، وهي عبارة عن عوامل تجعل من الصعوبة للمنافسين أن يستنسخوا الكفاءات المتميزة للمنظمة. وكلما ارتفعت درجة هاته الصعوبة كلما ساعد ذلك على ترسيخ المزايا التنافسية.

ب. قدرة المنافسين: إن المحدد الرئيسي لقدرة المنافسين على تقليد المزايا التنافسية للمنظمة يتجسد في أولوية الالتزامات الإستراتيجية، حيث يقصد بالالتزام الإستراتيجي، التزام المنظمة بطريقة خاصة في إنجاز وتنفيذ أعمالها، أي تطوير مجموعة معينة من الموارد والقدرات. والغرض من وراء كل ذلك، أنه بعد إعلان المنظمة الالتزام الإستراتيجي سوف تجد أنه من الصعب الاستجابة إلى المنافسة الجديدة. إلا إذا تخلت عن ذلك الالتزام. وبالتالي عندما تعلن المنظمة إلزاما طويلا حول طريقة أو أسلوب معين في أداء أعمالها، فقد يؤدي ذلك إلى بطء عملية تقليد المزايا التنافسية للمنظمة. وبالتالي ستكون مزاياها التنافسية متمسكة بالاستمرار نسبيا.

ج. الديناميكية العامة لبيئة الصناعة: إن المستوى الديناميكي العام في البيئة الصناعية يشهد تغيير جد سريع، حيث تميل معظم الصناعات الديناميكية إلى السيطرة على معدلات عالية جدا من تجديد المنتجات، ويجب الإشارة إلى أن المقصود من معدل التغيير السريع في مجال الصناعات الديناميكية هو أن دورات حياة المنتج عادة ما تكون قصيرة. وأن المزايا التنافسية يمكن أن تكون مؤقتة. وبالتالي المنظمة التي تحقق مزايا تنافسية اليوم، فقد تجد نفسها أمام مأزق كبير وهو تزعزع مركزها، وهذا من خلال ما يقدمه المنافسين من إبداعات جديدة بشكل مستمر.

4.1 - استراتيجيات بورتر التنافسية:

ينطلق بورتر في تناوله لمفهوم الإستراتيجية بالتأكيد على أن لا يمكن لأي منظمة أن تبذل في جميع المجالات، ولقد قدم بورتر ثلاث استراتيجيات، سميت باستراتيجيات بورتر التنافسية وهي: إستراتيجية السيطرة الشاملة للتكلفة، إستراتيجية التمييز،

وإستراتيجية التركيز، وفيما يلي سنوضح كل إستراتيجية على حدة²²:

أ- السيطرة الشاملة للتكاليف: تلعب التكلفة دورا هاما كسلاح تنافسي، فلا يمكن تحديد أسعار تنافسية دون ضبط مستمر للتكاليف، حتى أن كثيرا من المنظمات المتميزة تنافسيا تستهدف أن تكون الرائدة في تخفيض عناصر التكلفة بين منافسيها في نفس المجال الصناعي. وتعد هذه الإستراتيجية الأكثر اعتمادا في أغلب المنظمات الصناعية في العالم. وعلى وجه الخصوص في عقد السبعينات وذلك إثر ظهور منحنيات الخبرة. إن إتباع هذه الإستراتيجية يحقق للمنظمة مركزا تنافسيا أفضل وعائدا أعلى للاستثمار. حيث إذا ازدادت شدة المنافسة داخل مجال صناعي معين، وبدأت المنظمات تتنافس على الأسعار نجد في نهاية الأمر بأن المنظمات التي لها تكلفة أقل تكون هي القادرة على تحمل المنافسة بشكل أفضل من المنظمات الأخرى، نظرا لانخفاض تكاليفها.

ب- التمييز: تمثل استراتيجية التميز، الإستراتيجية التنافسية الثانية التي تتبعها المنظمات في مجال التمييز بين المنتجات أو الخدمات التي تقدمها في السوق واختلافها عن المنافسين بحيث يتم إدراكها داخل الصناعة بأنها فريدة أو متميزة وتأخذ استراتيجية التمييز أشكال عدة منها: التصميم، النوعية، التكنولوجيا، خدمات الزبائن، شبكة الموزعين والباعة وتوفير قطع الغيار الممتازة.

إن استراتيجية التمييز لا تسمح للمؤسسات بالتغاضي عن التكاليف ولكنها لا تمثل هدفا أساسيا أو استراتيجية للمؤسسات. وفي حالة تنفيذ هذه الإستراتيجية بنجاح من قبل المنظمة فإنها تتمكن من تحقيق أرباح مقارنة بالمنافسين، كما أنها تتسم بمنافستها بتعزيز المركز التنافسي للمنظمة ومواجهة قوة البيئة التنافسية.

ج- استراتيجية التركيز: إن هاته الإستراتيجية تعني اختيار شريحة من المستهلكين سواء كانوا أفرادا أم مؤسسات. حيث يتم التركيز عمليا للوفاء باحتياجاتهم أكثر من غيرهم من الزبائن، من خلال التركيز على خطوط الإنتاج أو المنتجات، أو سوق محددة. وهذا ما يجعل المنظمة قريبة من زبائنها والاستجابة لحاجتهم المتغيرة.

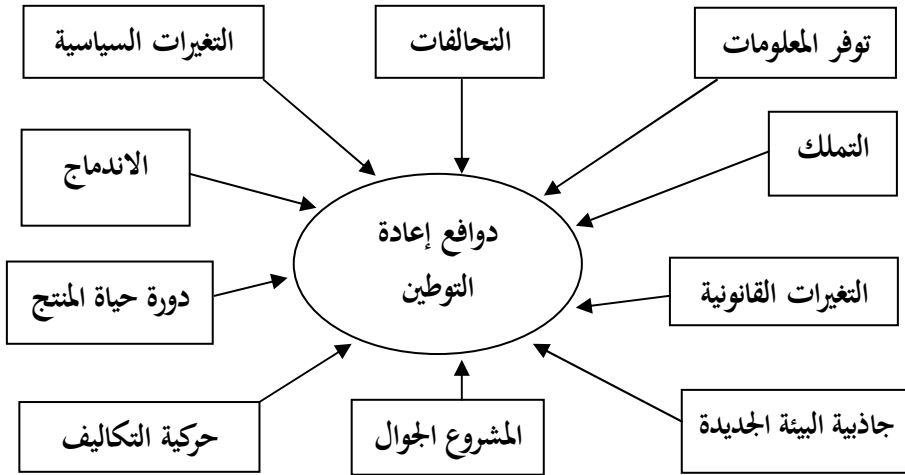
2: ضمان استمرارية عناصر الميزة التنافسية.

إن تتمين المنظمة لعناصر الميزة التنافسية لديها، ليس كافيا إذا لم تسعى إلى ضمان هذه العناصر بخلق بيئة مناسبة تمكن من استمرار ميزة تنافسية معينة أو إيجاد أخرى لم تكن تملكها سابقا. ومن أجل ذلك يتوجب عليها القيام ببعض الترتيبات المساعدة في هذه العملية يمكن حصرها في عناصر هي:

1.2- الهدف التنافسي من إعادة التوطين أو إعادة التموقع.

يمكننا تعريف إعادة التوطين بأنها عملية إعادة النظر في مواطن تموقع نشاط الشركة في العالم من حيث مواقع الإنتاج، التسويق والإدارة أو حتى مراكز البحث والتطوير وذلك رغبة من الشركة في زيادة فعالية هيكلها وتوسيع دائرة السيطرة على الأسواق المختلفة أو تجنب الأزمات المحتملة الحدوث. والتوطين أو إعادة التوطين قد يكون جزئيا وقد يكون كليا، وأصبح أحد محركات ميزة تنافسية ما إذا وجدت المنظمة نفسها في مرحلة فقدان هذه الميزة (سواء الجودة، التكلفة، التميز،... أو أي ميزة أخرى فقدتها أو بدأت تفقدها في مواقعها أو مواطنها الأصلية. والشكل التالي يبين لنا دوافع عملية إعادة التوطين.

الشكل رقم (06) دوافع إعادة التوطين



المصدر: من إعداد الباحثين.

2.2 - الوظائف التنافسية للملكية الفكرية والعلامة التجارية.

في دراسة حديثة لحوالي (500) شركة أمريكية ظهر أنه من بين كل (06) دولارات يوجد دولار واحد يمثل قيمة الموجودات المادية والمالية أما الدولارات الخمسة الباقية، فإنها تعكس موجودات المعرفة (المعنوية والفكرية)³¹ والعلامة التجارية جزءا مهما "فما يهيمن على الاقتصاد الدولي هي الصناعة المبنية على المعرفة"³²

وظائف العلامات التجارية: أهمها نذكر:

- توطيد العلاقة مع المستهلك
- الانتفاع بالعلامات لأغراض الترويج
- تمييز المنتجات وطرح منتجات جديدة.
- تساعد مالكيها على زيادة نسبة الأرباح والرد على المنافسة غير المشروعة.
- هي أحد العناصر الأساسية من عقود الامتياز.
- استعمالها للدلالة على احترام معايير السلامة واستيفاء المواصفات التقنية وتطابق التشغيل في الأنظمة التقنية المعقدة.

"على عكس البراءات وحق المؤلف، العلامات التجارية يمكن تجديدها بلا نهاية وبالتالي تشكل ثروة قوية جدا من أصول الملكية الفكرية"³³.

تغير المنظمة من موقعها التنافسي إذا كانت تتعامل بكل إيجابية مع عناصر ومكونات الملكية الفكرية خاصة المتعلقة بالجوانب التجارية وهي اتفاقية ترخيص.

3.2 - إدارة المعرفة وتنافسية المنظمة.

في عصر اقتصاد المعرفة أو الاقتصاد المبني على المعرفة، أصبحت هذه الأخيرة إحدى ركائز تنافسية كل المنظمات التي أدركت ما للمعرفة من خلق للفارق بينها وبين منافسيها في كل القطاعات، ولعل إدارة المعرفة داخل المنظمة، من عملية إنشاء المعرفة، إلى رسمتها، وأخيرا توزيعها بقدر وطريقة تعظم الاستفادة القصوى منها، إلى إيجاد صناعات المعرفة، وخلق ثقافة التمكين المعرفي، كلها جعلت تنافسية المنظمة في هذا العصر تتمحور بشكل ملفت حول مدى تحكمها في هذا المجال ودرجة تفوها فيه. وقبل التوسع في هذا المجال سوف نحاول تبني المفهوم المعتمد من طرف نادي المعلوماتية للمؤسسات الكبرى الفرنسية "CIGREF" Club Informatique des

(Grand Entreprises Française): بخصوص إدارة المعرفة وهي: "مجموع الطرق والتكنولوجيات التي تهدف إلى خلق، جمع، تنظيم، تخزين، نشر، استعمال وتحويل المعرفة بالمنظمة إلى رأس مال فكري"³⁴

عوامل النجاح في إدارة المعرفة:

- استقاء المعلومة الدقيقة والصحيحة وتوثيقها: هذه العملية تتيح لكل فرد في المنظمة تبادل المعرفة مع زملائه ، وذلك من خلال شبكة الانترنت وشبكة الاتصالات الداخلية، والاجتماعات الدورية المختلفة حسب كل المستويات، وبالتالي فإن كل هذا يسمح بنشر المعرفة ويمكن فريق إدارة المعرفة من تفعيل دور هذه المعلومات وتثمين قيمتها³⁵.

- مناخ الثقة داخل المنظمة: إذ أن تأسيس هذا النوع من المناخ يعتبر جد ضروري لضمان نجاح عمليات إدارة المعرفة، ويتجسد ذلك من خلال مدى نضج طريقة إدارة المنظمة (عملية إدارة المعرفة) ودرجة التنسيق في العمل.³⁶

- ثقافة التعلم التنظيمي: إن نشر هذه الثقافة يشجع على تقاسم وانتشار المعرفة، إذ يعتبر العمل الجماعي والممارسات الإدارية المشجعة (كالإدارة بالمشاركة) بمثابة عوامل تساهم فعلا في نشر هذه الثقافة³⁷.

- الدوران الجيد للمعلومات: ويتحقق هذا من خلال الاعتماد على الهيكل التنظيمي المناسب الذي يضمن حسن التقاط وتقييم ونشر المعلومة، الأمر الذي بدوره يمكن من إدارة المعرفة بشكل جيد³⁸.

- الاستفادة من الخبرات السابقة للمنظمة في مجال إدارة المعرفة: إذ أن هذه الاستفادة تعتبر بمثابة الموجه الأفضل في استراتيجيات المنظمة الخاصة بإدارة المعرفة لديها مستقبلا³⁹.

- الابتكار والتأكيد على فرض التعلم المستمر للأفراد: يعتبر هذا العامل احد عوامل النجاح الفعالة في إدارة المعرفة وتطورها وفق زيادة قدرات الأفراد المؤهلة ، وذلك لتعلمهم المستمر وسعيهم للقيام بأفضل الابتكارات⁴⁰.

- تشجيع العمل الجماعي: يعتبر هذا العامل أحد أبرز العوامل في نشر المعرفة وتجديدها⁴¹.

- تطوير القادة الذين يبنون ويدعمون نماذج التعلم: يعتبر القادة النواة الأولى لفلسفة المنظمة في مجال إدارة المعرفة، ولذلك فإن عملية تطويرهم للمعرفة تمثل حجر الزاوية في إدارة المعرفة وإبراز أفضل نتائجها⁴².
- تركيز الاهتمام على تدفق المعرفة أكثر من تخزينها: تكون عملية إدارة المعرفة ناجحة إذا أدرك فريق إدارة المعرفة أن عليهم الاهتمام بالتدفق المستمر للمعرفة⁴³.
- الاستعمال الجيد لتكنولوجيات المعلومات ومواكبة تطورها: فتكنولوجيا المعلومات تلعب دورا كبيرا في إدارة المعرفة وبالتالي يجب على المنظمة اقتناء أفضل هذه التكنولوجيات واستعمالها بالشكل المطلوب⁴⁴.
- ضمان تعداد القنوات المعرفية لتسهيل عملية نقل المعرفة⁴⁵.
- تمويل عملية إدارة المعرفة: إذ يجب على المنظمة رصد ميزانية تمويلية كافية من أجل الوصول إلى كفاءة عالية في إدارة المعرفة⁴⁶.
- إضافة إلى العناصر السابقة، هناك عناصر أخرى جد هامة والتي من شأنها تمكن المنظمة من تحقيق ميزة تنافسية مستمرة وتتمثل في⁴⁷:
 - مواصلة بحوث التنمية والتطوير للوصول إلى منتجات جديدة وتطوير السلع الحالية بتكلفة أقل وبتقنية أحدث وبشكل دائم.
 - مواصلة البحث والتطوير لتحسين أساليب وطرق الإنتاج وترشيد استخدام الموارد وذلك بالاستغلال الأحسن للإمكانات التي تمكنها من إكتساب ميزة تنافسية دائمة ومستمرة، ورفع الإنتاجية والسيطرة على عناصر التكاليف.
 - بناء قاعدة معلومات لتعظيم العالم المعلوماتي لدى المنظمة عن الأسواق والعملاء والمنافسين.
 - الوصول إلى سلع أو خدمات جديدة مرافقة للسلع والخدمات الأساسية.
 - الإستجابة السريعة لحاجات العملاء، وإشراكهم في القرارات وإضافة قيمة لهم بشكل دائم، وإشراك الموردين أيضا في القرارات .
 - البحث الدائم عن مصادر جديدة للتميز وتطوير أساليب التعامل مع

الأسواق والعملاء.

- التعامل مع منظمات عالمية وإنشاء مشروعات مشتركة.
- بناء هيكل تنظيمي داعم للتميز وبناء فرق عمل عالمية.
- الاستثمار في النشاط التسويقي.
- تنويع أسلحة الهجوم على المنافسين.
- القناعة بما تقدمه من سلع.
- المحافظة على المظهر العام للمنظمة.
- إدارة توقعات العملاء، واكتساب مقومات نجاح المنافسين.
- المراجعة المستمرة للتحديات التي تواجه التسويق الالكتروني.

الخاتمة (النتائج والتوصيات)

بناء على ما سبق، نجد أن الكثير من علماء الإدارة كتبوا عن تنافسية المنظمة ورغم الكم الهائل من المعلومات يقف مدراء هذه المنظمات على تحديات جديدة ومتجددة تجاه الحفاظ على تواجد المنظمة، حصتها السوقية، مسؤولياتها الاجتماعية، مسؤولياتها البيئية، قدراتها التنظيمية، وفائها لربائنها وحتى اللايقين الذي يفرضه المستقبل. وبالتالي يمكننا اعتبار الميزة التنافسية احد أهم الأركان الرئيسية التي تساعد في تعزيز القدرة التنافسية للمؤسسات، وحسب كتابات "مايكل بورتر" تتحقق الميزة التنافسية عندما تستطيع المنظمة تقديم نفس المنتج ولكن بتكلفة اقل (ميزة التكلفة الأقل) أو تحقيق فوائد تزيد عن المنتجات المنافسة (ميزة التميز)، ومن اجل الوصول إلى كل هذا لابد أن يتوفر لدى المنظمة موارد وقدرات تمكنها من تحقيق أداء أفضل عن منافسيها.

إذن، بعد العرض السابق لإشكالية هذا البحث نجد من الواجب حصر نتائجه في مجموعة من النقاط تتلخص في:

- أن المنظمة التي تتمتع بالكفاءات المتميزة يكون بمقدورها تمييز منتجاتها وتخفيض تكاليفها، وهذا ما يمكنها من خلق قيمة أكبر مقارنة مع منافسيها، ومن ثم تعزيز قدرتها التنافسية.
- أن المنظمة التي تتمكن من توفير منتجات ذات جودة عالية، فان قيمة هذه

المنتجات سوف تزيد في عين المستهلكين ، وهذا ما يمكن المنظمة من فرض أسعار عالية لمنتجاتها، وبالتالي حصولها على الميزة التنافسية.

- أن إدخال الإبداع على المنتجات يمكن المنظمة من بناء وتدعيم مزاياها التنافسية، حيث نجد أن المنظمة في هذه الحالة تفرض أسعارا عالية لمنتجاتها وذلك كونها المورد الوحيد لهذه المنتجات الجديدة.

- يتوجب على المنظمات التي تريد الحصول على مزايا تنافسية أن تستجيب بسرعة لحاجات العملاء المختلفة.

- أنه ليس من السهل على المنظمة كسب ميزة تنافسية معينة، ولهذا وجب عليها عند بلوغها السعي بجد للمحافظة على هذه الميزة وتوفير شروط استمراريتها.

- في عصر الاقتصاد المبني على المعرفة، تغيرت الكثير من مفاهيم التنافسية المبنية على الجودة والتكاليف وغير ذلك، وأصبحت المعرفة جزء محوري في تميز أي منظمة.

- استمرار الميزة التنافسية في المنظمة مرهون بمدى إدراك وتثمين الإدارة العليا لمصادر التميز في مؤسستهم.

استنادا إلى ما توصلنا إليه من نتائج في هذا البحث ، وجد الباحث أنه من المفيد تقديم التوصيات الآتية التي تساعد المنظمات على تحقيق المزايا التنافسية المستمرة:

- ضرورة توفير الموارد المتميزة ذات القيمة العالية، وتوفير القدرات المتميزة والفريدة على إدراك تلك الموارد، وذلك لكي تتمكن المنظمة من تحقيق الكفاءة المتميزة، والتي من خلالها تتحصل على الميزة التنافسية المستمرة.

- ضرورة المتابعة الدقيقة والصارمة لتحركات المنافسين؛ وذلك من خلال جمع كافة المعلومات المتعلقة بهم (كالأداء الحالي للمنافسين، استراتيجياتهم، أهدافهم الجديدة، قدراتهم، وجهودهم المبذولة في مجال البحث والتطوير... الخ).

- لا بد للجودة أن تحصل على التزام المنظمة بالكامل.

- يجب على المنظمة أن تقوم بالإبداع والابتكار والاستثمار في البحث والتطوير بشكل دائم.

- يجب على المنظمة أن تستجيب بسرعة لحاجات ورغبات العملاء.
- الاهتمام بجوانب الملكية الفكرية، وإعادة التوطين.
- يجب على المنظمة أن تستعمل تكنولوجيا المعلومات بشكل جيد في جميع عملياتها الإدارية ووظائفها ومواكبة التطورات الحاصلة في هذا المجال التكنولوجي بشكل مستمر.
- ترسيخ أسلوب العمل باستخدام إدارة المعرفة.

الهوامش:

- ¹ سلطان كرماللي، إدارة المعرفة: مدخل تطبيقي، ترجمة: هيثم علي حجازي، (عمان، الأردن، دار الأهلية، ط1، 2005)، ص73
- ² السعيد فرحات جمعة، الأداء المالي لمنظمات الأعمال والتحديات الراهنة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2000، ص:476.
- ³ J.P.Detrie:statégor,édition dunod,Paris,1997,3eme ed,p:52.
- ⁴ احمد سيد مصطفى، إدارة الإنتاج والعمليات في الصناعة والخدمات، كلية التجارة، جامعة بنها، مصر، ط 4، 1999، ص:627.
- ⁵ عبد السلام أبو قحف، إدارة الأعمال الدولية(دراسات وبحوث ميدانية)، الدار الجامعية للنشر، الإسكندرية، مصر، حزيران 2000، ص: 428.
- ⁶ تشارلز وجارث جونز، الإدارة الإستراتيجية (مدخل متكامل)، ترجمة: رفاعي محمد رفاعي، محمد سيد احمد المتعال، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج1، 2001، ص 196-200.
- ⁷ نفس المرجع، ص:212-213.
- ⁸ E. PATEYRON, la Veille strategique, ed. ECONOMICA, 1998, pp. 143-144.
- ⁹ E. PATEYRON, op-cit, p. 133
- ¹⁰ عبد الستار محمد العلي، إدارة الإنتاج والعمليات(مدخل كمي)، دار وائل للنشر، عمان، الاردن، ط1، 2000، ص38.
- ¹¹ تشارلز وجارث جونز، مرجع سابق، ص200.
- ¹² Peter Drucker, Tasks, Responsibilities, Practices , (London, UK, Heinemann, 1974), p41
- ¹³ نفس المرجع، ص ص201-202
- ¹⁴ إريك، شولتز. لعبة التسويق، كيف تمارس أفضل الشركات في العالم. تعريب خالد الكردي، (بيروت، دار الراتب، بدون سنة نشر)، ص.84
- ¹⁵ فيليب، كوتلر، دون إياكوبوتشي، وآخرون. كلية كيلوغ تبحث في التسويق:ترجمة د. إبراهيم، يحي، الشهابي(الرياض: مكتبة العبيكان، 2002)، ص.97
- ¹⁶ نفس المرجع، ص ص202-203.
- ¹⁷ عبد الستار محمد العلي، مرجع سابق، ص ص 39-40.

- ²¹ تشارلز وجارث جونز، مرجع سابق، ص ص 217-223.
- ²² فلاح حسن الحسيني، الإدارة الإستراتيجية، دار وائل للنشر والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص 181-187.
- ²³ صلاح الدين، الكبيسي، إدارة المعرفة (القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، سلسلة بحوث ودراسات، (2005)، ص 136
- ²⁴ نفس المرجع، ص 385
- ²⁵ كامل إدريس، الملكية الفكرية أداة فعالة في التنمية الاقتصادية، الملخص (جنيف، المنظمة العالمية للملكية الفكرية، بدون سنة نشر)، ص 21، لمعلومات أكثر انظر الموقع التالي:
http://www.ecipit.org.eg/Arabic/pdf/low_model4.pdf
- تاريخ التصفح: 2009/02/03
- ²⁶ <http://www.groupemm.com/kmforum/pages/fr/expos.htm> 12/03/2006
- ²⁷ عليان، ربحي مصطفى، إدارة المعرفة (عمان، الأردن، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2008)، ص 167
- ²⁸ Deslandres, Véronique & Gutierrez-Segura, Gerardo, facteurs de réussite pour la gestion des connaissances dans les réseaux de PME ; expériences dans le bâtiment, colloque IPI, Autrans, 22-23 janvier 2004, p230
- ²⁹ Deslandres, Véronique & Gutierrez-Segura, Gerardo; Ibis ; p230
- ³⁰ Deslandres, Véronique & Gutierrez-Segura, Gerardo ; Ibis p231
- ³¹ إسماعيل جوامع، فائزة بركات، محددات إنجاح إدارة المعرفة في المنظمات الاقتصادية، (القاهرة، جامعة الأزهر، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، السنة الثالثة عشر، العدد 37، 2009)، ص ص، 263-286
- ³² صلاح الدين، الكبيسي، إدارة المعرفة (القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، سلسلة بحوث ودراسات، 2005)، ص 123
- ³³ نفس المرجع، ص 123
- ³⁴ يورك براس، إدارة المعرفة: سلسلة المميزون الإدارية، (بيروت، مكتبة لبنان، 2005)، ص 69
- ³⁵ نفس المرجع، ص 136.
- ³⁶ نفس المرجع، ص ص، 108-113.
- ³⁷ الزيادات، محمد عواد، اتجاهات معاصرة في إدارة المعرفة، (عمان، الأردن، دار الصفاء للنشر والتوزيع، 2008)، ص 70

- ³⁸ جوامع، إسماعيل، بركات، فايزة ، محددات إنجاح إدارة المعرفة في المنظمات الاقتصادية، (القاهرة، جامعة الأزهر، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، السنة الثالثة عشر، العدد37، 2009)، ص 284.
- ³⁹ بريش فايزة، دور الكفاءات المحورية في تدعيم الميزة التنافسية، رسالة ماجستير في التسويق، (غير منشورة)، جامعة سعد دحلب، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، البلدية، الجزائر، 2005، ص ص28-29.

منهج الدكتور موسى أقبال رحمه الله - في إيراد النصوص

طاهر بن علي

قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

تمهيد

في كتابهما "مدخل إلى الدراسات التاريخية" يقرّر المؤرّخان شارل سينيوبوس وشارل لانغلو أنّ التاريخ يصنع من الوثائق⁽¹⁾ وأنّ التاريخ ليس إلا استثمار الوثائق⁽²⁾. وفي رسالة له يؤكّد سينيوبوس على "أنّ جميع الأعمال التي تجري على الوقائع الاجتماعية تتمّ على وثائق مكتوبة"⁽³⁾ و"أنّ كلّ عمل تاريخي يقتضي عملية سابقة: ألا وهي جمع مواد المعرفة، أي الوثائق بالمعنى الواسع"⁽⁴⁾. ويبيّن أنّ "المسلك الذي تفرضه طبيعة مادة المعرفة في التاريخ هو البدء من الوثيقة، وهي الأثر المادّي الوحيد عن الماضي"⁽⁵⁾.

مدرسة المنهجية وأهمية النصوص

وكانت خلاصة بحثهما أنّه "حيث لا وثائق لا تاريخ"⁽⁶⁾، ولعلّ هذه الخلاصة هي الفدلكة التي يخرج بها الدارس من تصفّحه وتفحصه للاهتمامات التاريخية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث كان اهتمام المؤرّخين منحصرًا في "اعتبار أنّ الوثيقة أهمّ مصدر للمعرفة، فهي خبر وأداة وحجّة ومنهل لاستخراج الحقيقة التاريخية التي تكشفها الخبرة وإتقان الصنعة"⁽⁷⁾. و"لم يعد النصّ شرطًا من شروط عمل المؤرّخ فحسب، بل أصبح مادّة درسه ذاتها"⁽⁸⁾. وكان هذا هو الاتجاه الذي آمنت به الوضعانية. ثمّ بدا لمدرسة الحوليات أنّ المدرك في التاريخ أوسع من الاعتناء بالوثائق والنصوص، وكأنّهم أرادوا أنّ هاهنا تكمن العملية المادية للتاريخ، حيث هو نصوص ووثائق. ثمّ تفضي به الصنعة إلى "فحص وغربلة ومساءلة وبناء لتلك المكتوبات الناطقة أو الشواهد الصامتة التي جاءت من قبل رجال الماضي الذين

وضعها لغايات معينة⁽⁹⁾.

وبين المدرسة الوضعية ومدرسة الحوليات قامت الوثيقة ركنا أساسيا للدراسات التاريخية. وسواء انطلق المؤرخ الوضعاني "من الوثيقة كأساس بحث واعتبرها نهاية في الحصيلة المعرفية الكاشفة عن الأنباء الماضية"⁽¹⁰⁾ أو لم يكتف مؤرخ مدرسة الحوليات "باستخراج الأحداث من الوثائق الشاهدة فحسب، وإنما يسألها ليثبت أو يلغي أو يغني فرضياته"⁽¹¹⁾.

الوثيقة تأسيس منهجي لتركيب معرفي

ويتبين من اختلاف المنهج في التعامل مع الوثيقة والنص، أنّ التأسيس في التاريخ تأسيس وثنائي، وأنّ المنطلق منطلق نصّي، باعتبار أنّ التاريخ هو الحكاية عن الماضي بالماضي، وأنّ الحاضر منهج يتساقط على الماضي من أجل التفهّم والتعقّل واستجلاء صور الإنسان الفاعل في الزمان والمكان بحيثيات النزوع الفطري والعقلي الناهد لعملية التسخير التي هي المقوم الأساسي لوجوده وتاريخه. وبذلك "سيكون التاريخ علم الوثائق. يستقرئها المؤرخ ويحلّلها ليستخلص منها الوقائع التي تشتمل عليها"⁽¹²⁾، "لأنّ الوقائع كائنة في الوثائق وهي تفرض ذاتها بذاتها قبل كلّ شيء"⁽¹³⁾. وبهذا عن بعضهم أن يعرف التاريخ بأنّه: "علم التصرف بالنصوص والإفادة منها"⁽¹⁴⁾.

التاريخ محمول النصّ

فتأسّس في الحسّ التاريخي لصناعة المؤرخ أنّ الوثيقة أهمّ من أن تكون آلة فحسب، بل هيّات لأن تكون مرحلة أساسية في عملية البناء المنهجي للمعرفة التاريخية. وأنّ المنطلق في التاريخ هو صدور من وثيقة، وأنّ كل المناهج التي اعتمدها التاريخ بعد ذلك هي اللواحق الأساسية التي وجب على التاريخ بنزوعه العلمي أن يبدعها أو أن يستعيرها من العلوم الأخرى، وهكذا تقاطع في كثير من الأحيان مع هذه العلوم، وخاصة علم الاجتماع، حتّى خيل من تقاطعهما المنهجي أنّ التاريخ وعلم الاجتماع مرحلتان لعلم واحد، أو مساحتان لميدان متجانس. ولعلّ في الدراسة القيّمة للكاتب "بول فاين" "كيف نكتب التاريخ" رؤية منهجية واضحة، وجادة⁽¹⁵⁾ في تحديد هذه المساحات من خلال علاقة المنهج بالميدان، ومن خلال تحديد وظائف التعريف لكلّ علم⁽¹⁶⁾.

الوثيقة والتوصيف المنهجي

وفي محاولة عبد الله العروي بكتابه "مفهوم التاريخ"، يتبين تحديد آخر متشكّل من ازدواجية - الوثيقة المعرفة - الوثيقة التاريخ-⁽¹⁷⁾ حيث يتكوّن الإشكال الفلسفي⁽¹⁸⁾ حول ماهية المودع في الوثيقة، هل هو التاريخ أم هو الإلماع إلى التاريخ. وما هي الوثيقة في الكنه المعرفي التاريخي وفي عملية التمنهج الذي تتحوّل به المعرفة قيمة في حساب الرصيد الزمكاني المخيل للحادثة، وجزئية في البناء الكلي للواقعة، ومسافة قياسية لأبعاد تكوين الفعل والحركة في مواضع الزمان والمكان، وحالا ببيكواجتماعيا في توصيف روح التاريخ كما يتصوّرها المؤرّخ من خلال قراءته للوثيقة، أو كما تتبدّى من وقوعها من خام النص إلى تناول المنهج، ومن أديم الوثيقة إلى أفق المؤرّخ.

هذه الإشكالات ليست هي مساءلات المؤرّخ لمكوّنات معارفه التاريخية فحسب، بل هي كذلك مراتب توصيف الوثيقة حينما تتحوّل من ملكية التاريخ والماضي إلى ملكية المؤرّخ والحاضر، ومن مرحلة الإبلاغ إلى مرحلة الإفراغ، ومن حالة امتلاك الشهادات إلى حالة إنطاق الشواهد.

وهنا يستقيم الإشكال المنهجي المتسائل عن الوثيقة وأنواعها، وماذا، وما هو المعبر في صناعة المؤرّخ، وثيقة؟. إنّ الإجابة على ذلك تحدّها مسيرة عملية التاريخ، بل تحدّها أكثر، معرفة ماهية التاريخ. فإذا عرف أنّ التاريخ هو فعل الإنسان في الزمان، عرف بعد ذلك ما هي الوثائق التي تشهد على فعله، وفي أيّ مستوى تكون.

لقد تقرّر في مبدئيات العمل التاريخي أنّ الشواهد على فعله كثيرة ومتنوعة، وأنّ كلّ ما قاله الإنسان، أو كتبه، أو أشاده، بل وكلّ ما لمسه يمكن أن يعلم عنه⁽¹⁹⁾، فوثائق التاريخ كلّ ما ترك الإنسان شاهداً إلى⁽²⁰⁾ حركة، أو فعل، أو أثر نسج شبكة خيوط تاريخه. و"كلّ مصدر إعلام من شأنه أن يمكّن المؤرّخ من معرفة الماضي البشري"⁽²¹⁾.

وهذا البسط في مدلول الوثيقة هو الذي أعطى ذلك التوصيف للذهنية المتركّبة في المؤرّخين، حيث "أنّ المؤرّخين كثير و الممارسة للوثائق يكتون من الاحترام للأسلوب الوثائقي ما يحدوهم أحيانا إلى اعتباره الأسلوب التاريخي الوحيد"⁽²²⁾.

إشكالات اختيار الوثائق وقراءتها

ولم يكن من السهل اختيار وانتقاء الوثائق، أي لم يكن المنطلق في صناعة المؤرّخ

مبتدلاً⁽²³⁾ بل كان شاقاً إلى حدّ أنّه كان يعتبر المنفذ الناجح إلى كتابة التاريخ. وكانت الوثائق في أحيان كثيرة تفرض نفسها على المؤرّخ، إمّا بقوة ما تحمل، فلا يجد مندوحة من اعتمادها ولو بشكل مبدئي، حينما يولجها إلى مرحلة النقد، وهناك تكون قد قطعت مرحلة كبيرة من مراحل صناعة المؤرّخ. وإمّا بأحاديثها⁽²⁴⁾، فلا يجد مندوحة كذلك من اعتمادها ولو على سبيل الاستصحاب⁽²⁵⁾، أو على سبيل الاستئناس⁽²⁶⁾. وفي أحيان أخرى كان تنوعها وكثرتها يفضي إلى الإحساس المبدئي بالابتهاج الكبير لدى المؤرّخ، غير أنّه يكون في أغلبه مشوباً بخواطر كبيرة يتوقّأها المؤرّخ ويخشها خوفاً من أن يؤدي تراكمها الكمي أو النوعي إلى سيطرة منهجية أو سيطرة توجيهية⁽²⁷⁾.

إنّ أصعب ما يواجه المؤرّخ هو قراءة النصوص، فالمؤرّخ بصدده كتابة نص جديد، وأنّى له ذلك إذا لم يحسن قراءة النصوص السابقة، خصوصاً الأصول منها، أو الروايات لها، أو النصوص التي اعتمدتها وبنّت عليها، وأصبحت بعد ذلك تجربة للصناعة، حيث هي صيغة لها خصائصها المؤثرة على النصوص التالية لها.

وثائق المغرب الإسلامي

والمغرب الإسلامي مثل كلّ أصقاع العالم الإسلامي، تتمتع بخصوصية الأصول وخصوصية النصوص، وذلك لأهميته الجغرافية ولأهميته المرحلية. وحفظ لنا في ذلك ما صار يمثل ميداناً للبحث ليس على مستوى ما روي أو على مستوى ما كتب، ولكن على مستوى: كيف كتب؟، ولم كتب؟، وبم كتب؟. أي أصبحت النصوص هي محلّ الدراسة، من حيث التكوّن المعرفي، ومن حيث التوسّل المنهجي. ولا يمكن أن يتجلّى ذلك إلّا بالرجوع إلى تأريخ الكتابات التاريخية في كلّ مراحلها، وإلى الدراسات الحديثة التي حاولت التأريخ من خلالها واستناداً إليها، أو حاولت محاوره مرويّاتها بالمنهج من أجل استجلاء قيمها المعرفية.

ونصوص تاريخ المغرب الإسلامي مزيج من أصول، وروايات، ثمّ بناءات نصّية عليهما. ولكلّ نوع منها خصوصيته وقيّمته، وموضعيته من التاريخ. وللروايات منها أهمية بالغة حيث أنّها تعتبر وثيقة التاريخ الإسلامي، الذي جاءت أحداثه على شكل مرويّات تناقلتها أجيال عن أجيال، فالعامّة روتها موروثاً ثقافياً، والنخبة تناقلتها موروثاً معرفياً، الأولى بنت عليها الثقافة والأسطورة والخرافة والخيال، والثانية بنت عليها المعرفة والمنهج والتاريخ.

والرواية عند هؤلاء وعند هؤلاء سواء لدى المؤرخ، فكلّها تمثل له إمكانية معاصرة الواقعة أو الحادثة، وهي اللحظة التي يسعى المؤرخ إلى تحقيقها بمقارباته من خلال الروايات. وفي مثل هذا المعنى أو قريباً منه نقرأ لعبد الله العروي: "... وينطلق كذلك، وفي الوقت نفسه، من رواية، قديمة أو حديثة، أسطورية أو علمية، حول موضوع الدراسة"⁽²⁸⁾.

ولا يكتفي المؤرخ بالروايات لتحقيق معاصرتة هذه، ولا يجعلها الوسيط الوحيد الذي يتوسّل به إلى غايته. فالتاريخ لحظة تجاذب بين المؤرخ والرواية، فإمّا أن تأسره وإمّا أن يشهد لها. فلا يجوز له بحال اليقظة الاستمولوجية أن "يسجن نفسه أبداً في نطاق الرواية"⁽²⁹⁾. وإمّا الواجب "أن يحرّر نفسه من الوثائق وما تفرضه من تحديدات"⁽³⁰⁾. ويمكنه ذلك بالأزاييل بينها وبين الأصول، وألا يفصلها في إطار النظر والدراسة عن النصوص التي تأسست عليها، وبنيت على شواهداها. وهكذا يتحقّق في عمله الذي هو في نظري حفرة في الزمن للوصول إلى الواقعة من خلال الأصول والنصوص.

النصوص في كتابات الدكتور موسى لقبال

وكتابات الدكتور موسى لقبال - ر.ه. الله- من بين الدراسات الجادة التي تناولت هذه الأصول والنصوص بأنارة الباحث المتميز، وذهنية المؤرخ المبرز، فأعطت لنا منهجية دقيقة، ورصينة في تناول المادة منها لتأسيس معرفي صحيح وثابت، ورؤية متبصرة متيقظة في إثبات الحقائق بنحت الأدلة منها فرعاً لأصل وجزءاً لكل، وقرينة صحيحة لذاتها أو غيرها، مع إيراد اللمسات النقدية النفيسة التي تقومها تقويم المتمرّس بالأداة والمتمكّن بالآلة.

ولا يمكن لمعتجل أن يلّم بكلّ تلك النظرات المنهجية الثاقبة، فهي تحتاج إلى أناة وتؤدّة، وتتطلّب الصبر على قراءة نصوصه والنصوص التي اعتمدها، وتتبع مواطن المقاربات ومطآن المقارنات، وليس ذلك بالسهل، ولا باليسيط، فالدكتور - ر.ه. الله- تقرى المادة المعرفية في مدوّنات عديدة وفي أزمان مديدة، في مؤلّفات متخصصة وفي أخرى غير متخصصة، أتى على كلّ ذلك بدون كلل ولا تعب، فكأنّما أوتي الراحة قبل الأبرز، فلم يمسه نصب، ومنح اللذة بعد الفرز، فلم يدركه نصب، وهو في تقيّمه بين الأثر والشجب. ورغم كلّ ذلك فسأحاول -و البحث محاولة- ورائدي قول العقّاد: وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير⁽³¹⁾.

حضور النص في التركيب المعرفي

يلحظ القارئ المتمرس بمنهج البحث العلمي عند قراءته لكتاب "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية" كيف يطرح الدكتور مسألة حضور النصوص في ثنايا البحث والكتابة، فهو زيادة على التأسيس من هذه النصوص، أو تضمينها لبعضها، أو استدعاء بعض آخر للحضور الكلي لفظاً ومعنى، يطرح على شاكلة اللازمة في كثير من المواقع عبر فصول دراسته، مثل قوله: "والنصوص التاريخية تشير..."⁽³²⁾. وقوله: "ثم إن النصوص التاريخية لم تشر..."⁽³³⁾. وقوله: "وتشير النصوص..."⁽³⁴⁾. وقوله: "والنصوص التي تشير..."⁽³⁵⁾. وقوله: "لم تشر النصوص..."⁽³⁶⁾. وقوله: "وتشير بعض النصوص..."⁽³⁷⁾. وقوله: "وتشير النصوص الإباضية..."⁽³⁸⁾. وقوله: "والنصوص التي تميل..."⁽³⁹⁾. وقوله: "وكيفما كان اختلاف النصوص..."⁽⁴⁰⁾. وقوله: "والنصوص التاريخية التي لم تسعنا بأية إشارة..."⁽⁴¹⁾. وغير هذا كثير.

وأرى أن الدكتور أودع هذه الإشارات في فصول من كتابه وعبر مساحات متناسبة تقريبا مع تركيز القارئ، بانبا ذلك على موقعيتها الدقيقة فيما يواجه القارئ من المعارف التي يتلقاها من الكتاب، فجعلها تنفذ إلى القارئ أو الباحث -بمعنى أدق- مع كل المعارف التي يستقيها أو يعتمدها، وتكون بذلك إحدى أدوات المنهجية التي يحصل عليها الباحث من أستاذه.

فالباحث يدرك أنه يتلقى تنبيهات حول مسألة جوهرية في البحث العلمي، ألا وهي أهمية النص في الكتابة التاريخية، ليس على مستوى الاستدلال والتأسيس المعرفي، بل على مستوى تكوين ذهنية المؤرخ التي تتناول النص تناول المادّة الأولى اللازمة. وعلى مستوى كلية العلم الذي هو تناول المعرفة بالمنهج، وفي الدراسات التاريخية هو تناول النص بالإشكال، من أجل إمكانية التحليل والتفسير. إن المعادلة في الدراسات التاريخية هي: النص - الإشكال، والبناءات فيها تقوم على النص وترفع بالإشكال على محورية الواقعة التاريخية.

هذه العملية التي هي في جوهرها منهجية، وفي ظاهرها بناء معرفي، يقدمها الدكتور موسى كما تقدمها كل الدراسات الجادة التي تدرك أن ما يعطى بصورة التنبيهات أكثر تأثيراً وأبلغ همسا. فالقارئ يودع في خلده من تكرارها على مساحات معينة حضور النص، فإن

أعشى عينيه عن الإحالات، أو تعسر عليه فرز النصوص المعتمدة لهيمنة نص المؤلف عليها، أو لتماهيه في منظومة تحليله وتفسيره، قامت هذه التنبيهات لتعيد النص المهيم إلى تأسيساته الأولية، وعادت النصوص من خلالها إلى الحضور الذي ينشده المؤرخ من دراسته في توجهاتها المنهجية والمعرفية.

إن تكرار هذه اللازمة لم يأت سدى، ولم يكن بمنأى عن الإطار الذي تحدت فيه هذه الدراسة، ولم يكن من الوسائل التي لجأ إليها الدكتور قسراً وقهراً، بل كان إحدى أدواته المنهجية الرافقة في الإلماع إلى النص في أهميته واستثماره. إنَّها عملية متكاملة متجانسة، ومتوافقة مع الروح العام الذي يمتاز به الدكتور الذي يوطر النص المستثمر لا على أنه شهادة فحسب، ينتهي بعدها النص بتماهيه في النص الثاني - موضوع الدراسة -، ولكنه ينصبه شهادة مادية قائمة بنفسها تكتسب من الماضي الذي هو روح التاريخ موضعيتها الحاضرة، فهو ليس كما يقول أحد الباحثين من أنَّ "المؤرخ الناقد، يقدم دلائل الأشياء (الشواهد) على شهادات الشهود"⁽⁴²⁾ ولكنه تجاوز ذلك إلى مرحلة تحويل شهادات النصوص إلى شواهد حاضرة في الدراسة قيمة دلالية، وحاضرة في سيكولوجية الكتابة قيمة معرفية.

محاورة النصوص إنشاء للوثائق

ومن هذا الاتجاه الذي أرى أنه جدير بأن تمضي الدراسات على منواله، يتأكد لدينا أنَّ الدكتور موسى بتحويله النصوص من شهادات إلى شواهد لتمكين حضورها المعرفي والسيكولوجي كان ينشئ وثائقه، ومع إنشائها كان يمنحها حياة الحاضر ليعطيها روح البقاء في الزمن المعرفي، فهي ماضٍ في نسبية الزمن، وهي حاضر في إوالية المعرفة، وهكذا تكون النصوص في المنهج التاريخي انسحاب الماضي في الحاضر وانسحاب الحاضر في الماضي⁽⁴³⁾ من غير تماهٍ يفقد الخصائص، ولا هيمنة تزيل التوتر⁽⁴⁴⁾.

من هذه العملية المتضمنة في منهج الكتابة التاريخية عند الدكتور ومباشرة لها مباشرة المخبري، نجد أنه يؤكد حضوره فيما يكتب، إنه يؤكد على أنه كما يملك النص يملك معه المحاولة، وأنه غير غائب فيما يباشر من بحث لحضور النص. إنَّ الدراسات القديمة والحديثة تؤكد على الحضور، وتجعله ضمن شروط البحث، بل من الباحثين المحدثين من فرق بين المؤرخ والراوي، وجعل الفرق في غياب الثاني فيما يروي.

خلاصة هذا الملمح هي أنّ الدكتور موسى أعطى بتحويلاته النص من حالات الشهادات والواردات إلى حالات الشهادات نموذجية رائعة لعملية توقيع النص في المفهوم والدراسة، وهي أشبه بمحاولات الفقهاء، الذين وقّعوا عن ربّ العالمين باجتهاداتهم، ووقع النصّ في بناءاتهم الفقهية. وبهذا ومزايا أخرى⁽⁴⁵⁾ اعتبر الدكتور فقيه المؤرخين ومؤرخ الفقهاء.

ابستمولوجية نقد النصوص

لا تكمن أهمية باحثنا في هذا الذي ذكرنا، وليس الذي ذكرنا هو تمام علاقة الباحث بالنصوص، فإلى جانب الموقعية التي وهبها لنصوصه كما بيّنا، كانت له منهجيته الخاصة في تناولها، وهو ما يميّز الباحث تمييز التبريز. فلم يكن ممّن هيمنت عليه بعض النصوص فأهمل الأخرى، ولم يكن ممّن تناولها تناول الكسلان أو البليد الذي يعتدّ بأول نص يصادفه، ولكنّه كان يختار نصوصه بنقد شديد وبقطة ابستمولوجية، ألح إليه في مقدّمة كتابه "دور كتامة" حينما قال: "توضيح مدى أهمّيتها، ومساهمتها، في نطاق ما ينفرد به كلّ مصدر عن الآخر. وليس فيما كان قدرا مشتركا بينها..."⁽⁴⁶⁾.

في إشاراته التي ذكرنا من قبل، وإشارات أخرى، مثل قوله: "والنصوص التي تميل إلى..."⁽⁴⁷⁾. وقوله: "وهذه النصوص، وتلك، تروي..."⁽⁴⁸⁾. وقوله: "ونلاحظ أنّ النصوص..."⁽⁴⁹⁾ وقوله: "ويلاحظ هنا أنّ النصوص..."⁵⁰ وقوله: "وتبالغ النصوص الفاطمية..."⁽⁵¹⁾، كلّ هذه تدلّ على أنّه تفحص النصوص تفحص دقيقا، كما تبين طريقتة في استدعاء النصّ شهادة. لقد منحها بذلك قوّة الكمون، كما منحها قوّة الحركة. وفي ربط النصّ بصاحبه كقوله: "النصوص الفاطمية..."⁽⁵²⁾، وقوله: "النصوص الإباضية..."⁽⁵³⁾، أو قوله: "أمّا الإدريسي فقد لاحظ..."⁽⁵⁴⁾، أو قوله: "ويشير ابن أبي الضياف..."⁽⁵⁵⁾، دلالة قويّة على أنّه يتعامل مع النصّ تعامل المخبري الذي ما ينفكّ يبصر ويلاحظ، يبدئ ويعيد، يقدر ويراجع التقدير والمقادير، إنّهُ بكلّ المقاييس باحث ذو حضور فيما يكتب ويحاول.

وكلّ هذا الذي ذكرنا يلمح إلى ما أسلفنا، كما يلمح إلى الزخم الكبير في الاستشهاد، وتراكمية عجبية للنصوص، أعطت صورة عن شخصيته الفدّة في البحث، وذهنه النادرة في تقصّي الشهادة للنصّ. إنّها صفات تنبئ عن عبقرية المؤرخ المتمرس بالكفاءة، الذي تأخذه الفكرة في صنعته طول وقته⁽⁵⁶⁾ فهو مؤرخ بالسليقة ومؤرخ بالفكرة، ومؤرخ بالبحث.

وتنبأنا هذه التراكمية في النصوص، إذا تتبعنا مواضعها من بحثه، ونظرنا في استنتاجاتها لها، وتحسّسنا في نقده لها، أنّ الدكتور قد عجن مادّة النصوص، واستخبرها، واستنتجها، وأشهدها، ثمّ استدعاها للحضور النصّي حضوراً موفّقاً ودقيقاً، حيث لا يمكن لنصّ أن يقوم مقام النصّ الآخر، وعندما تتعاضد النصوص يورد ذلك بإسهاب في تهميشاته، كما يورد التعارض إذا حصل⁽⁵⁷⁾، مبرزاً في كلّ حالة شخصية المؤرّخ الذي يتعامل مع النصّ ليس لأنّه يحمل شهادة له أو عليه، وإنّما لأنّ النصّ كلّية قائمة في الكتابة التاريخية.

معايير اختيار النصوص

ولقد طرحت الإشكال التالي وأنا أتمتّع⁽⁵⁸⁾ بقراءة نصوص الدكتور، هل الإكثار من الاستشهاد بنصوص مؤرّخ معيّن يدلّ على هيمنته على كتابة الدكتور؟. وكان الجواب : لا، والدليل على ذلك أنّ المتنبّع لاستشهاداته النصّية يدرك أنّ كلّ نصّ أوردته الدكتور كان حضوره ضرورياً وأساسياً. وتغليب نصوص مؤرّخ معيّن يدلّ على قناعته بأهمّيتها في اللحظة التي يؤرّخها. هذه الأهمية قائمة على ميزتين، الأولى: قد تكون هذه النصوص أصلاً، فهي معاصرة للحدث، والثانية قد تحمل مقومات لا توجد في النصوص الأخرى، على أنّ بعض النصوص قد تحتوي على الميزتين معاً.

ومن هذه النصوص، ما أوردته للقاضي النعمان (ت363هـ / 974م)، وهي نصوص كثيرة إذا قيسّت بالنصوص الأخرى، وقدّم لهذا بنقد دقيق، في مقدّمته، فقال: "ويلاحظ أنّه من بين المصادر الأصلية التي بقيت، تحتلّ أعمال أئقّه فقهاء الشيعة وأعلم علمائهم أبي حنيفة النعمان بن محمّد بن حيون التميمي (ت363هـ / 974م) منزلة كبرى، إذ أنّ أهمّية هذا المؤلّف، تبدو في أكثر من ناحية، فهو رجل مخضرم... وهو معاصر لما سجّله من أحداث عن هؤلاء وأولئك، وبحكم ارتباطاته المختلفة كان مطلعاً على الآراء وعلى سير الوضع، وعلى الوثائق أيضاً... والنعمان عربي من قبيلة تميم، عصبية الإمارة الأغلبية ومن ثمّ يصعب أن يتّهم بأنّه عنصري ضدّ العرب أو متحامل على الأغلبية... ودليل موضوعيته فيما كتب عن أحداث الفترة، رغم تشييعه وإخلاصه للدولة تأثّر المؤرّخين المغاربة، السنيّين بروايته، واعتمادهم على أهمّ كتبه... وكتاب افتتاح الدعوة وثيقة هامة في ميدانها... ويعتبر هذا الكتاب أيضاً وثيقة هامة عن الدور المغربي للخلافة الفاطمية... الذي يزيده اعتباراً وأهمّية صيغته العلمية المتّزنة، وبلاغته، وكونه صورة لكلام المعز...⁽⁵⁹⁾.

البناء المعرفي التاريخي لمواجهة النصوص

وهذه المقدمة النقدية لكتابات النعمان تعطي لنا قيمة النصوص التي أوردتها الدكتور وضمنها بحثه. وهي لم تكن مقدمة تبريرية، بل كانت تأسيساً لاتجاه موضوعي ينظر إلى النصّ على أنّه المرأة التي تعكس عليها المنهجية إشكالات اللحظة المؤرّخة، إنّ التاريخ في نظري هو مواجهة الوثائق، أي النصوص.

ويتبنّى المؤرّخون وجهة نظر تحصر العمل كلّ في المؤرّخ، وتؤكد على أنّ "الوثيقة هي شاهد قلما يتكلّم، شأن معظم الشهود"⁽⁶⁰⁾ ولذلك يجب استنطاقه، وبه تصبح "التساؤلات هي أوّل ضرورة لكافة البحوث التاريخية الجيدة التوجيهية"⁽⁶¹⁾ ومنها كان التقرير أنّ "العمل الأوّل للمؤرّخ هو طرح الأسئلة"⁽⁶²⁾ وأنّ هذا العمل "متّصل مباشرة بنوع الأسئلة المطروحة"⁽⁶³⁾ وهكذا "فالمؤرّخ هو الذي يخلق موضوع دراسته"⁽⁶⁴⁾.

ورغم أنّ أصحاب هذا الرأي يريدون أن يجعلوا المؤرّخ في مصافّ كلّ العلماء، وألاّ "يزيد التاريخ على أيّ علم"⁽⁶⁵⁾ وأن يكون في فكر المؤرّخ فحسب، إلّا أنّهم ينسون أنّ العلوم كلّ العلوم تنطلق من فرضيات، ومن تكديس للحقائق، وأنّ هذا لا يتأتّى إلّا بالتأسيس العلمي. ومساءلات المؤرّخ التي هي إشكالات التاريخ، لا يمكنها أن تتأسس بالعلم ما لم تواجه الوثائق. هذه المواجهة هي التي سلك سبيلها الدكتور موسى وأعطانا صورة لها من خلال مقتبساته من النصوص. وكانت نصوص القاضي النعمان التي أشرنا إليها إحدى معالمها، وقد جاءت في منظومة المقتبسات الموزّعة على مساحة بحثه في غاية الإبداع، حيث استطاع بعبقريته أن يتجاوز هيمنة النصّ الفاطمي الذي حوّله شاهدة مثل باقي النصوص الأخرى، وتجنّب الانحياز والاعتماد الظاهر، فكانت في غاية الاستدلال.

ومن خلال دراسات الدكتور موسى، ودراسات أخرى جادة، تكوّن عندي اتجاه خاصّ في توصيف المؤرّخ، إذ هو في نظري من يحسن قراءة النصوص، كما هو عندي من يحسن طرح الإشكالات. إنّ بعض الدراسات المعاصرة تعوزها القراءة الصحيحة للنصّ الأصل، ولذلك نجد لها سهولة أمام هيمنة بعض النصوص، وربما كان ذلك عن بلادة حسّ وضحالة معرفة، أو كان لاستيلاء منهج معين عليها، فاستسلمت لهذا المنهج أكثر ممّا استسلمت للبحث والتّقيب. إنّ المؤرّخ الحقيقي على قدرة المؤرّخ هو جودة قراءة النصوص.

الهوامش

¹– Charles-Victor Langlois et Charles Seignobos , Introduction aux études historiques, éditions Kimé, Paris 1992, p: 29.

²– ibid, p: 253.

- 3 – عبد الرمان بدوي، النقد التاريخي، الطبعة الثالثة، الكويت 1977، ص: ب.
- 4 – نفسه.
- 5 – نفسه، ص: ج.
- 6 – Pas de document, pas d'histoire, ibid, p: 29.
- 7 – محمد تصغوت، نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي: مقاربات منهجية، الطبعة الأولى، القاهرة 2004، ص: 13.
- 8 – جوزف هورس، قيمة التاريخ، ترجمة: نسيم نصر، الطبعة الثالثة، منشورات عويدات، بيروت 1986، ص: 65.
- 9 – محمد تصغوت، المرجع السابق، ص: 13، 14.
- 10 – نفسه، ص: 14.
- 11 – نفسه.
- 12 – جوزف هورس، المرجع السابق، ص: 67.
- 13 – نفسه.
- 14 – قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت 1990، ص: 34. وجوزف هورس، المرجع السابق، ص: 66.
- 15 – Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, éditions du Seuil, Paris 1971.
- 16 – أرى أنّ هيوغ أتكّن في كتابه دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية يمثل المحاول الأكثر جرأة والأكثر إثارة، أنظر: هيوغ دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: الدكتور محمد زايد، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت 1982.
- 17 – هكذا أفهم المسألة التي باشرها العروي في الفصل الثاني من كتابه، أنظر: عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الطبعة الثالثة، بيروت 1997، ص: 80.
- 18 – نقصد به النظر التأملي للقضايا التاريخية ومناهجها من كونها مسألة فكر، يبدعها العقل ضمن تأطيره للمناهج والرؤى.
- 19 – Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien, éditions Armand Colin, Paris 1997, p : 78.
- 20 – استخدمت حرف الجر إلى ولم أستخدم حرف على، لأنني أفهم أنّ الشاهدة توحى إلى الواقعة ولا تقيم شهادة، وشروط الشهادة عندي أوسع وأخطر.
- 21 – فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس 2000، ص: 40.
- 22 – هيوغ أتكّن، المرجع السابق، ص: 147.

- 23 - أقصد أنه لم يكن في متناول أي أحد، إذ صنعة المؤرخ ليست بالبساطة التي يظنها بعض المنتسبين إلى هذه الصنعة اليوم.
- 24 - ها هنا شبه مرحلي بما يسمى خبر الآحاد في علم مصطلح الحديث.
- 25 - وهو ما يحدث في حالات وفي ميادين عديدة، ولعلّ الفقه والقانون خير دليل على ذلك.
- 26 - وهو ما يحدث عندما تكلّ الآلة وتتعدم المقايسة.
- 27 - أزعج أنّ بعض الروايات رغم أنّها لمت الوقائع كما حدثت، إلا أنّها جاءت في قالب معين أو في سرب خاص فتوحي بالتوجّه أكثر من أي شيء آخر.
- 28 - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 90.
- 29 - نفسه، ص: 88.
- 30 - جفري باراكلو، الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة: الدكتور صالح أمد العلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت 1984، ص: 64.
- 31 - أنظر مقدّمة كتابه: عبقرية محمد.
- 32 - موسى لقبال، دور كرامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص: 222.
- 33 - نفسه.
- 34 - نفسه، ص: 429.
- 35 - نفسه، ص: 510.
- 36 - نفسه، ص: 488.
- 37 - نفسه، ص: 508.
- 38 - نفسه، ص: 345.
- 39 - نفسه، ص: 324.
- 40 - نفسه، ص: 311.
- 41 - نفسه، ص: 184.
- 42 - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 89.
- 43 - الانسحاب بالمعنى الرياضي الذي يمثّل المدّ بمنطقية الحساب.
- 44 - بالمعنى الفيزيائي وليس بالمعنى النفسي.
- 45 - كان الدكتور موسى لقبال يمتاز باستحضار النصوص الفقهية، وهي التي تصنع من صاحبها فقيهاً، كما كان ذا ملكة عجيبة في توظيف النصوص، وهي التي تصنع من صاحبها مؤرخاً.
- 46 - موسى لقبال، المرجع السابق، ص: 15.

- 47 – نفسه، ص: 324.
- 48 – نفسه، ص: 325.
- 49 – نفسه، ص: 250.
- 50 – نفسه، ص: 406.
- 51 – نفسه، ص: 238.
- 52 – نفسه، ص: 238.
- 53 – نفسه، ص: 345.
- 54 – نفسه، ص: 142.
- 55 – نفسه، ص: 206.
- 56 – أحسب أنّ من ميزات الباحث طول الفكرة فيما يبحث، يديم ذلك حتّى يتماهى مع موضوعه،
فله الوقت وله التركيز.
- 57 – موسى لقبال، المرجع السابق، ص: 278، وص: 279، وص: 325. وغيرها كثير بل إنّ بحثه
يمضي على هذا المنوال من بدايته إلى آخره.
- 58 – أقصد المتعة التي يجدها الباحث عن الحقيقة، إنّ كلّ واحد منّا يبحث عن لحظة أوریکا.
- 59 – موسى لقبال، المرجع السابق، ص: 15، 16، 17.
- 60 – جفري باراكلو، المرجع السابق، ص: 65.
- 61 – نفسه.
- 62 – نفسه.
- 63 – نفسه.
- 64 – نفسه.
- 65 – نفسه.

الباب الثاني: الحضارة في العراق القديم من خلال المنشورات (العهد البابلي القديم)

أحمد ثليجي

قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة:

بعد أن قضى الإنسان القسم الأعظم من حياته يعيش حياة بدائية في ما يسمى بعصور ما قبل التاريخ، دخلت البشرية في أخطر تجربة وامتحان لا تزال تعانيهما بانتقالها إلى مرحلة الحضارة، وقد تحقق ذلك بانتقال سكان وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، إلى حياة الحضارة والمدنية، حيث نشأت العناصر الأساسية المميزة للحضارة كالمدين، وأنظمة الحكم، والشرائع المدونة، والفنون والآداب، والعقائد الدينية، والعلوم والمعارف، إلى غير ذلك من مقومات العمران والمدنية، واتضح تقسيم المجتمع إلى طبقات وشرائح مختلفة.

ومنذ بداية العصور التاريخية، وبعد أن استخدمت الكتابة للتدوين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، تزداد معلوماتنا عن المجتمع العراقي القديم تدريجيا، كلما تقدمنا بالتاريخ حيث تزداد النصوص المسمارية ذات المواضيع المختلفة، وتلقي لنا الضوء على مختلف أوجه النشاط الإنساني.

وعند بداية العهد البابلي القديم في بداية الألف الثاني قبل الميلاد تصبح معلوماتنا أكثر، حيث تظهر القوانين المدونة التي تتحدث بإسهاب عن المجتمع وطبقاته ونظمه وعاداته وتقاليده وأعرافه، والقوانين التي تحكم نشاطات الفرد فيه. ولهذا فإن حديثنا عن بنية المجتمع العراقي القديم وطبقاته نستمدّها من التشريعات التي ظهرت في

هذا العهد أي من حوالي (1600-2000 ق.م) وخاصة من تشريعي أشنونا وحمورابي اللذين أعطيا صورة واضحة عن المجتمع العراقي في تلك الفترة.

وقد كان المجتمع العراقي كغيره من المجتمعات القديمة الشرقية والغربية- مثل المجتمع المصري والفينيقي، والإغريقي والروماني- يتألف من فئات وشرائح اجتماعية متعددة، منها الحاكمة والتي تملك نفوذا سياسيا أو اقتصاديا أو دينيا كبيرا، ومنها ا كومة والتي ضمت عامة الناس، ومنها المملوكة التي تمثلت في العبيد والإيماء.

وقد فرق المجتمع العراقي بين أفرادهِ، في الحقوق والواجبات وفق أسس معينة، ويتضح هذا التفريق من خلال نظرة التشريعات إلى الأفراد وتحديد مسؤولياتهم، وتثبيت حقوقهم وواجباتهم. والتمييز بين أفراد المجتمع وعدم مساواتهم برز منذ ظهور المجتمعات التي تجاوزت المراحل البدائية، ولا يقتصر ذلك على مجتمع دون غيره، ولكن بعض الباحثين - وخاصة الغربيين - قد بالغوا في التركيز على هاته النقطة بالنسبة للمجتمع العراقي، ونسبوا إليه الإيمان المطلق بالتمايز الطبقي من خلال تشريعاته، والتفريق بين الناس على حسب إمكانياتهم ومراكزهم الاجتماعية، ووقوف هذه القوانين إلى جانب الطبقة العليا من الأحرار على حساب الفئات الأخرى من المجتمع. ولذلك سنحاول في هذا البحث البسيط أن نسلط الضوء عن النظرة الحقيقية لبنية المجتمع العراقي وطبقاته من خلال ما ورد في أهم تشريعاته.

1-العلاقة بين القانون والمجتمع:

إن دراسة القانون الذي يمثل مجموع القواعد الأساسية التي تحكم المجتمع في فترة مددة المكان والزمان، لا يمكن بأي حال من الأحوال دراسته بعيدا عن تطور المجتمع، الذي تخضع حاجاته بدورها للتطور والتغير المتواصل حسب المستويات التي يحققها الإنسان في كل وثبة حضارية تحدث نتيجة تفاعل الإنسان مع ا يط الخارجي.

ولقد كان لتطور البنية الاجتماعية والاقتصادية، واستقرار المفاهيم والعلاقات بين الأفراد في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، أثره الكبير في إيجاد المبادئ والقيم المتعلقة بالخير والشر والحق والواجب. ولذلك ظهر في هذه الفترة الاهتمام بإيجاد القوانين المنظمة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في العراق القديم. ولعل من

الأمر المسلم بها بأن الحاجة إلى القوانين وإلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وبقية المتطلبات الإنسانية، لا تبرز ضرورتها إلا في مجموعات بلغت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي⁽¹⁾. وهذه الميزة في الحقيقة قد تحققت في العراق القديم، ذلك أن القانون والحرية والعدالة كانت من الأفكار الأساسية في هاته المنطقة.

ولذلك عرف بعضهم القوانين بأنها "مجموعة القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية، والتي تقصر الدولة الناس على إتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء". ولعل هذا التعريف يوضح أكثر من غيره أهمية القوانين في دراسة الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات قديمها وحديثها. وطالما أن مهمة القوانين الأساسية هي تنظيم الروابط الاجتماعية، فإن وجودها يرتبط بوجود المجتمعات المنظمة التي قطعت مرحلة البدائية في حياتها وتنظيماتها⁽²⁾.

والقانون في الأساس منطلق لتنظيم العلاقات، وتثبيت الحقوق والواجبات وإبراز أشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومن بين أوجه العلاقات، تلك التي تقوم بين الناس فرادى وجماعات من جانب، وبين الحاكم أو من يمثله من سلطات وإدارات وهيئات من جانب آخر. ولأن الملك في نظر العراقيين القدماء شخص لا يختلف كثيرا عن بقية الناس، أوكلت الآلهة إليه مهمة حكم البشر وإدارة شؤونهم، فهي من واجباته، مثلما له حقوق على الناس، لذلك برزت الحاجة الماسة إلى تعيين الحقوق والواجبات لطرفي العلاقة الرئيسيين، الملك من جانب، والمجتمع من جانب آخر. وعلى الرغم من أن هذا التصور لم يرد مدونا بشكل مباشر، ولكننا نستشفه من أقوال الملوك، وبعض من النصوص الدينية، فالملك مكلف بنصرة المظلومين والاقتصاص من الظالمين وهو الراعي العادل، ولكن لم يمثل صورة الحكم الإلهي المطلق "فإذا لم يحرص على تطبيق العدالة، فسيغير الإله إيا قدره" أي أن مصيره وقدره كملك منوط بموقفه من العدالة وحرصه على تطبيقها لأنها إرادة الآلهة⁽³⁾.

ومن ناحية أخرى فإن كل شيء في بلاد الرافدين، كان يخضع في حركته إلى نظام دقيق يتألف مع نظم الحركة لجوانب الحياة المختلفة، وإن الواقع الذي تعكسه المخلفات المدونة الكثيرة التي وصلتنا عن العراقيين القدماء، تكشف بوضوح عن التطبيق العملي لفكرة النظام في حياتهم العملية، فالنظام والالتزام، والحقوق والواجبات،

والعدالة والحرية والمساواة، كلها مفردات رئيسية في لغة القانون العراقية، وقد حرص العراقيون فرادى وجماعات ومؤسسات وملوكا على افاضة عليها، والسهر على تنفيذها ومعاقبة المخالفين أو المسيئين إليها⁽⁴⁾. ومن هذا المنطلق ازدهر القانون في العراق القديم، وخاصة في العهد البابلي، وتطورت العلاقات المنظمة في أوجهها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعبرت تلك القوانين عن مدى التطور الاجتماعي والفكري القادر على تجريد بعض المعاني والمفاهيم ووضعها في قوانين تؤمن استقرار العلاقات بين أفراد وطبقات المجتمع.

2- طبقات المجتمع البابلي (التكوين الاجتماعي):

لقد تباينت الآراء حول أسس تكوين المجتمع العراقي القديم، وأهم طبقاته، ونظرة المشرعين القدامى إلى الأفراد على اختلاف فئاتهم، وهذا التباين والاختلاف ناتج ربما عن تفسيرهم للمواد القانونية المختلفة الواردة في الشرائع العراقية القديمة.

وبناء على هذا فإن بعض الباحثين، واستنادا إلى التشريعات البابلية، قد صور المجتمع العراقي مجتمعا طبقيا مقفلا تميز بوجود ثلاث طبقات اجتماعية ذات حدود فاصلة بينها وهي طبقة الأحرار (أويلو-Awilu) بمعنى "الرجل الحر" وطبقة العبيد (واردو-Wardu) وبينهما الطبقة الوسطى ذات الحرية المقيدة وهي طبقة (الموشكينو-Mushkinu) وهذا التقسيم الطبقي ورد في تشريعي اشنونا وحمورابي⁽⁵⁾.

ولو أمعنا النظر في التشريعات البابلية التي تعتبر المرأة العاكسة لواقع المجتمع العراقي، وحللنا النصوص المسمارية الكثيرة الأخرى، لوجدنا أن التمييز كان بين طبقتين رئيسيتين فقط هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد، وهو تمييز أقرته جميع القوانين والأعراف⁽⁶⁾.

كما أن المجتمع البابلي لم يكن مجتمعا طبقيا مقفلا أساسه انحدار الفرد الطبقي، بل إن الأساس في التمييز هو حالة الفرد الاقتصادية، وإمكاناته المادية، لذا لم تعترف التشريعات والأعراف بوجود طبقات خاصة للكهنة وماريين، وأصحاب السلطة وهي الفئات التي لعبت دورا هاما وقياديا في حياة المجتمع⁽⁷⁾. حيث تقف الأسرة المالكة في مقدمة هذه الفئات، واكتسبت على مر العصور قدسية واحتراما خاصين، نظرا للمركز الذي كان يتمتع به الملك وأسرته لدى عامة الناس، فالملك ممثل للآلهة على الأرض ونائبها

فيها، والملكية الإلهية مقدسة. ويأتي بعد الأسرة المالكة في السلم الاجتماعي فئة النبلاء، وأصحاب الاقطاعات الكبيرة والملاك وكبار الكهنة، والموظفون، وقادة الجيش والحكام، وغيرهم من المتنفيين سياسيا أو اقتصاديا، وكان لهذه الفئات جميع الحقوق والامتيازات سواء في القوانين أو وفق الأعراف والتقاليد السائدة.

ومن الواضح أن التمييز بين أفراد المجتمع وفق أسس اقتصادية هو أمر أمّله ظروف الحياة في المجتمع البابلي التي اعتمدت التجارة أساسا لها، حتى أطلق البعض على مجتمع العهد البابلي القديم اسم مجتمع التجار، ولكن وقوف التشريعات دائما إلى جانب الطبقة الفقيرة وحمايتها من استغلال الأغنياء دليل قاطع على إنسانية المجتمع البابلي.

ومن خلال التشريعات المتوفرة من العهد البابلي القديم نجد أن المجتمع البابلي كان يتكون من فئات اجتماعية كثيرة تتباين من حيث الإمكانيات المادية، والمركز الاجتماعي تبائنا كبيرا، غير أنها كانت تنضوي جميعها تحت لواء طبقتين اجتماعيتين فقط، اعترفت بوجودهما التشريعات، وميزت بينهما في المعاملة، شأنها في ذلك شأن التشريعات القديمة الأخرى عند كل المجتمعات، وهاتين الطبقتين هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد⁽⁸⁾. اللتين سبق وأن أشرت إليهما.

أ- طبقة الأحرار:

وتؤلف طبقة الأحرار جميع أفراد المجتمع البابلي باستثناء طبقة العبيد، ويمكن أن نميز بين طبقتين من الأحرار هما الطبقة العليا أو طبقة الأحرار (الأويلوم) والطبقة الوسطى ذات الحرية المقيدة (الموشكينوم)⁽⁹⁾.

وتتألف الطبقة العليا من القادة والنبلاء والحكام، بينما تتألف الطبقة الوسطى من عامة الشعب الذين اعتمدوا في حياتهم على المعبد أو القصر أو الطبقة العليا⁽¹⁰⁾.

فالطبقة العليا تتكون من الأفراد الذين لهم مراكز ممتازة في الإدارة وفي القضاء وفي الجيش، ومن امتيازات المواطنين الأشراف كما جاء في شريعتي اشنونا وحمورابي أن العقوبات التي تفرض على الجرائم المرتكبة إزاءهم أشد من العقوبات في حالة ارتكابها إزاء الطبقات الأخرى، ولكن كان يقابل هذه الامتيازات عقوبات صارمة على الجرائم

التي ترتكبتها هذه الطبقة، وكان من هذه الطبقة الحكام وقواد الجيش وكبار الموظفين، وفرضت احترامها على الطبقات الأخرى⁽¹¹⁾.

أما الطبقة الوسطى فهي التي أشار "رالف لنتون" إلى أنها تتكون من مزارعين وعمالا وصناعا فنيين وتجارا، وكان الكثير من هؤلاء الموشكينوم متعلمين، وكان بعضهم أعظم ثروة من بعض أفراد الطبقة العليا. في حين يرى "كونتونو" أن الموشكينوم تعني فقير ونجد لها مقابلا في اللغة العربية وهو كلمة "مسكين"⁽¹²⁾.

ويذهب الدكتور رشيد فوزي إلى اعتبار طبقة الموشكينوم- والتي أشار إليها تشريع اشنونا في المواد(12-25-35)-موالي، حيث أن النظام القبلي الذي كانت عليه في الأصل أقوام الجزيرة العربية والتي ينتمي إليها البابليون، قد استوجب وجود صنف "الموالي" لأن القبائل كانت تسمى من هو غريب عنها، ولكنه يعيش تحت كنفها "مولى". علما أن كلمة الموشكينوم كان المختصون في الدراسات المسمارية يترجمونها بمعنى "رجل نصف حر"⁽¹³⁾ والواقع أن هذه الترجمة قريبة من المعنى الحقيقي للكلمة إلا أن عدم دقتها في تحديد ما تعبر عنه كلمة موشكينوم البابلية جعلنا نعتقد أن المجتمع البابلي كان مجتمعا طبقيًا ومؤلفا من ثلاث طبقات، وهي طبقة الأحرار، وطبقة أنصاف الأحرار، وطبقة العبيد، غير أن الحقيقة تؤكد أن البابليين كانوا سواسية أمام القانون ولا فرق بين غنيهم و فقيرهم⁽¹⁴⁾.

ونحن في شرحنا لهاتين الفئتين لا نريد التوسع أكثر حتى لا يظهر وكأننا قد فصلنا بالفعل بين هاتين الفئتين اللتين تنتميان إلى طبقة واحدة وهي طبقة الأحرار، غير أن دراسة التشريعات البابلية وفي مقدمتها تشريعي اشنونا وحمورابي اللذان فرقا بين هاتين الفئتين في عدد من موادهما، وتحليل ما ورد في تلك المواد، ومقارنة ذلك الوضع الاجتماعي في العراق القديم منذ أقدم العصور وحتى نهاية العهد البابلي الحديث تشير وتؤكد بأن المقصود من هاتين الفئتين هو ليس طبقات اجتماعية بمفهومها القانوني والاجتماعي، بل قصد المشرعون من خلال مصطلحي (أويلوم و موشكينوم) الدلالة على حالة الفرد الاقتصادية⁽¹⁵⁾.

فالمصطلح الأول يعني عامة الناس من المتمكنين اقتصاديا، والمصطلح الثاني استخدم بشكل خاص للدلالة على الفرد من طبقة الأحرار من غير المتمكنين اقتصاديا، أي من فئة الفقراء والمساكين. لذلك لم تذكر التشريعات مصطلح موشكينوم إلا حينما تكون هناك معالجة لناحية اقتصادية أو مادية، وتظهر دراسة قانون حمورابي إلى أن المشرع كان يحاول دائما التخفيف عن كاهل هذه الفئة من المساكين أخذا بعين الاعتبار وضعها المادي عند فرض العقوبات المادية عليها وتحديد الأحكام تماما كما تفعل القوانين الحديثة المتطورة عند إصدارها الأحكام وأخذها بعين الاعتبار حالة الفرد المادي، ومستواه المعيشي وخاصة في القضايا ذات العلاقة بالأحوال الشخصية⁽¹⁶⁾.

ومهما يكن من حال، فقد كانت طبقة الأحرار بفتيتها الغنية والفقيرة تضم جميع المواطنين من غير الرقيق، وكانت تتألف من فئات صغيرة تختلف الواحدة عن الأخرى ببعض الصفات والامتيازات حيث أنها ضمت الطبقة الحاكمة والأرستقراطية والكهنة، وقادة الجيش والتجار والصناع والحرفيين والملوك والفلاحين والعمال والكتبة والمأجورين وغيرهم. وقد ورد في التشريعات تسميات معينة لبعض هذه الفئات، وأحكام خاصة لبعض شؤونها، غير أن هذه التشريعات لم تفرق بينهما في فرض العقوبات على الجرائم، أو تعطيها حقوقا وامتيازات خاصة على حساب الفئات الأخرى، كما لم تفرق بينهما في قضايا الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث وتبني وغير ذلك⁽¹⁷⁾. ومن هنا فإن الحالة الاقتصادية هي السبب في تصنيف طبقة الأحرار التي تنقسم إلى فئتي الأولو والموشكينو، في المجتمع العراقي القديم.

ب- طبقة العبيد:

عرفت بلاد الرافدين نظام الرق منذ أقدم العصور، وتشير العلامات الصورية التي استخدمت للدلالة على العبد المملوك أو الأمة المملوكة إلى أن الرق كان معروفا منذ بداية استخدام العلامات الصورية وسيلة للتدوين في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. ويطلق على طبقة العبيد لفظ (Wardu-العبد) للعبد و (Amatu-أمتو) للأمة⁽¹⁸⁾.

وكان الرقيق⁽¹⁹⁾ يؤلف الفئة الدنيا من فئات المجتمع، وكانت أقلها حظا من جميع الأوجه الاجتماعية والاقتصادية، ولم يكن الرقيق يؤلفون طبقة ذات أهمية اقتصادية كبيرة

في العهود الأولى، كما أن عددهم في الفترات الأولى من تاريخ بلاد الرافدين كان قليلا ثم أصبح يزداد تدريجيا بازدياد الحروب والمعارك العسكرية، كما تدل إحصاءات العلماء المختصين أن عدد الإناث كان أكثر من الذكور، ويمكن تفسير ذلك بفائدة الإناث المزدوجة في العمل في الحرف والصناعات اليدوية والأعمال المنزلية، وفي كونهن إناثا يمكن للرجال أن يستفيدوا منهن كزوجات أو ضيات أو سرايا⁽²⁰⁾.

وكان المجتمع العراقي يحصل على العبيد من مصدرين أساسيين: أحدهما من داخل البلاد والثاني من خارجها. أما المصدر الداخلي فمنشؤه أفراد من الطبقة الوسطى يؤول مصيرهم إلى الاسترقاق في حالات منها، أن يباع الأطفال من قبل والديهم إما لفقر الحال والحاجة إلى المال، أو لعدم إمكانيهما تربية الأطفال أو لسبب آخر، وقد يخطف الأطفال ويبيعون رقيقا، أو يلقي الأطفال غير الشرعيين في الطرقات وعلى أبواب المعابد، فيؤخذون ويستعبدون، إضافة إلى ذلك فقد يؤول الفرد إلى الاسترقاق نتيجة عجزه عن إيفاء الديون، فيحجز الدائن عليهم ويسترقهم، أو أنهم يبيعون أبناءهم أو زوجاتهم لمدة معينة يكونون فيها في خدمة الدائن، وقد حددت مدة الاستعباد في مثل هذه الحالة بالخدمة لدى الدائن لمدة ثلاث سنوات فقط، ومن بعدها يعتق المستعبد، كما كان عدد الرقيق يتزايد نتيجة التناسل حيث كان أولاد الرقيق يعدون رقيقا بالولادة⁽²¹⁾.

ومهما كان الحال فإن المصدر الأول للرقيق كان ضيلا إذا ما قيس بالمصدر الثاني أي المصدر الخارجي، فقد كان المجتمع العراقي يحصل على عدد غفير من الأرقاء بطرق كثيرة، ومن بينها أسرى الحروب، حيث عمل الحكام والقادة على تسخير هؤلاء الأسرى في الأعمال العامة سيما وأن غالبيتهم من أصحاب المهن والحرف والصناعات، أو من القادرين على العمل الجسماني المجهد، وعملوا على توزيعهم على المعابد والقصور والقادة، واستفادوا منهم في البناء والتعمير والأعمال الزراعية. كما كان التجار البابليون يجلبون العبيد أحيانا من بلدان مختلفة بهدف بيعهم، وكانت أسعارهم تختلف من فترة إلى أخرى، وتعتمد على جنس الرقيق وشكله وقابليته وأوصافه العامة والخاصة.

ولم يكن الرقيق من صنف واحد، بل كان هناك رقيق تابع للدولة أو القصر، ورقيق تابع للمعبد، ورقيق مملوك من قبل الأفراد والأسر⁽²²⁾. ويبدو أن وضع الرقيق المملوك من قبل الأفراد والأسر كان أحسن من وضع زملائهم في القصر والمعبد، حيث كانت تتاح لهم فرص العتق من العبودية، أو فرص تبنيتهم من قبل أسيادهم أو حتى الزواج من الإماء منهم.

ومن الطبيعي أن حالة الرقيق كانت تتغير من فترة لأخرى ومن مكان لآخر، وحسب نوعية مالكة. وكان العبد من ممتلكات مالكة، له الحق بالتصرف به كيفما يشاء، فكان له أن يبيعه أو يؤجره أو يهديه أو يمنحه حريته، ولم يكن الرقيق ينتسب إلى أبويه بل كان يذكر اسم مالكة، وربما كان يعلم بعلامة خاصة بالعبودية على يده أو بقص شعره، كما أشار إلى ذلك قانون حمورابي الذي يعاقب من يزيل العلامة الموسوم بها العبد، وكان يباع بموجب عقد رر، وتنتقل ملكيته كأي شيء آخر إلى المالك الجديد⁽²³⁾.

ولم تعترف التشريعات بكامل أهلية العبد القانونية، بل عدته قاصرا ومنعت التعامل التجاري معه. ومع ذلك لم يكن الرقيق يختلف عن مالكة من حيث اللون أو الجنس أو الدين أو الزي إلا إذا كان يحمل علامة خاصة. وعلى الرغم من وضع الرقيق السيئ فقد كانت له بعض الحقوق فكان له حق الزواج الشرعي وتكوين عائلة وامتلاك الأموال، والتمتع بها طوال حياته، كما كان من الجائز للعبد أن يتزوج من امرأة حرة⁽²⁴⁾. وبالعكس كان من الجائز للأمة أن يتزوجها رجل حر. ففي الحالة الأولى كان الأولاد الناتجين عن الزواج يعدون أحرارا، أما في الحالة الثانية، فإن اعترف صاحب الأمة أو سيدها ببنوة الأولاد، فإنهم يصبحون أحرارا بعد وفاة والدهم، ويقتسمون تركة أبيهم مع أولاده الحقيقيين، وتمنح الحرية للأُم كذلك. وعاقبت القوانين كل من يعتدي على الرقيق.

ويبدو أن مركز الرقيق كان في تحسن مستمر، حيث أصبح لهم في العهود الآشورية والبابلية الحديثة مركزا قد يفوق أحيانا مركز بعض الأحرار، فكان بإمكان بعضهم أن يتقلد الوظائف الحكومية وأن يمتلك الأموال الخاصة، وأن يتفق مع مالكة على افتداء نفسه وشراء حريته بأموال يجنيها هو نفسه من خلال عمله في إحدى الحرف، وكان في مثل هذه

الحالات يتفق مع مالكة على مبلغ معين يدفعه له بأقساط شهرية، إلى أن يتم شراء نفسه، وكان له أن يسكن في بيت خاص به، وتشير بعض النصوص المسماة إلى أن بعض الرقيق وصلوا إلى المركز الذي امتلكوا فيه رقيقا يقومون على خدمتهم وراحتهم⁽²⁵⁾. مما لا نجد له مثيلا في أي مجتمع قديم آخر حتى في تلك المجتمعات التي عاشت بعد المجتمع البابلي بقرون عديدة كالمجتمع اليوناني والروماني.

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع البنية الاجتماعية وطبقات المجتمع العراقي القديم، وتتبعنا لبعض ما أقرته الشرائع العراقية القديمة حول هذا الموضوع، وخاصة في أهم تشريعين وهما تشريع اشنونا وتشريع حمورابي خلصنا إلى جملة من النقاط يمكن أن ندرجها فيما يلي:

1- أن المجتمع العراقي وبداية من عصوره التاريخية بدأ يهتم بإيجاد المبادئ القانونية المنظمة للمجتمع، ولللاقات السائدة بين أفراد وطبقاته وفق أسس معينة أملت ظروف المجتمع العراقي القديم.

2- أن هذه الأسس تتمثل أساسا في حالة الفرد الاقتصادية، وإمكاناته وقدراته المادية وليس على أساس المكانة الاجتماعية وانحدار الفرد من عائلة مرموقة، ولذلك فإن التشريعات لم تعترف بوجود طبقات خاصة بالكهنة وأصحاب السلطة والنفوذ من النبلاء والقادة، وأن هذا التمييز - وفق الأسس الاقتصادية - نتج عن ظروف الحياة في هذا المجتمع الذي كان يعتمد كثيرا على التجارة.

3- أن المجتمع العراقي القديم وحسب ما جاء في القوانين والتشريعات انقسم إلى طبقتين أساسيتين فقط وهما: أولا: طبقة الأحرار والتي تنقسم بدورها إلى فئتين: الأوليولوم والموشكينوم وهما يمثلان طبقة معينة من أفراد المجتمع من غير الرقيق تختلف في مركزها القانوني والاجتماعي عن بعضها، وثانيا: طبقة العبيد التي تمثل طبقة مستقلة وقفت التشريعات العراقية القديمة إلى جانبها في كثير من موادها وعملت على حمايتها من استغلال الطبقات العليا.

الهوامش

- (1) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ط3، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد-1987، ص11.
- (2) عامر سليمان، الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية في الأزمنة التاريخية القديمة، كتاب المدينة والحياة المدنية، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد-1988، ص182.
- (3) رضا جواد الهاشمي، القانون والأحوال الشخصية، كتاب حضارة العراق، ج2، دار الحرية للطباعة بغداد-1985، ص64.
- (4) المرجع نفسه، ص66.
- (5) Emile Szlechter. les lois d'ēšnunna -transcription-traduction et Commentaries. Publications de L' inst de droit romaine. XII. Paris - 1954. p37.
- (6) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج2، مطبعة جامعة بغداد- 1980، ص73.
- (7) المرجع نفسه، ص74.
- (8) عامر سليمان، المرجع السابق، ص194.
- (9) ورد ذكر الموشكينوم في قانون اشنونا في خمس مواد فقط من مجموع 60 مادة وهي المواد 12، 13 الخاصة بالقبض على السارق في بيت أو حقل موشكينوم، والمادة 24 الخاصة باحتجاز زوجة أو ابن موشكينوم بدون وجه حق، والمادة 34 والخاصة بحالة إعطاء أمة القصر ابنها أو ابنتها إلى موشكينوم. أما المادة الأخيرة فهي المادة 50 الخاصة بقبض أحد الموظفين على عبد أو أمة أو موشكينوم.
- أما في قانون حمورابي فإن المواد التي ذكر فيها الموشكينوم تمثل مجموعتين رئيسيتين الأولى: ذكر فيها الموشكينوم إلى جانب القصر وقد شملت هذه المجموعة المادة 08 الخاصة بسرقة أموال القصر أو الموشكينوم، والمادتين 15، 16 الخاصة بالمساعدة على هروب رقيق القصر أو رقيق الموشكينوم أو إيوانه، والمواد 176، 175 الخاصة بزواج رقيق القصر أو الموشكينوم من امرأة حرة. أما المجموعة الثانية فقد ذكرت الموشكينوم باعتباره من فئة تختلف عن فئة الأولوم وهذه المواد هي: المادة 140 المتعلقة بتحديد صدق زوجة الموشكينوم، والمواد 198، 201، 204، 208، 211، 212 والمتعلقة بحالات الاعتداء على الموشكينوم كضربه أو كسر عظمه أو التسبب في موته... وقد عاقب القانون الجاني في جميع حالات الاعتداء هذه بالتعويض بينما نص على القصاص إذا كان المجني عليه من فئة الأولوم.
- وللمزيد حول تفصيل هذه المواد انظر: د.عامر سليمان، القانون في العراق القديم- دراسة تاريخية قانونية مقارنة- ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد-1987، صفحات: 71، 72، 73.
- (10) Cavaignac.(P.E) Muškenu. Revue d'assyriologie et d'archéologie orientale.Txx. Paris-1923. p47.
- (11) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول-تاريخ العراق القديم- ط2، شركة التجارة والطباعة ا مدودة بغداد - 1955، ص404.

- (12) رالف لنتون، شجرة الحضارة، ترجمة: محمد سويدي، ج 2، موفم للنشر-الجزائر 1990، ص 284.
وانظر كذلك:
- Contenau. (G). *La vie quotidienne à Babylon et en Assyrie*. Librairie Hachette .Paris –1950. p21.
- (13) Szlechter. Op.cit. p37.
- (14) فوزي رشيد، القوانين في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- 1988، ص 72.
- (15) يشير لنتون إلى دور حالة الفرد الاقتصادية في المجتمع البابلي حيث يقول: "...وعلى العكس من ذلك فإن أفراد طبقة الأويلوم كانوا يدفعون غرامات أكثر مما يدفعها أفراد طبقة الموشكينوم إذا صدرت منهم بعض الذنوب، وكانت الغرامات الشديدة تفرض على أساس المقدرة على الدفع".
انظر: لنتون، المرجع السابق، ص 285.
- (16) عامر سليمان، المرجع السابق، ص 194.
- (17) باقر وآخرون، المرجع السابق، ص 76.
- (18) محمد طه محمد الأعظمي، حمورابي (1796-1750 ق.م)، بغداد-1990، ص 148.
- (19) ورد ذكر الرقيق مع جملة الممتلكات التي يمتلكها الفرد أو الدولة، فقد نصت المادة 40 من قانون اشنونا على اعتبار كل من يبيع "عبداً أو أمة أو ثورا أو أي شيء آخر دون أن يتمكن من إثبات ملكيته له سارقاً". بينما ذكرت المادة 50 من نفس القانون العبد والأمة مع بقية الحيوانات التي يمكن أن تقرب من مالكيها. وكذلك الحال في قانون حمورابي حيث جاء ذكر العديد من البضائع التي لا يجوز تسلمها من يد قاصر أو رقيق ومن بين تلك البضائع الفضة والذهب والنور والشاة.
- لكن في المقابل فإن قانون حمورابي لم يغفل حق الرقيق فقد اعترف في المادة 175 و176 بزواج العبد من امرأة حرة و ح له بأن يكون لديه بيت خاص وأموال خاصة كما ضمن حرية أولاده من بعده. وفي العهود البابلية الحديثة تشير الوثائق المكتشفة إلى أنه كان بإمكان الرقيق أن يعمل لحسابه الخاص ويتقلد الوظائف العامة، وكان له أن يختار المهنة أو الحرفة التي تناسب وإمكاناته العقلية والجسمية شريطة أن يقدم مالكة أقساطاً شهرية تتناسب وما تدره عليه مهنته من أرباح.
- للمزيد انظر: عامر سليمان، القانون في العراق القديم، مرجع سابق، ص 57.
- (20) عامر سليمان، الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية، مرجع سابق، ص 192.
- (21) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص 405 .
- (22) الأعظمي، المرجع السابق، ص 148.
- (23) طه باقر، المرجع السابق، ص 405.
- (24) عامر سليمان، المرجع السابق، ص 193.
- (25) نفسه، ص 193.

مشكلة الرسوب المدرسي :

الزواهر ورؤى

يوسف حديد

قسم علم الاجتماع جامعة جيجل

تمهيد

تعتبر ظاهرة الرسوب شكلا من أشكال الفشل المدرسي، ويعني بها ((رسوب التلميذ في السنة الدراسية لعدم إتقانه الحد الأدنى من المهارات والمعارف المتوقع اكتسابها في هذه السنة. وبذلك يعيد بنفس السنة الدراسية ويقوم بالدور السابق حتى يرفع إلى السنة التالية بعد نجاحه في نهاية السنة الدراسية)) (1). وتعتبر سياسة الرسوب متبعة في جميع الأنظمة التربوية العالمية، إلا أن هناك اختلافا في المعايير الأساسية التي يبنى عليها قرار الرسوب وبداية اعتماد الرسوب، فبعض الأنظمة التربوية تعتمد على الاختبارات المقننة ومنها ما لا يتبع أي معيار ومن الأنظمة التعليمية ما تبدأ في تطبيق سياسة الرسوب في السنة الرابعة الابتدائية ومنها ما تبدأ في السنة الأولى (2). وتعدد الدراسات التربوية التي تناولت مشكلة الرسوب فبعضها تناول التكلفة المادية للرسوب وأسبابه وبعضها تناول فلسفة الرسوب وبدائله وعلاقته بتحصيل الطلاب في المستويات المتقدمة من المراحل الدراسية.

وتعتبر مشكلة الرسوب المدرسي من أكثر المشكلات التي تناوّلها الباحثون بالدراسة والتحليل، وذلك من أجل تحديد العوامل والأسباب المؤدية إليها من جهة، ومن جهة أخرى من أجل وضع حلول علمية عملية من شأنها التقليل من نسبة وحدة هذه المشكلة في المدارس والجامعات وكل المؤسسات التربوية التعليمية.

إن مشكلة الرسوب مشكلة تربوية بأبعاد مختلفة، لأنها في حقيقة الأمر مشكلة اقته مادية واجتماعية ونفسية... لذلك جاءت التفسيرات المفسرة للعوامل المؤدية إليها وطرق

علاجها متعددة ومختلفة أيضا.

1 - الاتجاهات المفسرة لظاهرة الرسوب:

يتميز المخترون في علوم التربية بين الأسباب العامة للرسوب وبين الأسباب الخاصة بكل بيئة محلية. فالأسباب العامة هي تلك التي تتحدث عنها المدارس الفكرية والفلسفية المختلفة ويمكن تعميمها على كل الأنظمة التعليمية في أي دولة من الدول وفي أي وقت من الأوقات، أما الأسباب الخاصة فهي تلك المتعلقة بضعف الكفاءة الداخلية والخارجية للنظام التعليمي وهي تختلف باختلاف الأنظمة التعليمية وتعود بالأساس إلى النقاء والعيوب في البرامج الدراسية وأساليب التدريس ونقص استعمال الوسائل التعليمية الحديثة وضعف نظام التوجيه والإرشاد المدرسي.

إن البحث في العوامل المؤدية إلى الإخفاق المدرسي والرسوب يؤدي بنا حتما إلى الغوص والتنقيب في البحوث والدراسات التربوية التي أجريت في مختلف البلدان والتي تناولت هذه الظاهرة، لذلك فمن الوهلة الأولى نلاحظ اختلافات جوهرية في تحديد الأسباب والعوامل المؤدية إلى فشل الطلاب ورسوبهم دراسيا باختلاف المدارس الفلسفية والاتجاهات الفكرية لهؤلاء الباحثين ولكن يمكننا تعميم هذه الأسباب على جميع المستويات الدراسية في كل الأنظمة التعليمية ويمكننا في هذا الإطار تحديد ثلاثة اتجاهات:

أ- الاتجاه النفسي: يركز أصحاب هذا الاتجاه على أهمية دراسة الفروق الفردية بين التلاميذ، ودورها في النجاح أو الفشل وهذه الفوارق بين الأفراد قد تكون نفسية أو عقلية أو جسدية، ويمكن قياس هذه القدرات باستعمال أدوات ووسائل مباشرة خاصة عند قياس الطول أو الوزن أو باستعمال وسائل وطرق غير مباشرة خاصة فيما يتعلق بقياس القدرات العقلية كالذكاء مثلا. خاصة مع تطور مقاييس الذكاء ويمكن اعتبار مقياس ((Stanford-binet)) من أكثر اختبارات الذكاء شيوعا واستخداما وانتشارا فهو يقيس الذكاء عند الأفراد من سنتين حتى سن الرشد وهناك أيضا اختبار ((Wechsler)) للأطفال والراشدين ويستخدم هذا الاختبار لقياس القدرات العقلية عند المتعلم والتنبؤ بقدرته في النجاح أو الرسوب في الدراسة⁽³⁾، وينف التلاميذ إلى متفوقين ومتوسطين ومتأخرين طبقا للدرجات المعيارية التي يتحلمون عليها في اختبارات الذكاء، واعتبر العديد من العلماء أن مستوى ذكاء الفرد يتحدد وفقا لعامل الوراثة بالدرجة الأولى وتأثير العوامل البيئية بالدرجة

الثانية وعلى هذا الأساس فإن النجاح المدرسي أو الإخفاق يتوقف على مستوى ذكاء الفرد وفطرته الطبيعية وبرز هنا م طلع الاعدالة الطبيعية ليشير إلى أن الأطفال غير متساوون في القدرات الطبيعية والوراثية، وعموما فاختبارات الذكاء ممت أساسا لقياس القدرات العقلية اللازمة للتدخل المدرسي والأكاديمي فهي ملحة في مجال التنبؤ بالتدخل المدرسي، حسب النظم القائمة لهذا التدخل⁽⁴⁾. وتعتبر مسألة الوراثة والبيئة ودورهما في تحديد درجة الذكاء عند المتعلم من المسائل العلمية التي أثارت جدلا كبيرا، خاصة مع نشر جنسن لمقالته عن دور البرامج التربوية التعويضية لمساعدة الأطفال المتأخرين دراسيا، حيث بين عدم جدواها مشيرا إلى أن الفروق الفردية بين التلاميذ في الذكاء والتدخل يتعود بالدرجة الأولى إلى العوامل الوراثية بنسبة 80% بينما العوامل البيئية لا تساهم إلا بنسبة 20%⁽⁵⁾.

إن البحوث العلمية التي حاولت تفسير اثر الوراثة في الذكاء تعود إلى سنة 1869 عند مدور كتاب ((العبقرية الوراثية)) للباحث ((GOLTON)) حيث توصل إلى وجود ارتباط إيجابي بين ذكاء الأطفال وذكاء آبائهم، وقد أيده الكثير من الباحثين منهم ((Eyzenc, 1971, 1969, Jensen)) وعلى الرغم من أهمية هذه الحقائق إلا أن الوراثة الجيدة تترافق عادة بشروط بيئية جيدة⁽⁶⁾. وقد استغل علماء الاجتماع نتائج هذه البحوث ليركزوا على علاقة المستوى الثقافي والتعليمي للآباء بنجاح أبنائهم أو رسوبهم في الدراسة. وهناك تعريف يجمع بين دور البيئة والوراثة في الذكاء، حيث يعرفه ((Wechsler)) بأنه ((القدرة الكلية على التفكير العاقل والسلوك الهادف ذي التأثير الفعال في البيئة)). وقد ساهمت اختبارات الذكاء في مساعدة المعلم على التنبؤ ببعض الأنماط السلوكية لدى طلابه، كالنجاح أو الرسوب الأمر الذي يجعله أكثر فعالية معهم. ولكن ينبغي الإشارة إلى استحالة الاعتماد كلياً على درجات الطلاب في اختبارات الذكاء للتنبؤ بنجاحهم المدرسي أو إخفاقهم وينبغي كذلك الاهتمام بمسألة تحسين الشروط التعليمية بالاعتماد على العوامل البيئية المؤثرة⁽⁷⁾.

إن مسألة التكيف المدرسي من القضايا التي تناوها علماء النفس بالدراسة لكونها ترتب بالتدخل الدراسي، وعلى هذا الأساس لا يمكننا الاعتماد على نتائج روائز الذكاء لوحدها للحكم على التلاميذ بالفشل أو النجاح، وهناك دراسات تفيد أن تلاميذ ذوي معادلة ذكائية تفوق بكثير (110) ولكنهم يعانون من عيوب مدرسية

جمة في التكيف بينما نرى تلاميذ ذوي نسبة ذكائية منخفضة لا يجدون أي عوبة في التكيف⁽⁸⁾. وبين الباحثان (محمد أحمد، أحمد عودة، 2001) في دراسة ميدانية لهما عن التكيف وعلاقته بالتحصيل الدراسي بأن هناك علاقة ايجابية بين التكيف الايجابي والتحصيل الدراسي، ووجدوا أن هناك عوامل أخرى مؤثرة على التحصيل والنجاح في الدراسة منها الدافعية والحماس والجهد والمثابرة⁽⁹⁾.

ولقد هدفت دراسة السيد (2003) إلى التعرف على شيوع عوبات التعلم الأكاديمية لدى المتفوقين عقليا من تلاميذ الصف الثاني المتوسط بدولة الكويت، وتم إجراء الدراسة على عينة من 1027 تلميذ وتلميذة، وكشفت نتائج الدراسة أن نسبة 16% من مجموع أفراد عينة الدراسة المتفوقين عقليا منخفضي التحصيل لديهم عوبات في القراءة وأن نسبة 12.3% لديهم عوبات في الكتابة وأن ما نسبته 18.5% لديهم عوبات في الرياضيات و توالت الدراسة إلى أن هذه العوبات التعليمية تعيق التحصيل الدراسي لدى فئة التلاميذ المتفوقين عقليا، وتؤدي بهم في كثير من الحالات إلى الرسوب⁽¹⁰⁾.

ولقد أخذت الأبحاث النفسية في المجال المدرسي منحى آخر، خاصة مع ارتفاع نسبة الرسوب والتسرب عند فئة التلاميذ الذين لا يعانون من مشاكل ذهنية ومستوى ذكائهم عادي، لذلك اهتم علماء النفس بدراسة الدوافع والاهتمامات والميول والاتجاهات والقيم ومستوى الطموح عند الفرد وعلاقة هذه العوامل بنجاح الفرد في دراسته أو رسوبه.

إن تدني الدافعية للتعلم من أسباب الرسوب والإخفاق عند الأغلبية العظمى من التلاميذ خاصة أولئك الذين لا يعانون من أي تأخر ذهني، فكثيرا ما نجد تلاميذ متفوقين في درجة ذكائهم إلا أن نقص الدافعية عندهم نحو المدرسة يؤدي بهم في نهاية المطاف إلى الإخفاق والرسوب وفي كثير من الأحيان التخلي عن الدراسة، لهذا انبثت العديد من البحوث النفسية في البحث عن العوامل المثبطة لعزيمة المتعلمين، فالمقاربة السلوكية وعلى رأسها ((skinner)) ترجع تدني الدافعية عند المتعلمين إلى نقص التشجيع من المدرس أو إلى العقوبات الجسدية أو السيكولوجية. بينما يرى أصحاب المقاربة الإنسانية بأن قيام المؤسسة التربوية على مبادئ إنسانية تمكن من تحسين الإحاطة بالمواد المدرسية والأداء الفكري بوجه عام وتشجع التلاميذ على التوصل فيما بينهم وتحفزهم على العمل الدراسي

والمثابرة نحو النجاح⁽¹¹⁾. ولقد اهتم علماء النفس بإجراء دراسات لمعرفة أثر التحفيز على التحصيل الدراسي للتلميذ، فوجدوا بأن تحفيز التلاميذ وإثارة دافعيتهم نحو التعلم المدرسي يؤدي إلى تحسين المردود الدراسي وتحقيق النجاح، وأن الرسوب في الدراسة كثيرا ما يربته بنق الدافعية وعدم الاهتمام، وتشير دراسة ((dev,1997)) إلى أن مشاركة التلميذ الايجابية في العملية التعليمية، والاستجابة الايجابية لتساؤلاته، والثناء والمدح، وتشجيع التعلم المتقن وتوفير المثيرات التي تخلق نوعا من التحدي للتعلم، وتقييم عمل التلميذ . جميعها أساليب من شأنها أن تعزز الدافعية الذاتية لدى تلاميذ المدرسة الابتدائية والثانوية وحتى مع التلاميذ الذين يعانون من عوبات أو إعاقات في التعلم⁽¹²⁾.

إن الدافعية للتعلم حالة متميزة من الدافعية العامة، وتشير إلى حالة داخلية عند المتعلم تدفعه إلى الانتباه للموقف التعليمي والإقبال عليه بنشاط موجه والاستمرار فيه حتى يتحقق التعلم، ودافعية التعلم والتحفيز يل مهمة يشترك فيها كل من المدرسة والأسرة معا و بعض المؤسسات الأخرى⁽¹³⁾.

ويرى ((atkinson,1960)) أن النزعة أو الميل للتحصيل على النجاح أمر متعلم، وهو يختلف بين الأفراد، كما أنه يختلف عند الفرد الواحد في المواقف المختلفة وهذا الدافع يتأثر بعوامل هي الدافع للتحصيل وعلى النجاح واحتمالات النجاح والقيمة الباعثة للنجاح⁽¹⁴⁾.

ويعد مستوى الطموح بعدا من أبعاد الشخصية الإنسانية بما له من تأثير على حياة الفرد والجماعة، وما يترتب عليه من نشاط وإنجاز لذلك فقد حظي هذا المفهوم بالكثير من الدراسات التي حاولت تحديد طبيعته، وعلاقته بالتحصيل الدراسي والدافعية للإنجاز، وقد ظهر مستوى الطموح كمطلع في بداية العقد الرابع من القرن العشرين بظهور الدراسات التي قام بها ليفين وتلاميذه منذ عام 1929، ولكن كاميليا عبد الفتاح تشير أن ((Hoppe,1930)) يعد أول من تناول مستوى الطموح بالدراسة والتحديد على نحو مباشر، وكان ذلك في البحث الذي قام به عن علاقة النجاح والفشل بمستوى الطموح حيث عرفه بأنه أهداف الشخص أو غاياته أو ما ينتظر منه القيام به في مهمة معينة⁽¹⁵⁾. لذلك فإن هناك من الطلاب من يفشلون في دراستهم ليس لضعف ذكائهم أو غيبتهم وإنما لانخفاض مستوى طموحهم أو تدني دافعيتهم .

وتعتبر الحالة النفسية والجسدية من العوامل الهامة والتي تؤثر على التحصيل الدراسي للطلاب في مختلف المستويات، فالطالب الذي يعاني من اضطرابات نفسية وجسدية يجد صعوبة كبيرة في تحصيله للدروس ومتابعته لما يقدم له داخل القسم، إن التوتر الانفعالي والقلق والحجل الشديد بالإضافة إلى مختلف الأمراض الجسدية كالربو والقرحة وغيرها، تشكل عائق كبير يؤثر سلباً على تدرّس الطلاب ويؤدي بهم في كثير من الأحيان إلى التأخر الدراسي والفشل والرسوب وحتى التخلي عن الدراسة .

وقد قام ((lei yu and seligman, 2002)). بدراسة كبيرة تضمنت ثلاث بحوث يتناول البحث الأول منها موضوع الأعراض الاكتئابية والعوامل الديموغرافية والأسرية والمدرسية، وقد أظهرت نتائج البحث علاقة إيجابية دالة إحصائياً بين الاكتئاب وبين التحصيل الدراسي المتدني الذي يؤدي إلى الرسوب والفشل في الدراسة⁽¹⁶⁾. ويرى ((George MACON⁽¹⁷⁾ بأن وراء الكسل والتأخر الدراسي أسباباً عاطفية وانفعالية، حيث أن الكسل يعني انعدام الاهتمام بالدراسة، وهذا يؤدي إلى نفور وعدم تلاؤم دراسي وقلة انتباه، وسبب ذلك القلق العاطفي الذي يخلق معارضة وشعوراً بالنقص وشكاً بالذات وخوفاً من ملامة وعقوبة، وعدم تلاؤم مع الواقع والهروب منه عن طريق أحلام اليقظة، واستمرار عاطفة الأهل والمعلمين وضعف الثقة بالذات مما يؤدي إلى كسل ظاهري .

لقد أشار (عمر عبد الرحيم، 2004) إلى خائص التلميذ متدني التحصيل الدراسي وهي⁽¹⁸⁾:

- 1- يكون في معظم حالاته متساهل في كل شيء حتى في الأمور الأساسية والضرورية بالنسبة له.
- 2- يقف في معظم حالاته موقف المدافع عن نفسه وعما يقوم به من أعمال بسبب عدم الثقة بالنفس والقدرة على الإنجاز.
- 3- ومن صفاته البارزة أنه منقاد للغير ولا يوجد لديه الاعتماد على النفس وروح المبادرة الذاتية.
- 4- يمكن استفزازه بسهولة لذا فهو يثور في وجه الآخرين بسرعة ويكون التغيير لديه سريع حيث يتحول من وضع لآخر بأيسر ما يكون.

5- عدواني وسليبي وغريب الأطوار يبدووا عليه الضجر بسرعة وهذا يعني عدم الثبات في الأعمال التي يقوم بها.

6- يهتم بغيره أكثر من اهتمامه بشؤونه الخاصة.

7- يكبت عواطفه ومشاعره حتى لا يظهر بمظهر الضعفاء.

8- يبدووا عليه الحزن والتشاؤم والقلق الزائد لأبس الأسباب.

9- كثير الشك والريب، مفكر ومتأمل في نفس الوقت.

كما اهتم علماء النفس بدراسة أثر التعب المدرسي على نجاح الطالب في دراسته، فالظروف الأسرية المتدنية وسوء التغذية وبعد المدرسة عن المنزل، بالإضافة إلى طول اليوم الدراسي وكثافة البرامج والحجم الساعي، كلها عوامل تؤدي إلى عياء التلميذ بحيث يبدي عدم الرغبة في الدراسة وعدم القدرة على التركيز والاستيعاب.

ب – الاتجاه السوسولوجي:

اهتم الكثير من المفكرين وفلاسفة التربية بالعوامل الاجتماعية كالظروف المادية للأسرة ومستواها التعليمي والثقافي وما تعكسه من آثار نفسية، سلبية واجتماعية على الطلاب ومدى تأثيرها في رسوبهم أو نجاحهم، وبرزت تيارات متعددة مارعة فيما بينها ليس بهدف تشخيص علمي دقيق للرسوب المدرسي وكيفية مواجهته، وإنما لتحديد دور النظام المدرسي من خلال المدرسة كمؤسسة تعكس السياسة العامة للدولة والمجتمع، وبالتالي فكل تيار يدافع على وجهة نظره في تنظيم المدرسة وجعلها أداة ووسيلة لتنظيم المجتمع. فالمدرسة في رأيهم هي نظام مغر للمجتمع بفئاته وطبقاته المتمايزة، بل هي حجرة مطابقة للمجتمع، فهي جزء لا يتجزأ من الوضع الاجتماعي، وما دامت المدرسة غير منعزلة عن المجتمع فهي إذن مدرسة النخبة القائمة على الاختيار والتفريق وبالتالي فالعلاقة بين المدرسة والرسوب المدرسي علاقة وطيدة⁽¹⁹⁾.

ولم يكن التعليم منتشرا قبل ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، وكانت المجتمعات التقليدية تنظم الإنتاج حول العائلة وهذا الأمر لا يتطلب اختراع أو دراسة ولا نظاما مدرسيا مؤسساتيا، وكان الأفراد يتعلمون من آبائهم عن طريق المحاكاة لمواصلة نفس الإنتاج، وبعد الثورة الصناعية وبرزت الطبقة البورجوازية وحاجتها إلى العمال

المؤهلين ساعد ذلك على انتشار التعليم والتحاق أبناء الطبقات المحرومة بالمدارس و ظهر مفهوم جديد وهو تكافؤ الفرص التعليمية، ومع تداعيات الثورة الفرنسية وظهر إيديولوجية تنادي بتكافؤ الفرص جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ال مادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 10/12/1948. حيث تؤكد المادة 26 من هذا الإعلان على ((حق كل شخص في التربية والتعليم اللذين يجب أن يكونا مجانيين على الأقل فيما يخص المرحلة الابتدائية والتربية الأساسية)). ومع بداية الخمسينيات سادت فكرة ديمقراطية التعليم حيث فصح المجال لأعداد كبيرة من التلاميذ للالتحاق بالمدارس وذلك بغض النظر عن الانتماء الاجتماعي والاقتصادي لهؤلاء التلاميذ، وظهر مفهوم القدرة والاستحقاق كأساس للنجاح بدلا من مفهوم الموهبة، تلاميذ موهوبين ينجحون وتلاميذ غير موهوبين يرسبون.

في سنة 1949 نشر ((Roger Gal)) وهو مؤسس لمحة البحث في المعهد البيداغوجي الوطني الفرنسي مقالا في مجلة ((دفاتر بيداغوجية)) أشار فيه إلى عدم وجود عدالة اجتماعية داخل المدرسة وذلك انطلاقا من ملاحظاته حول نتائج الامتحانات المدرسية في فرنسا حيث وجد أن أبناء الفلاحين والعمال رغم مشاركتهم في هذه الامتحانات إلا أنهم يرسبون. وقال ⁽²⁰⁾: ((إننا نعلم من خلال خبرتنا كم يترتب نمو التلميذ بالوضعية المادية والمعنوية للوس الذي يعيش فيه، وتأثير الوس الثقافي من خلال اللغة والاهتمامات السائدة)). وهكذا برز الوس الاجتماعي ودوره في الرسوب انطلاقا من اللاعدلة في المجتمع وانطلاقا من هذه الأطروحة جاءت أعمال ((P.BOURDIEU- J.-G.PASSRON)) في نهاية الستينيات حول معايير الانتقاء والنجاح والرسوب في الجامعة وأعطوا لمفهوم الفشل المدرسي معنى وأهمية، حيث لم يكن من قبل مل اهتمام الممثلون الاجتماعيون المنشغلون بمستقبل النظام المدرسي. إن الدراسات السوسيولوجية التي قام بها ((BOURDIEU- PASSRON)) في الفترة من 1964 إلى 1970 على الطلاب في الجامعات، بينت عن طريق الإحصائيات الرسمية علاقة الانتماء المهني والاجتماعي للأولياء بنجاح أو رسوب أبنائهم، فنسبة الرسوب مرتفعة جدا لدى الطلاب الذين ينتمون للفئات المهنية والاجتماعية السفلى كالفلاحين والعمال بينما ترتفع نسبة النجاح لدى الطلاب الذين ينتمون لفئات مهنية واجتماعية عليا كأبناء الإطارات العليا ويفسر ((BOURDIEU - PASSRON)) ذلك بإعادة الإنتاج التي تقوم به المدرسة من خلال التمييز واللامساواة الاجتماعية ⁽²¹⁾.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية قام ((Coleman)) سنة 1966⁽²²⁾ بدراسة شاملة بناء على طلب من الحكومة الأمريكية لمعرفة العوامل المؤدية إلى الرسوب وقد كون لأجل ذلك فريق يزيد على ألفي باحث وبلغت عينة الدراسة 645000 طالب وطالبة من الأمريكيان البيض والسود والأمريكان من أصل مكسيكي والأمريكان من شرق آسيا والبرتوريكان والأمريكان الهنود. وجمع الباحث معلومات عن المدارس شملت تكلفة التلميذ الواحد والمدرسون من حيث خبرتهم ومؤهلاتهم والمناهج ومدى وجود مرافق علمية في المدرسة كالمكتبات والمعامل والملاعب. وقد كانت نتائج الدراسة مخالفة للاعتقاد الذي كان سائدا آنذاك عند الحكومة الأمريكية على أساس أن العوامل المدرسية هي السبب في اختلاف التحصيل وبالتالي النجاح والرسوب ووجد ((Coleman)) أن السبب في رسوب الطلاب أو نجاحهم يعود إلى الخلفية الاجتماعية والادبية والاجتماعية للطلاب، أي المستوى الاقتصادي والاجتماعي لأسرة الطالب والجو الاجتماعي السائد في المدرسة المعنية. أما في إنجلترا فقامت وزارة المعارف بدراسة نشرت سنة 1962 توالت هذه الدراسة إلى أن الخلفية الأسرية للتلميذ هي في الواقع أهم العوامل المؤدية إلى الفشل الدراسي وأيدت هذه النتيجة دراسة أخرى قام بها ((Jackson & Marsden)) في نفس السنة وتوالت هذه الدراسة إلى أن الأسر الميسورة الحال من الطبقات المتوسطة تعين أبناءها على النجاح والاستمرار في الدراسة على عكس أبناء الطبقة الدنيا الذين لا يجدون الدعم الأسري للنجاح مما يؤدي بهم إلى الإحباط والفشل⁽²³⁾. أما على المستوى العربي فإن أقدم دراسة في هذا المجال هي دراسة ((الريجاني و weightman)) سنة 1968 وأجريت في المجتمع اللبناني وقد قاما بدراسة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والنجاح في الدراسة وقد توالتا في نتائج دراستهما إلى أن هناك علاقة وظيفية بين المستوى الطبقي والنجاح في الدراسة أي أن ذوي الطبقات العليا يتقدمون على غيرهم في الأداء الدراسي وليس هذا فحسب بل أنهم هم الذين يتمكنون من مواصلة دراستهم العليا والحوّل على مراكز وظيفية أعلى⁽²⁴⁾.

وقد وجد العديد من الباحثين من مجتمعات متباينة أن للمستوى التعليمي للوالدين أو لأحدهما تأثير إيجابي على التحصيل الدراسي للأبناء وبالتالي نجاحهم، فقد أجرى ((أبو بكر باقدر)) و ((رضا علي كابل)) دراسة على طلاب متخلفين دراسيا من جامعة الملك عبد العزيز بالملكة العربية السعودية سنة 1984 حيث أظهرت النتائج أن غالبية هؤلاء الطلاب كانوا من المعاد قيديهم بعد فلولهم من الجامعة

وينخفض مستوى تعليم والديهم⁽²⁵⁾. وفي هذا الإطار يقول (Goombs,1968) (((كتابه الأزمة العالمية للتربية: ((إن الأنظمة التربوية ترجح دائما كفة الميزان لصالح الأطفال الذين ينشئون في بيوت العلم، لأن آباءهم يعلمونهم لغة جيدة ويوفرون لهم وسطا ثقافيا ممتازا))⁽²⁶⁾.

ويؤيد هذا الرأي ((A. Girard, 1963)) حيث يقول⁽²⁷⁾: ((إن فرص النجاح في المدرسة، وفرص النجاح في الحياة الاجتماعية بعد التخرج ليست متعادلة بين الأطفال الذين ينتمون إلى طبقات مختلفة. ولاشك أنه لا يمكن أن تعزى الفوارق التربوية إلى الوضع الاقتصادي المادي الموروث وحده، لأن التعليم المجاني مقرر في أغلب الأقطار ولأن المنخرطين في الثانوي والعالي يتزايد عددهم باستمرار. ولذلك أخذ علماء الاجتماع يتذرعون بالتراث الثقافي لتفسير هذه الفوارق. ويبدو أن النظام التربوي السائد اليوم يعمل لصالح من آل إليهم ذلك التراث، ويدعي المسئولون عن ذلك النظام أنه قائم على العدالة، إلا أن وظيفته هي المحافظة على الامتيازات وضمان البقاء للنظام الاجتماعي الحالي، وهو يغال الناس بشكل ربح، إذ يخفي عنهم طريقته التي ينتقي بها النخبة، ويرغم بها أبناء الفقراء على الانغمال عن المدرسة)). ونجد زعيم الاتجاه الوظيفي ((Durkheim)) و((Parsons)) يرون بأن عائلات الطبقات الغنية يربون أبنائهم على قيم وسمات شخوية تؤدي إلى التفوق والنجاح وهذه القيم والسمات غير متوفرة عند عائلات الطبقات الفقيرة ومن القيم الاجتماعية التي تؤكد عليها المدرسة ضمنا قيم الفردية والأنانية والاستثمار المستقبلي ناهيك أن نجاح التلميذ بالمدرسة رهين استبطانه لهاته القيم⁽²⁸⁾.

في نفس الإطار نجد الاتجاه الراعي وعلى رأسه ((Bowles و gintis)) يرون أن الاختلاف في التحصيل والنجاح والرسوب ما هو إلا نتاج يعكس واقع وظيفة المدرسة في المجتمع الرأسمالي، ويرفض أصحاب هذا الاتجاه أن يكون إخفاق طلاب الطبقات الفقيرة في التحصيل الدراسي هو نتيجة تخلف عقلي ذهني أو ثقافي. ويقولون بأن المدارس تعامل الطلاب حسب طبقاتهم الاجتماعية، وأن عدم المساواة بين الجماعات الاجتماعية أدت إلى اختلاف نوعية المدارس ويرى هؤلاء بأن المدرسة تقوم بتعزيز عدم المساواة بين الطلاب عن طريق فتح قنوات لأبناء الطبقة الفقيرة للدخول في فصول تؤهلهم للتدريب المهني، في الوقت الذي يتم فيه تشجيع أبناء الطبقات الغنية لمواصلة دراساتهم الجامعية والعليا بوضعهم في

فول خاصة وإعطائهم مناهج تعدهم لذلك. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن المدرسين يتوقعون الإخفاق والفشل من الطلاب الفقراء، ولذا فإن هذا التوقع يؤثر في تحييج المدرسين مما يجعل أولئك الطلاب دائما في مستوى تحيل منخفض مهما بدلوا من الجهد. كما أن المدرسة حسب هذا الاتجاه تقوم دائما بوضع التلاميذ في ال فوف الخلفية داخل الفل الدراسي، ويقوم المدرسون دائما بتأنيبهم وتوبيخهم مما يؤثر في حالتهم النفسية ويؤدي بهم إلى الفشل والإخفاق⁽²⁹⁾.

إن تأثير الظروف الالقة مادية والاجتماعية على فرص نجاح الطلاب في دراساتهم يختلف باختلاف المجتمعات والأنظمة السياسية، ففي المجتمعات الرأسمالية ومنذ بروز الثورة ال ناعية وتكون طبقة البورجوازيين التي تتحكم في الثروة والسلطة نجد التمييز وعدم تكافؤ الفرص في الالتحاق بالمدرسة أو النجاح في الدراسة واضحاً بينما في المجتمعات الاشتراكية خاصة في السبعينيات والثمانينات، نجد بأن مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم والالتحاق بالمدارس من الركائز التي تقوم عليها هذه الأنظمة، ورغم ذلك أجريت دراسات بهذه المجتمعات بينت تأثير العوامل الاجتماعية والالقة مادية للأسرة والمستوى التعليمي والمهني للوالدين على نجاح الأبناء في دراستهم وإن كان ذلك بدرجة أقل حدة.

وانتبت الأبحاث والدراسات التي أجريت في الفترة ما بين 1966 إلى 1971 على دور الوس الاجتماعي في الرسوب، واعتبر الرسوب إعاقه اجتماعية ثقافية فالأطفال يتأثرون بالثقافة السائدة في الوس الذين يعيشون فيه، وبما أن المدرسة هي مرآة للمجتمع البورجوازي الرأسمالي فإنها بدون شك تدرس وتستعمل ثقافة تختلف عن الثقافة السائدة في الأوساط الشعبية والفقيرة، ومن هنا فإن العقبة التي تواجه الأطفال المنحدرين من الطبقات الفقيرة والمحرومة هي معوية التكيف مع الوس المدرسي وهنا طرح التساؤل : ماذا نكيف؟ الطفل على المدرسة أم المدرسة على الطفل؟.

وتو مل الباحث ((Basil BERNSTEIN, 1975)) من خلال البحوث والدراسات التي أجراها حول النماذج اللغوية المستعملة في المجتمع، إلى وجود مستويين للغة يوجدان لدى مستويين اجتماعيين مختلفين، فالمستوى اللغوي الأول يتميز بالغنى والتعقيد ويوجد لدى أبناء الطبقة العليا المتمثلة في رجال الأعمال والإطارات العليا، ويتميز باستعمال الجمل الطويلة واستعمال التشبيهات والاستعارات واللفات وظروف المكان والزمان وغنى القاموس

اللغوي، والقدرة على استخدام المفاهيم المجردة. بينما يوجد المستوى الثاني لدى أبناء الطبقة الفقيرة في المجتمع، كالفلاحين والعمال ويتميز بالبساطة والحدودية، وعدم التمكن من استعمال الجمل الطويلة والمركبة بالإضافة إلى الاستعمال المحدود لظروف المكان والزمان، وهو يعكس الواقع المعاش، وبما أن اللغة المستعملة في المدرسة هي نفس اللغة تقريبا التي تستعملها الطبقة الميسورة لذلك لا يجد أبنائها أي عوبة في النجاح على عكس أبناء الطبقة الدنيا الذين يجدون عوبة في فهم واستيعاب البرامج الدراسية مما يؤدي إلى إخفاقهم ورسوبهم. وتو مل ((Basil BERNSTEIN)) إلى أن فهم طبيعة الرسوب المدرسي يكمن في التفاوت اللغوي والثقافي ما بين طبقات المجتمع الواحد الناتجة عن التفاوت الاجتماعي، فاللغة المستعملة في المجتمع الواحد تختلف باختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي بينما تفرض المدرسة مستوى لغويا راقيا يناسب أبناء الطبقة العليا الميسورة، وهذا ما يفسر ارتفاع نسبة نجاح أبناء الطبقة الغنية وزيادة نسب رسوب أبناء الطبقات الفقيرة⁽³⁰⁾.

إن الثقافة السائدة في المجتمع تلعب دور كبير في عملية التنشئة الاجتماعية وتعويد الأفراد على سلوكيات معينة، وبطبيعة الحال فإن التنشئة الاجتماعية لأبناء الطبقة الميسورة في المجتمع تختلف عن تنشئة أبناء الطبقة المحرومة، والمدرسة في مناهجها وبرامجها واللغة المستعملة داخل الفول الدراسية هي مرآة عاكسة لثقافة الطبقة البورجوازية الميسورة، وبالتالي فليس من الغرابة أن نجد المتفوقين والناجحين في المدرسة من الميسورين، والراسبين من أبناء المحرومين. وفي هذا الإطار نجد الباحث ((Robert Gastel)) يرى بأن ((من أهم ما تو مل إليه علم الاجتماع حديثا، أنه أقام الدليل على أن النجاح أو الفشل في التعلم لا يمكن أن ندرك أسبابهما الحقيقية إلا بعد الرجوع إلى الثقافة الأصلية السائدة في الوسط الذي ينتمي إليه التلامذة والطلبة))⁽³¹⁾. وفي نفس الإطار نشير إلى أهمية اللغة العائلية التي ينشأ فيها الطفل قبل دخوله المدرسة في تطوير ملكاته الفكرية أو عرقلة هذا التطوير، فقد بين ((LAUTRY,1980)) في دراساته أن الأطفال المنتمين إلى عائلات تتكلم لغة ثرية ينجحون مدرسيا أكثر من الأطفال القادمين من عائلات لا تتعدى معجميتها 200 كلمة⁽³²⁾. وفي دراسة قام بها ((Alain BIGARD,1977)) حول النجاح في السنة أولى جامعي وجد أن المستوى الاجتماعي والاقتصادي للوالدين يلعب دورا كبيرا في نجاح الطلاب الجامعيين، حيث سجلت نسبة نجاح تقدر بـ 37.7% عند الموظفين والإطارات العليا بينما تنخفض نسبة النجاح عند الإطارات المتوسطة لـ 19.1% وأكد ((Christophe jenks,))

((1977)) على هذا الواقع بقوله: ((إن المشكلات التي أدت بأبناء الفئات الدنيا إلى الإخفاق موجودة خارج المدرسة فالطفل يتأثر مما يجري في المنزل أو الشارع أو بما يشاهده على شاشة التلفزة))⁽³³⁾.

ويقول الأستاذ ((PISSARO)): ((إنني أخالف بعض الزملاء الذين يعزون الفشل الدراسي للظروف البيئية الاجتماعية والثقافية، ويعطون دليلهم أبناء المغتربين في فرنسا وتخلفهم نظرا لضعف الوسائط الاجتماعية والثقافية، ولكنني أقول: ماذا لو أخذنا بعض أنماط ثقافة هؤلاء (يقصد أبناء المهاجرين في فرنسا) لنغير بها بعض أنماط ثقافتنا، وبالتالي لتحسين الوضعية الدراسية لأبنائهم وأبنائنا، إننا إذا قمنا بعملية الكشف عن أسباب هذه الاضطرابات، فإن عملنا إذن هو وضع برامج لتقليل الرسوب المدرسي وهذا لا يكون عملا منفردا، إنه عمل جبار يشترك فيه أكثر من تخصصات تقوم فيه فرق العمل المدرسية والإرشاد الاجتماعي، والأساتذة ومشاركة الأولياء الذين يعينهم الأمر، ووضع برامج هدفها التقليل الفعلي من الرسوب المدرسي))⁽³⁴⁾.

إذا فالاتجاه السوسولوجي يؤكد على دور كل من المجتمع وكذلك المدرسة كمؤسسة تربوية في نجاح التلاميذ أو رسوبهم، وهنا برزت أعمال عديدة تحلل دور العوامل الاجتماعية ومدى مساهمتها في النجاح أو الرسوب بالإضافة إلى دور ممثلي النظام المدرسي، وأصبح ينظر للرسوب على أساس أنه ظاهرة سوسيو-مدرسية. فالاجتماع ومن أجل المحافظة على التقسيم الطبقي جعل المدرسة في خدمة الطبقة البورجوازية بفتحها المهيمنة، لذلك فالمدرسة بثقافتها ومناهجها واللغة السائدة فيها تساهم في التمييز الطبقي حيث تساعد على نجاح أبناء العائلات الميسورة وتدفع بهم لاحتلال المراكز المرموقة في المجتمع، بينما تدفع بأبناء الطبقات الفقيرة إلى الإخفاق في الدراسة والاتجاه نحو المهن البسيطة. ولقد تلقى تفسير الاتجاه السوسولوجي للعوامل المؤدية إلى الإخفاق الدراسي على أساس الانتماء الاجتماعي والافتقار والتمييز الطبقي انتقادات حادة، كون المجتمعات الحديثة توفر فرص تعليمية متكافئة لكافة شرائح المجتمع وإن المبدأ الأساسي للنجاح الدراسي هو مبدأ الجدارة والاستحقاق، ويستدل هؤلاء على رأيهم لكون العديد من أبناء الطبقات الفقيرة قد حققوا نجاحا دراسيا ومهنيا باهرا، وعلى هذا الأساس جاءت دراسات وأبحاث بنتائج معاكسة ومغايرة تماما، ففي دراسة على المجتمع الأردني قام ((ناظر، 1982)) باختيار عينة من 896 طالب

وطالبة من مختلف مناطق المملكة الأردنية لإجراء بحث ميداني للتعرف على أثر الخلفية الاجتماعية والاقتصادية التي يأتي بها الطالب في تحصيله الأكاديمي في الجامعة، وتوصل إلى نتيجة وهي أنه ليس هناك علاقة بين مهنة ولي الأمر وكل من النجاح في الثانوية العامة وكذلك النجاح في نهاية السنة الثانية جامعي⁽³⁵⁾. وفي المجتمع المديني أجري ((م. طفي درويش، 1978)) دراسة لمعرفة دور المستوى الاجتماعي والاقتصادي في نجاح الطلاب بالتعليم الجامعي، على عينة من طلبة جامعة أسيوط فوجد أن تمثيل المستويات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة يكاد يكون متساويا في جميع كليات الجامعة⁽³⁶⁾.

وإذا كانت أغلب الدراسات الغربية قد أشارت إلى أثر المستوى التعليمي للوالدين وارتباطه إيجابا بنجاح وتفوق الأبناء دراسيا، إلا أن هناك دراسات عربية جاءت بنتائج عكسية ومنها دراسة ((زيد الدباس، 1979)) أعدت على المجتمع الأردني لمعرفة أثر الظروف الاجتماعية والاقتصادية لطلبة المتفوقين في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة، حيث وجد أن المستوى التعليمي للطلاب لا يتأثر بمستوى الوالد التعليمي ففي الأغلب يكون تعليم والد ووالدة الطالب المتفوق دون المرحلة الابتدائية⁽³⁷⁾. وهناك دراسة للدكتور رشدي عبده حنين توصل من خلالها إلى عدم وجود ارتباط بين المستوى الدراسي للأبناء ونجاحهم والمستوى الاقتصادي للوالدين، وتوصل إلى أن فقر الأسرة وضعف مستواها الاقتصادي والاجتماعي يكون في كثير من الأحيان حافزا لبدل المزيد من الجهد والنجاح في الدراسة والوصول إلى أعلى المراكز الاجتماعية⁽³⁸⁾. ويمكن أن نستدل من الواقع حيث نجد العديد من الإخوة من أسرة واحدة يختلفون في مستوى التحصيل فبعضهم ينجح ويتفوق في مشواره الدراسي والمهني والبعض الآخر يخفق ويرسب رغم أنهم يتمتعون بنفس الظروف الاجتماعية والاقتصادية.

ج- الاتجاه البيداغوجي:

يعتقد العديد من المختصين والمشتغلين في الميدان التربوي أنه يمكن اعتبار حجم ظاهرة الرسوب والتسرب من بين المؤشرات الهامة على ضعف أو نجاعة النظام التربوي في أي دولة من الدول، فارتفاع حجم الرسوب والتسرب مؤشر على وجود خلل في النظام التعليمي يتطلب التدخل العاجل للتشخيص وإيجاد الحلول، ومن هنا نجد كل الدول تقوم من حين لآخر بمراجعة شاملة لنظامها التعليمي في جميع المستويات، إن نظام المدرسة في كثير من

الأحيان يكون سببا في ازدياد حجم الرسوب وحتى التخلي عن الدراسة، فالتأطير البيداغوجي المسير للمؤسسة قد يكون دون المستوى المطلوب، و تويات البرامج الدراسية التي تعد بطريقة عشوائية استعجالية دون مراعاة خاء المتعلمين النفسية والاجتماعية، بالإضافة إلى نقص الكفاءة لدى العديد من المدرسين وممارستهم لسلوكيات غير تربوية داخل الفول الدراسية، كلها عوامل تؤدي إلى ضعف التحصيل لدى التلاميذ ورسوب العديد منهم. وتشير العديد من الدراسات إلى أن اتجاهات التلاميذ السلبية نحو المدرسة والتي تكون ناتجة عن الخبرات الغير سارة التي يواجهها المتعلم في حياته المدرسية، والمتعلقة بالمعلم والمنهاج أو طبيعة النظام المدرسي قد تؤدي في كثير من الأحيان إلى ظواهر مختلفة كالغياب عن المدرسة والرسوب والتسرب.

ويتحمل النظام التعليمي مسؤولية تطوير اتجاهات إيجابية نحو المدرسة والنشاطات المرتبطة بها، ولقد تناولت دراسات عديدة ((Good, biddle and)) ((marjoribanks , 1976.)) العلاقة بين التحصيل الدراسي واتجاهات الطلاب نحو المدرسة والذات، وبينت أن النجاح المدرسي يعزز الرضا بالنشاطات، بينما يشكل الشعور بعدم الرضا والناجم عن الفشل المدرسي إلى تشكيل اتجاهات سلبية نحو العمل المدرسي والذات⁽³⁹⁾.

ويرى ((فؤاد أبو حطب وأمال ماذق، 1983)) أن البنية المدرسية ليست مكانا يتم فيه تعلم المهارات الأكاديمية فحسب وإنما هي مجتمع غير يتفاعل فيه الأعضاء ويؤثر بعضهم في بعض، فالعلاقات الاجتماعية بين الطلاب والمعلم والطلاب بعضهم بعضا تؤثر تأثيرا كبيرا في الجو الاجتماعي لحجرة الدراسة وهذا يؤثر بدوره في نواتج التعلم⁽⁴⁰⁾.

ويذكر ((Johnson,1979)) أن للبيئة المدرسية السلبية دلالات تبدو على الطالب التابع لها وهي ممثلة فيما يلي⁽⁴¹⁾:

- 1 - عدم إنجاز ما توكل إليه من أعمال مدرسية
- 2 - الهروب والتغيب المستمر عن المدرسة
- 3 - مستوى منخفض لطموحات الطالب
- 4 - عداء نحو المسؤولين في المدرسة يأخذ شكل رفض التعليم ورفض التعاون في أي عمل متعلق أو مرتب بالمدرسة، ومما لا شك فيه أن كل هذه الدلالات تؤدي إلى الإخفاق سواء بالرسوب المتكرر أو التخلي نهائيا.

إن المعيار الأساسي والوحيد للحكم على التلاميذ إما بالنجاح وإما بالرسوب هو نظام الامتحانات الذي يعتمد على إعطاء التلاميذ درجات، ولقد وجهت اتهامات لنظام التقويم المعمول به في مدارسنا على أنه تقويم غير موضوعي يتأثر بالعديد من العوامل من بينها نظرة الأستاذ للتلميذ وطبيعة العلاقة الموجودة بينهما، حيث تشكل إطارا مرجعيا عند تحيح الأستاذ لأوراق الامتحان، وعلى هذا الأساس فإن ذاتية الأستاذ تتدخل بشكل كبير أثناء عملية التقييم، ويكون التلميذ ضحية، وفي هذا الشأن يقول ((Robert Bazin)): ((لقد قيل لنا بخوص نظام الامتحان والانتقاء المعمول به، بأنه يقوم على الموضوعية، من أجل إعطاء الممتحن الحد الأقصى من الفرص للنجاح. ولكن هذه الموضوعية تستند إلى مبدأ أساسي يمكن أن يماغ في العبارة التالية: ((لكي تقدر الإنسان حق قدره، يجب أولا وقبل كل شيء أن لا يكون بينكما تعارف))⁽⁴²⁾. ويتأثر التقييم بشخصية الأستاذ إلى حد كبير، فالأستاذ المتسل يتشدد في تقييمه للطلاب على عكس الأستاذ الديمقراطي الذي يحاول أن يكون عادلا وعادلا في عملية التقييم، وهناك نصف من الأساتذة يتساهلون إلى حد كبير عند تقييمهم لأوراق الامتحانات، مما يجعل الحكم على التلاميذ غير حقيقي. إن التساؤل حول مدى صلاحية الامتحانات المدرسية كمعيار أساسي في الحكم على نجاح التلميذ أو رسوبهم، قد بدأ مبكرا وهذا منذ سنة 1929 بفضل الأبحاث المتطورة التي قام بها الباحثين الفرنسيين ((PIERON, 1929)) – ((LAUGIER)) والتي أثبتنا من خلالها عدم موضوعية التقييم التقليدي. ولقد قام كل من ((LAUGIER, 1936)) – ((WEINBERG)) بدراسة تربوية معمقة حول نتائج البكالوريا في مختلف المواد الدراسية، وشملت هذه التجربة 100 ورقة لامتحان البكالوريا سحبت بطريقة عشوائية من ديوان البكالوريا لأكاديمية باريس، شملت مواد الرياضيات والفيزياء والإنجليزية واللغة اللاتينية والفرنسية ومادة الفلسفة، وطلب من 6 مـ ححين القيام بعملية التحيح، وفي نهاية التجربة وجد أن هناك تضارب في النقاط بين المـ ححين وبلغ إلى غاية 8-9 نقاط في الرياضيات والفيزياء والإنجليزية و12-13 نقطة في مادة اللغة اللاتينية والفلسفة والفرنسية. ومن هنا تأكد لدى الباحثين عدم دقة المـ ححين في عملية التقييم⁽⁴³⁾.

واستنتج ((PIERON)) من خلال أبحاثه ودراساته في مجال الامتحانات المدرسية أن عملية التقييم مرتبطة بطبيعة المعلومات الخاصة بالتلميذ، والتي تكون معلومة عند الأساتذة أو المـ ححين، هذه المعلومات تؤثر سلبا أو إيجابا. وأن عملية التقييم مرتبطة بشخصية المقيم

ومعايير مرجعية موجودة عند كل مقيم وهي خاصة به، كما أن المقيم ينتظر قول معياري أو نموذجي، وهو ثابت عند جميع المقيمين .

إن الأبحاث التي أجريت في مجال علم التباري وخاصة في فرنسا حيث ظهر وتطور هذا العلم، توالت إلى عدم ملاحية الامتحانات في ورقتها التقليدية للحكم على نجاح أو رسوب التلاميذ، وقد انتقد ((Lobrot, 1968)) نظام الامتحانات حيث طالب بإلغائها لأنها غير مكيفة مع ماهيتها وأهدافها وذلك لأن الامتحان هدفه تكويني لكنه في الواقع حسب ((Lobrot, 1968)) يخدم الطبقة الراقية، والامتحانات في رأيه مبطنة ويتدخل فيها عامل المدفوعة، كما أنها غير دقيقة وتمتاز بالطابع الإجباري المتسلط لأنها تطالب التلميذ بإعادة ما تلقنه عن طريق الحفظ من أجل نقطة، وما يطلب منه يوم الامتحان لا علاقة له بمستقبله الدراسي والمهني⁽⁴⁴⁾.

وتشير بعض الدراسات إلى تأثير أحكام المعلمين وتقديراتهم لطلابهم بالخلفية الاجتماعية والمادية والاجتماعية التي ينحدر منها هؤلاء الطلاب، ومنها دراسة ((نشواي وطحان =، 1977)) وتبين نتائج الدراستين وجود ارتباط إيجابي بين بعض القدرات العقلية وغير العقلية والمستويات الاجتماعية والاقتصادية المادية لأسرة الطالب حيث يميل الكثير من الأساتذة إلى تقييم الطلاب المنحدرين من مستويات اقتصادية واجتماعية عالية على نحو أفضل من تقديرهم للطلاب المنحدرين من مستويات اجتماعية واقتصادية منخفضة⁽⁴⁵⁾.

ويتأثر تقييم تحصيل الطلاب باتجاهات المعلمين نحوهم وذلك طبقاً لجاذبيتهم الجسمانية وشكلهم الخارجي وما يتوقعه المعلمين من طلابهم طبقاً لنظرتهم المسبقة عنهم والتي تتأثر بعوامل عديدة. ولقد اهتم المختصين في مجال التقويم بالبحث في الأساليب المختلفة التي تحقق قدر كبير من الموضوعية والدقة في الحكم على التلاميذ وتحصيلهم الدراسي، واقتروا لأجل ذلك الاختبارات المقننة بالإضافة إلى إمكانية إجراء الاختبارات النفسية والتي تقيس القدرات العقلية والاستعدادات، بالموازاة مع الامتحانات المدرسية التي تقيس التحصيل الدراسي عند التلاميذ، كما اقترحوا إجراءات عملية لتحقيق الدقة والموضوعية ومن بينها التجميع المزدوج لورقة الامتحان من قبل معلمين مختلفين وإذا تجاوز الفرق بين التجميعين حداً معيناً تعطى لمعلم ثالث مع إخفاء أسماء التلاميذ الممتحنين، ورغم ذلك مازالت الانتقادات توجه لنظام التقويم. وتلعب المناهج الدراسية وطرق التعلم السائدة في مدارسنا دوراً كبيراً في

نجاح التلاميذ أو رسوبهم، حيث ينبغي أن تبنى المناهج لتلبية الاحتياجات المختلفة للتلاميذ وإشباعها، ولكن ما نلاحظه الآن في نظامنا التربوي أن تويات البرامج الدراسية بعيدة عن اهتمامات المعلمين وميولاتهم المختلفة وهي بذلك تؤدي إلى عدم إقبال التلاميذ على دراستها ونفورهم منها.

ويرجع المختصين في التربية والتعليم إلى عيوب المدرسة التي يعاني منها التلميذ والتي تؤدي في كثير من الأحيان إلى رسوبهم وفشلهم في الدراسة ((إلى عوامل حية وعقلية وثقافية متعلقة بالتلميذ وإلى اضطرابات في الأسرة أو البنية الاجتماعية التي ينمو فيها الفرد إلى جانب المدرسة والمعلم خاصة ولكننا لا نجد الكثير من الأخوان الذين يرجعون هذه العيوب إلى عملية التوجيه أو إلى التوجيه الغير سليم))⁽⁴⁶⁾.

إن التوجيه المدرسي عملية مبررة وعليها يتوقف مبر التلميذ حيث يتحدد وفقها مستقبله الدراسي والمهني. لذلك فإن أي خطأ في هذه العملية التربوية ينجر عنه العديد من العيوب المدرسية والتي يواجهها التلميذ بعد توجيهه، ويرى ((J-L.LANG)) بأن العيوب الدراسية الناتجة عن توجيه تلميذ إلى تخصص لا يتماشى مع إمكانياته وميوله ورغباته تفوق بكثير تلك التي يكون سببها عوامل جسمانية أو نفسية⁽⁴⁷⁾.

إن العملية السائدة في نظامنا التربوي والتي يطلق عليها لفظ ((توجيه)) هي في حقيقة الأمر عملية توزيع للتلاميذ على مختلف التخصصات والفروع وفقا للتنظيم التربوي للمؤسسات التعليمية ومتطلبات الخريطة المدرسية، ولا يراعى فيها إطلاقا ميول التلاميذ واهتماماتهم وقدراتهم العقلية واستعداداتهم الشخصية، ويعتمد فيها على معدلات التلاميذ في مختلف المواد الدراسية، ورغبتهم المرح بها وهذه العوامل غير كافية للتوجيه الصحيح والسليم، وأساء من هذا أن عملية التوجيه تتم في كثير من الأحيان بطريقة تعسفية تلعب العلاقات الشخصية فيها دورا خطيرا، والتوجيه من هذا النوع يسيء للتلميذ لأنه يؤدي به لا محالة إلى الفشل وعدم النجاح⁽⁴⁸⁾.

ويكون التوجيه المدرسي خاطئا أو ناقصا إذا لم يعتمد على التقنيات والمعايير العلمية العالمية، فالتلميذ عادة ما يجد صعوبة في متابعة الدراسة التي لا يميل إلى منهاجها أو مقرراتها أو التي لا تتفق وقدراته ولذا فإننا نجد بعض التلاميذ الفاشلين في تخصص ما يظهرون تفوقا دراسيا في تخصص آخر بعد إعادة توجيههم⁽⁴⁹⁾.

إن الأخطاء في الاختيار والتوجيه كثيرا ما تؤدي بالفرد إلى الفشل وسوء التوافق، فالتوافق الناجح في الميدان الدراسي أو المهني يتوقف حينئذ على حسن الاختيار والتوجيه، والتوافق الجيد يحدث عندما يكون هناك توفيق بين متطلبات العمل وبين إمكانيات الفرد الجسمية والذهنية والشخصية. فكلما ازدادت درجة التوافق بين الطرفين ازدادت معها درجة تكيف الفرد ونجاحه المهني⁽⁵⁰⁾.

وفي فرنسا قام مجلس النواب الفرنسي سنة 1996 بتة يب لجنة لدراسة أسباب الفشل الدراسي عند الطلاب الجامعيين، حيث شملت الدراسة عددا كبيرا من الجامعات الفرنسية وتبين لدى اللجنة بعد الانتهاء من الدراسة والاستقراء أن أهم أسباب رسوب الطلاب وفشلهم الدراسي ضعف نظام التوجيه والإعلام الدراسي سواء على مستوى التعليم الثانوي أو التعليم الجامعي⁽⁵¹⁾.

كما أجرى كل من ((williamson et bourdin,1965)) دراسة لمعرفة دور الإرشاد والتوجيه في التوافق الدراسي على مجموعتين من الطلاب، الأولى تلقت إرشادا تربويا والثانية لم تتلقى أي إرشاد. وتتبع آثارها كمبل بعد 25 سنة حيث تبين أن الطلاب الذين استفادوا من الإرشاد كانوا أكثر تحملا في دراساتهم العليا، وكانت سنة التخرج على مستوى الليسانس أعلى بمقدار الربع على غير المستفيدين، بالإضافة إلى أن الطلبة المرشدين اظهروا نجاحا أكثر في الدراسات العليا وتحملوا أكبر للدرجات الشرف والامتياز⁽⁵²⁾.

لقد أشارت العديد من البحوث إلى وجود علاقة بين الكفاءة المهنية للمعلم وفعالية التعليم ونجاحه، فالمعلم الذي يتمتع بقدرات عقلية عالية وحيلة معرفية جيدة ولديه القدرة على تحفيز طلابه وإثارة دافعيتهم نحو التعليم والتعلم يساهم بقدر كبير في نجاح العملية التعليمية التعليمية ومن مؤشرات ارتفاع نسبة النجاح والانتقال إلى المستويات الأعلى، وقد لوحظ أن نسبة النجاح في الامتحانات الرسمية كالبكالوريا مثلا مرتفعة في أقسام دراسية ومنخفضة في أقسام دراسية أخرى داخل نفس المؤسسة التعليمية، ويرجعها العديد من المختصين إلى اختلاف الأساتذة الذين يشرفون على هذه الأقسام في كفاءتهم وخبرتهم، ويرتبه إعداد المعلم أكاديميا ومهنيا على نحو إيجابي بفعالية التعليم. فالمعلم المتفوق في مجال تخصصه والمؤهل مهنيا على نحو جيد يغدو أكثر فعالية من المعلم الأقل تفوقا وإعدادا، إذا قيست هذه الفعالية بمستوى تحصيل طلابه، وقد أشار إلى ذلك

(ROSENSHINE, 1971 , Right and Nuthall , 1970) فالمعلمين الأكثر فعالية هم الذين يمتلكون قدرات عقلية تمكنهم من استخدام نشاطات وأساليب متنوعة في التدريس، وقدرة على حل المشكلات ويمتلكون مهارات متميزة في إعداد المادة الدراسية وتنفيذها والمعلومات ذات العلاقة بالنمو والتعلم⁽⁵³⁾، كما يمتاز المعلمين بالفعالية عند اتساع دائرة اهتماماتهم إلى المسائل الاجتماعية والأدبية والفنية، ويمكن القول بأن المعلم الناجح والفعال في التعليم هو ذلك الذي يمتاز بمجموعة من الخائص الانفعالية والعاطفية والتي تساعد على التفاعل الإيجابي مع طلابه داخل الفصول الدراسية والتي تؤدي إلى نجاحهم وتفوقهم في التحصيل ومنها الاتزان والدفء والمودة . ولقد أشارت دراسة (RAYANS, 1960) إلى ((أن ارتباط فعالية التعليم بخائص المعلمين الانفعالية أقوى من ارتباطها بخائصهم المعرفية حيث تبين أن المعلمين الأكثر فعالية، يمتازون بالتسامح تجاه سلوك تلاميذهم ودوافعهم، ويعبرون عن مشاعر ودية حيالهم، ويفضلون استخدام الإجراءات التعليمية غير الموجهة (كالمناقشة والاستنتاج والاستقراء) على الإجراءات الموجهة (كالمحاضرة والتلقين) في تفاعلهم اللفظي، كما يندون لتلاميذهم ويتقبلون أفكارهم ويشجعونهم على المساهمة في النشاطات اللفظية المختلفة))⁽⁵⁴⁾. وكل هذا يؤدي إلى تحسين النتائج الدراسية وإلى النجاح.

إن تدني الظروف البيداغوجية بالمؤسسات التعليمية يسهم إلى حد كبير في ارتفاع حجم الرسوب، ويمكننا هنا أن نشير إلى أهمية البرامج التعليمية والمضامين ومدى تكفلها بحاجة المتدربين وملامتها لعالم الشغل، بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بالتكوين القاعدي للأستاذ والعناية به اجتماعيا وتربويا واقتصاديا. والاهتمام بالمؤسسة التعليمية من حيث قربها من المتدربين وتنظيم الحياة المدرسية من حيث النشاطات الرياضية والثقافية والترفيهية وتنظيم حجم الأفواج التربوية، وينبغي الاهتمام بمراجعة أساليب التقويم والامتحانات واستغلال نتائجها من أجل الارتقاء بالتلميذ، وينبغي كذلك أن نشير إلى أهمية التوجيه والإرشاد والإعلام في التوافق الدراسي للتلميذ ونجاحه دراسيا وكذلك مهنيًا.

2 - الإجراءات والطرق العلاجية لظاهرة الرسوب المدرسي.

إن الرسوب المدرسي من الظواهر التربوية التي تتحكم فيها عوامل متعددة ومتشعبة، وبالنظر إلى التفسيرات التي أعطيناها سابقا لظاهرة الرسوب حسب ثلاثة اتجاهات مختلفة، حيث نجد أن الاتجاه النفسي اهتم بالعوامل النفسية والعقلية والشخصية للمتعلم، بينما اهتم

الاتجاه السوسولوجي بالإطار الآفة مادي والاجتماعي وخاء الأسرة ودور الأولياء والوظيفة الاجتماعية للمدرسة، وأخيرا نجد الاتجاه البيداغوجي الذي اهتم بدور النظام التربوي والعوامل المرتبطة بـه تسيير وتنظيم المؤسسة التعليمية. وعلى هذا الأساس فان الطرق والإجراءات العلاجية التي من شأنها أن تساهم في التقليل من حجم الرسوب ينبغي أن تكون متطابقة مع التفسيرات السابقة للعوامل المؤدية إلى هذه الظاهرة، ويعرف التعليم العلاجي على ((أنه مجموعة من الجهود والإجراءات التربوية يقوم بها مختون داخل عبادة تربوية من اجل الارتقاء بالمستوى التحليلي والأداء النفسي للفئات التالية من الطلاب: أ- من يعانون من عيوب التعلم. ب- المعوقين. ج- ذوي المستوى التحليلي العادي. هـ- المتفوقين عقليا والموهوبين

ويتم تنفيذ تلك الجهود التربوية أساسا بـ ورة فردية أو في إطار مجموعات غيرية من الطلاب))⁽⁵⁵⁾.

ومن هنا يمكن القول أن التعليم العلاجي يفيد في علاج عيوب التعلم حيث يمكن التخفيف منها أو التخفيف من آثارها على مستوى التحليل الدراسي، كما يساهم التعليم العلاجي في التخفيف من الآثار السلبية للإعاقة على التحليل الدراسي، ويساعد ذوو المستوى التحليلي العادي على الارتقاء بمستواهم الدراسي والتفوق والنجاح، أما المتفوقون عقليا والموهوبين فغالبا ما تكون لهم مشكلات مدرسية نابعة من عدم تحملهم للمقررات الدراسية التي لا تتحدى قدراتهم وطاقاتهم العقلية أو عدم قدرتهم على تحليل مواد تتطلب قدرات عقلية خاصة قد لا تتوافر لهم رغم تفوقهم في نواحي أخرى، ويمكن للتعليم العلاجي أن يساعدهم في حل المشكلات النفسية الناتجة عن توتر علاقاتهم بزملائهم بسبب عوامل الغيرية أو عدم التقبل⁽⁵⁶⁾.

أ- الطرق التربوية العلاجية:

والملحوظ منها مجموعة الطرق والإجراءات والجهود التربوية التي يقوم بها المعلم لمواجهة التأخر الدراسي و عيوب التعلم في مادة دراسية ما عند تلميذ معين له خصائصه الذاتية وظروفه البيئية ومن ثم غالبا ما تقترن ببرنامج للعلاج النفسي والاجتماعي أو الإرشاد النفسي والاجتماعي والتربوي ويمكننا في هذا الإطار أن نستعمل الطرق التالية:

– التربية الفارقية أو التعليم المكيف: وهذا النوع من التعليم يعتبر طريقة علاجية لفئة التلاميذ الذين يعانون من تأخر دراسي عميق أو عيوب في التعلم أو التلاميذ بطيئي التعلم أو التلاميذ الذين يعانون من ضعف عقلي بسيط. ومن الضروري هنا أن نفرق بين هذه المفاهيم رغم أن نتيجتها واحدة وتتمثل في إعاقة التلميذ عن التحصيل الدراسي وتؤدي بهم إلى الفشل سواء بالرسوب أو التسرب.

ويهدف هذا النوع من التعليم إلى تقديم الخبرة التربوية المناسبة لكل تلميذ حسب قدراته وميوله وسماته وشخصيته وظروفه الخاصة وخبراته السابقة، والتلاميذ الذين يستفيدون من التعليم المكيف يتميزون بخائص عديدة، وهذه الخصائص تختلف من فرد إلى آخر لذلك فإن البرامج التربوية الموجهة لهم وطرق تدريسها يجب أن تأخذ في الحسبان الفروق الفردية بينهم، ويجب أن يكون هذا النوع من التعليم العلاجي مكثفا وظيفيا وينصب على مواد التعلم كالقراءة والكتابة والحساب، وعلى المفاهيم الأساسية التي يبنى عليها تعليم هذه المواد وكلما تمكن التلميذ من التعلم دون عوائق وحسن أدائه التحصيل يلمى يعاد إدماجه في الأقسام التعليمية العادية. وعموما فإن اعتماد التربية الفارقية كوسيلة علاجية يمر بثلاثة مراحل وهي:

- مرحلة الاستكشاف: وفي هذه المرحلة يلعب المعلم دورا بارزا ويجب أن يكون قادرا على ملاحظة عيوب التحصيل المدرسي التي يعاني منها التلميذ وتشخيصها جيدا، كما يمكن للأولياء تقديم معلومات مفيدة حول سلوك الأبناء في الوسط العائلي، ويشترك في عملية استكشاف التلاميذ الذين هم بحاجة إلى تعليم مكيف بالإضافة إلى المعلم والأولياء كل من الأخواني النفساني باستعمال الروايات والاختبارات النفسية المناسبة وطبيب المدرسة المدرسية بإجراء المعاينات الطبية الضرورية.

- مرحلة المتابعة: بعد اكتشاف التلاميذ ذوي الحاجات الخاصة يتم وضعهم في أفواج غيرة حسب الحالات المشخصة، ويخضعون لبرنامج دراسي مكثف وموجه حسب كل حالة، وعادة ما يكون هذا البرنامج في المواد الأساسية القراءة والكتابة والحساب، ويستعمل فيه وسائل تعليمية خاصة.

• مرحلة الإدماج : عندما يلاحظ المعلم أن التلميذ قد تمكن من المهارات الأساسية في التعلم، وأن قدرته على الفهم والتحكم قد تحسنت، يعاد إدماجه من جديد مع أقرانه في المستوى الدراسي المناسب حيث يكون قادراً على مواصلة مساره الدراسي بصفة عادية.

إن التعليم العلاجي الذي يقدم للتلاميذ قد مد مساعدهم على التحكم في الدراسي الجيد وبالتالي النجاح يتخذ أساليب متعددة بالنظر إلى طبيعة المصوبات التي يتلقاها التلميذ، والنتيجة أحياناً من مصوبات ثنائية في العمليات العقلية أو النفسية المستولة عن التعلم، وأحياناً مصوبات دراسية وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة استراتيجيات من التعلم العلاجي وهي (57):

أ - أسلوب التعليم القائم على تحليل المهمة التعليمية أو التدريسية.

ب - أسلوب التعليم القائم على العمليات العقلية أو النفسية.

ج - أسلوب التعليم القائم على الجمع بين تحليل المهمة التعليمية والعمليات النفسية أو العقلية.

- التعليم التعويضي: وهو برنامج تعليمي يعود في الأساس إلى اعتبار التأخر الدراسي يعود في غالب الأحيان إلى الحرمان الاجتماعي والفقر والتخلف الاقتصادي ونقص الفرص التعليمية في المناطق الفقيرة في المدن والأحياء الشعبية والقرى ريفية، وكذلك المناطق الريفية والأقليات المحرومة وتتضمن البرامج التعليمية الموجهة لهم (58):

- علاج المشكلات الأكاديمية للتلاميذ حتى لا تعوق تقدمهم الدراسي في مراحل التعليم التالية.

- تقديم تعليم مهني وخبرات عمل للتلاميذ في سياق غير أكاديمي.

- تقديم برنامج تعليمي مكثف للأطفال غير القادرين من الناحية المادية ولهم إمكانيات عقلية واعدة ومساعدة أولياء أمورهم.

- بيداغوجية الدعم: ويقدم هذا النوع من العلاج البيداغوجي في شكل ح استدرائية داخل الفصول الدراسية، ويح لها التوقيت المناسب ضمن التوقيت الأسبوعي للقسم. كما يمكن إدراج الح الاستدرائية عند وجود فراغ داخل التوقيت الأسبوعي، وتهدف إلى معالجة النقص المشخصة لدى التلاميذ في مختلف المستويات ومعالجة بعض

أشكال التأخر الدراسي كتخلف التلميذ في مادة بعينها دون باقي المواد، أو التأخر الدراسي الموقفي الذي يرتب بمواقف معينة حيث يقل تحبيل التلميذ عن مستوى قدرته نتيجة مروره بخبرات سيئة مثل وفاة أحد أفراد الأسرة أو تكرار مرات الرسوب أو المرور بخبرات انفعالية مؤلمة⁽⁵⁹⁾. ويرى ملاح عمارة وآخرون بان الطفل المتأخر دراسيا هو ((ذلك الطفل الذي لا يساير أقرانه في التحبيل الدراسي، ويرسب في أكثر من مادتين دراسيتين كما ينفه معلموه أيضا بأنه متأخر دراسيا))⁽⁶⁰⁾. وهناك ثلاثة أنواع من التأخر الدراسي: فهناك تأخر دراسي عام أي في جميع المواد الدراسية وهناك تأخر دراسي طائفي، أي في مجموعة مواد ترتب بمجال دراسي معين (رياضيات، علوم، أدبيات، لغات... الخ) وهناك تأخر دراسي في مادة أو في مقرر معين.

وتهدف بيداغوجية الدعم إلى علاج التأخر الدراسي في مادة أو بعض المواد من خلال الاستدراك الذي يعتبر عملية تربوية وبيداغوجية ذات طابع علاجي فردي، تهدف إلى تدليل المصوبات المشخصة لدى بعض التلاميذ ومعالجة الثغرات الطارئة في دراستهم نتيجة حالات ظرفية مروا بها، وهي ضرورة لمعالجة النقائص عند بعض التلاميذ وتمكينهم من الالتحاق بمستوى زملائهم و الاستدراك لا تنظم لتلاميذ القسم كله وإنما حسب الحاجة التربوية الملحة وللمجموعات من التلاميذ يتشابه ملمح نقائصهم المشخصة ويتراوح عددهم في كل مجموعة ما بين 5 و10 تلاميذ⁽⁶¹⁾. ويعتبر الأستاذ المشخص الأول لمواطن الضعف والكاشف عن النقائص، ولهذا فهو الذي يحدد التلاميذ المحتاجين للدعم والاستدراك التي تقدم في شكل مراجعات وتمارين تطبيقية ومذاكرة موصة و ماضرات، وليس على شكل دروس عادية. ولقد حققت بيداغوجية الدعم نجاحا باهرا في الارتقاء بمستوى التلاميذ وتحسين مستواهم في المواد التي يعانون من مصوبة فهمها واستيعابها وبالتالي فهي طريقة بيداغوجية فعالة لمحاربة الرسوب والوصول بالتلميذ إلى المستوى الذي يحقق من خلاله النجاح والارتقاء إلى المستويات العليا.

وقد اقترح (LIEBERMAN, 1980) بعض البدائل لتمكين الطلبة الراسبين من تجنب الفشل وتحقيق النجاح وذلك بوضع مرحلة انتقالية بين الفل الذي رسب فيه الطالب وبين الفل الذي ينبغي أن ينتقل إليه، وفي هذا الفل يدرس الطلبة مواد مستقلة لا هي من مواد الفل السابق أو اللاحق ويتم التركيز في هذا الفل على الانتقال على المواد التي

اخفق الطلاب فيها، كما يعد الطلبة للمواد المستقبلية التي سوف يدرسونها في الف لل
اللاحق وهذا الاقتراح لم يجد تشجيعا من قبل التربويين إذ أنه ليس من العدل أن يدرس
الطالب لمدة سنة كاملة للتقوية في مواد معينة وهذا يعني ضرورة إعادة النظام المدرسي، ثم إن
الطالب الذي درس في هذه المرحلة الانتقالية إن ح التعبير سوف يكون متفوقا على أقرانه
وتطرح بعد ذلك مشكلة أخرى وهي عدم التجانس بين الطلاب⁽⁶²⁾.

خاتمة

إن الرسوب مشكلة تربوية، اقته مادية واجتماعية، ونفسية أيضا، ومهما كان السبب
في الرسوب والإعادة فإن أغلب التربويين اجمعوا على أنه ليس هناك حل جذري ونهائي لهذه
المشكلة التربوية المتعددة الأبعاد والجذور، فالعلاج يتطلب إعادة تقويم النظام التربوي ككل
من خلال الأهداف وإمكانية تحقيقها وطبيعة المناهج ومدى مناسبتها وطرق وأساليب
التدريس وأساليب التقويم المتبعة. كذلك دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية ذات
التأثير المباشر على النظام التربوي والتلميذ. بالإضافة إلى دراسة العلاقة بين المدرسة
ومؤسسات المجتمع والحوافز التي تقدمها الدولة للمتعلمين لتحديد جوانب القور والعمل
على التوصل لحل المشكلة.

الهوامش:

- 1- سميرة احمد السيد، علم اجتماع التربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1998. ص184.
- 2- عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الهابس، الرسوب وعلاقته بتتحيل الطلاب، حولية كلية التربية، جامعة قطر، العدد 16، 2000، ص 109.
- 3- عبد المجيد نشواني، علم النفس التربوي، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط3، 1996، ص ص 116-117.
- 4- عبد المجيد نشواني، المرجع السابق، ص 120.
- 5- عبد المجيد نشواني، المرجع السابق، ص 123.
- 6- عبد المجيد نشواني، المرجع السابق، ص 126.
- 7- عبد المجيد نشواني، المرجع السابق، ص 132.
- 8- أندريه لوغال، التخلف المدرسي، ترجمة أيمن الأعسر إمام، منشورات عويدات بيروت، 1982، ص 11.
- 9- محمد أحمد، أحمد عودة، التكيف وعلاقته بالتحليل الدراسي - دراسة ميدانية لدى طالبات تربية الطفل، مجلة جامعة دمشق للعلوم التربوية، المجلد 20، العدد 02، 2001.
- 10- تغريد السيد، مدى شيوع عيوب التعلم الأكاديمية لدى المتفوقين عقليا بين تلاميذ الصف الثاني المتوسط بدولة الكويت ((دراسة استكشافية))، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخليج العربي، البحرين، 2003.
- 11- وزارة التربية الوطنية، الكتاب السنوي 2001، المركز الوطني للوثائق التربوية، الجزائر، ديسمبر 2001، ص.ص 135-136.
- 12 - dev, p.c . intrinsic motivation and academic achievement ,what does their Relationship imply for the classroom teacher ? remedial and special education, 18(1), 1997.pp.12-19.
- 13- قطامي يوسف، وعدس عبد الرحمن، علم النفس العام، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، 2002.
- 14- Petri, H ;and govern , j.motivation : theory ,research and application .Thomson-wads worth , Australia . 2004.
- 51- كاميليا عبد الفتاح، استبيان مستوى الطموح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1975. ص 07.
- 16 - lei y , and Seligman , M.preventing depressive symptoms in Chinese children , prevention and treatment , 5.may, 2002, pp . 1-36.
- 17- روجيه غال، علم النفس الطفولة والمراهقة، إشراف مورييس دوبيس ترجمة حافظ الجمالي، دمشق، 1965، ص 385.
- 18 - عمر عبد الرحيم زهر الله، تدني مستوى التحصيل والانجاز المدرسي . أسبابه وعلاجه، عمان، الأردن، دار وائل للنشر، 2004.
- 19- B. Pissarro . difficulté intellectuelle et l'échec scolaire , ES.AMS , doin édition , 1980 , page 40.
- 20- Francine Best , l'échec scolaire , puf , Paris , 2e édition , 1999 , P 9
- 21- P.BOURDIEU- J.-G.PASSRON, les héritiers , les étudiants et la culture ,édition de minuit , 1994.

- 22- محمد بن معجب الحامد، التحليل الدراسي دراساته، نظرياته..الدار الوطنية للتربية، 1996، ص 74.75.
- 23- حنفي عوض، علم الاجتماع التربوي، مكتبة آية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، 1998، ص 244.
- 24- محمد بن معجب الحامد، مرجع سابق، ص 77.
- 25- حنفي عوض، مرجع سابق، ص 176.
- 26- إيدجار فور، تعلم لتكون، ترجمة حنفي بن عيسى، اليونسكو/الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ط2، 1976، ص 124.
- 27- إيدجار فور، المرجع السابق، ص 124 .
- 28- حسن البيلاوي، طيبولوجي مقترح لنسب نظريات علم اجتماع التربية المعاصرة، مجلة دراسات تربوية، المجلد الأول - الجزء الرابع - سبتمبر 1986، ص.ص 194-231.
- 29- محمد بن معجب الحامد، مرجع سابق، ص.ص 64-65 .
- 30- BAZIL BERNSTEIN , langage et classes sociales: codes sociolinguistique et contrôle social , édition de minuit , paris , 1975 , p30.
- 31- إيدجار فور، تعلم لتكون، ترجمة حنفي بن عيسى، اليونسكو/الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ط2، 1976، ص 124.
- 32- lautry,j. classe social, milieu familial, intelligence , Paris, puf ,1980.
- 33 - Christophe jenks, influence de la famille et de l'école en Amérique, paris, puf, 1977, p145.
- 34 - professeur pissaro – Difficultés intellectuelles et échec scolaire. E.S.A.M.S, Doin , Paris ,1980, p43.
- 35- إبراهيم ناو، علاقة التحليل المدرسي ومهنة ولي الأمر بتدريس الطلبة في الجامعة - دراسة ميدانية، رسالة الخليج العربي، السنة الثانية، العدد الخامس، 1982.
- 36- م. طفي درويش، ديمقراطية التعليم الجامعي، دراسة ميدانية، الإسكندرية، مطابع رويال، 1978، ص 65.
- 37- محمد بن معجب الحامد، مرجع سابق، ص 79.
- 38- رشدي عبده حنين، بحوث ودراسات في المراهقة، دار المطبوعات الجديدة، م. ر. 1983.
- 39- عبد المجيد نشواني، علم النفس التربوي، مرجع سابق، ص 479.
- 40- فؤاد أبو حطب، آمال، ماذق، علم النفس التربوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص 505.
- 41- عبد الله بن طه الياقوت، المناخ المدرسي وعلاقته بدافعية الإنجاز ومستوى الطموح، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، العدد 76 .
- 42- إيدجار فور، تعلم لتكون، مرجع سابق، ص 129.
- 43 - HENRI PIERON, Examens ET docimologie, 2 édition, P.U.F, 1969, pp16-24.
- 44-Lobrot) m(, Pourquoi des examens , recueil d'études publiées aux éditions rationalistes , paris , 1968.

- 45- عبد المجيد نشواتي، علم النفس التربوي، مرجع سابق، ص 255.
- 46- عبد المجيد سرحان، المناهج المعاصرة، مكتبة الفلاح، الكويت، ط4، 1983، ص 74.
- 47- jean louis lang , l'enfance inadaptée , P.U.F , paris, 1976, p85.
- 48- مقدم عبد الحفيظ، دور التوجيه والإرشاد في الاختيار والتوافق الدراسي والمهني، المجلة الجزائرية للتربية، السنة الأولى، العدد الأول، ص 57.
- 49- بركان محمد ارزقي، المناهج الدراسية وعلاقتها بالتسرب المدرسي، مرجع سابق، ص 114.
- 50- مقدم عبد الحفيظ، دور التوجيه والإرشاد في الاختيار والتوافق الدراسي والمهني، مرجع سابق، ص 58.
- 51- A. Gouteron. J.Berdanaux . J.P . Gamoin . s'orienter pour mieux réussir , SENAT, mission sur l'information et l'orientation des étudiants des premiers cycles universitaires . rapport 81 – 1996/1997.
- 52- عبد الحفيظ مقدم، دور التوجيه والإرشاد في الاختيار والتوافق الدراسي والمهني، مرجع سابق، ص 59.
- 53- عبد المجيد نشواتي، علم النفس التربوي، مرجع سابق، ص 234.
- 54- عبد المجيد نشواتي، علم النفس التربوي، مرجع سابق، ص 237.
- 55- نبيل عبد الفتاح حافظ، عيوب التعلم والتعليم العلاجي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ص 161.
- 56- عبد المطلب القرطبي، المتفوقون عقليا مشكلاتهم الأسرية والمدرسية ودور الخدمة النفسية ورعايتهم، رسالة الخليج العربي، مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، العدد 28، السنة 9، الرياض، ص 29-58.
- 57- نبيل عبد الفتاح حافظ، عيوب التعلم والتعليم العلاجي، مرجع سابق، ص 166-167.
- 58- فؤاد أبو حطب آمال، ادق، علم النفس التربوي، مرجع سابق.
- 59- عبد الرحمن سيد سليمان، سيكولوجية ذوي الحاجات الخاصة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة 1999، ص 138.
- 60- المرجع السابق، ص 146.
- 61- وزارة التربية الوطنية، منشور رقم 98.118.53. المؤرخ في 27 أكتوبر 1998، والمتعلق بح الاستدراك والدعم .
- 62- عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الهابس، الرسوب وعلاقته بتتحيل الطلاب، مرجع سابق، ص 127.

ملح التحول الاجتماعي في الجزائر المعاصرة

منصوري مختار

قسم علم الاجتماع

جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان

مقدمة

إن التحول يتم دوما بالتخلص من بعض القيود أو السلوك أو القيم والمبادئ أو غير ذلك من الأشياء التي يرى فيها المجتمع مكبلا حقيقيا لنموه الطبيعي، أو عائقا أمام تطوره أو تلخسه من مشكلة ما، فالحياة كما أشار إلى ذلك "برغسون" هي صيرورة لا تتضمن في ذاتها أية إعادة أو تكرار، ونتيجة لهذا فإن التنبؤ يصبح أمرا ممتعا¹، لأن وجود تحول بنفس المقاييس والاعتبارات أمر مستبعد خصوصا مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية التي ينعدم في وقوعها مبدأ الآلية، لأن المظاهر الروحية والذكاء الاجتماعي وتفاعل المؤثرات المختلفة يجعل من التحول الاجتماعي رهين قوة تأثير أسباب التحول وقابلية المجتمع ككل في ذلك.

والتحول الاجتماعي هو مجموع التغيرات المتتالية التي تطرأ على مظاهر الحياة الاجتماعية والسلوك الاجتماعي لمجتمع ما، في فترة مددة، وتؤثر هذه التغيرات بشكل مباشر في التنظيم والبناء الاجتماعي، وتكون عملية التحول مرتبطة بالجمال الاجتماعي أساسا رغم امتداد تأثيرها في الجوانب الثقافية والاقتصادية وغيرها من الجوانب، ويكون التحول في بنية أو تنظيم المجتمع أو وظائف البنى والنظم الاجتماعية، وتساهم في عملية التحول الاجتماعي تغيرات كثيرة على مستوى القوانين والنظم السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

والجزائر كغيرها من البلدان في العالم شهدت تغيرات وتحولات على مر التاريخ، وعرف المجتمع الجزائري تحولات ملحوظة في جوانب متعددة، ولعل أهم هذه التحولات في السنين الماضية تتعلق بتلك الناجمة عن إقرار التعددية السياسية والمسار الديمقراطي في البلاد، حيث كان لهذه الأحداث أثر مباشر على الحياة الاجتماعية.

ومن ذلك يمكن أن تطرح الإشكالية الآتية: كيف ساهم إقرار التعددية السياسية في الجزائر في تحول المجتمع الجزائري؟.

قد يكون ما عاشه المجتمع الجزائري من تغير وتحول في مجال العمل والدخل ووظائف الأسرة وبنيتها والمستوى المعيشي وغيرها من الجوانب، ناجم عن تأثير سياسات التنمية والإنعاش والإصلاح التي تلت تطبيق التعددية السياسية والممارسة الديمقراطية، من خلال بنود دستور 1989،² كما يمكن أن تلعب المؤثرات المختلفة الناتجة عن النمو الطبيعي للمجتمع دورها في عمليات التغير والتحول، وعلى ذلك يمكن طرح تساؤلات متنوعة تصب كلها في باب واحد، ويتعلق بتبرير عمليات التحول الاجتماعي والبحث عن الأسباب الحقيقية لها.

مفهوم التحول:

وقبل التطرق إلى ملامح التحول من المهم الاطلاع على مفهومه والمتغيرات التي تحكمه، وفي هذا المجال قال الفيلسوف اليوناني هيراقليدس أن "التغير قانون الوجود والاستقرار موت وعدم" وعبر عن التغير في قوله الشهير " إنك لا تنزل البحر مرتين فإن مياهها جديدة تجري من حولك أبدا"، والتغير الاجتماعي هو كل تحول يحدث في النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية مددة³، وأي تغير يحدث إلا ويؤدي إلى تغيرات فرعية بمستويات مختلفة في جوانب الحياة الأخرى.

وتغيير الأوضاع هو من فعل الإنسان، ولا يوجد ما هو أبلغ من قوله تعالى {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم}⁴، ومن ذلك فالتغير والتحول يحتمل اتجاهين: الأول إيجابي بتحسين الحال، والثاني سلبي ويتعلق بالتحول من الصلاح إلى الفساد، وتتسبب فيه عوامل متعددة تدفع إلى تحقيقه، منها: بيئية، إيديولوجية، اقتصادية، ثقافية، الثورات والحروب، العوامل الديموغرافية، العوامل التكنولوجية، عنف النظم السياسية، الاستبداد، الطبقة، انعدام التنمية، الأزمات، الاتصال بالعالم الخارجي، تعارض واصطدام الواقع مع تطلعات الجماهير⁵.

وفي هذا الجانب أشار 'روبرت بارك' إلى أن التغير الاجتماعي يتعرض له كل شيء، وأي شكل من أشكال التغير ينتج عنه تحول يمكن قياسه، ويقوم التحول بتحطيم العادات التي يقوم عليها التنظيم، فكل فكرة جديدة أو اختراع واكتشاف تعتبر شيئا مزعجا ومقلقا،

وأى شيء يجعل الحياة أكثر جاذبية وتشويقاً يعتبر خطراً على النظام القائم، فالتفكك الاجتماعي يعني أن ما تم بناءه من مراكز وأدوار لا تعمل كما ينبغي لتحقيق أهدافه، فالتفكك يحطم البناء التنظيمي، ويضعف تأثير المعايير الاجتماعية على الأفراد والجماعات المعنية، ويمكن حسب 'مرتون' أن تعطينا عمليات التغير والتحول الاجتماعي دافعا للتفكك الاجتماعي، وذلك بخلق للقيم والمكانات المتصارعة والتنشئة الاجتماعية الخائنة والاتصال الزائف الذي ينجم عنه تنافس بين العادات الملية وقانون الدولة وبين الدين والدولة، وظروف التغير والتحول الاجتماعي المعاصر تتطلب إعادة التنشئة بسرعة حتى لا يتعرض الأفراد والجماعات للتفكك والانحيار، بينما ينتج التفكك حسب 'وليام أجبرن' من عدم تساوي نتائج التغير، ويمكن تسمية ذلك بالتخلف الثقافي الذي يعني أن الأجزاء المختلفة للثقافة لا تتغير بنفس الدرجة، فبعض الأشياء لا تتغير بنفس الدرجة والسرعة، وهو ما يفسر بطي عمليات التحول في بعض المظاهر والممارسات والنظم الثقافية والاجتماعية، كما أن الصدام الثقافي ينتج من تعارض رق الحياة التي تعتمد على ما تنتجه الثقافة أو ما تقتنسه الشعوب من تكنولوجيا وأنظمة لتساهم في عمليات التغير، مع ماولات التكيف أو الاختراع التي تبني أفكاراً مغايراً⁶.

في حين خلص 'كلود ليفي ستروس' إلى أن الرؤى التطورية والوظيفية التي أشار إليها ماركس لا زالت تثير جانباً من الجدل، حيث يفيد ماركس بأن البنيات الفوقية والتحتية في المجتمع تشتمل على مستويات عديدة، وأن هناك أنماط شتى من التحولات التي تحدث عند الانتقال من مستوى إلى آخر، ومن ذلك يمكن التمييز بين أنواع من المجتمعات حسب قوانين التحول، كما يمكن الانتقال بطريق التحول من البنية الاقتصادية إلى البنية القانونية أو إلى بنية الفن أو الدين⁷، على أن لا يكون هذا التحول ميكانيكي، وعلى ذلك فإن التحول من المنظور الأنثروبولوجي هو بمثابة الحتمية التي تخضع لقوانين المجتمع، حيث تلعب مكوناته وخصائصه وأوضاعه الدور الفاعل في تحقيقه وضبط مساره واتجاهه، فالتحول من المجتمع الديني إلى المجتمع القانوني لا يتم مباشرة بل يتخذ أوجهاً متعددة حتى يستقر على الوجه النهائي، كما أن مكونات المجتمع تشترك في تحقيق التحول الذي يعد مطلباً أساسياً في تلبية الحاجات المختلفة، ونجد أن الأسرة مثلاً تعتبر مصدراً مهماً لتلبية حاجات الأفراد، ومن ذلك الحاجات النفسية والاجتماعية، كما تبرز العلاقة واضحة بين الأسرة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى لتلبية هذه الحاجات وإشباعها⁸.

ويقترن التحول بمفاهيم عديدة، منها التبدل والتطور والتحديث، وهناك كثير من الباحثين في الحقول الاجتماعية يستعملون التحول الاجتماعي للتعبير عن التغير الاجتماعي، مثل "عدلي عبد الله قحطان" في كتابه "في التغير الاجتماعي"، حيث يطرق موضوع التغير على أنه تحول، وذلك في موضوع تحول المجتمعات من الشكل البسيط إلى الشكل المعقد، كما أنه يعرض فكرة التطور الاجتماعي وفق افتراضين، الأول: يفسر التطور الاجتماعي على أنه مستمر مثله مثل التطور البيولوجي⁹، في حين أن التطور البيولوجي يقوم على تغيرات متعددة في الملامح والشكل والوزن والأجهزة، تؤدي مجتمعة إلى تحول في قدرة الكائن الحي ووظائفه، فمرحلة الولادة تحمل صفات وخصائص مددة، تتغير ليتحول الكائن الحي إلى مهام ووظائف مغايرة للتي كان يقوم بها تبعاً لنوع التغير ومستواه ودرجته، والثاني: أن ميكانيزمات التطور الاجتماعي هي نفسها ميكانيزمات التطور البيولوجي، وتتحول المجتمعات من الطابع التقليدي إلى المعقد، كما يشير إلى ذلك "دور كايم" في تقسيم العمل الاجتماعي، ومن خصائص تحول المجتمع من البدائية إلى التعقيد هو انتقال المجتمعات من الطابع البدائي الذي يندر فيه تقسيم العمل إلى الطابع المعقد القائم على تخصيص وتقاسم الأعمال.

وفي مجال آخر وفي نهاية القرن الثامن عشر ميز 'ك. بيشر' 'K. Bucher' في دراساته لتاريخ الاقتصاد السياسي وتحوله مجالات متنوعة من البنى الاقتصادية المميزة للمجتمعات أثناء تحولها من وضع إلى آخر، ومنها الاقتصاد المنزلي المغلق، الاقتصاد المدني المتعلق بالمدينة، ثم الاقتصاد الوحي الذي يمثل قاعدة للاقتصاد العالمي، وفي كل مرحلة من مراحل تحول النمو الاقتصادي وتطوره هناك تقسيم خاص للعمل يميز كل نوع عن الآخر. كما أن التحول في مجال الحقوق والقوانين انتقل من تحديد الشروط الفردية إلى علاقة التعاقد، ومن المسؤولية الجماعية إلى المسؤولية الفردية، ومن التأثير الفردي إلى التأثير الجماعي، ومن قانون الفرد إلى اجتماعية القانون، والتحول في التنظيم السياسي من سلطة العائلة إلى سلطة الدولة، ومن الحكم الانتقالي والمؤقت إلى جهاز الحكم المستقر والدائم، من الدين إلى العادات، كما أسهب 'دوركايم' 'Durkheim' 1893 في الحديث عن تأثير عمليات النمو والتحول في مجال تقسيم العمل على المجتمع¹⁰، في حين ركز 'ف. باريتو' 'V. Pareto' على إعادة إنتاج النماذج الاجتماعية في عملية التحول بوجه مغاير وذلك في تحول الحكم وأنظمتها، إذ يمكن للصفوة والجماعات الضاغطة والحركات الاجتماعية أن تؤدي دورها في توجيه الحكم، لكن الصفوة أو النخبة المتكونة من مجموعة أشخاص هي التي تسير وتقرر

نموذجه سواء تعلق الأمر بالحكم الديمقراطي أو الحكم الأرستقراطي، والتحول في نظام الحكم إنما يقوم أساسا في الأنظمة المتباينة على حركة الصفوة وتغير شكل و ريقعة وهيكل ممارستها للحكم¹¹، بينما تقر نظرية المجتمع الجموعي ل سيامن ملفين بثلاثة عناصر هامة في عملية التحول، انطلاقا من الاعتقاد بأن المجتمع القديم كانت له تأثيرات قوية وهدامة، وتحدد كما يلي: 1- ربط الوصف التاريخي الموجه للبناء الاجتماعي المعاصر في تفسير التحول والتغير، 2- التأكيد على التأثيرات النفسية لهذا البناء، 3- التنبؤ بالسلوك الفردي الناتج عن ذلك، وهي عبارة عن افتراضات يمكن اختبارها من خلال متغيرات متشابهة تقوم على ربط العناصر السابقة بعضها ببعض، ورغم نقائص وعيوب هذه النظرية إلا أنها ذات فائدة في فهم التحول والتغير، فمن الناحية التاريخية هناك اتجاهات للتغير هي: - انخيار القرباة كمعيار هام للمكان واتخاذ القرار والزيادة المستمرة في عدم ذكر اسم العائلة أو لقبها في العلاقات الشخصية، - انخيار الأشكال الاجتماعية التقليدية وظهور الأشكال الدنيوية والعقلانية.

عوامله:

أشارت بعض الدراسات في المجتمعات العربية أن عمليات التحول في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها من المجالات كان لها أثرها على الجانب الاجتماعي، حيث أدت عمليات التحديث والتطور إلى انحسار النمط الممتد للأسرة العربية في المجتمعات الرعوية والزراعية، بفعل البيئة الصناعية والحياة الحضرية، حيث تظهر الأسرة النووية كنمط سائد في المجتمع الصناعي الذي يجعل من الأسرة الممتدة أمرا صعبا بل مستحيلا في ضل الأوضاع الجديدة، كما تشير إلى ذلك دراسة قامت بها كنزة العلوي المراني حول الأسرة المغربية، حيث ذكرت في مقالها أن الأسرة المغربية متحولة ومتغيرة نظم أنواعا من الأسر الممتدة، والنووية، وأخرى تمثل بقايا الأسرة الممتدة والنووية، والنووية الديمقراطية، وأشكالا أخرى يصعب تسميتها¹².

وتتعدد أسباب التحول الاجتماعي لأن التقلبات السياسية والاقتصادية والأمنية وغيرها تؤدي إلى نتائج مباشرة على البنية والتنظيم الاجتماعي، ولعل أكثرها تأثيرا في عملية التحول ترتبط بالحروب والاضطرابات الأمنية، والتي تفرز واقعا اجتماعيا جديدا تحتل فيه العلاقات وتضطرب المكانات والأدوار ويضعف التنظيم ويتغير البناء الاجتماعي، كما تؤدي الهجرة إلى اختلال التركيب السكاني وتحتل بموجبه عمليات التنمية والنشاط والاستقرار

الاجتماعي، وذلك ما شهدته الجزائر خلال موجة العنف المسلح الذي نجم عنه هجرة سكان الأرياف والقرى إلى المدن التي اكتظت بالسكان، ما جعل برامج التنمية تتغير بناء على الواقع الجديد.

وقد يرتبط التحول بأحد الميادين الاجتماعية، مثل التحول في برامج التعليم أو مشاريع التشغيل أو الخدمات الاجتماعية حسب ما تملبه الظروف والإمكانيات، وقد عاشت الجزائر تحولات وانعطافات مهمة في عمليات التشغيل والتعليم بعد الاستقلال¹³ لتدارك مخلفات السياسة الاجتماعية للاستعمار، كما تأثرت خلال التخلي عن النهج الاشتراكي بفعل عمليات الإصلاح.

كما تتأثر البنية الاجتماعية بسياسات التنمية، وتحدد على ضوء ذلك مهامها في تكييف أو تحسين النشئ من مخاطر الانزلاق وراء النظم المختلفة والتخلي عن الثوابت والممارسات الاجتماعية، ومن ذلك الأسرة التي تتعدد وتتحوّل أدوارها وفق المصالح الاجتماعية والثقافية، فهي النموذج الأمثل لما سماه "كولي Cooly" الجماعة الأولية، وثمة علاقة بين المناخ الأسري والأنماط السلوكية الصادرة عن الفرد، فالأسر التي توفر المناخ الهادئ والمستقر لأبنائها تكون أنماط السلوك الصادرة عنهم مقبولة اجتماعيا، بخلاف الأفراد الذين يعيشون في أسر يسودها التفكك والاضطراب حيث يصدر عنهم سلوك مخالف للأخلاق العامة¹⁴، ولا تختلف النظم العائلية عن غيرها من النظم الاجتماعية، حيث تخضع لمبدأ التغيير والتحول والتبدل وفق متطلبات الحياة العامة، الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية...، كما تتأثر بالعوامل التاريخية والحضارية والنفسية التي تتداخل مجتمعة في تشكيل سلوك الفرد اجتماعيا.

ولعل انعكاسات العوامل المختلفة على الحياة الاجتماعية أفرز مظاهر ونتائج على الصعيد الاجتماعي، وكانت الأسرة أهم وحدة تتأثر بالتحوّلات المختلفة، ونجد مثلا في هذا الباب أن التحول الاجتماعي في المجتمعات الصناعية أدى إلى نمو النزعة الفردية المتحررة من الروابط الأسرية، وانكمش دورها حيث يميل الأفراد إلى الانفصال عنها في سن مبكرة، وذلك تحت تأثير العوامل الاقتصادية المساعدة على ذلك، كما صاحب التحول تفكك في العلاقات الأسرية، أما في العالم العربي والجزائر فإن الأسرة والعائلة تمثل أهم مصادر الضبط الاجتماعي والتنشئة وتوفير الحاجات المختلفة، والانفصال عنها لم يكن في الغالب إلا بفعل

الزواج وتكوين أسرة جديدة تضم بدورها مجموعة أفراد، ويستمر الأبناء في الارتباط بالأسرة لما تمنحه لتلك العلاقة مع الأولياء من قدسية، كما تسود في العالم العربي بين أسرهم المترابطة قرايبا علاقات متعددة تفسر التضامن بينها وقوة التماسك الاجتماعي، حيث يمكن أن تساهم تلك العلاقات حتى في عمليات التوظيف بأماكن العمل المختلفة، حيث يلعب الرابط القرابي دورا أساسيا في العملية¹⁵.

مظاهر التحول الاجتماعي في جزائر التعددية:

تراكمت العوامل المختلفة بعد اعتماد التعددية السياسية بموجب التعديل الدستوري سنة 1989 وظهور العنف المسلح في الجزائر، وأدت على سبيل المثال إلى تحول البنية الاجتماعية لصالح الأسرة النووية مع انحسار في الأسر الممتدة، وذلك بفعل العوامل الاقتصادية والأمنية والاجتماعية، التي أدت إلى إحالة كثير من العمال على البطالة، وفقدان بعض الأسر ممتلكاتها ومساكنها بفعل الهجرة من المناق الريفية والقروية غير الآمنة إلى المناق الأكثر أمنا، بالإضافة إلى الميل إلى تكوين الأسر المعاصرة التي تنجح إلى الاستقلال المبكر عن الأقارب في السكن والمصادر المالية وفي تسيير شؤونها، وذلك ما دفعت إليه الأوضاع الجديدة في المدن المكتظة بالسكان، والتي من الصعب أن تساعد الظروف الاقتصادية والاجتماعية على الحفاظ على نموذج الأسرة الممتدة، في ظل غياب السكن وندرته وارتفاع تكاليف كراءه أو شراؤه أو إنجازها، بالإضافة إلى انحسار نمط الزواج التقليدي¹⁶ (زواج الأقارب) وفرض الزوجة أو الزوج، وغياب عامل الاختيار، وأيضا ارتفاع سن الزواج عند الرجال والنساء بفعل تفشي البطالة وغلق وتخريب وإفلاس المؤسسات الاقتصادية، وكذلك بفعل الظروف الاجتماعية، مثل: التعليم والتكوين، وارتفاع المهر وقلة فرص الاستقلال بالسكن، وذلك لأن التفكير الاجتماعي اتجه إلى تفادي الأزمات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يمكنها أن تعصف بالأسرة الجديدة، والتي يحاول أعضائها قبل الزواج ترتيب الأمور والاحتياط لذلك بدعم من الأقارب، كما أن المشاكل المختلفة يمكنها أن تقضي إلى الطلاق الذي ارتفعت معدلاته، والذي ارتفع معه سقف مطالب وحقوق وحرية المرأة باعتبارها رفا أكثر تضروا من أي تحول اجتماعي.

كما تعتبر العوامل الاجتماعية الأخرى مهمة في التحولات التي شهدتها الجزائر في تلك الفترة، ومن ذلك ارتفاع نسبة الأمية حيث بلغت سنة 1990 42.40%، وبلغت نسبة

الذكور 31.1%، ونسبة الإناث 53.1% من مجموع الأميين فوق 15 سنة¹⁷، وذلك ما يرجع إلى تعطيل واستقرار عمليات التنمية الاجتماعية، بفعل الانشغال بالممارسة السياسية، التي تؤدي إلى المشاركة الجماعية في وضع التصورات لبرامج التنمية المستقبلية¹⁸.

وفي مجال اجتماعي آخر فإن الإيديولوجية الشعبوية التي سادت المجتمع الجزائري إلى وقت غير بعيد مثلت الإحاراً مدد لنشاط الجماعة، والتي تلغي وجود الفرد أمام المجموعة¹⁹، كما أن الأعراف والعادات والتقاليد والأعيان وشيوخ القبائل كثيراً ما شكلوا السلطة الفعلية في فك النزاعات والمشاكل بين الموانين، خصوصاً في المناطق الريفية، بينما تحتفظ المدينة بنموذجها المتميز في إدارة المشاكل والنزاعات وذلك من خلال الأداة القضائية التي يحنكم إليها سكانها، وقد أدت العوامل المترتبة عن تغيرات المسار السياسي في البلاد بظهور الأحزاب والجمعيات السياسية والمدينة، وأيضاً توزيع السكان بين الريف والمدن، والذي اختل لصالح المدن، وكذلك انتشار مظاهر التصنيع والتطور واستعمال التقنية، بالإضافة إلى تنامي دور التعليم والتوعية والتكوين والتعبئة والإعلام، إلى التحول من تبني تلك الأعراف والتقاليد والخضوع لتلك السلطات إلى الاستقلال عنها، واللجوء إلى العدالة وتوثيق المعاملات والعلاقات كمظهر للحفاظ على الحقوق، ونموذج لتطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وترسيم النشاطات المختلفة، بعدما كانت بنسبة كبيرة تتبع القطاع غير الرسمي، والذي يفتقد التوثيق والتأمين والضمانات التي تكفل مصالح وحقوق الموانين، كما أن الأوضاع الأمنية ساهمت بنسبة كبيرة في هذا التحول، وأبرزت مشاكل كثيرة تطلبت اجتهد السلطات التشريعية لمسيرة التحولات التي رأت على الواقع الاجتماعي بسن القوانين، كما أن القضايا المطروحة على العدالة تضاعفت بفعل الجرائم وتفاقم الأوضاع المعيشية وغياب الرقابة وانتهاز فرصة غياب الدولة وسلطتها لانتهاك حقوق الغير.

وكثيراً ما اصطدمت بواذر التحول بعوائق تتعلق بمقاومة التغير الذي كان يمثل الوجه الجديد للعلاقات والنظم الاجتماعية مثل " الزواج -توزيع الأدوار - شغل المكانات.."، والتي لم تتحول كلياً عن مظاهر ممارستها التقليدية، لأن ذلك يعني التخلي الكلي والمباشر عن التقاليد الموروثة واستسلام كلي لعامل التحول.

وفي هذا الجانب يبرر "إ.هاجن E. Hagen" في نظريته عن التغير الاجتماعي ذلك بوجود ملامح ومميزات للمجتمع التقليدي الذي تمتد مبادئه حتى بعد الانتقال إلى المجتمع

المصنع أو المتطور، وحددها في خمسة ملامح: - رق السلوك التي تستمر مع تغير فيف، وتنقل من جيل إلى جيل، - السلوك ا كوم بالعرف وليس بالقانون، - النسق الاجتماعي الذي يؤثر بالتدرج الثابت في العلاقات الاجتماعية الأساسية، - عادة ما يكون وضع الفرد في المجتمع موروثا أكثر منه مكتسبا، - انخفاض الإنتاجية الاقتصادية²⁰.

لذلك وحسب نظره يميل هذا المجتمع إلى مقاومة التغير والتمسك بالنماذج الموروثة، وعلى ذلك فإننا أصبحنا نعيش في مجتمع اليوم في الجزائر الذي شهد هجرة ريفية تمت في ظرف سريع ودون تخطيط واحتياط من انعكاساتها، ما أدى إلى انتقال مشاكل الريف إلى المدينة، وانتقال الثقافة الريفية إلى المدن، والذي يمنح التحول والتغير مابعه الجماعي، وأصبحت وتيرة التخلص من السلوك والممارسات والتنظيم المعيق للتحول والتكيف مع التطور الصناعي والتكنولوجي متسارعة، ولم يصبح للجماعة في المجتمع الجزائري نفس الدور الذي اضطلعت به في الماضي، كما أشار إلى ذلك "جي روشيه Guy Rocher" وفسره - التغير الاجتماعي - على أنه ظاهرة جماعية²¹، في حين حدد "كنجسلي ديفز Kingsley Davis" مستوياته التي جعلها تقترن بالتحول في التنظيم والتركيب والبناء والوظائف الاجتماعية.

إن أي تحول مهما كانت بيئته ومجاله، يجب أن يتحدد من خلال آليات قانونية واجتماعية، فمثلا قد أدت النظم الاجتماعية الجديدة التي أملت لها الظروف المختلفة إلى إنتاج وضع جديد في الأسر الجزائرية على مستوى البناء والوظيفة، فكان لزاما على مهام الأسرة أن تتكيف والمعطيات الجديدة التي أملت لها المرحلة، فبعد أن كانت الأسر فيما سبق لا تستقل عن العائلة الكبيرة، خاصة في القرى والأرياف وحتى المدن، بفعل ارتباط الدخل والعمل بالامتلاكات المختلفة في مجال الزراعة وتربية المواشي والتجارة والصناعات الحرفية، تحولت إلى أسر مستقلة بفعل العوامل المتعددة المتعلقة بالعمل والهجرة من البوادي والقرى إلى المدن، وتخلي العائلات عن نشاتها السابقة وممتلكاتها، كما يضاف إلى ذلك تسريح العمال وغلق المصانع والعمل ببرنامج الخصخصة وضعف الاستثمار وهجرة الإمارات، وتفشي البطالة، حيث أدى إلى اعتماد الأسر على وسائلها وإمكاناتها الخاصة في توفير العمل والمأوى ولوازم الحياة المستقرة، وتخليها عن بعض واجباتها نحو العائلة الكبيرة تحت تأثير تلك الأوضاع.

هذا الوضع تترجمه الظواهر الاجتماعية العديدة، التي كانت تظهر بشكل واضح في

الأزمات الاقتصادية على المستوى الوحي، وانعكاسها على تراجع الاستهلاك الفردي، وتقلص فرص الشغل وتفكك النسق الاجتماعي والاقتصادي في المؤسسات الصناعية وإصابتها بالعجز، هذه الظواهر كان لها الأثر المباشر على الأسرة - باعتبارها أصغر وحدة اجتماعية -.

عوائقه ونتائجه:

إن أي وصف أو تحليل للواقع الجزائري قد يؤدي إلى اعتبار الفئات الاجتماعية في الجزائر هي العنصر الأساسي في هذا التحول، لكنها لم تكن جميعها فاعلة أو قائدة لهذا التغيير الذي يمس المجتمع بكامله، وأن هناك من العوامل والمؤثرات التي جعلت من بنيت اجتماعية تقود التحول وأخرى تنساق وراءه، فالجزائر بموقعها الجغرافي وفي نهاية القرن العشرين، ومن خلال ما تملكه من مقومات تاريخية واجتماعية واقتصادية لن تكون معزولة عن التغيرات التي يشهدها العالم المعاصر، فثمة تحديات كثيرة واجهت الجزائر بين 1990 و2000، من بينها اجتياز الأزمة الاقتصادية وتحديات العولمة أو النظام العالمي الجديد، واختلال التوازن بين القوى الكبرى في العالم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، فالتحول نحو وضع تكيف فيه السياسة العامة للبلاد نحو الوضع الجديد أمر مطلوب وضروري للحفاظ على مستقبل البلاد من مخاطر عديدة، لكن ذلك بما لم يتم بعيدا ومعزل عن الانعكاسات الاجتماعية على الساحة الداخلية، والانتقال المباشر من سياسة لأخرى قد تكون له نتائج جانبية، بفعل بطئ عمليات التحول والقضاء على سلبات المراحل السابقة، وكان من أهداف هذه التحولات هو تحقيق تحول اجتماعي داخلي يستطيع مواكبة التغيرات المختلفة، ويمكن من خلاله الارتقاء بالحياة الاجتماعية إلى مستوى أحسن، تتخلى بموجبه الدولة عن أشكال الدعم وتحمل النفقات الباهظة في كافة القطاعات، وذلك بتشجيع فرص استحداث مناصب الشغل وتكوين رأس المال الخاص والاستثمار واقتحام الخواص لميدان المقاولات والاستيراد والتصدير، كوجه جديد لسياسة التنمية يساعد على ترقية النشاطات المختلفة التي تعود على المجتمع بالفائدة، وترفع وتنوع من مصادر الدخل والاستثمار، وتساعد على استقرار الحياة الاجتماعية.

وموضوع الهجرة في الجزائر شكلورا مهما في سياسات التنمية الاجتماعية بالإضافة إلى ما نجم عنه من مشاكل متعددة يواجهها الفرد من بينها الصراع الثقافي²²، وصعوبة

التكيف، فالوضعية الجديدة في المجتمع المستقبل تختلف تماما عن الوضعية السابقة المعتادة، وذلك بما من حيث ربط العلاقات والدور والمكانة وقنوات الاتصال وحتى النشاط و بيئة السلوك، وذلك لأن الثقافة هي المدد الرئيسي لنوع السلوك المقبول اجتماعيا والمرفوض، وتحدد معناه، فتغير البيئة الاجتماعية بفعل الهجرة سواء الطوعية أو الإجبارية ينجر عنه تغيرات ثقافية سريعة، فالفردي أو الجماعة التي تنتقل من بيئة إلى أخرى تكون مجبرة على التعاملي مع الواقع الجديد الذي يفرض عليها التوافق وتقبل الثقافة الجديدة، فيتعلمونها ويتعاملون مع أهلها وفق النظم السائدة باعتبارهم نزلاء جدد على تلك الثقافة، وإسهامهم فيها يكون بقدر تقبلهم وتعلمهم وتعانيهم لتعاليمها، أما المشاكل المترتبة عن الهجرة فهي متعددة تنطلق أساسا من سوء التوافق وعدم تقبل الآخر بمظاهره الثقافية أو التصلب في فرض النماذج الثقافية الدخيلة، والتغيرات الثقافية في الحياة المدنية سريعة بفعل التصنيع والتعليم والإعلام²³.

ومن النتائج المباشرة لفترة الاضطرابات الأمنية وجود فئة جديدة من الأرامل واليتامي الذين أصبحوا يعيشون وضعاً جديداً، تحول من رعاية الأب الاجتماعية والاقتصادية ورقابته وتكفله بالعائلة من حيث توفير الحاجات الضرورية والضبط والرقابة في عمليات التنشئة، إلى وضع جديد يصعب فيه ضبط ومراقبة سلوك أفراد العائلة الذي يكون صلة لتأثير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الصعبة بفعل فقدان الأب، والذي عملت الدولة على استدراكه من خلال مؤسسات اجتماعية توفر العناية اللازمة لصحايا الأزمة كبديل استداركي لوظيفة الأب.

كما عرف الزواج تحولا بناء على متطلبات الحياة العصرية التي يكون فيها مطلب اختيار الشريك المناسب، ورفض تقييد الأولياء في اختياره، ويفضل فيه الفرد التعرف على الفتاة خارج بيط العائلة، مما قد يزعج الأم التي ترى في الفتاة المختارة أنها ستأخذ منها ابنها وغير مطيعة لها²⁴.

كما قد تشترط الطبقات المتوسطة بعض المقاييس لدراسة عروض الزواج، مثل عمل الملب الزواج، السكن، وفي حالة عدم توفر الشرين فإن الرد يكون بأن الفتاة قد لمب يدها ابن عمها وهو أولى بها، وذلك كرد على عدم التساوي في المستوى الاجتماعي، ولأن عدم وجود السكن قد يعرض ابنتهم إلى مشاكل مع إخوة الزوج، كما يقلل من احتمالات زواجها

في حالة وفاة الزوج أو الطلاق، وقد تغير المجتمع الجزائري عموما في هذا المجال كثيرا منذ الاستقلال بفعل التحضر وانتقال أغلب السكان إلى العيش في المدن²⁵.

كما يمكن تمييز أنماط أخرى من التغيرات والتحولت في جزائر ما بعد التعددية، منها:

- التحول على مستوى الدخل حيث اضطرت معدلاته ومصادره، والقدرة الشرائية للموا ن لم تستقر وتدنّت بفعل العوامل الاقتصادية والتجارية والأمنية للبلاد.
- المهن والوظائف: فقدان مناصب العمل والوظائف، وظهور تصنيف واختصاصات تلبي متطلبات اجتياز المرحلة.
- المشاركة الاجتماعية في العشرية تراجعت بفعل اهتمام الدولة بمحاربة العنف.
- حركة التعليم والتكوين اضطرت بفعل حرق المؤسسات التعليمية.
- تنامي الوعي الاجتماعي السياسي الديني من خلال عمل الجماهير على فهم الأوضاع وتحليلها.

- تنظيم وتأير الخدمات الاجتماعية والثقافية والدينية والصحية كان من أولويات الدولة لسد منافذ الدعم للعنف المسلح.
- زيادة الطلب على السكن بفعل الهجرة الداخلية.
- الاهتمام بالتنمية الريفية للقضاء على الفقر والتهميش وأسباب العنف.
- زيادة الاستهلاك العام والنفقات العمومية جراء الأزمة.
- ارتفاع الأسعار جراء تدني قيمة الدينار.

كما انتقلت بعض الأسرة من أسر أبوية تتميز بتحكم الأب في التسيير وهيمنته على كل الصلاحيات، وتوفير الدخل والحاجات إلى بناء تشارك فيه الأم بدخلها وتسييرها، أو انتقال تلك الصلاحيات إلى أحد أفرادها النشطين، الذي يحل مل الأب في اتخاذ القرارات وتنظيم شؤون الأسرة، ويحضى باهتمام أعضائها واحترامهم وخضوعهم لسلطته أو توجيهاته، وذلك إما بفعل فقدان الأب، أو بفعل فقدان هذا الأخير لوظيفته، وغالبا ما تقع مسؤولية الأسرة على عاتق أكبرهم سنا²⁶.

كما يمكن اعتبار التحول من الأحادية الحزبية إلى التعددية حدثا بارزا انعكس على النشاط الاجتماعي، فظهرت المشاريع الاجتماعية في الخطابات السياسية كدليل على تعدد الاختيارات السياسية، وتباينت اللغة السياسية في مخابة المجتمع لأجل تعبئته في

الاستحقاقات، وبالفعل كان لإقرار التعددية السياسية أثر واضح في تحول وتغير الواقع الاجتماعي، ونضج التفكير الاجتماعي، وتنوع المشاريع الاجتماعية، كما ساهمت في تعدد الرؤى والحلول للمشاكل الاجتماعية وتغيرها على الوجه الذي يخدم المجتمع.

خاتمة:

لقد تمخض عن التحول الاجتماعي الذي شهدته الجزائر بعد 1990 تنامي ثقافة العنف والانتقام والقتل والتدمير والاستبداد بالرأي وإنكار الآخر، كما ظهرت ثقافة الانعزال والتميز والتطرف كنتائج لانسداد الأوضاع، وحمل كل راف في الأزمة كل نتائجها السلبية إلى الطرف الآخر، والحلول والانفراج لا يتم إلا بالتخلص من وجود الخصم، ومثلت تلك الثقافة بدورها أرضية لظهور ثقافة التسامح والحوار والعفو في ما بعد، حيث لم تجدي سياسة المواجهة والاستئصال نفعا، بل زادت من تكاليف الخروج من الأزمة بشريا وماديا، وكان الحل الوحيد والناجح في حل عقدها هو التحول نحو منطق الحوار وتغليب الحكمة وبي صفحات الحقد والعنف والمواجهة، ثم العمل على ترميم وإصلاح مخلفات الصراع، ثم إشراك المجتمع في عمليات البناء والتنمية بعيدا عن أي وجه من أوجه الصراع والمواجهة.

غير أن مخلفات الأزمة من الناحية الاجتماعية كانت أعمق، وليس من السهل تجاوزها أو تناسيها، فالتكلفة البشرية كانت باهظة، واليتامى والأرامل والمشردين والنازحين والمعطوبين كانوا تحديا حقيقيا لأي حكومة تحاول بي صفحة الماضي لبناء قواعد المستقبل والتحول إلى سياسات الإصلاح باستخلاص الدروس من حقب الأزمة، وكانت التعويضات المادية تمثل المخرج المهم في التخفيف من معانات وآلام المتضررين والضحايا، كما أن الحكومة تحولت في سياستها الاجتماعية إلى الاعتناء بالضحايا بإنشاء مراكز اجتماعية تعني بهم على غرار مراكز رعاية الأيتام وضحايا العنف والإرهاب، كما قدمت للمنظمات والجمعيات التي تدافع عن حقوق الضحايا الدعم والتسهيلات الضرورية، وكانت لها امتيازات في الجانب الاجتماعي في الحصول على التعويض المالي والسكن.

كما أن التكلفة الثقافية للأزمة لم تكن أقل أهمية من غيرها، حيث أن عادات وتقاليد المجتمع وممارساته الثقافية اضطرت بفعل ما رأ على الحياة الاجتماعية من تحول لمسيرة الأوضاع الاقتصادية، وكانت التصحية بالممارسات والمناسبات الثقافية للحفاظ على المستوى المعيشي، كما لم يترك المجال أمام الإنتاج الثقافي للمساهمة في وضع لمسات الحلول،

ولم تصبح الممارسات الثقافية من الأولويات في حسابات المجتمع لتطلعه إلى الأمن والاستقرار أولاً، ثم إلى وضع معيشي مقبول ثانياً، ثم إلى انطلاقة ثقافية تكمل الانفراج والاستقرار وتكون ثمرة من ثمار تجاوزه للأزمة.

الهوامش

- 1- مود أبو زيد، المشكلة الاجتماعية في فكر "هنري برغسون" مكتبة غريب القاهرة 1989، ص 68.
- 2- سليمان الرياشي صالح فيلاي وآخرون، الأزمة الجزائرية – الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية –، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى بيروت، يناير 1996، 381.
- 3- دلال ملحق استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن الطبعة الأولى 2004، ص 19.
- 4- سورة الأنفال الآية 53.
- 5- الدسوقي عبده إبراهيم، التغير الاجتماعي والوعي الطبقي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية مصر 2004، ص 46، و سعاد جبر سعيد، سيكولوجيا التغير في حياة الأفراد والمجتمعات، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2008، ص 14.
- 6- سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2003، ص 174-176.
- 7- محمد بن احمدودة، الأنثروبولوجيا البنيوية من خلال أبحاث لفي ستروس، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس تونس، الطبعة الأولى ماي 1987، ص 92.
- 8- أحمد بن نعمان، نفسية الشعب الجزائري- دراسة في الأنثروبولوجيا النفسية، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع 1994، ص 49.
- 9- عدلي علي أبو ماحون، في التغير الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الأمانة الإسكندرية 1997، ص 80.
- 10- J.Baechler et autre, sous la direction de Raymond Boudon, Traité de sociologie, 1ère édition, P.U.F 1992. P 316.
- 11- Ibid, P 325.
- 12- كنزة العلوي المراني، الثابت والمتغير في بنية الأسرة العربية، مجلة العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثاني 1987، ص 356 إلى 367.
- 13- Mohamed boukhobza, Ruptures et transformations sociales en Algérie, volume 02, O.P.U, Alger 1989, p 552 et 603.
- 14- صالح محمد علي أبو ماحون، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، الطبعة الأولى 1998، ص 25.
- 15- اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، شعبة التنمية الاجتماعية والسكان، أثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية على الأسرة العربية- دراسة استطلاعية – الأمم المتحدة، عمان سبتمبر ص 9.
- 16- المرجع السابق، ص 57.
- 17- المرجع السابق، ص 13.
- 18- المرجع السابق، ص 1.
- 19- Franz fanon, Les dames de la terre, édition Maspero, Paris 1968, P 66.
- 20- محمد السويدي، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 31.

- 21- Guy Rocher, *Le changement social*, édition H.M.H, Paris 1970, P 20.
- 22- علي مانع، جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1996، ص35.
- 23- المرجع نفسه، ص36.
- 24- Lahouari Addi, *Les mutations de la société Algérienne*, édition la découverte Paris XIII 1999, P84 et 85.
- 25- Ibid, P147.
- 26- Ibid, p 58.

الإنسان والبيئة، بين أنساع الفجوة واستعادة التوازن

زين العابدين مغربي

قسم الفلسفة، جامعة سيدي بلعباس

ما يُميّز مجتمع الألفية الثالثة عن مجتمعات القرون السابقة تمييزاً جوهرياً، هو تسارع وتيرة التغيرات المناخية التي يشهدها الكوكب. هذه التغيرات جرّت معها مخاطر تدفع فتورها الدول الصناعية ولم تنج منها حتى الشعوب التي هي تحت خط الفقر، مخاطر بيئية استنزفت أموال طائلة صُرفت وتُصرف هنا وهناك لمحاولة إعداد إستراتيجية تكفل إعادة شروط وجود آدم في الجنة¹ على لسان "دومنيك بورغ" Dominique Bourg، أو على الأقل تخفف من درجة الاختراقات الكونية. هذا الوضع القائم الذي خلفته منظومة الحداثة وما بعدها، العولمة، والثورة الرقمية... هي في الحقيقة مص مص لمحات بالونية روّجت لها أبواق سادة التكنولوجيا والأداتية تحت ذريعة تحقيق أعلى عدد ممكن من النمو الاقتصادي والرخاء الاجتماعي. إنّها اليوتوبيا التكنولوجية التي استعانت وبامتياز أنّ تدمر حلم الإنسان في العيش في أحضان البيئة، في الوقت التي كانت تحمل في مدينة مثالية للمستقبل.

ومن بين أكبر المشاكل التي أفرزتها هذه الثورة التكنولوجية: مشكلة التلوث ومشكلة استنزاف الموارد البيئية، وتبعاتهما تظاهرات على طبقة الأرواح والهندسة الوراثية ووباء الإنفلونزا والأعاصير الاستوائية وغيرها من مشاكل مسّت أن ولوحيا الكائن ومشاكل بيئية جعلت حياة الكون قاب قوسين أو أدنى من الزوال. وتجنباً للويل، نقول إنّ أواصر العلاقة بين الإنسان والبيئة -وهو المراد من المقال- تصدعت ففقدت البيئة اتزانها.

وفي سؤال البيئة التي أفرزتها الوباوية التقنية على ميزان البيئة، يحقّ لنا أن نرحب الأسئلة التالية: كيف لنا أن نعيد تأسيس العلاقة بين الإنسان والبيئة في شيء من التناغم

والانسجام البيعيني؟ كيف لنا أن نعيد طبيعة البيعة من جراء ما أحدثته الثورة العلمية والتكنولوجيا من انتهاكات لا أخلاقية للبيئة؟

أسئلة باتت تفرض نفسها يوماً بعد يوماً، و محاولتنا هذه جاءت لإحياء فكرة التناغم البيعي والعيش في وفاقٍ معها، والإحياء يتلب -لا محال- أسساً من طبيعة خاصة تُعَدُّ لفكرة عودة الوفاق بين الإنسان والبيعة، لأنَّ عصرنا اليوم لا يَنقُصُه المزيد من التقنيَّة فهو فعصرٌ تقنيٌّ لِمَا يشهده من انجازات علمية وثراء ماديٍّ لم يسبقُ لهما نظير. وإذا كانت الإشكالية تتمحور حول علاقة الإنسان بالبيعة، فالأجدر بنا أن نتساءلَ، لماذا البيعة بالذات؟ كيف كانت نظرة الإغريق إلى البيعة؟ وكيف أصبحت في زمن الثورة الرقمية والأداتية؟

1. مقولة الطبيعة في الفكر الإغريقي:

لا ننكر أنَّ الفكر الإغريقي يبنى على الميتوس «الذي يفسر الأصول السببية لأحداث البيعة ونظم البشر»²، بيد أنَّ الاتجاه الميتولوجي يُعدُّ رد فعل عقليٍّ وروحيٍّ لتعليل حالة القلق التي زعزعت سكينه النفس ورضاها لحظة ازدياد حدة التوتر بين الإنسان وذاته وبينه وبين البيعة، فتمكَّن هذا الاتجاه من سحرِ الأنظار واستقَاب الألباب، فكان مُورداً للفنون والآداب والعلوم، وكان مادةً خصبة نهلَتْ منها الأفلامُ حبرها ودونته على صفحات إبداعها، لهذا جاء اهتمامنا بالإغريق مُحاولين التعرف على نظرهم إلى البيعة. وسنوجز الحديث عن آراء المدرسة الرواقية* باعتبارها إحدى المدارس اليونانية التي أولت اهتماماً بالغاً بالبيعة وهي في ذات الوقت صاحبة شعار "العيش في وفاق مع البيعة"³.

وُصِفَت الفلسفة الرواقية بأنَّها طبيعِيَّة لاهتمامها بالماديات، «فكل معرفة عندهم حسِّيَّة، أو ترجع إلى الحس»⁴. فالإيمان بالبيعة الحسِّيَّة جعلهم يرون الوجود في كليته يؤوُل إلى المابع الجسماني. والبيعة عندهم هدَّت الحيوان بأن جعلته كيف يحفظ بقاءه ويتبع السلوك المناسب، أمَّا الإنسان فأضافت له البيعة العقل وهو LOGOS⁵. لهذا، فالخير عند الرواقية ما وافق السلوك الإنساني البيعة، أي موافقة القانون الكوني الذي يخضع له كل شيء في الوجود.

من هنا، جاءت فكرة "التناغم البيعي"، وهي مقولة لا تعني العودة إلى الحياة البيعية الحيوانية التي لا تعرف قيمة ولا ضاباً، وإمَّا الاحتكام إلى نوااميس البيعة الثابتة والمتلازمة مع عقل الإنسان، هذا العقل الجزئي المنشق من العقل الكلي الكوني له غاية واحدة هي العيش في

تلاؤم مع العالم أجمع، إذ أنّ الإنسان حين يَأْتُر بواجبات العقل، لا يكون مُوافقاً لنفسه فقط، بل يكون مُوافقاً لمجموع الأشياء أي للكون بأسره⁶. وهذا ما تعبّر عنه خواطر "مرقس أوريليوس" الروماني Marc Aurèle (121-180م) حين قال: «كل شيء يلائمني إذا لاءمك أيها العالم! وما جاء في الوقت الملائم بالنسبة إليك، فليس متقدماً ولا متأخراً بالنسبة إلي. وكل ما جاءني به فصولك أيتها البيعة فهو ثمرة عندي. وكل شيء يأتي منك، وكل شيء فيك، وكل شيء يعود إليك»⁷. فهي بمثابة "الأم الكبرى"؛ للإنسان حقّ عليها كما للأم التي أنجبته حقّ عليه. ومرجعية هذا التشبيه مُستمدة من أس ورة "غايا" Gaia الإغريقية التي ترى أنّ البيعة هي الأم لها قداستها ما للأم من حرمة وقداسة، وإذا كانت الأم قد ولدت أطفالاً، فالأمر بعينه للبيعة؛ فهي كالكائن الحي؛ البشر أجنّة في ررحها أنجبتهم وفرضت عليهم الالتزام بنواميسها والعيش وفقها تحصيلاً للسعادة التي كتب عنها "سينكا" Sénèque (4ق م-65م) قائلاً: وأنّه من الصعوبة بمكان تحقيق حياة سعيدة بمجرد فقدان الريق، فنبعد عن الهدف أكثر من سعينا الحثيث لبلوغه⁸. وكان المراد من فقدان الريق عنده، الابتعاد عن القانون البيعيّ الكلّي، والعمل خارج ما تقتضيه الحكمة والفضيلة. فالبيعة بهذا التعبير الميتولوجي الإغريقي سلة إلهية لا حياة خارجها، وحياة الكائنات الحية -والإنسان بالتجديد- مُتوقفة على الشروط البيعية المتزنة. ومرد ذلك أنّ للإنسان ميزان ذاتيّ، انتظامه مرهون بانتظام ميزان البيعة؛ فمأكلنا ومشربنا وملبسنا ومأوانا وكلّ ما ربنا شديدة الصلة بالبيعة، وهكذا، تكون جميع حاجاته قد قضيت.

نقول هذا ونحن نرى أنّ الفلسفة الرواقية أدركت مدى قيمة الميزان البيعيّ، فتكلّمت ضمناً عن السلسلة الغذائية المدرجة في الدرس البيولوجي، بدليل أنّ "كريسيب" Chrysippe (280-206ق م)، يرى أنّ البيعة تُوجّب على كلّ حيّ القيام بدوره في تكامل وظيفيّ، فالأشياء خلقت لخدمة بعضها البعض؛ فالبذور والثمار التي تُنتجها الأرض خلقت للحيوانات، والحيوانات للإنسان، والحصان للحمل، والثور للحرث، والكلب للصيد أو الحراسة. والإنسان نفسه خلّق للتأمل والعيش في وفاق مع البيعة⁹. ولم تكن البيعة بأن توفر للإنسان مقوماته البيولوجية، بل حركت فكره أيضاً وأنعشت أحاسيسه وطعمت وجدانه بالحب والرفقة والتسامح، فقد وُلد ليتأمل ظواهرها وليعيش في ودّ معها.

و لكن، أمام هذا السيل الجارف من العايا البيعية قابله الإنسان بفضاظة وغلظة

مُشهراً ترسانته العلمية في وجه من سُخرَ لخدمته مُعتبراً إحكام القبضة على البيعة والسيادة عليها سيوفر له شروط العيش الرغد. وكان هذا التصور القائم قد أحدثته بعض المفاهيم الحديثة التي على إثرها قامت تنبؤات بتغيير خلق الإنسان والتحكم في وراثته بإطالة أعمارهم وتعليق الموت واستئناس الأفراد والمُزوجة بين نفس النوع وغيرها من الفاجعات التي مست البيئة البيعية. وهذا التحول - كما أسلفنا - مَرَدّه إلى فكرة "تسيّد الإنسان على البيعة". فما هي تداعياتها على النظام البيئي البيعي؟

2. تداعيات مقولة "تسيّد الإنسان على الطبيعة":

من الفكر الإغريقي إلى مَلمع القرن السابع عشر، اتّسعت الفجوة بين الإنسان والبيعة، فلم يعدّ الاعتصام موجوداً بينهما، بل برزت مع بُزوغ العلم الحديث في أوروبا فكرة تذليل الظواهر البيعية وتسخيرها لسعادة الكائن العاقل بفهم قوانينها وحتمية نواحيها. هذا التصور الحديث بمثابة السيف الذي سُئل من غمده لِيُجابه به الإنسان البيعة، وكانت النتيجة أن تراجعت البيعة ولم تصبح البيعة العذراء الفاتنة التي خُصّبت عقول القدامى ورهّفت حسّهم ووسّعت خيالهم وساعدت على نمو قدراتهم النفسية خاصة.

إنّه تحوّل جذريّ في نظرة الإنسان إلى البيعة، مشهّد جعل الإنسان خارج البيعة يأمل أن يراها على نحو أفضل مُحصّناً بفلسفة تجريبية وأخرى ميكانيكية غلبت على أعمال كلّ من: "فرانسيس بيكون" (1561-1626) و"غاليلي" (1564-1642) و"رونه ديكارت" (1596-1650).

فمثلاً "بيكون" لا يرى للتقدم أملاً إلا إذا ارتدّ إلى قوة الإنسان العلمية، فالبيعة هي مملكة المعرفة الإنسانية والميدان الوحيد المثمر والمأمول لسيادة الإنسان، فإذا تجاوز الإنسان هذا المقصد والسبيل فلن يعرف أو يفعل شيئاً، فيصير الإنسان سيّد الكائنات وتاج الخليقة وبطل الرواية الكونية¹⁰، والتمكين هذا عند "بيكون" يكون بالمنهج التجريبي. أمّا عند "ديكارت" فقد اتّبع خلفه في ترسيخ فكرة الاستعلاء على الكائنات بعد كتابة مؤلفه "مقال عن منهج" Discours de la methode وفي قسمه السادس صرّح بضرورة أن نجعل أنفسنا سادة البيعة ومالكها¹¹، عندما أصبح الميكانيكي على العالم مُتبعاً المنهج العلمي الاستنباطي. هذا المسار الخبيث الديكارتي الصّارم، الذي يقضي بأنّ السبب لا ينتج سوى نتيجة واحدة، وأنّ النتيجة لا تنتج إلا عن سبب واحد، جعل صاحبه يستبدل التصور

الحديث للعالم الذي يعتبر الكون «آلة ميكانيكية ضخمة مغلقة على ذاتها، من مادة متجانسة، تسير تلقائياً بواسطة عللها الداخلية، وتبعاً لقوانينها الخاصة في مسار تفضي كل حالة من حالاته إلى الحالة التالية»¹²، بتصور كان يرى العالم مجرد قوة تُديرها البيعة، والبيعة هي مجموع الأشياء الإلهية والأشياء الإنسانية والتي تشكل في النهاية قوة موحدة أو مدينة "Cité" لا أشياء خارجها. يقول "عثمان أمين" ناقلاً لنا التصور الرواقى البيعة: «العالم كله ليس إلا كائناً واحداً حياً متنفساً؛ ما يحصل في جزء منه يؤثر في جميع أجزائه، وما يؤثر في الكل يؤثر في كل جزء»¹³.

فالمحدثون من الفلاسفة والعلماء كانت تدفعهم رغبة جامحة في استعادة مملكة الإنسان على الأرض و تسيده على باقي المخلوقات وتحريره من مشاق العمل المضني ليمارس ملكاته العقلية بكل حرية¹⁴. كانت تلك هي نقة ان لاق خلفهم البعيد، وهم دعاة "الوضعية" و"العلمانية"، فحافظوا على هذا الشعار بتبنيهم للمنهج التجريبي والترويضى -شريعة العلم الحديث- كأساس لنظام العلمي-التقني l'ordre technoscientifique. فالنظرية العلمية لا تكون كذلك إلا بعد إتباع الريقة الاستقرائية والريقة الاستنباطية معاً، والمنهجان سيثمران أنساقاً من القوانين تتأرجح بين الإمكان ببعده النظري والتمكن ببعده العملي؛ «فمقتضى السيادة في هذا النظام هو أن يتولى الإنسان آفاق الإمكان التي تفتح في النظر وأيضاً أبعاد التمكن التي تبرز في العمل؛ وليست لهذه السيادة غاية تقف عندها ولا نهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، لأن تمام السيادة الذي تلمبه عقلانية النظام العلمي-التقني الحديث هو بالذات أن يجعل الإنسان الكل ممكناً ويتمكن من ناصية الكل»¹⁵. وبهذا المفهوم تتمفصل السيادة إلى ثلاثة تحديدات، وهي: سيادة التنبؤ التي تُكسب النظام العلمي-التقني سلان السوة، وسيادة التحكم التي تُكسبه سلان البأس وسيادة التصرف التي تُكسبه سيادة البش، ولا عجب أن تكون هذه السيادات الثلاث هي المحك لعلمنة الظاهرة وفق مبدأي التجريب والترييض، أما ما تعذر إخضاعه لهذين المبدأين يُعتبر عائقاً لا بد من قمع الصلة به، ولا يوجد إلا ما هو ديني أخلاقي قابل لهذا الوصف والتصور¹⁶.

هنا، نقول إن النظام العلمي-التقني للعصر المعاصر انفصل عن المعايير الدينية والقيم الأخلاقية فأسقط معيار التقويم الإنساني وأثبت بدله معيار التقويم المادي. فتداعيات

"السيادة والتملك والغزو" أكسب الثورة التكنولوجية طابعاً مادياً منحرفاً أفرزت عقلانية متهرفة، فلا إصلاح للوضع الكوني إذاً إلا بعودة هذه الأسس الأخلاقية المسلوقة و التي أنتجت -فيما بعد- نظريات حاولت إعادة الوفاق بين الإنسان والبيعة بجبر الشرخ الذي أحدثته انزلاقات العقلانية المحدثنة والتكنولوجيا المفرطة و يؤتوينا المدينة المثالية.

ومن بين أهم النظريات التي بادرت بعقد الصلح بين الإنسان والبيعة، نذكر:

3. نظريات عقد الصلح بين الإنسان والطبيعة:

1.3 نظرية المسؤولية: تعود هذه النظرية إلى الفيلسوف الألماني "هانس يونس" H.Jonas (1903-1993) الذي أسسها في كتابه "مبدأ المسؤولية: أخلاقيات من أجل الحضارة التكنولوجية"¹⁷، و هو يرى أن التوازن البيئي يتوقف في كليته على الإنسان من خلال ما تأخذه أفعاله من معانٍ طالما يعدّ المستهلك الأول لما ينتجُه العلم-التقني، كما أنه الكائن الوحيد القادر والحُر والمتحمل لتبعات ما اختاره من سلوكات، الأمر الذي سيُعييه في النهاية على مواجهة مخاطر وتهديدات العلوم-التقنية. فاختراعات التكنولوجيا المتواصلة والمُتكاثرة أفرزت تغييرات في أمور المجتمع الإنساني وتحولات في الحياة البيئية ما لا يمكن تصوّره، ولا منفذ لنا من هذه الأزمة التي طالت العالم كله سوى تجديد أخلاقيتنا عن طريق عقد ميثاق بيننا وبين البيعة كما أقمنا ميثاقاً من قبل بيننا وبين المجتمع¹⁸. وأساس هذا الميثاق هو "مبدأ المسؤولية"، ولتفعيله لا بدّ من تحصيل الشعور بالخوف لما تنتجُه العلوم التقنية من مفسد على البيعة، وقد يكون الخوف حلاً مؤقتاً لإدخال تعديلات حول سلوكات الإنسان، كما قد يكون طريقاً لتأسيس علوم جديدة آخذة بعين الاعتبار مبادئ العقل والأخلاق. وتشبيدها لتصورات مؤسسة على تلك الأبعاد لانقاد البيعة والإنسانية، سيكون الريق الرئيسي للتقليل من تورات العلوم-التقنية. وقد صاغ "يونس" مبدأه الأخلاقي الذي يضبط هذه المسؤولية المشروطة بالخوف في شكل الأمر الجازم على طريقة "كانط" Kant في صياغته للقواعد الأخلاقية، وهذا المبدأ هو:

- "لئلاّ فعلك على الوجه الذي يجعل آثاره تصون الحياة الإنسانية الحقة على وجه الأرض"¹⁹. فمنذ ق المسؤولية الأخلاقية الذي اقترحه "يونس" سيُجدد نظرة الإنسان نحو البيعة، وسيعمل على ترسيخ فكرة المصالحة معها على أساس مبدأ هام أشارت إليه النظرية. وللمبدأ حُضور في مقال "دومنيك بورغ" حين قال: «لقد كانت البيعة، والبيئة الأرضية،

سابقة على وجودنا نحن، لذا لا يمكننا أن نجعل الهدف الوحيد لنشاطنا هو محاربتها واستبدال الرأسمال البيعي بآخر تقني. يجب علينا أن نتعلم من جديد الاعتراف بالأسبقية الملقاة للمعنى²⁰. فالاعتراف بالأسبقية فعل أخلاقي لا يستوجب الالتزام، وإنما نداء الخير الموجه إلى الإرادة التي تفرض إتباع القانون الأخلاقي الذي ينص على احترام من هو أسبق منا في الوجود، وكذا النصوص الإلهية أقرت هذا؛ أين ينزل الكون - كخلق سابق على الإنسان - منزلة الآية الدالة على عظم الخالق بعيداً عن الاستخفاف بالكائنات البيعية.

2.3 نظرية التواصل: أضوها تعود إلى الفيلسوفين الألمانيين "كارل أوتو آبل" Karl-Otto Apel في رسالته: في مسألة التأسيس العقلي للأخلاقيات في عهد العلم، و"يورغان هابرماس" Jürgen Habermas في كتابه: الأخلاق والتواصل. وبأني اهتمامنا بمدرسة "فرانكفولت" وبوريتها "هابرماس" إلى ثقل النظرية النقدية التي تبناها و أعاد بناءها وقادها نحو مرحلة متقدمة من الشمول والاتساع مستوثقاً بالعقل الكلي وبنية الفكر اللغوي. وقد جاءت النظرية في معرض تتبعه الدقيق لنتائج النزعة الوضعية و العلموية (Scientisme) في المجتمعات الصناعية المتقدمة، وله دور مفاهيمها على المؤسسات، ومن ثم نشوء هيمنتها التدرجية على الفرد والمجتمع متحركة في الأبعاد الإنسانية المستقلة داخل الوعي الجماعي²¹. وانعكاسات هذه الفلسفة أزمّت العقلانية المحدثّة وقادت العالم إلى طريق مسدود. وما نسمي إلى إيضاحه هو موقف "هابرماس" من تلك الفلسفة التي اعتقدت بالعلم اعتقاداً يصل إلى حدّ القدرة على تقديم أجوبة لكل الأسئلة وحلّ لكل المشاكل، فالجئ نحو التقنية والتّبقى العملي لأدواتها كميل في نظرهم إلى تقدم المجتمع. هذه العقلانية التقنية التي آثرت التحديث المادي على التجديد الروحي سلبت القيم الإنسانية، وجعلت التكنولوجيا تضيء على الأشياء صفة الأدوات وتُحيلها إلى وسائل نفعيّة، وبهذا التّصوّر تصير التكنولوجيا - التي أحكمت قبضتها البرجوازية - عائقاً أمام تحرّر الإنسان و صون طبيعة الطبيعة والحفاظة على رأسمالها الأصلي، ف "هابرماس" لم « يكف عن السعي نحو هدفه الأساسي المتمثل في تكوين منحي أخلاقي جديد يفتح باتجاه اتصالية جديدة تعمق العلاقة بين الفرد ومجتمعه وذلك الواقع المغلق القائم الذي تلازمه صفة الافتقار إلى المشروعية والمساواة ويسوده الوعي التقريبي²². هذا المفهوم العقلاني الذي ترحه الوباوية التقنية يقدم صورة سوداوية للوضع المساوي للإنسان، ويُنبي بحالقات درامية سيعيشها إنسان الألفية الثالثة بسبب الدور الصناعي والتكنولوجي سريع الوتيرة. وكلما ساءت العلاقات الاجتماعية واغترب الإنسان في غيابات التقنية اتبعه تراجع خفيف للبيعة.

وكحلّ لهذه الأزمة يسعى "هابرماس" إلى تأسيس نسقٍ جديدٍ من الاتصال بين الفرد والمجتمع بما في ذلك البيعة، وهو اتصال يسوده خاب عقلائي أخلاقي من شأنه أن يعيد للإنسان إنسانيته ولا بيعة طبيعتها، ويكون خاباً مشتركاً بين جميع أمم الأرض على تباين ثقافتها ونظمها، هذا ما قصده "آبل" من "الأخلاقيات الكبرى" ²³ Macro-ethique.

3.3 نظرية الضعف: ويقودها الفيلسوفان الفرنسيان "جاك إيلول" Jacques Ellul في مقالته الشهيرة: "بحث من أجل أخلاقيات المجتمع التقني"، و"دومينيك جانيكو" Dominique Janicaud في كتابه: "قوة العقل". وهما يسعيان إلى التقليل من استعمالات التقنية والزهد في جزء منها، لا عجزاً عن استعملها، بل تفادياً ما ستلحقه من آثار مُدمرة، ويكون ذلك بترك العمل بالقواعد التي أملتتها التقنية تجنباً لتسليع الإنسان واستلابه، ويكون أيضاً بوزن ابتكاراتنا العلمية وإعداد لها خطة مُعيّنة مع ما يُوافق الملتزمات البيئية قبل الإقدام على استغلالها ميدانياً آخذين بعين الاعتبار مُستقبل المعنوية. إنّه معيار أملتته قوة العقل التي تجعل المرء يحيا حياة فاضلة مُوافقة للبيعة، وهذا ما تتلمذه الحكمة العقلية. وفي المقابل بإمكان مبدأ العقل أن ينقلب إلى ضده «فيكون الانقلاب بمنزلة الحد المرسوم، الذي لا يمكن أن تتخذه العقلانية في سلبها» ²⁴.

الظاهر ممّا تقدم أنّ النظريات الثلاث في إستعادة الصلح بين الإنسان والبيعة: "نظرية المسؤولية" و"نظرية التواصل" و"نظرية الضعف"، قامت بتصحيح السيادات الثلاث التي ارتبت بالحضارة العلمية-التقنية للعالم، وهي: "التنبؤ والتحكم والتصرف"، تصحيحاً قائماً على تجديد أخلاقيات الإنسان المعاصر. إلّا أنّ هذه الأصول الأخلاقية لم تخرج عن الأخلاقيات القديمة إلّا خروجاً ظاهرياً تعلق بمنهجية التدليل أكثر ممّا تعلق بمضمونية التحليل؛ فعلى الرغم من نحت مُصمّمات تظهِر عليها معالم التجديد ك: "العقد البيعي" و"أخلاق التواصل" و"مبدأ المسؤولية"، بيد أنّها تحمّل وُولة إغريقية تؤوّل كلّها إلى معنى "التعقل" ²⁵ و"الفضيلة" أي "اللوغوس LOGOS" و"فرتيس VIRTUS".

ومهما يكن من تقارب بين النظرتين القديمة والمعاصرة في المبادئ الأخلاقية لإنقاذ البيعة والعيش في تناغم معها، وفي كون الفلسفة المُتبناة عندهم عملية تستوجب احترام من نتعامل معه، إلّا أنّ الإشكالية الأيكولوجية مازالت مُروحة في أجندة المهتمين بالبيئة، وحلّها مرهون بتجديد المفاهيم والتصورات حيال الإنسان والبيعة، فيبقى أنّه جزء من هذا العالم

يتصرف على اعتباره لا على اعتبار أنه السيد الأوحـد الذي سُخِرَ له كل شيء، فتصحيح مفهوم السيادة ضرورة حتمية لإعادة الوفاق بين الإنسان والبيعة، والمراد من السيادة في المفهوم التصحيحي هو إنزال الإنسان -الذي ادعى نفسه سيّداً- إلى منزلة المسود، ولا يتأتى هذا إلا بالإقرار بوجود سيّد قاهر فوقه، وإما أن يكون هذا السيّد هو النظام العلمي- التقني أو يكون غير هذا النظام، ومحال أن يكون الأوّل لأنّه أثبت عجزه في الحفاظ على البيعة، إذن هو من له مقاليد السموات والأرض جلّ جلاله²⁶. وهذا يقودنا إلى الإقرار بمبدأ استخلاف الله تعالى وتعمير الأرض والاستفادة من خيراتها الحيويّة وغير الحيويّة الذي لا ينبغي أن يمتدّ إلى حدّ الإخلال بالتوازن البيئي²⁷ أو التعالي عليها طالما أنّ النصوص القرآنيّة تكلمت عن تسخير ع مايا البيعة للإنسان في أزيد من عشرين آية.

وفي الأخير، تبقى البيعة مدينة الإنسان وموطنه، مايتها مهمة الجميع لضمان من يعيش فيها، وهذه الحماية تتلبّ تجنيد سائر الفئات و الهيآت الحكوميّة وغير الحكوميّة وفق إستراتيجية محكمة لإعداد جيل واع بالمخاطر البيئية التي تهدّد جنسه ومن يشاركه العيش من حيّ وجماد. فالإنسان الكائن العاقل الحرّ المرید هو الوحيد من يتقلد أيّ فعل لا مسؤول حيال البيعة درءاً للمخاطر التي تحوّم حولها. فترميم الشروخ وجبر التصدعات استرضاءً للمجني عليه بلا حقّ، بنشر الوعي البيئي والتربية الإيكولوجية وتصحيح مفهوم السيادة، يكفل لا محال إعادة الوفاق بين الإنسان والبيعة.

الهوامش:

- ¹ دومينيكي، بورغ، تراجع البيعة، مجلة الثقافة العالمية، العدد 93، مارس-أفريل 1999، الكويت، ص135.
- ² الخبيب، محمد، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1999، ص11.
- ^{*} أسست المدرسة الرواقية في أثينا بداية القرن 3 (ق. م) على يد زينون الكيتومي Zenon Citium (335-264 ق.م) المنحدر من قبرص، وقد أصبح زينون بعد أن رحل إلى أثينا يُعلم ويُلقن تلامذته الفلسفة في ممر مكشوف مسقوف يعقود على أعمدة وهذا ما يدعى بالرواق المشتق من الأصل اليوناني "STOA" المرادف للكلمة الفرنسية "Portique" الموجود في ساحة أثينا المعروفة بـ "AGORA".
- ³ Diogène, Laerce, Vies et doctrines des Stoïciens, Traduction : Richard Goulet, Librairie Générale Française, 2006, p.91.
- ⁴ الخبيب، محمد، الفكر الإغريقي، ص231.
- ⁵ م. ر، أميرة حلمي، الفلسفة عند اليونان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1986، ص408.
- ⁶ أمين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مبعة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط3، (د.ت)، ص199.
- ⁷ نقلا: عثمان، أمين، الفلسفة الرواقية، ص ص 199، 200.
- ⁸ Sénèque, La vie heureuse, Traduction : J. Baillard, Gallimard, 1996, p.31.
- ⁹ Jean, Brun, textes choisis, Cicéron, De natura deorum, II, 14, deuxième édition, presses universitaires de France, 1962, p54.
- ¹⁰ طريف الخولي، يمني، فلسفة العلم في القرن العشرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص64.
- ¹¹ ديكارت، رونييه، مقال في منهج، ترجمة: محمود محمد الخضير، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1985، ص268.
- ¹² طريف الخولي، يمني، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص103.
- ¹³ أمين، عثمان، الفلسفة الرواقية، ص172.
- ¹⁴ زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص178.
- ¹⁵ عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2005، ص115.
- ¹⁶ المرجع نفسه، من ص118 إلى ص121.
- ¹⁷ Voir : Hans Jonas, Le principe de responsabilité, une éthique pour la civilisation technologique.
- ¹⁸ عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، ص124.

- ¹⁹ المرجع نفسه، ص124.
- ²⁰ دومينيك، بورغ، تراجع البيعة، ص139.
- ²¹ طاهر، علاء، مدرسة فرانكفورت، من هوركهايمر إلى هابرماس، منشورات مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1، د(ت)، ص107.
- ²² المرجع نفسه، ص107.
- ²³ عبد الر ن، طه، سؤال الأخلاق، ص126.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص128.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص130.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص132.
- ²⁷ الكرمي، زهير، العلم ومشكلات الإنسان المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص15.

مستوى الحكم الأخلاقي لدى من المراهقين بناءً على وعيهم من المراهقين العالميين بمفهوم الأخلاق بالجزائر

محمد داودي

قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا جامعة عمار ثليجي الأغواط

1- مقدمة

إن اهتمام الباحثين بدراسة الأخلاق عامة والنمو الخلقي خاصة يأتي من كون القيم الأخلاقية عنصرا أساسيا من عناصر وجود المجتمع وبقائه، ومقوما جوهريا من مقومات كيانه وشخصيته، فلا يستطيع أي مجتمع أن يبقى أو يستمر دون أن تحكمه مجموعة من القوانين والقواعد والضوابط التي تنظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتكون لهم بمثابة المعايير المعتمدة في توجيه سلوكهم وتقويم انحرافاتهم... لذلك يمكننا اعتبار النمو الأخلاقي من أهم ميادين البحث التي حظيت من قبل المربين بالدراسة والاستقصاء على مدار العصور والأحقاب، لكن هذه الدراسات القديمة للنمو الأخلاقي كانت فلسفية أكثر منها علمية ولذلك لم تجد الاهتمام المطلوب.

أما العقود الأخيرة فقد أبرزت اهتماما ملحوظا من طرف علماء النفس والتربية بدراسة النمو الأخلاقي عند الأطفال والمراهقين والراشدين على السواء، يعود الفضل في هذا إلى العالم النفساني جون بياجيه الذي كتب سنة 1932 الحكم الأخلاقي لدى الطفل *The moral judgment of the child*.

وقد فتحت آراؤه حول النمو الأخلاقي المجال لعدد كبير من الباحثين لدراسة هذا الموضوع خلال مرحلتَي المراهقة والرشد أمثال كولبرغ وجيمس رست وغيرهما، ومن

ثم نستطيع القول بأن عمل بياحيه يعتبر انطلاقة علمية صحيحة لدراسة النمو الأخلاقي، دراسة قائمة على أساس منهجي وعلمي.

2- هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف على مستوى النمو الأخلاقي لدى عينة من المراهقين يتامى الأم ومقارنته بالحكم الأخلاقي لعينة من المراهقين العاديين والكشف عن الفروق في نموهم الأخلاقي كما يقيسه اختبار تحديد القضايا الأخلاقية (Defining Issues Test) لجيمس ريست.

3- أهمية البحث وأسباب اختياره

إن دراسة النمو الأخلاقي يعني دراسة جانب هام من أهم الجوانب التي لها علاقة بشخصية المراهق، وإبراز لأهمية النمو الأخلاقي وتوجيه لأنظار العاملين في المجال التربوي والنفسي على مختلف المستويات للاهتمام بهذا الموضوع الحيوي الذي ما زال يشكو نقصا ملحوظا في الدراسات، في الجزائر خاصة والعالم العربي والإسلامي عامة.

4- مجال البحث وحدوده

تقتصر نتائج هذا البحث على عينة من المراهقين يتامى الأم وأخرى من المراهقين العاديين للعام الدراسي: 2010/2009، وبما أن هذه الدراسة تمت في حدود مجتمع المراهقين المتمدرسين الفاقدين لأمهاتهم والعاديين، لذلك فقد تتأثر نتائج البحث بظروف العينتين النفسية وبخلفيتهم الاجتماعية، وكذا بالنظام التعليمي والتربوي، وبالمستوى الدراسي، وبعوامل أخرى لا يمكن إهمالها، ومن ثم فإن الباحث لا يستطيع الإدعاء بأن هذه نتائج الدراسة يمكن تعميمها على مجتمعات أخرى.

5- الإطار النظري للبحث

إن الإطار النظري الذي اعتمدناه في هذه الدراسة هو النظرية المعرفية وطريقتها في دراسة النمو الأخلاقي، لكن المنهجية العلمية تفرض علينا تقديم عرض موجز لكل من نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم الاجتماعي وطريقتهما في دراسة النمو الأخلاقي باعتبارهما من أهم النظريات في هذا المجال.

1.5- نظرية التحليل النفسي

يرى فرويد أن قيم الطفل الأخلاقية يتم اكتسابها في السنوات الخمس الأولى (محي الدين توف وعبد الرحمن عدس، 1984، ص 120)، وذلك عن طريق عملية امتصاص وإدماج المعايير الاجتماعية والثقافية في نفس الفرد بحيث تصبح مبداء هاديا لسلوكه الاجتماعي، يطلق فرويد على هذه القوة النفسية: الأنا الأعلى - Super ego - الذي هو الحارس الأخلاقي الأول للشخص، وهو الأداة المسؤولة بالدرجة الأولى على النمو الأخلاقي (بوحامة، 1988، ص 190). وبعد الأنا الأعلى حسب التحليل الفرويدي مركز المفاهيم والمعايير الأخلاقية، وأي انتهاك لهذه المعايير ينتج عنه الشعور بالذنب والقلق.

ويؤكد فرويد أن الأنا الأعلى الذي يمثل معايير الراشدين ينمو من خلال التوحد مع الوالدين، والمجتمع يضمن بقاءها من خلال التقمص أو التوحد الذاتي، حيث يعرض معايير على الفرد الذي ينقلها بدوره إلى الجيل الذي يليه (حسن عبد المعطي وهدي محمد قناوي، 2001 ص 430).

تبدأ مؤشرات ظهور الضمير لدى الطفل في نهاية السنة الثانية عندما يبدأ الوالدان باستخدام الأوامر والنواهي على سلوكاته من خلال أسلوبهما في التربية والثواب والعقاب، فيعيش الطفل صراعا بين ما يريده هو وما يريده والده، وبذلك يتعلم تكييف سلوكه وفق المعايير التي يرونها لازمة، وعلى هذا النحو تتبلور بالتدريج في نفسه تلك الأوامر والنواهي والأفكار على شكل سلطة داخلية تقوم مقام الرقيب، وعليه فإن نمو "أناه الأعلى" يعتمد بالضرورة على المعايير الأخلاقية لوالديه وعلى طبيعة العلاقة بينهم، فدء هذه العلاقة يسهل للطفل عملية التوحد وبذلك يصبح أكثر ميلا للارتباط بوالديه بموافقة سلوكه لسلوكهما، دون أن يعرف لماذا هذا السلوك صحيحا وذاك خاطئا.

ومن خلال التوحد يتبنى الطفل نمطا كليا ثابتا نسبيا للسلوك الصادر عن الشخص المتوحد به والذي غالبا ما يكون أحد الوالدين أو كليهما، وبذلك يبنى منظومة سلوكية ذاتية لاشعورية توجه سلوكه باتجاه ما بعيدا عن رقابة الشخص المتوحد به أو الرقابة الخارجية لأنه سيعمل برقابة داخلية تسمى "الأنا الأعلى" أو "الضمير الخلقى".

ومن المهم الإشارة إلى أنه يمكن أن ينمو أنا أعلى غير سوي أو غير ناضج، إذا لم يستطع الطفل التوحد بوالديه أو بأحدهما أو إذا لم تكن لدى الوالدين معايير أخلاقية ناضجة ومقبولة أساسا من المجتمع. إن ما يؤخذ على نظرية التحليل النفسي أنها ركزت اهتمامها على مظهر الشعور الذي ينعكس من

خلال تلك المفاهيم السيكونديناميكية لنمو الشخصية كالأنا الأعلى والشعور بالذنب، ولم تعط أي دور للجانب المعرفي في النمو الأخلاقي. بالإضافة إلى أمر مهم وهو عدم توفر مقاييس موضوعية يعتمد عليها علماء التحليل النفسي في دراستهم للنمو الأخلاقي، لأن مفاهيم مثل الأنا الأعلى والشعور بالذنب يستحيل على الباحث أن يقيسها بموضوعية، وإذا قيست فإنها ستؤدي إلى نتائج متضاربة خاصة عندما يتم تعريف هذه المفاهيم بطرق متباينة في دراسات مختلفة. أما النقد الأخير الذي يمكن أن يوجه لهذه النظرية فهو تركيزها على أخلاق الامتثال بينما يرى كولبرغ أن الإنسان يمكن أن يتجاوز مرحلة أخلاق الامتثال في مرحلة متأخرة من حياته (بوحامة، 1989، ص 110).

2.5- نظرية التعلم الاجتماعي

يعتقد أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي أن السلوك الأخلاقي يتكون عند الفرد عن طريق التعلم، ويعتبرون أن المبادئ العامة للتعلم كافية لتفسير السلوك الخلقى، وهذا يعني أن الإجراءات التدريبية المتضمنة في تعلم السلوك الخلقى هي نفسها المتضمنة في تعلم أي نوع من أنواع السلوك (محي الدين توق وعبد الرحمن عدس، 1984، ص 123).

وهناك أنماط سلوكية ومميزات شخصية يتم اكتسابها بالتقمص حيث يأخذ الطفل قيم شخص آخر ويشكل سلوكه وفقا للسلوك المأخوذ أو من خلال التوحد مع الآخرين، فيسعى لأن تكون أنماطه السلوكية ومثله واتجاهاته مطابقة لما يتصف به الشخص النموذجي

وغالبا ما يكون أحد الوالدين أو كليهما.

ويرى "باندورا" أن مفهوم التقليد مطابق لمفهوم التوحد في النظرية التحليلية، إلا أن التوحد والتقمص في هذه النظرية عمليتين مستمرتين لاكتساب الاستجابات وتعديلها من خلال مصادر متعددة أهمها الأسرة وجماعة الأقران... الخ (حسن عبد المعطي وهدي قناوي، 2003، ص ص 376-378).

أما منهج نظرية التعلم الاجتماعي في دراسة النمو الأخلاقي فيقوم على الافتراضات التالية:

- 1- أن النمو الأخلاقي ليس نتيجة أي تعديل في التركيب المعرفي، وإنما هو نمو في الامتثال للقواعد الاجتماعية.
- 2- أن العوامل 1 فزة للأخلاق لها جذور في الحاجات البيولوجية التي يعبر عنها عن طريق البحث عن الثواب وتجنب العقاب.
- 3- أن الأخلاق نسبية، وتعتمد على المعايير التي تتعلق بالمواقف البيئية.
- 4- أن المعايير الأخلاقية هي امتثال للمعايير الخارجية.
- 5- أن التغيرات في قوة الثواب والعقاب تعكس تأثير البيئة وأثرها في الشخص (Kohlberg 1976, P.35).

إن أهم ما ساهمت به نظرية التعلم الاجتماعي في مجال النمو الأخلاقي هو تركيزها على السلوك، حيث قامت بفحص العوامل البيئية الأساسية لمعرفة كيف تساهم هذه العوامل في النمو الأخلاقي (Rest 1979, P.37). إلا أن علماء هذه النظرية أهملوا دور الحكم الأخلاقي المعرفي في عملية النمو الأخلاقي، كما يؤخذ عليهم تجاهل خصائص الطفل المعرفية (عبد المجيد نشواني 1987، ص 489)، وتركيزهم على السلوك الذي يتولد عليه نظام الثواب والعقاب.

3.5- نظرية النمو المعرفي

تفترض نظرية النمو المعرفي أن المعايير والمبادئ الأخلاقية الأساسية عبارة عن تراكيب أو بناءات معرفية تنتج عن تفاعل خبرات الفرد مع غيره، فهي بذلك تقف إلى

جانب معاكس للنظريتين السابقتين، حيث ترى نظرية النمو المعرفي أن النمو الأخلاقي عملية ديناميكية تؤدي إلى حالة يجد الشخص فيها نفسه قادرا على أن يسلك سلوكا ما تبعا للمبادئ التي يفهمها ويتبناها.

ويقصد بمصطلح النمو المعرفي: مجموعة من الافتراضات التي تشترك فيها أفكار كل من جون ديوي 1909 Dewey وماكدوكل 1908 McDougall ومارغريت ميد 1934 Mead وجون بياجيه 1932 Piaget وكولبرغ 1958 Kohlberg.

أما الافتراضات التي يقوم عليها النمو الأخلاقي في نظرية النمو المعرفي، فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. أن النمو المعرفي هو تعديل في البنيات المعرفية (Cognitive structure).
 - 2- إن المعايير والمبادئ الأخلاقية الأساسية هي تراكيب أو بنات تنتج عن تجارب التفاعل الأخلاقي.
 3. إن تأثيرات البيئة في النمو الأخلاقي تعكس نوع ودرجة الإثارة الاجتماعية والمعرفية خلال نمو الطفل.
 4. إن النمو الأساسي للأخلاق يتم بواسطة تحويل التراكيب المعرفية نتيجة لعدم التوازن، أي أن النمو عبر مراحل النمو الأخلاقي يعرف بأنه تحول في أنماط التفكير وليس تراكما في معرفة القيم الثقافية.
 5. إن نمو التركيب المعرفي هو نتاج التفاعل بين تركيب العضوية وتركيب البيئة وليس نتيجة مباشرة للنضج أو التعلم (Kohlberg, 1976, P.69).
- فيما يلي سنتعرض إلى نظرية بياجيه في النمو الأخلاقي، وكذا أهم الأفكار التي وردت في نظرية كولبرغ التي ستشكل الإطار النظري لهذا البحث، وفي الأخير نقدم أهم آراء جيمس ريست في النمو الأخلاقي التي سنستمد منها المنهجية والأداة التي سنستخدمها في هذه الدراسة:

1.3.5- نظرية النمو الأخلاقي عند بياجيه (PIAGET)

يعتقد بياجيه أن النمو الأخلاقي عند الفرد مثل النمو المعرفي (Cognitive development) إنما هو جزء من عملية النضج ضمن إطار خبرة العمر العامة (McCandless and Evans, 1973).

إن تطور المبادئ الأخلاقية عند الأطفال مرتبط بمستوى نموهم المعرفي وتطور بناهم المعرفية، والنمو الأخلاقي هو الآخر يتطور عبر نمط منظم ومتسلسل على نحو هرمي.

وقد حاول بياجيه معرفة نوعية اتجاه تفكير الطفل الأخلاقي عن طريق معرفة تفكيره في قواعد اللعب، حيث يرى أن ثمة اتصالاً بين قيم الطفل الخلقية وبين أفعاله. يقول بياجيه في هذا المجال: "إذا رغبتنا في فهم شيء عن خلق الطفل فمن الواضح أنه ينبغي أن نبدأ بتحليل هذه الحقائق، فكل الأخلاق مجموعة من القواعد، وروح الأخلاق كلها نجده في مدى احترام الفرد لهذه القواعد" (Piaget 1932, P.P. 12-13).

وبناء على النتائج التي حصل عليها بياجيه في دراسته للتفكير الأخلاقي عند الأطفال استطاع صياغة نظريته في مرحلتين أساسيتين هما: الأخلاق الخارجية المنشأ والأخلاق الذاتية المنشأ.

(أ) الأخلاقية خارجية المنشأ: (7 أو 8) سنوات تتميز باحترام الراشدين والقواعد التي يضعونها، إذ يستجيب لها الطفل على اعتبار أنها صارمة وغير قابلة للتعديل، ولذا يخضع لها ولا يحاول الخروج عنها، لأن العقاب لا بد أن يلحق بمن يفعل ذلك، ولهذا سميت بالأخلاق خارجية المنشأ، فهي تعني الخضوع لتوجيه الآخرين أو القواعد التي يضعونها، أي أن القواعد تنشأ خارج الفرد وتفرض عليه.

(ب) الأخلاقية داخلية المنشأ: (11 أو 12) سنة وفيها يتم الانتقال إلى هذه المرحلة عن طريق التفاعل المتبادل بين مجموعة أصدقاء اللعب والاحترام المتبادل بينهم، فيتحرر فيها الطفل من قيود الراشدين، وتنمو لديه فكرة المساواة والعدالة، لهذا نجده يعمل طبقاً للنمط التعاوني أو التبادلي، وتتميز هذه المرحلة بالذاتية الخلقية، أي يؤخذ بعين الاعتبار نية الفرد للحكم على صحة فعله أو خطئه، فمعايير الفرد تتبع من داخله وعن اقتناع ذاتي ودون فرض خارجي من أي مصدر كان.

ويرى "بياجيه" أن المرحلة ما بين (8 و 11) سنة هي مرحلة انتقالية بين المرحلتين

سابقتي الذكر إنها فترة انتقال من الواقعية الأخلاقية إلى الاستقلال الذاتي (حسن عبد المعطي وهدي قناوي، 2003، ص445).

إن أهم الانتقادات التي وجهت إلى بياجيه هي انتقادات بعض علماء مدرسة التعلم الاجتماعي، فقد أشار سميث إلى أن مراحل النمو الأخلاقي عند بياجيه عامة جدا، أما هوفمان فيرى بأن نظرية بياجيه ناقصة من الناحية التجريبية وذلك لإهمالها عنصري العاطفة والدوافع في السلوك الأخلاقي.

2.3.5- نظرية النمو الأخلاقي عند كولبرغ (Kohlberg)

تعتبر هذه النظرية أحدث نظريات النمو الأخلاقي حيث تأثر "كولبرغ" بأفكار "بياجيه"، ثم طورها واستطاع تمييز فروق بين الحكم الخلفي عند كل من الطفل والمراهق والراشد. قدم تصوره الخاص المتعلق بنوعي الأخلاقية والمتمثل في وضع ثلاث مستويات تندرج ضمنها ستة مراحل وهذا بعد تحليل نتائج تجربته التي أجراها على 72 طفلا، تتراوح أعمارهم بين 10 و13 سنة، وقلة منهم تبلغ من العمر 16 سنة. واعتمد في دراسته على المقابلات الفردية التي تحتوي على عدد من القضايا الأخلاقية (من 50 إلى 100 قضية) مستخدما في ذلك مجموعة من القصص، ولم يقتصر تحليله على أحكام الأطفال في المواقف بل كان يستطرد ليكشف عن الأسباب التي أدت لذلك الحكم (فؤاد البهي السيد، 1998، ص219). ويرى كولبرغ أن التقدم من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى في النمو الأخلاقي لا يمثل معرفة أكبر بالقيم السائدة، بل يمثل تحولا في بنية أو إستراتيجية الأحكام الأخلاقية الأكثر نضجا، لأن النمو الأخلاقي يمر عبر عملية النمو ذاتها عن طريق إعادة تنظيم البنى المعرفية الناجمة عن تفاعل الفرد مع البيئة (عبد المجيد نشواي، 1987، ص490).

إن المراحل الأخلاقية التي صاغها كولبرغ تعد مراحل معرفية بالدرجة الأولى ولذلك فقد أكد على أنها :

أ – يمكن تطبيقها على جميع الأفراد عبر العالم وفي كل الثقافات.

ب – ثابتة الترتيب والتسلسل.

ج - المراحل الأخلاقية العليا تضم بناءات المراحل الأخلاقية الدنيا
(Kohlberg, 1976, P.32)

ومن ثم فإن مساهمة العالم النفساني الأمريكي كولبرغ تعتبر أهم مساهمة في العصر الحديث في ميدان النمو الأخلاقي بعد بياجيه، فقد توصل من خلال دراساته التي قام بها سنة 1958 إلى صياغة نمط للحكم الأخلاقي يتكون من ثلاث مستويات أخلاقية ويشمل كل مستوى مرحلتين.

3.3.5- نظرية النمو الأخلاقي عند ريست (REST)

على الرغم من أن ريست لا يختلف كثيرا عن كولبرغ في استعماله للمفاهيم النظرية في مجال النمو الأخلاقي إلا أنه يعد أول باحث يقدم اعتراضات وتعديلات على عمل كولبرغ نلخصها فيما يلي:

أ - إن مفهوم وجود الأفراد في مرحلة واحدة من مراحل النمو الأخلاقي مفهوم غير صائب لأنهم يظهرون مستويات أخلاقية عديدة.

ب - إن مفهوم سير النمو الأخلاقي خطوة إثر خطوة عبر المراحل واجه اعتراضات شديدة، لأنه من الصعب النظر إلى الفرد على أساس أن لديه نسقا تفكيريا واحدا لأنه يستخدم العديد منها حسب ما تمليه عليه الظروف وبسبب عوامل الأداء والمستويات المختلفة للنمو المعرفي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أهم عمل ارتبط بجيمس ريست هو اختبار تحديد القضايا الأخلاقية (Defining Issues Test - DIT-)، وقد استخدمنا هذا المقياس في هذه الدراسة نظرا للنتائج القوية والثابتة المتوصل إليها مع عينات مختلفة وفي ظروف متباينة.

6- الدراسات السابقة

في غياب دراسات سابقة حول الحكم الأخلاقي لدى المراهقين اليتامي، فإن الدراسات السابقة سيتم استعراضها في محورين أساسيين هما:

- الدراسات التي تناولت اليتيم من الأم وعلاقته ببعض المتغيرات.

- الدراسات التي تناولت الحكم الأخلاقي وعلاقته ببعض المتغيرات.

1.6- الدراسات التي تناولت اليتيم من الأم:

يحتل موضوع اليتيم من الأم مكانا بارزا في البحوث النفسية، ولأهمية هذا الموضوع أجريت دراسات عديدة تؤكد مدى الاهتمام المتزايد الذي ناله هذا المجال في البحث العلمي، ونلخص فيما يلي بعضا منها:

1- دراسة بارنيس (Barnes 1976): درس استجابة الأطفال لوفاة الأم وأثرها عليهم في مرحلة ما قبل المدرسة. وبالنسبة للعينة تكونت من طفلتين شقيقتين إحداهما 3 سنوات والأخرى سنة ونصف وقت وفاة الأم، أما الوسائل المستخدمة في الدراسة فهي التتبع والملاحظة لمدة عام كامل. أما النتائج المتوصل إليها فتثبت أن الطفلة الكبرى ظهرت عليها أعراض مرضية، كما عبرت عن كراهيتها لغياب الأم، وفسرت كل غياب على أنه موت. أما الطفلة الصغرى فقد ظهرت عليها أعراض عضوية ذات أصل نفسي كنقص الوزن والتبول اللاإرادي، كما استخدمت أختها الكبرى كأمر بديلة. وبعد عام كامل ظهر تحسن في سلوك الطفلتين حيث أظهرتا تقدما في النمو وقدرة على فهم الموت وعبرتا عن حزنهما الواضح لفقدان الأم.

من خلال نتائج هذه الدراسة نستنتج أن الطفلتين قد تأثرتا كثيرا لوفاة الأم من خلال ظهور أعراض مرضية، عضوية ونفسية وكانت استجابتهما للوفاة بالحزن الشديد (أنسى محمد أحمد قاسم، 2002، صص 130-131).

2- دراسة كندرا (Kendra 2000): درست تأثير اليتيم من الأم على بعض جوانب التوافق النفسي والاجتماعي لدى الأطفال في الملجأ ومقارنتهم بالعاديين وكانت الفرضية تؤكد على وجود تأثير لليتيم من الأم على التكيف النفسي والاجتماعي. أما العينة فكانت مجموعة من الأطفال نصفهم انفصلوا عن أمهاتهم، والنصف الآخر لم ينفصلوا عن أمهاتهم.

وفيما يخص النتائج المتوصل إليها فقد بينت أن الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم بسبب الموت يعانون من ضعف في الكفاءة الذاتية، وانخفاض في مستوى المرونة الاجتماعية، بالإضافة إلى ضعف في تكوين علاقات اجتماعية، وذلك عند مقارنتهم بسلوك أطفال لم

ينفصلوا عن أمهاتهم.

3- دراسة سبينز Spitz: درس العلاقة بين الحرمان من الأم والاكئاب لدى مجموعة من الأطفال، أما الوسيلة المستخدمة فهي الملاحظة. ومن أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث هي وجود اكتئاب عند الأطفال من جراء انفصالهم أو فقدانهم للأم، هؤلاء الأطفال كانوا مليئين بالحياة، وأصبحوا يكثرون من البكاء، كما صاروا بدون حراك، ويديرون رؤوسهم عن من يقترب منهم.

لكن ينتهي هذا الاكتئاب إذا وجد الطفل رعاية عاجلة وكافية تعوض غياب الأم (Olie Jean Pierre, 1983, P45).

4- دراسة رشدي حنين الجزائر: درس تأثير اليتيم من الأم على النمو الانفعالي والحالة الوجدانية العاطفية للأطفال في فترة المراهقة، وقد تكونت العينة من (20 مراهقا) من مدينة بسكرة، وكانت أعمارهم تتراوح ما بين (17 إلى 19 سنة) فقدوا أمهاتهم عندما كانت أعمارهم ما بين 6 إلى 11 سنة، أما الوسائل المستخدمة في الدراسة هي: اختبار روشاخ واختبار TAT والمقابلة العيادية.

أما النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فبينت أن المراهقين يعانون من وجود مظاهر لليأس والكآبة وكثرة أحلام اليقظة إلى جانب عدم القدرة على الاستقلال والخضوع للوالد والقلق والتشاؤم ومظاهر التمرد والعصيان والأمل بعودة الأم المتوفية (أنسى محمد أحمد قاسم، 2002، ص179).

من خلال العرض السابق المتعلق بالدراسات التي تناولت اليتيم من الأم يتبين لنا أن للحرمان الأمومي بسبب الوفاة تأثيرات متعددة على جميع النواحي خاصة النفسية والاجتماعية منها، وصعوبات بالغة في عمليتي التكيف المدرسي والعائلي، مما ينعكس سلبا على الحياة الطبيعية للأطفال والمراهقين الذين هم في أمس الحاجة إلى أمهاتهم في هذه الفترة الحرجة من حياتهم.

2.6- الدراسات التي تناولت الحكم الأخلاقي:

يعتبر موضوع النمو الأخلاقي من بين أهم الموضوعات التي لقيت اهتماماً متزايداً في العقود الأخيرة في بحوث علم النفس العربية منها والغربية، نلخص فيما يلي بعضاً من هذه الدراسات ذات الصلة ببحثنا:

1- دراسة صديق بن أحمد محمد العريشي (2004): الأحكام الأخلاقية وعلاقتها بالسلوك العدواني لدى عينة من اللقطاء وعينة من العاديين في سن المراهقة.

كانت العينة مكونة من 80 طالباً أعمارهم ما بين (15-20 سنة)، متوسط الأعمار لدى اللقطاء 17,5، في حين متوسط الأعمار لدى العاديين 17,01 اختيرت العينة بطريقة عشوائية من متوسطات وثانويات بمنطقة الغربية، استخدم الباحث المقياس الموضوعي للحكم الأخلاقي Srom من إعداد قيس وآخرون 1984، ومقياس السلوك العدواني من إعداد "أرنولد باص" A. Bass و"مارك بيرى" M. Perry (1992).

أما أهم النتائج فكانت: عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في نمو الأحكام الأخلاقية لدى اللقطاء والعاديين.

عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجات السلوك العدواني لدى اللقطاء والعاديين.

وجود علاقة ارتباطية بين درجات نمو الأحكام الأخلاقية ودرجات السلوك العدواني لدى اللقطاء والعاديين. (www.arabpsychology.com)

2- دراسة جلييلة عبد المنعم مرسى رحيمة: كانت دراسة ارتقائية لمراحل الحكم الأخلاقي وبعض العوامل المؤثرة فيه لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، تمت هذه الدراسة في محافظة الإسكندرية وكانت العينة مكونة من 240 تلميذاً موزعين على الفئات العمرية من 6 سنوات إلى 11 سنة، وتم استخدام:

- قصص بياجية في الحكم الأخلاقي (سوء التصرف، الكذب، السرقة، المسؤولية الجمعية، العدل، الجزاء).

- استبيان حول اتجاهات الأطفال نحو أسلوب المعاملة الوالدية.

أسفرت نتائج هذه الدراسة على تحقق فرضيات البحث حيث:

أ- ازدادت نسبة الاستجابات الناضجة على مقياس الحكم الأخلاقي بازدياد عمر الطفل.

ب- أثبتت الدراسة وجود فروق ذات دلالة إحصائية في نضج الحكم الأخلاقي بين الفئات العمرية من أطفال عينة الدراسة لصالح الفئات الأكبر سنا.

كما كانت العلاقة سالبة ودالة بين الأساليب غير السوية في المعاملة الوالدية وبين الحكم الأخلاقي.

وقد تحقق الفرض الثالث أيضا حيث أثبتت الدراسة وجود فروق دالة إحصائية في المستوى الاجتماعي والثقافي بين الأطفال الأكثر والأقل نضجا في الحكم الأخلاقي عند مستوى المعنوية 0.01 لصالح المجموعة الأولى.

3- دراسة جمال محمد عباس عبد الصادق: بعنوان "تطور الحكم الأخلاقي لدى الأطفال وعلاقته ببعض المتغيرات الديمغرافية" تتمثل هذه المتغيرات في (السن، الجنس، المعاملة الوالدية)، وكانت العينة مكونة من 150 تلميذا (74 ذكر و 76 إناث) من مدينة سوهاج، وقد استخدم الباحث الأدوات الآتية:

أ- قصص "بياجيه" لقياس الحكم الأخلاقي والمسؤولية الموضوعية واللفظية من خلال بعض المفاهيم الخلقية.

ب- اختبار النمو الأخلاقي لكوليرج.

ج- استبيان (القبول والرفض).

وكانت أهم النتائج التي توصل إليها البحث هي:

وجود فروق دالة إحصائية في نمو الحكم الأخلاقي بين الأعمار المختلفة لصالح الأكبر سنا.

لم توجد فروق دالة إحصائية في نمو الحكم الخلقى بين البنين والبنات عينة الدراسة.

وجدت علاقة ارتباطية بين نمو الحكم الأخلاقي ودرجة المعاملة الوالدية لدى الأطفال المكونين لعينة الدراسة (سهير كامل أحمد، 1999، ص 392).

4- دراسة نجوى العدوي 1982: كان الهدف من هذه الدراسة التي أجرتها الباحثة هو معرفة أثر وجود الطفل في وسط بيئي يتسم بالحرمان على النمو وإدراك القواعد الخلقية لديه، سواء كان ذلك نتيجة التفكك الأسري أو الإيداع في مؤسسات إيوائية، واستخدمت الباحثة بعض التقنيات من بينها: اختبار نمو وإدراك القواعد الخلقية عند الطفل لبياجيه، واختبار الصور الإسقاطي لقياس النمو الأخلاقي من تصميم الباحثة، واختبار عين شمس للذكاء الابتدائي، بالإضافة إلى استبيان أساليب التنشئة الذي عربته مایسة المغني.

أما أهم النتائج التي توصلت إليها العدوي فقد تمثلت في تقدم أطفال الأسر العادية يليهم الأطفال اللقطاء في نمو وإدراك القواعد الخلقية، بينما تأخر أطفال الأسر المفككة المودعين بالمؤسسات الإيوائية وأطفال الأسر المفككة الذين يعيشون مع أسرهم في نمو وإدراك القواعد الأخلاقية (أنسي محمد أحمد قاسم وسهير كامل أحمد، 2002).

5- دراسة بانسون 1980 Benson: قام الباحث بإجراء دراسة تجريبية حول موضوع الحكم الأخلاقي على عينة من المراهقين الفصامين ينتسبون إلى مركز خاص بالطب العقلي في مدينة نيويورك، وكانت الأداة المستخدمة في البحث هي: مقابلة الحكم الأخلاقي لكولبرغ Moral judgment interview Kohlberg.

أما النتيجة الأساسية التي خلصت إليها هذه الدراسة فهي أن المراهقين الفصامين يستعملون مستويات وأنماط من الأحكام الأخلاقية أقل نضجا مقارنة بالمراهقين العاديين.

من خلال العرض السابق المتعلق بالدراسات التي تناولت الحكم الأخلاقي، يتأكد لنا أن النمو الأخلاقي واحد من أهم المظاهر المختلفة للنمو الإنساني، وأنه كما يعتقد بياجيه ومن جاء بعده من أصحاب النظرية المعرفية أمثال لورانس كولبرغ وجيمس ريبست تتأثر الأحكام الأخلاقية للأفراد خاصة في مرحلي الطفولة والمراهقة بالظروف النفسية والاجتماعية التي يعيشون فيها.

7- فروض البحث

من خلال استعراضنا نتائج بعض الدراسات التي لها علاقة بهذا البحث أمكننا صياغة الفرضيات التالية:

1- المراهقون يتامى الأم بثنائيات مدينة الأغواط يستخدمون المرحلة الثالثة أكثر من غيرها من مراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ.

2- المراهقون العاديون بثنائيات مدينة الأغواط يستخدمون المرحلة الرابعة أكثر من غيرها من مراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ.

3- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين يتامى الأم والمراهقين العاديين في مستوى الحكم الأخلاقي المعبر عنه بالدرجة -P-.

4- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين يتامى الأم والمراهقين العاديين في استخدامهم لمراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ بثنائيات مدينة الأغواط.

8- منهج البحث وإجراءاته

1.8- أداة البحث: اعتمدنا في تحقيقنا لأهداف البحث على تطبيق اختبار تحديد القضايا الأخلاقية (DIT) الذي صممه العالم النفسي جيمس ريست، ويتكون من 6 قصص افتراضية تعالج مشكلات أخلاقية مختلفة، وبما أن الأفراد باعتبارهم على مستويات نمائية مختلفة فإن ريست يفترض بأن إدراكهم للقضايا الأخلاقية يكون من وجهات نظر مختلفة أيضا، وبالتالي فإن الأفراد سوف يختارون الجملة ا ورية طبقا لمستوى الحكم الأخلاقي لديهم، هذه الجمل ا ورية تأتي على شكل تساؤلات كل منها يمثل الاهتمامات الرئيسية بكل مرحلة من المراحل الرئيسية التالية: (2، 3، 4، 5، 5أ، 5ب، 6، P) في الإطار النظري لكولبرغ.

والمؤشر المستخدم للدلالة على مستوى الحكم الأخلاقي لدى الشخص هو درجة - P - باعتبارها ممثلة للأهمية التي يعطيها الفرد لاعتبارات المبادئ الأخلاقية.

2.8- صدق وثبات أداة الدراسة: أثبتت دراسات كثيرة أجريت في بيئات مختلفة صدق مقياس اختبار تحديد القضايا الأخلاقية، وقد قمنا بعرض النسخة العربية على بعض الأساتذة ا كمين في كل من جامعتي الجزائر العاصمة والأغواط، بأقسام

علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، وقد وافقوا على التغييرات اللغوية البسيطة التي أدخلناها على الاختبار حذفًا وزيادة حتى تتلاءم مع البيئة الجزائرية، وعموماً فإن القضايا الأخلاقية المطروحة على عينة الدراسة من خلال القصص الست مناسبة، وذات دلالة للكشف على أنماط تفكيرهم الأخلاقي.

أما بالنسبة لقياس ثبات الاختبار فقد قمنا بإعادة تطبيقه بعد فارق زمني مقداره 18 يوماً على أفراد العينة، وتم حساب معامل الثبات باستخدام معامل الارتباط بين الدرجات في المرتين فحصلنا على 0.81.

3.8- عينة الدراسة: باعتبار أن عدد المراهقين اليتامى من الأم قليل، فقد قمنا بمسح شامل لخمسة ثانويات بمدينة الأغواط وحصلنا على عشرين 20 مراهقاً فقدوا أمهاتهم إما في سنوات الاضطرابات التي مرت بها الجزائر أو بعدها، $N = 20$ ، منهم 10 ذكور و10 إناث، يتراوح سنهم ما بين 16 و18 سنة، ومتوسط سنهم 17 سنة و5 أشهر، مستواهم التعليمي هو الأولى والثانية والثالثة ثانوي. واخترنا من نفس المستويات الدراسية ومن نفس المؤسسات التربوية عدداً مماثلاً من المراهقين العاديين، $N = 20$ ، منهم 10 ذكور و10 إناث، متوسط سنهم 17 سنة و3 أشهر، ينحدر أغلب أفراد العينتين من مدينة الأغواط والقرى القريبة.

4.8- إجراءات التطبيق: تم تطبيق الاختبار على عيني البحث من المراهقين يتامى الأم ومن المراهقين العاديين بـ 5 ثانويات من مدينة الأغواط في الفترة ما بين 15 و25 ديسمبر الماضي، وذلك بمراعاة تثبيت ظروف تطبيق الاختبار من حيث تقنين الإجراءات، وقد تبين أن الزمن الذي استغرقته إجابات أفراد العينتين قدر بحوالي 50 دقيقة في المتوسط، وبعد جمع استمارات الاختبار قام الباحث بتصحيحها حسب الخطوات التي حددها ريست في كراسة التعليمات.

5.8- المعالجة الإحصائية: لتحليل نتائج هذه الدراسة استخدمنا الوسائل الإحصائية التالية:

- 1- المتوسط الحسابي. 2- الانحراف المعياري.
- 3- اختبار - ت - للدلالة الإحصائية ولمعرفة الفروق بين العينتين.

9- نتائج الدراسة ومناقشتها

اعتمد الباحث في تحليل نتائج الدراسة على استخدام المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل مرحلة من مراحل النمو الأخلاقي لعيني الدراسة:
الجدول رقم (1) يوضح النتائج التي أسفرت عنها التحليلات الإحصائية:
المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لمراحل النمو الأخلاقي لعيني البحث

العينة المراهقين يتامى الأم ن = 20		عينة المراهقين العاديين ن = 20		مراحل كولبرغ
الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	
3.9	4.7	2.12	3.3	2
5.31	14.4	3.13	14.7	3
5.72	22.3	3.43	24.3	4
2.57	6.3	5.03	6.2	5 أ
1.85	5.5	2	3	5 ب
2.60	2.7	1.44	0.9	6
3.61	14.5	4.96	10.1	P
11.48	24.16	7.84	16.83	P %

مناقشة نتائج الفرضية الأولى: يتضح من الجدول رقم (01) بأن عينة المراهقين يتامى الأم يستخدمون المرحلة الرابعة في أغلب أحكامهم الأخلاقية، وهي المرحلة التي تتميز بالحفاظ على القانون والنظام السائد في المجتمع، وهذه النتيجة لم تحقق فرض البحث القائل: إن المراهقين يتامى الأم بثانويات مدينة الأغواط يستخدمون المرحلة الثالثة أكثر من غيرها من مراحل الحكم الأخلاقي كما يقيسها اختبار تحديد القضايا لجيمس رست، ولعل الاتجاهات الدينية للمفحوصين وطبيعة القيم المجتمعية التي يعيشون فيها، ودرجة نهم وإيمانهم بالقضاء والقدر المتعلق بفقدانهم لأمهاتهم، والتكافل الاجتماعي الذي يلقونه من الأهل والأقارب كلها عوامل مهمة ساهمت في ظهور هذه النتيجة، أي أن المعتقدات الدينية للمفحوصين لها تأثير في اختياراتهم الأخلاقية، وبالتالي في استخدامهم للمرحلة الرابعة أكثر من غيرها من

مراحل النمو الأخلاقي الأخرى لكولبرغ.

ويتضح كذلك من الجدول رقم (01) أن أفراد عينة المراهقين يتأمن الأم تستخدم بدرجة ثانية تفكير المرحلة الثالثة في الحكم الأخلاقي إلى جانب المرحلة الرابعة، أي أخلاق المستوى الثاني من مستويات كولبرغ الثلاثة، وهو مستوى الأخلاق المتواضع عليها اجتماعيا والذي يتضمن المرحلة الثالثة، والتي تتميز باتجاه أخلاق الفرد المذهب، وهو اتجاه يهدف إلى إرضاء الآخرين، والسلوك حسب توقعاتهم لنيل استحسانهم وموافقتهم، كما يتضمن المرحلة الرابعة التي تتميز بالحفاظ على القوانين والنظام السائد في المجتمع بغض النظر عن صلاحيتها (رمضان محمد القذافي، 2000، ص 277).

مناقشة نتائج الفرضية الثانية: يتضح من الجدول السابق أيضا أن عينة المراهقين العاديين يستخدمون المرحلة الرابعة في أغلب أحكامهم الأخلاقية وهي المرحلة التي تتميز بالحفاظ على القانون والنظام السائد في المجتمع وهذه النتيجة تحقق الفرضية الثانية القائلة بأن:

المراهقين العاديين بثانويات مدينة الأغواط يستخدمون المرحلة الرابعة أكثر من غيرها من مراحل الحكم الأخلاقي كما يقيسها اختبار تحديد القضايا الأخلاقية لجيمس رست، حيث يرى كولبرغ أن الأفراد الذين يقعون في المرحلة الرابعة يكون سلوكهم الأخلاقي عادة مسائرا للسلطة القائمة ومتجنبين لرقابتها، فيسلك المراهق مسلكه الأخلاقي لكي لا يقع في الخطأ، ولهذا يطبق مع من تربطه بهم علاقة اجتماعية تهدف إلى إرضائهم.

ويتضح كذلك من الجدول السابق أيضا أن أفراد عينة المراهقين العاديين يستخدمون تفكير المرحلة الثالثة في الحكم الأخلاقي إلى جانب المرحلة 5 أ، كما يستخدمون بدرجة أقل المرحلة 5 ب.

مناقشة نتائج الفرضية الثالثة: بالنسبة للدرجة P وهي مؤشر النمو الأخلاقي الأكثر تداولاً في البحوث النفسية فقد توصلنا في هذه الدراسة إلى إيجاد فروق بين المجموعتين يقدر بـ 4,40 وهو فرق له دلالة إحصائية بين العيّنتين لصالح المراهقين العاديين، حيث P لدى المراهقين العاديين 14,5 في حين لدى المراهقين يتأمن الأم 10,1 وبهذا تحققت الفرضية القائلة: توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين يتأمن الأم والمراهقين العاديين في مستوى الحكم الأخلاقي المعبر عنه بالدرجة -P-، ولعل الفروق بين العيّنتين في استخدامهم لهذه المرحلة

والتي كشفت عنها هذه الدراسة، قد تعود إلى الحرمان من الأم بالوفاة حيث أن الحرمان من الأم الذي تمت الإشارة إليه قد يؤثر على النمو العقلي والمعرفي مما يؤدي إلى تأثير النمو الخلقي للارتباط الوثيق بين أنواع النمو المختلفة ومظاهرها. إضافة إلى أن المراهقين يتأمن الأم والذين يعيشون ظروفًا غير طبيعية وغير مستقرة في الأسرة، قد تكون سببا في ضعف الاستنارات المعرفية الملائمة وا فزة على التفكير الأخلاقي كما يعتقد ذلك بياجي.

هذا التفسير يتماشى مع معالم النظرية الأخلاقية، التي ترى بأن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يتطلب توفير جو يحفز على التفكير في مشكلات أخلاقية تشعر الفرد بعدم اتساق تفكيره، فيعمل على إيجاد حل يعيد الاتساق والتوازن في تركيبه المعرفي، كما يتفق مع وجهة نظر كولبرغ على ضرورة وجود صراع أخلاقي يجعل الفرد ينتقل من مرحلة إلى أخرى، وهذا التصادم يؤدي إلى التوازن المعرفي في مرحلة أعلى

(www.arabpsychology.com/library/theories/kohlberg-table.pdf)

مناقشة نتائج الفرضية الرابعة: بالعودة إلى التفصيلات المبينة في الجدول الأول يبدو أن عينة المراهقين العاديين تفوقوا في المراحل: (2، 5أ، 5ب، 6)، بينما عينة المراهقين يتأمن الأم تفوقوا في المراحل:

(3، 4). وتفصيلا لهذه النتائج المتعلقة بالفروق بين العينتين في هذه الدراسة، يتضح لنا أن المراهقين العاديين تفوقوا في استعمالهم لمراحل النمو الأخلاقي التي تميز الأخلاق ما بعد المتواضع عليها اجتماعيا، أي المراحل:

(5أ، 5ب، 6) كما حددها "كولبرغ". بينما تفوق المراهقون يتأمن الأم باستعمالهم لمراحل النمو الأخلاقي التي تميز مستوى الأخلاق المتواضع عليها اجتماعيا (3، 4). ولعل هذه النتيجة تؤكد نظرة جيمس رست للمراحل الأخلاقية وهي أنه لا يمكن وصف الأشخاص بأنهم يقعون في مرحلة معينة من مراحل النمو الأخلاقي كما يعتقد ذلك "كولبرغ"، بل يجب وصفهم بأنهم يستخدمون كل المراحل بنسب متفاوتة، وكلما تقدموا في نموهم الأخلاقي زاد استعمالهم للمراحل العليا من النمو الأخلاقي وقل استعمالهم للمراحل الدنيا (Rest et Al, 1978, P.264).

من خلال هذه النتائج المتوصل إليها يتبين لنا بأن هناك فروق بين المراهقين يتأمن الأم

والمراهقين العاديين في أنماط أحكامهم الأخلاقية، وللتأكد من دلالة هذه الفروق نستخدم اختبار ت- لجميع مراحل النمو الأخلاقي للعينتين. والجداول التالية توضح نتائج دلالة الفروق بين العينتين في جميع مراحل النمو الأخلاقي كما يقيسها اختبار تحديد القضايا:

دلالة الفروق بين العينتين في المرحلة 2

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار ت-
مراهقون عاديون	20	4.7	3.9	0.94
مراهقون يتامى الأم	20	3.3	2.12	

الجدول رقم: (02)

يتبين لنا من الجدول رقم (02) أن مستوى أداء المراهقين يتامى الأم في المرحلة 2 من مراحل النمو الأخلاقي لكونه أقل من مستوى أداء المراهقين العاديين، ومع ذلك فهذا الفرق غير دال إحصائياً، وبالتالي لا توجد أية فروق دالة إحصائية في هذه المرحلة بين أداء العينتين.

دلالة الفروق بين العينتين في المرحلة 3

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار ت-
مراهقون عاديون	20	14.4	5.31	0.14
مراهقون يتامى الأم	20	14.7	3.13	

الجدول رقم (03)

من خلال الجدول رقم (03) نلاحظ أن مستوى أداء المراهقين العاديين في المرحلة الثالثة أعلى من مستوى أداء المراهقين يتامى الأم، لكن الفرق بين العينتين بسيط وليس له أية دلالة إحصائية.

دلالة الفروق بين العينتين في المرحلة 4

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار ت-
مراهقون عاديون	20	22.3	5.72	0.89
مراهقون يتامى الأم	20	24.3	3.43	

الجدول رقم (04)

يتضح لنا من الجدول رقم (04) أن المراهقين يتامى الأم هم الذين تفوقوا في

استخدامهم للمرحلة الرابعة من مراحل النمو الأخلاقي مقارنة بالمراهقين العاديين، ومع ذلك فإن هذا الفرق ليس له أية دلالة إحصائية.

دلالة الفروق بين العيّنتين في المرحلة 5أ

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار -ت-
مراهقون عاديون	20	6.3	2.57	0.02
مراهقون يتامى الأم	20	6.2	5.03	

الجدول رقم (05)

تبين النتائج أعلاه أن المراهقين العاديين تفوقوا على المراهقين يتامى الأم في استخدام المرحلة 5أ من مراحل النمو الأخلاقي. وبالرجوع إلى الجداول الإحصائية نجد أن هذا الفرق غير دال إحصائياً.

دلالة الفروق بين العيّنتين في المرحلة 5ب

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار -ت-
مراهقون عاديون	20	5.5	1.85	2.75
مراهقون يتامى الأم	20	3	2	

الجدول رقم (06)

أما الجدول رقم (06) فيتضح منه أن المراهقين العاديين تفوقوا أيضاً في استخدام المرحلة 5 ب على المراهقين يتامى الأم بفارق 2.5، وهو فرق له دلالتة الإحصائية عند مستوى المعنوية 0.01 أي عند مستوى ثقة 99 %.

دلالة الفروق بين العيّنتين في المرحلة 6

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار -ت-
مراهقون عاديون	20	2.7	2.60	3.18
مراهقون يتامى الأم	20	0.9	1.44	

الجدول رقم (07)

أما بالنسبة للفرق بين العيّنتين في استخدام المرحلة 6 فيظهر من الجدول رقم (07)

أن المراهقين العاديين يستعملون المرحلة 6 أكثر من المراهقين يتامى الأم، ولقد بلغ الفرق بين متوسط المراهقين العاديين ومتوسط المراهقين يتامى الأم 1.8 لصالح المراهقين العاديين، وهو فرق له دلالة الإحصائية عند مستوى المعنوية 0.05.

دلالة الفروق بين العينتين في المرحلة P

العينه	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار -ت-
مراهقون عاديون	20	14.5	3.61	2.16
مراهقون يتامى الأم	20	10.1	4.96	

الجدول رقم (08)

تبين نتائج الجدول رقم (08) أن مستوى أداء المراهقين يتامى الأم بالنسبة إلى درجة أقل من مستوى أداء المراهقين العاديين بفارق قدره 4.4، ومن ثم توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المتوسطين عند مستوى المعنوية 0.05 أي عند درجة ثقة 95 %.

ولعل هذه الفروق بين العينتين التي كشفت عنها هذه الدراسة ترجع كما قلنا إلى اختلاف الحالة النفسية والظروف الاجتماعية التي يعيشها المفحوصون يتامى، إذ أن فقدان المراهقين لأمهاتهم يؤثر بشكل سلبي على حياتهم وسلوكهم وتصرفاتهم، خصوصا وأنهم في مرحلة حرجة من حياتهم. وبما أن الفروق ذات الدلالة الإحصائية بين العينتين التي توصلنا إليها في هذه الدراسة موجودة في المرحلتين 5 ب و6، وموجودة أيضا في المرحلة P، وهي مؤشر النمو الأخلاقي حسب اختبار تحديد القضايا الأخلاقية لجيمس ريست، فإن الفرضية الرابعة التي توقعنا فيها وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين يتامى الأم والمراهقين العاديين في استخدامهم لمراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ بثانويات مدينة الأغواط قد تحققت.

10- خلاصة

هدفت الدراسة إلى التعرف على أنماط الحكم الأخلاقي عند المراهقين العاديين والمراهقين يتامى الأم بثانويات مدينة الأغواط، وقد أسفرت الدراسة على عدد من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

1- أوضحت هذه الدراسة أن النمط السائد الذي تستعمله عينة المراهقين يتامى الأم في إصدار الأحكام الأخلاقية هو تفكير المرحلة الرابعة (أخلاق القانون والنظام) وبدرجة أقل تفكير المرحلة الثالثة من مراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ.

2- بينت الدراسة أيضا أن النمط السائد الذي تستخدمه عينة المراهقين العاديين في إصدار الأحكام الأخلاقية هو تفكير المرحلة الرابعة (أخلاق القانون والنظام) من مراحل النمو الأخلاقي لكولبرغ.

3- بالنسبة للدرجة P التي تعبر على مؤشر الحكم الأخلاقي في هذه الدراسة فقد بلغت عند المراهقين العاديين 14.5، بينما عند المراهقين يتامى الأم فبلغت 10.1، وهما درجتان منخفضتان نسبيا إذا ما قورنتا بدرجات P في دراسات أخرى مماثلة لهذه الدراسة، ومع عينات مشابهة، يمكن إرجاعها إلى صعوبة الأداء على مقياس DIT للحكم الأخلاقي.

4- بينت نتائج هذه الدراسة أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين العاديين والمراهقين يتامى الأم في استخدامهم لمراحل النمو الأخلاقي الستة، وربما يكون هذا راجع إلى تأثير وفاة الأم، أو إلى تأثير عوامل أخرى كالحالة الاجتماعية والاقتصادية والنفسية للمفحوصين ومستوى ذكائهم وغيرها من العوامل التي لم يتم بحثها في هذه الدراسة.

وفي ضوء هذه النتائج المتحصل عليها نوصي بإجراء دراسات أخرى للتحقق من أثر بعض المتغيرات التي تساعد في الكشف على طبيعة الفروق المعنوية بين العينتين مثل الذكاء والحالة الاجتماعية والاقتصادية للمفحوصين.

وأخيرا فإن هذه الدراسة محاولة تهدف إلى استشارة الباحثين في موضوع النمو الأخلاقي لكونه موضوعا مهما وحيويا يحتاج إلى المزيد من الدراسات، خاصة إذا علمنا أن هناك نقص واضح في هذا النوع من الدراسات في بيئتنا العربية.

المراجع

المراجع باللغة العربية

- 1- أنسي محمد أحمد قاسم وسهير كامل احمد (2002)، أطفال بلا أسر، مركز الإسكندرية للكتاب، طبعة 1، الإسكندرية.
- 2- بوحامدة جيلالي (1988)، "دور النشاط الاجتماعي والمعرفي في النمو الأخلاقي"، مجلة الثقافة، العدد 101 السنة 18، الجزائر.
- 3- بوحامدة جيلالي (1989)، "مستوى الحكم الأخلاقي لدى طلاب معهد علم النفس بجامعة وهران"، المجلة التربوية، العدد 21، الكويت، جامعة الكويت.
- 4- جيمس ريس (1983)، اختبار تحيد القضايا الأخلاقية، ترجمة محمد رفقي، ط1، دار السلام، الكويت.
- 5- حسن عبد المعطي وهدي قناوي (2001)، علم نفس النمو، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- 6- رمضان محمد القذافي (2000)، علم النفس النمو، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
- 7- سهير كامل أحمد (1999)، الصحة النفسية والتوافق، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر.
- 8- صديق بن أحمد عريشي (2005)، "الأحكام الخلقية وعلاقتها بالسلوك العدواني لدى عينة من نزلاء مؤسسة التربية النموذجية والتعليم العام في مرحلة المراهقة بمنطقة مكة المكرمة"، رسالة ماجستير غير منشورة، مكة المكرمة.
- 9- عبد المجيد نشواني (1987)، علم النفس التربوي، ط3، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- 10- فؤاد البهي السيد، الأسس النفسية للنمو (1997)، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة.
- 11- محي الدين توق وعبد الرحمن عدس (1984)، أساسيات علم النفس التربوي، ط 1، دار جون وايلي، عمان.

المراجع باللغة الأجنبية

- 1- Kohlberg, L. (1976) Moral stages and moralization: The cognitive developmental approach in T. Lickona (ed) Moral development and behavior: Theory research and social issues. Holt, Rinehart and Winston.
- 2- McCandless, B. and Evans (1973) Children and youth: Psychological development, Dryden press.
- 3- Piaget J. (1932) The moral judgment of the child, Rout ledge and Kegan Paul.
- 4- Rest, J. R. Davison, M.L.& Robbins, (1978) Age trends in judging moral issues : A review of cross-cultural longitudinal and sequential studies of the Defining Issues Test, Child development, 49 vol 2.

5- Olie Jean Pierre , (1983) Le Praticien et Les Dépressions Modernes, eddon , Paris , France.

المواقع

www.arabpsychology.com

www.arabpsychology.com/library/theories/kohlberg-table.pdf

معرض برنامج الإرشاد بالعمل مع التلاميذ المتفوقين

جمعة أولاد حيموده

قسم علم النفس المركز الجامعي بغرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة:

تهدف التربية عموما إلى خلق أفراد أسوياء، متكاملين في مختلف النواحي، ويأتي الإرشاد النفسي من أهم الركائز في تحقيق هذه الأهداف، لما يقدمه من خدمات لكافة أفراد المجتمع، ونجد داخل المؤسسات التربوية أخصائيين يمارسون هذه العملية، ويعملون على مساعدة التلاميذ على تحقيق التوافق المدرسي، "ويجب ألا ننسى أن توجيه المتفوقين وإرشادهم مطلب ديمقراطي يعكس إيماننا مطلقا بالحق المطلق لكل فرد في إتاحة الفرصة لتنمية قدراته إلى المستوى الذي توصله إليه إمكانياته" (صالح حسن الداهري، الإرشاد النفسي أساليبه ونظرياته، 2008، ص 226)

خاصة أن هذه الفئة لها دور فعال في المجتمع، وللعمل مع التلاميذ المتفوقين وإرشادهم ينبغي توفر خطط وأسس منهجية، هذه الأخيرة يمكن صياغتها في برنامج يهدف لتحقيق الذات والصحة النفسية، وتحقيق التوافق وتحسين العملية التعليمية، وفي هذا المجال سنعرض برنامج إرشادي للعمل مع التلاميذ المتفوقين في المرحلة الثانوية.

1- تعريف الإرشاد النفسي:

تعددت تعريف الإرشاد النفسي ولعل أهمها:

"العملية الرئيسية في التوجيه ويشير إلى العلاقة التفاعلية التي تنشأ بين المرشد والمسترشد بقصد توجيه نمو الفرد بحيث تصل إمكانياته إلى أقصى درجة ممكنة وفقا لحاجاته

وميو له واتجاهاته" (جودت عبد الهادي، سعيد حسن الغزة، 2007، ص14)

ومن المفيد أن نتعرف على مناهج الإرشاد النفسي فهناك ثلاث مناهج لتحقيق أهداف التوجيه والإرشاد النفسي هي "المنهج أنمائي يقدم للأفراد العاديين من خلال مراكز الإرشاد النفسي والمنهج الوقائي يقدم الطريقة التي يجب أن يسلكها الفرد مع نفسه ومع الآخرين حتى يقي نفسه وباقي الآخرين، والمنهج العلاجي ويقدم للفرد لرفع المعاناة عنه وحل مشكلاته ومساندته للتخلص من أي حالة تؤثر وقلق حتى يعود لحالة اعتدال" (سهير كامل أحمد، 2000، ص9)

التلميذ المتفوق:

"التلميذ الذي تؤهله مجموع علاماته ومعدله لأن يكون أفضل زملائه ومحك التفوق هو حصيلة أداء التلميذ في الامتحانات" (يوسف مصطفى القاضي وآخرون، 1981، ص426)

أهم مشاكل التلاميذ المتفوقين في المرحلة الثانوية:

في استبيان وزع على التلاميذ المتفوقين ببعض ثانويات مدينة غرداية، ومدينة ورقلة للموسم 2010/2009 لمعرفة أهم الخدمات التي ينتظرها التلميذ المتفوق من مستشار التوجيه المدرسي توصلنا على ما يلي:

- يتقدم قلق الامتحان في مقدمة المشكلات بنسبة 60%
- يليه نظرة التلميذ لذاته بنسبة 30 %
- ثم مشكل قلق التفوق بنسبة 10 %

برنامج الإرشاد

"برنامج مخطط منظم في ضوء أسس علمية، لتقديم الخدمات الإرشادية المباشرة وغير المباشرة، فردياً

أو جماعياً، لجميع من تضمهم المؤسسة، بهدف مساعدتهم في تحقيق النمو السوي والقيام بالاختيار الواعي المعتقل ولتحقيق التوافق النفسي داخل المؤسسة وخارجها" (حامد عبد السلام زهران، 1980، ص499)

عرض البرنامج الإرشادي:

الحاجة إلى البرنامج:

"أكدت الدراسات التي تناولت التلاميذ المتفوقين إلى أهمية إعداد برنامج خاص بهم، من أجل إرشادهم وتوجيههم نحو التفوق وتنمية طاقاتهم إلى مستوى ممكن" (يوسف مصطفى القاضي، وآخرون مرجع سابق ص435).

ومن أهم مشاكل التلميذ المتفوق: الشعور بالتردد والشك، وعدم الثقة بالنفس وقلق الامتحان وكذا اضطرابات عمليات التفكير الأقصى كالاقتادات السالبة وصعوبة تركيز الانتباه وقد أظهرت الدراسات على أهمية الإرشاد والعلاج المعرفي السلوكي في خفض هذه المشاكل.

الأسس التي يقوم عليها البرنامج:

الأسس العامة:

مراعاة حق التلميذ المتفوق في التقبل دون شرط، و"كذا حقه في الإرشاد النفسي كما ينبغي مراعاة مرونة السلوك الإنساني وقابليته للتعديل" (حامد عبد السلام زهران، مرجع سابق، ص63).

الأسس الفلسفية:

يستمد البرنامج أصوله الفلسفية من النظرية المعرفية السلوكية، إلى جانب اعتماده على الأسس الفلسفية التي تحوي أخلاقيات الإرشاد وسرية المعلومات و"اتباع السلوك المهني والشخصي الذي يتصف مع كرامة المهنة" (سيد عبد الحميد مرسى، 1976 ص154)

الأسس النفسية:

وتراعي الخصائص العامة للنمو في مرحلة الثانوي والفروق الفردية بين تلاميذ هذه المرحلة المتمثلة في النمو التكويني "والنمو الوظيفي ويشتمل في نمو الوظائف الجسمية والعقلية والاجتماعية لتماشى مع حياة الشخص واتساع نطاق بيئته" (السيد فؤاد البهي، 1977، ص144).

وتغيرات جنسية وتغيرات جسمية ويلاحظ تفوق البنين على البنات في القوة العضلية ولهذا التوافق أثره في التكيف الاجتماعي للمراهق ومن تأكيد مكانته وشخصيته" (الخلبوسي، سعدون سلمان، والكيال دحام، 1996 ص222)

التغيرات الانفعالية وتتمثل في ثورات من الخوف أو التمرد، كما تبدو صورة أحلام اليقظة والتغيرات الاجتماعية وتتمثل في تفاعل المراهق مع المجتمع الذي نشأ فيه.

الأسس التربوية:

وتهدف إلى تحقيق توافق شخصي واجتماعي ودراسي في المؤسسة وخارجها.

الأسس الاجتماعية:

ويعني استخدام الأساليب والفنيات التي تساعد في عملية الإرشاد منها أسلوب التعزيز حسب كل جلسة وذلك عن طريق الإرشاد الجماعي. (أحمد محمد الزبادي، هشام الخطيب، 2001 ص 170)

الأسس الفسيولوجية والعصبية:

وتتضمن التدريب على الاسترخاء العضلي ومراعاة الأسس التي تساعد الجسم للوصول إلى حالة الاسترخاء الكامل.

الأسس الفيزيائية:

وتشمل تهيئة الجو الإداري من مكان مناسب وهو المكتب والأدوات والوسائل اللازمة لتطبيق البرنامج.

الخدمات التي يقدمها البرنامج:

يقدم البرنامج الخدمات التالية:

- الخدمات الإرشادية: تتمثل في مساعدة التلاميذ المتفوقين في خفض قلق الامتحان وقلق التفوق لديهم وزيادة الثقة بالنفس.

- الخدمات الوقائية: يتم تدريب التلاميذ المتفوقين وتدريبهم على استخدام تقنية التحكم الذاتي والاسترخاء وكيفية التغلب على قلق الامتحان وزيادة الثقة بالنفس.

- الخدمات التربوية: وتشمل تحسين الأداء و مافظة على المستوى الجيد.

- الخدمات الاجتماعية والإنسانية: وتتمثل في تدعيم العلاقات بين التلاميذ خلال الجلسات الأولى أثناء تدريبهم على فنيات البرنامج والاهتمام باهتمامات التلاميذ ومشاركتهم

أنشطتهم التي يحبوها وتقبل التلاميذ في جميع حالاتهم النفسية وحل مشكلاتهم النفسية كلما أمكن ذلك. (بطرس حافظ بطرس، 2007، ص151)

– الخدمات الترويجية: وتشمل حث التلاميذ على استغلال أوقات الفراغ في ممارسة الأنشطة الرياضية والمطالعة.

– خدمات متابعة: "وتتمثل في المتابعة لكل خطوة من خطوات البرنامج للوقوف على التأثيرات التي أحدثها البرنامج في التلاميذ، ومتابعتهم في كافة شؤونهم المدرسية والسؤال الدائم عنهم". (أحمد محمد الزبدي، هشام الخطيب، مرجع سابق ، ص 172)

التخطيط العام للبرنامج:

تشمل هذه العملية تحديد الأهداف العامة والأهداف الإجرائية و تتوى والإجراءات والأساليب المتبعة في تنفيذه ، وتقييم الجلسات الإرشادية، وتحديد مدة البرنامج، وعدد الجلسات الإرشادية ومدة كل جلسة ومكان إجراء البرنامج.

خطوات البرنامج:

1- أهداف البرنامج: تنقسم أهداف البرنامج إلى جانبين:

الجانِب الأول يشمل الأهداف العامة وتتحدد في:

هدف نمائي: "ويهدف إلى تنمية التلاميذ المتفوقين لزيادة تحصيلهم والارتقاء بسلوكهم إلى أقصى درجة ممكنة من النجاح من خلال التوجيه المناسب" (جودت عبد الهادي، سعيد حسني العزة، 1998، ص22)

هدف وقائي: حيث يكتسب التلاميذ بعض الفنيات المعرفية التي تساعدهم على مواجهة المواقف المثيرة لمشاكلهم وبخاصة مشكل قلق الامتحان.

هدف علاجي: ويهدف إلى خفض قلق الامتحان لدى التلاميذ المتفوقين وزيادة الثقة والإرادة في أنفسهم من خلال تدريبهم على بعض الأساليب المعرفية ا تتواء في البرنامج.

الجانِب الثاني يشمل الأهداف الإجرائية وتتحدد في:

العمل المثمر داخل الجلسات ومن خلال القيام بأداء الأنشطة والواجبات المنزلية التي يكلف بها التلاميذ والمتعلقة باستخدام الاسترخاء وتتلخص هذه الأهداف في :

- التعرف على الدور الذي يؤديه التلميذ المتفوق في المؤسسة.
- اكسابه المهارات اللازمة من أجل التفوق باستخدام بعض الأساليب المعرفية والسلوكية التي تم تعلمها في البرنامج.
- التدريب على استخدام بعض الأساليب السلوكية والتي تم تعلمها أثناء تطبيق البرنامج وتساعد في خفض قلق الامتحان مثل الاسترخاء.
- التعرف على الدور الذي يؤديه الاسترخاء في زيادة التركيز وخفض القلق.

2- مراحل تطبيق البرنامج:

تمر عملية تطبيق البرنامج بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: التي يتم من خلالها التعارف وتبادل المعلومات بين المرشد والتلاميذ المتفوقين، وتقديم الإطار العام للبرنامج وأهدافه وذلك من خلال جلسات البرنامج. (بطرس حافظ بطرس، مرجع سابق، ص153)

المرحلة الثانية: وهي المرحلة المعرفية والتي تهدف لتقديم خطة عمل لزيادة الثقة بالنفس، والتغلب على قلق الامتحان للتلميذ المتفوق، من خلال تقديم المهارات المعرفية، وذلك من خلال جلسات الإرشاد.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة السلوكية وتهدف لتقديم الإجراءات وممارستها بعد تقديم المفهوم النظري لها وذلك من خلال جلسات الإرشاد.

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة النهائية وتهدف لتلخيص أهداف البرنامج وتقييم البرنامج، وتهيئة التلاميذ لإنهاء البرنامج.

3_ الأسلوب الإرشادي المستخدم في تنفيذ البرنامج:

يستخدم أسلوب الإرشاد الجماعي في تنفيذ البرنامج الإرشادي، حيث تكون أغلب جلسات الإرشاد جماعية، وعدد التلاميذ (5) خمس تلاميذ، وذلك حتى يسهل إرشادهم بشكل جيد ومناسب والتفاعل فيما بينهم وتكوين علاقات فيما بينهم.

4_ الوسائل المستخدمة في البرنامج:

يمكن استخدام الوسائل التالية:

أ_ شريط تسجيل للتدريب على الاسترخاء.

ب_ جهاز العاكس الرقمي.

ج_ أوراق عمل متنوعة تخدم أهداف جلسات الإرشاد.

5_ المدى الزمني للجلسة الإرشادية:

عدد الجلسات اثني عشرة جلسة (12) بمعدل ثلاث جلسات في الأسبوع والمدة الزمنية لكل جلسة 40 دقيقة، عدد التلاميذ خمسة تلاميذ في كل مجموعة.

5- محتوى الجلسات:

يتم انتقاء الجلسات الإرشادية بناء على الأهداف التي تم تحديدها في البرنامج وكذا الأساليب الإرشادية والوسائل المستخدمة وتم مراعاة ما يلي في اختيار محتوى الجلسات:

- استخدام الألفاظ والعبارات الواضحة لدى التلاميذ .
- تقديم مفاهيم البرنامج في ترتيب من البسيط إلى المعقد.
- تنظيم أهداف و أسلوب الجلسات بحيث يشجع التلاميذ للتعبير عن مشاعرهم المختلفة.
- استخدام الأنشطة الترفيهية لتعزيز التفاعل بين تلاميذ المجموعة الواحدة.
- تصميم أنشطة الجلسات والواجبات المنزلية على أساس تطبيق ما تم تعلمه في كل جلسة.

6- خطوات تدريب التلاميذ على مهارات البرنامج الإرشادي:

- تقديم نموذج من قبل المرشد للمفاهيم والمهارات الجديدة في كل جلسة.
- دعوة التلاميذ للمشاركة في الأداء مع المرشد.
- تشجيع التلاميذ على الأداء بشكل مستقل عن المرشد.

7- الفنيات المستخدمة في البرنامج:

- "يستخدم المرشد في البرنامج الإرشادي بعض الفنيات المعرفية كالتحكم الذاتي، وأسلوب حل المشكلة، والواجبات المنزلية، وفنيات سلوكية كالاسترخاء والنمذجة

ولعب الدور والتعزيز أو فنيات أخرى طبقا لطبيعة أهداف البرنامج". (بطرس حافظ بطرس، مرجع سابق، ص155)

- التحكم الذاتي: يهدف هذا الإجراء إلى تعليم التلميذ المتفوق مواجهة المثيرات المسببة للقلق والأفكار المرتبطة به، ومحاولة إيقافها ثم الاسترخاء وتعزيز الذات ويستخدم في البرنامج الأسلوب المعرفي السلوكي، حيث يركز على أفكار التلميذ، حيث يطلب منه ملاحظة أفكاره في المواقف المتنوعة المثيرة للقلق ، ثم تعليمه كيف يغير هذه الأفكار ويضع مكانها أفكار غير قلقة، وهناك نموذج يشجع التلميذ على سؤال نفسه عدة أسئلة بصوت عال: هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل حدث هذا بالفعل؟ ما الدليل على ذلك؟ ويشجع التلميذ المتفوق على ذلك، حيث نبدأ أولاً بتدريبه على الاسترخاء الذي يساعده في التحكم في الأعراض النفسية بنفسه ثم تقييم الذات ومكافأتها.

وهذا الإجراء يؤكد على تعليم التلميذ كيف يعرف ويلاحظ تصريحات الذات المرتبطة بالقلق والمشاعر والأفكار ، ومتى استطاع التعرف على الإفصاح الذاتي غير المتوافق، فإنه سيعمل مع المرشد لإيجاد تصريحات ذات تساعد على خفض القلق.

"ويتضمن هذا الإجراء ملاحظة وتسجيل الأفكار والمشاعر والسلوكيات باستمرار، ثم تقييم الذات وتفسير الأداء في الاتجاه الإيجابي وأخيرا تعزيز الذات وتقديم مكافأة لاستخدام التلميذ استراتيجيات الإرشاد والتحكم في القلق" (بطرس حافظ بطرس، مرجع سابق، ص156)

و يمكن إتباع أربعة مراحل متسلسلة هي:

المرحلة الأولى: يتم تعريف الأفكار السيئة التوافق، فيتعلم التلميذ المتفوق هنا أن يستطيع تغيير السلوك المشكل الذي يعاني منه، بتحديد الأفكار الخاطئة.

المرحلة الثانية: يتم تعليم التلميذ المتفوق كيف يركز على جسمه.

المرحلة الثالثة: يتم فيها تنمية مهارة الإحساس بالمثير المسبب للمشكل لديه.

المرحلة الرابعة: يبدأ في تعلم مهارات التحكم الذاتي المتضمن ملاحظة وتقييم ومكافأة الذات وأسلوب حل المشكلة وهي خطوات تساعد على التخلص من المشكلة.

- ويتم استخدام هذه التقنية بتعليم التلاميذ المشاعر الايجابية والسلبية ثم الانتقال إلى المشاعر السلبية كالإحساس الزائد بالقلق، حيث يتعلم التلاميذ أن شعورهم بالقلق هو سلوك يمكن تعديله، ويطلب منهم كتابة مواقف مثيرة لمشاعر مختلفة حدثت لهم ، ثم تعليمهم ملاحظة أنفسهم في مواقف القلق والأفكار والكلمات التي يتحدثون بها عن أنفسهم والأعراض التي تظهر عليهم، ثم مساعدتهم على استخدام عبارات ايجابية واستخدام الاسترخاء للتغلب على القلق، ثم تقييم أنفسهم (تقييم الذات) ثم تعزيز الذات وهي خطوة هامة ومناسبة للتلميذ لأنها تساعد على النمو السليم والثقة بالنفس.

- التدريب على أسلوب حل المشكلة: وهي أن يسأل التلميذ نفسه أسئلة جادة من أجل حل مشكلته، يسأل نفسه ما المشكلة؟ ما الحلول التي أستطيع أن أنجحها لحل المشكل؟ ماذا يمكن أن يحدث لي إذا أنا فعلت كل هذه الحلول؟، ما هو الحل المناسب؟، ما هي نتيجة تطبيق الحل؟

- الواجبات المنزلية: وهي الواجبات التي يكلف بها التلاميذ المتفوقين كتابة الواقع المثيرة للقلق لديهم وما يرتبط بها من أفكار وأعراض، والتدريب على الاسترخاء، حيث يحدد في كل مرة واجب منزلي تتغير أهدافه حسب موضوع وهدف كل جلسة، ويتم مكافأة التلميذ على أدائه في كل مرة في حالة تعذر فهم الواجب يقدم المرشد نموذجاً له.

- الاسترخاء: وفيه يتعلم التلميذ كيف يقلل الشعور بالقلق وكيف يسترخي ويمارس النفس العميق ويتعرف التلميذ إلى الفرق بين العضلات المشدودة والمسترخية.

- "النمذجة": حيث يتعلم التلميذ من خلال ملاحظة الآخرين في تعاملهم مع المثيرات وذلك بجعل التلميذ يشاهد نماذج تمارس بنجاح التعامل مع المثيرات المسببة للقلق الامتحان لديه، وذلك عن طريق النموذج الرمزي. (محمد محروس الشناوي، دت ص 134)

- لعب الدور: ويتضمن تدريب التلميذ على أداء جانب من السلوك الاجتماعي عليه أن يتقنها ويكتسب المهارة فيها.

- التعزيز: وذلك بتقديم تعزيزا عند أدائه للمهارات المطلوبة منه ويشترك التلميذ مع المرشد بإعداد قائمة للمكافآت التي في الغالب عبارة عن كتب ، حيث يبدأ بالمادية ثم المعنوية ويتم تدريب التلميذ على تعزيز ومكافأة نفسه من خلال أسلوب التحكم الذاتي.

8_ نموذج لبرنامج إرشادي للعمل مع التلاميذ المتفوقين:

رقم الجلسة	موضوع الجلسة	عدد الجلسات	مدة الجلسة	الفنيات السلوكية	الفنيات المعرفية
1	التعارف بين المرشد والتلاميذ	01	40 د	التعزيز	
2	عرض محتوى البرنامج	01	40د	لعب الدور-التعزيز	الواجبات المنزلية
3-4	المشكل في الحياة اليومية (قلق الامتحان)	02	40د	لعب الدور -النمذجة والتعزيز	الواجبات المنزلية _الإفصاح الذاتي
5	التدريب على الاسترخاء	01	40د	لعب الدور-النمذجة والتعزيز-التدريب على الاسترخاء	الواجبات المنزلية_الإفصاح الذاتي
6	الحوار الذاتي ودوره في قلق الامتحان	01	40د	لعب الدور_النمذجة والتعزيز	الواجبات المنزلية
7	تعديل الحديث الذاتي السلبي إلى حديث ذات ايجابي	01	40د	لعب الدور _التدريب على الاسترخاء_التعزيز	الواجبات المنزلية_الإفصاح الذاتي
8	تنمية أسلوب حل المشكلة للتحكم في قلق الامتحان	01	40د	النمذجة _التدريب على الاسترخاء _التعزيز	الواجبات المنزلية_أسلوب حل المشكلة
9	التقييم والمكافأة الذاتية ودورها في التحكم في قلق الامتحان	01	40د	لعب الدور_النمذجة _التعزيز على الاسترخاء	تقييم الذات _الواجبات المنزلية
10	تقديم خطة للتغلب على قلق الامتحان	01	40د	لعب الدور والنمذجة والتعزيز	الواجبات المنزلية
11	الجلسة الختامية	01	40د	التعزيز	

12	جلسة التقييم	01	40د	التعزيز	
----	--------------	----	-----	---------	--

العرض على ا كمين

بعد أن تم تصميم البرنامج الإرشادي في صورته المبدئية تم عرضه على مجموعة من المتخصصين أغلبهم أساتذة متخصصين في مجال التوجيه والإرشاد المدرسي لأحد رأيهم حول:

- مدى تسلسل وتربط خطوات البرنامج الإرشادي.
- مدى مناسبة محتوى البرنامج لهدف الدراسة.
- مدى مناسبة الإجراءات المستخدمة في البرنامج.

الدراسة الاستطلاعية:

بعد العرض على ا كمين أصبح البرنامج في صورته النهائية، غير أننا قمنا بأجراء دراسة استطلاعية للبرنامج بمساعدة مستشارة للتوجيه والإرشاد المدرسي على عينة تتكون من 5 تلاميذ متفوقين وفي ضوء تلك الدراسة تمكنا من التعرف على:

- المدة المناسبة لكل جلسة.
- عدد الجلسات الملائم.
- التدريب على الفنيات المستخدمة.

المراجع المعتمدة:

- 1_ أحمد محمد الزبادي، هشام الخطيب، مبادئ التوجيه، الدار العلمية للنشر والتوزيع، ط1، الأردن 2001
- 2_ بطرس حافظ بطرس، إرشاد الأطفال العاديين، دار المسيرة للطباعة والنشر، ط1، عمان 2007.
- 3_ الحلبيوسي، سعدون سلمان، والكيال دحام، قراءات في علم النفس الطفولة والمراهقة، كلية المأمون الجامعية، دط، بغداد، 1996
- 4_ الزعي، أحمد محمد، الإرشاد النفسي نظراته اتجاهاته مجالاته، دار الحكمة، دط، اليمن، 1994
- 5_ السيد فؤاد البهي، الأسس النفسية للنمو، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، القاهرة، 1977
- 6_ الشناوي محمد محروس، نظريات الإرشاد والعلاج النفسي، دار غريب، دط، القاهرة، 1996
- 7_ القاضي يوسف مصطفى وآخرون، الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي، دار المريخ، ط1، الرياض، 1981
- 8_ حامد عبد السلام زهران، التوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، ط2، القاهرة، 1980
- 9_ زهران محمد حامد، قياس قلق الامتحان، الإرشاد النفسي المصفر للتعامل مع المشكلات الدراسية، عالم الكتب،

دط، القاهرة، 2000

- 10- صالح حسن الداهري، الإرشاد النفسي أساليبه ونظرياته، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2008.
- 11_ سهير كامل أحمد، التوجيه والإرشاد النفسي، مركز الإسكندرية للكتاب، دط، 2000.
- 12_ سهام درويش، مبادئ الإرشاد النفسي، دار القلم، دط، 1988
- 13_ سيد عبد الحميد مرسى، الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي والمهني، مكتبة الخانجي، ط1
- 14_ عبد الهادي جودت، العزة سعيد حسني، مبادئ التوجيه والإرشاد النفسي، دار الثقافة، ط1، عمان، 1998.
- 15_ عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي السلوكي المعرفي الحديث، دار الفجر، 1994
- 12 القاهرة، 1976

أثر المنظومة التربوية الجزائرية في كفاءة المعلم التعليمي

عقيل بن ساسي

مدرسة إعدادية بولاية ورقلة و غرداية

عقيل بن ساسي

قسم علم النفس المركز الجامعي غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

1. موضوع الدراسة:

يمثل المعلم العمود الفقري في المنظومة التربوية، وبمقدار كفاءته تكون فاعلية التعليم، حيث تتضاءل جدوى المباني والإمكانات المادية، بل والمناهج الدراسية في غيبة المعلم الكفاء، ويذهب البعض إلى القول أن وجود هذا المعلم يعوض في كثير من الأحيان ما يتواجد من نقص في العوامل الأخرى، ويتوازي مع ذلك القول أن المعلم القدير قد يجعل من المنهج الذي يراعى طبيعة نمو المتعلمين أداة تربوية هامة، بينما قد يتقلب منهج تربوي في يد معلم غير كفاء إلى خبرات مفككة قيمة لها. (صلاح الخراشي، د.ت، ص 367)

ويؤيد ذلك ما أشار إليه عزيز حنا إلى أن نجاح عملية التعليم يرجع إلى دور المعلم بما يمثله 60 %، في حين أن ما تمثله العناصر الأخرى من أركان عملية التعليم كالمناهج المدرسية والإدارة يتجاوز ما نسبته 40 %.(عبد الرحمن صالح الأزرق، 2000، ص2)

ومن بين الأدوات التي يقاس بها أداء المعلم نتائج التعليم باعتبارها المؤشر المهم في تحديد كفاءة المعلم، حيث يركز هذا الاتجاه على العائد (المخرجات)، وتحتل اختبارات التحصيل مركزا هاما كأدوات للتقويم عند أصحاب هذا الاتجاه (صلاح الدين محمود علام، 2000، ص97). ويرى شيفلسون وبوسو Shavelson & Pusso 1977 أن محكات الكفاءة

تستند الى مقاييس التح ميل كمقياس لكفاية المعلم، ومن ثم فان كفاية المعلم هي التأثير الإيجابي في غرس مجموعة من القيم و اتجاهات لدى التلاميذ، والتي عادة ما تأخذ شكلا من أشكال أهداف التربوية المرتبطة بسلوك أو قدرات أو عادات مرغوبة. (عبد الرحمن صالح الأزرق، 2000، ص 56)

وإذا كانت المجتمعات المتطورة تستمد بناء قطاعاتها المختلفة مما توفره لها مخرجات التعليم بأنواعه، والتي تقاس بالتح ميل الدراسي (محمد بن معجب الحامد، 1996، ص1) فإن انخفاض التح ميل الدراسي في الرياضيات خلال السنوات الأخيرة أصبح مشكلة تثير قلقا كبيرا لدى المربين (Flockton & Crooks, 1998). وأكد عبد الرحيم أحمد محمد شكوى العديد من المعلمين وأولياء الأمور والقائمين على شؤون التربية والتعليم من تدني مستوى التح ميل الدراسي في الرياضيات (خالد بن محمد بن ناصر الخزيم، 2001، ص3).

وفي الجزائر يرح بيوشى Bebbouchi بأن النتائج السلبية المسجلة في السنوات الأخيرة في الرياضيات تركنا في حيرة، حيث أن 2% فقط من التلاميذ تمكنوا من الحصول على المعدل في شهادة التعليم الأساسي في سنة 1996. (محمد الساسي الشايب، 1999، ص4) ويتوجبه النظر إلى نسب نجاح شهادة التعليم الأساسي (2004-2005-2006) والمتوسط (2007-2008-2009) في الرياضيات لو بقي ورقلة وغرداية المبهوبة في الجدول الآتي:

الجدول رقم 1: يبين عدد المتوسطات ونسب النجاح وعدد المتوسطات ا ققة لنسبة نجاح $\leq 50\%$ ونسبتها المئوية في نتائج شهادة التعليم الأساسي والمتوسط لو بقي ورقلة وغرداية في مادة الرياضيات

الو ية	دورة	عدد المتوسطا	النسبة المئوية للنجاح	عدد المتوسطات ا ققة لنسبة نجاح $\leq 50\%$	نسبتها المئوية
--------	------	--------------	-----------------------	--	----------------

			ت		
% 1.19	1	% 13.75	86	2004	ورقلة
% 0	0	% 20.46	86	2005	
% 26.58	21	% 38.18	79	2006	
% 15.11	13	% 33.02	86	2007	
% 11.49	10	% 32.59	87	2008	
% 20.68	18	% 39.11	87	2009	
نتائج ش.ت.أ لسنوات 2004-2005-2006 لم نحل عليها من الم مدر					غرداية
% 13.95	6	% 34.38	43	2007	
% 2.22	1	% 23.44	45	2008	
% 15.55	7	% 38.39	45	2009	

نلاحظ أن نسب النجاح ضعيفة جدا، وأن أحسنها كانت في دورة 2006 لشهادة التعليم الأساسي 2006، إ أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب رغم أنها دورة للمعدين.

وتورد الدراسة ال مادة عن مركز التوجيه المدرسي بورقلة أن من المواد التي أثرت سلبا على نتائج شهادة التعليم الأساسي لسنة 2005 مادة الرياضيات. (مركز التوجيه المدرسي بورقلة، 2005، ص13)

وباستقراء نتائج اختبار التح يلي الأول لمادة الرياضيات - في الدراسة 1 ستطلاعية التي قام بها الباحث في إطار إعداد مذكرة الماجستير - والذي طبق على 16 قسما (غير مكتظ) بواقع 512 تلميذا من تلاميذ الثالثة متوسط (بمعدل 32 تلميذ في القسم) نجد أن نسبة الحاصلين على المعدل بلغت 38.31% فقط، وهي نسبة ضعيفة إذا ما قورنت بالظروف التي تدرس فيها هذه الفئة، وبآمال التي يعقدها القائمون على الإصلاحات التربوية من تحسن في مستوى التح يل الدراسي في الرياضيات. (عقيل بن ساسي، 2007، ص 4) هذه الإصلاحات التي جاءت بناء على المبادئ العامة للسياسة التربوية الجديدة الخاصة بإصلاح التعليم الأساسي (المجلس الأعلى للتربية، 1998) وبناء على نتائج التقرير الخاص بإصلاح النظام التربوي الجزائري الذي قام به كل من بيلوتير وفاشون Pelletier G et Vachon P، قامت المنظومة التربوية الجزائرية بتبني "المقاربة بالكفاءات"، باعتبار هذه الأخيرة بديل حديث "ليبادوجيا الأهداف" حيث سمح ذلك بإعادة النظر في المناهج

التعليمية والكتب المدرسية وبالتالي تحديث التعليم في الجزائر قد الإصلاح التربوي وانتقال من فلسفة التعليم إلى فلسفة التكوين، وذلك حتى يفتح التعليم الجزائري يتماشى وتحديات العولمة الحالي. (فاطمة الزهراء بوكرة أغلال، 2006، ص 68)

هذا الإصلاح الذي شهدته الجزائر بدءا من الموسم الدراسي 2003/2004 جاء دون تكوين أو إعداد للمعلم على كيفية تنفيذ هذه الإصلاحات على أرض الواقع، حيث أن مجرد التغيير في المناهج لن يأتي بنتائج مرجوة ما لم يتم الإعداد العلمي للمعلم باعتباره الركيزة الأساسية في بناء التعليم وتطويره. وتعود خطورة دور المعلم إلى كونه موجها للعملية التربوية، وبين يديه أجيال يشرف على تنمية شخصيتها وتطويرها، وبالتالي يحدد حاضر الأمة ومستقبلها. (عبد اللطيف بن حمد الحلبي وحمزة عبد الحكيم الرياشي، 1994، ص 17)

ولعل من أهم العقبات التي تجعل الأمر أكثر تعقيدا في الدول النامية هي توفير المعلمين وتدريبهم بالقدر الكافي لتحمل عبء التغيير المنشود، ومن الملاحظ أن كثيرا من مشروعات تغيير وتطوير المناهج تحطمت عند باب الفشل الدراسي لعجز المعلمين على القيام بالمطلوب منهم. وهذا يعزى إلى عوامل عدة يأتي على رأسها عدم كفاءة المعلمين وربما تباين المادة التي يتلقونها مع احتياجات الحقيقية، ولعل هذا الأخير يشير إلى أن التدريب الأساسي للمعلمين لن يكون كافيا ومتماشيا مع المتغيرات، وبدون استمرار التأهيل طيلة فترة بقاء المعلم بالمهنة. (م. طفي عبد السميع وسهير محمد حوالة، 2005، ص ص 170-171)

ويرى ابن جماعة أنه يلزم على المعلم دوام الحرص على مزيد و ملازمة الجد واجتهاد، واشتغال مطالعة وتعليقا وحفظا وتثقيفا وبحثا ويضيق شيئا من أوقات عمره في غير ما هو به دمه من العلم. ويقول ابن مسكوية: "مكانة المعلم تتوقف على علمه بل على حسن عمله، وسياسته الناجحة (صلاح الدين إبراهيم حماد، 2009)

وبإعادة توجيه النظر إلى نتائج الرياضيات في ظل سنوات الإصلاح يلاحظ أن تحصيل التلاميذ في الرياضيات يرقى إلى المستوى المطلوب مما يوحي بمشكلة في تكوين أساتذة الرياضيات - إذ يعتبر التحصيل الدراسي مؤشر أساسي لقياس أداء الأستاذ - لذا تأتي هذه الدراسة للبحث في أحد جوانب مشكلة تكوين أساتذة الرياضيات وهو اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة. حيث ينظر للتدريب أثناء الخدمة على أنه بمثابة ضبط وتوجيه وحرارة لطاقت النمو المهني الذاتية لدى المعلم، ودفعها نحو إتقان مهارات التعلم أو والتعليم ثانيا

وذلك لمبدأ التعليم المستمر الذي أصبح ضرورة علمية تفرضها عدة اعتبارات منها الانفجار المعرفي وبخاصة في مجال العلوم والتكنولوجيا، والذي يفرض على المعلم أن يظل على اطلاع دائم بالمستجدات في مجال تخصصه (عنتر لطفي محمد، 1996) إن التكوين أثناء الخدمة هو عملية أساسية لتطوير الفعل التربوي التعليمي الذي يمكن لأي نظام تربوي أن يحقق أهدافه المتوخاة بدونه وذلك وفق خطة تكوينية واضحة المبادئ محددة الأهداف مبنية على أساس الحاجيات التربوية والعلمية المعبرة عنها من طرف المعنيين أنفسهم تكون متماشية مع التطورات. (وزارة التربية الوطنية، 2010)

ويعتبر متغير إعداد المعلم محل اهتمام العديد من الدراسات التي نذكر منها:

دراسة صالح نويوة (2009) التي هدفت إلى فحص اختلافات في آراء أساتذة التعليم الثانوي حول فعالية برامج التكوين أثناء الخدمة وذلك حسب متغيرات: الجنس، المادة المدروسة، الخبرة المهنية. وقد تم جمع البيانات عن طريق استبانة صممها الباحث لغرض الدراسة تناولت الأمور الثلاثة لبرنامج التكوين أثناء الخدمة (أهداف البرنامج المقدم، فعالية محتوياته، فعالية طرق التقويم المعتمدة)، وبعد التأكد من صلاحية الأداة طبقت الدراسة على 110 أستاذا ثانويا بدائرة عين أزال وية سطيف بالجزائر. ومن خلال تحليل البيانات إحصائيا خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- أبدى أفراد العينة اهتماما مميزا بالتكوين المستمر، واقتناعهم بدوره في تحسين الأداء.
- الطلب المتزايد على التكوين (الحاجات الشخصية) في مواضيع بيداغوجيا التدريس، علم النفس النمو -مرحلة المراهقة-، الكفايات التدريسية المتعلقة بتنشيط وإدارة الصف.
- عدم دقة وإجرائية أهداف البرامج التكوينية، فقد أكد جميع الأساتذة بأنهم أثناء مشاركتهم في دورات التكوين أثناء الخدمة لم يتعرفوا على أهداف كل موضوع أو دورة بشكل كاف ودقيق، على الرغم من الأهمية البالغة لهذا الموضوع.
- أنشطة التقويم المرتبطة بالتكوين أثناء الخدمة تزال تعتمد على التلقين أو اكتساب.
- وجود اختلاف في آراء الأساتذة حول فعالية التكوين أثناء الخدمة يعزى إلى متغير الخبرة المهنية.

• عدم وجود اختلاف في آراء الأساتذة حول فعالية التكوين أثناء الخدمة يعزى إلى متغيري الجنس والمادة المدرسة. (صالح نويوة، 2009)

دراسة كجان د. م (Kagan.D.M ;1992) التي هدفت إلى تحديد مكونات النمو المهني المرتبط بخبرات التدريس ال فني لمعلمي المستقبل والمبتدئين. حيث قام الباحث في هذه الدراسة بمراجعة أربعين دراسة نوعية حول تعلم التدريس، وفي ضوء هذه المراجعة حدد خمسة مكونات للنمو المهني المرتبط بالخبرات ال فنية لمعلمي المستقبل والمبتدئين وهي:

- الحذر الزائد مما يعرفونه ويعتقدونه عن التلاميذ والأقسام.
- إعادة بناء صورة مثالية وغير دقيقة للتلاميذ ولأنفسهم كمعلمين.
- التحولات في اهتمام من الذات إلى قضايا تدريسية ثم إلى تعلم التلاميذ.
- تطوير الروتين القياسي للإدارة والتدريس.
- تطوير مهارات حل المشكلة ذات الأبعاد المتعددة.

وتوصل الباحث إلى أن خبرة التدريس سوف تكون أكثر فائدة إذا تحقق ما يأتي:

- قدمت برامج إعداد المعلم معلومات أكثر حول الروتين ال فني.
- شجعت الطلبة على بناء دور عن ذواتهم كمعلمين.
- زودت الطلبة بفرص التفاعل الواسع مع التلاميذ في الخبرات الميدانية المبكرة.
- وضعت الطلبة مع معلمين متعاونين يتمسكون بمعتقدات مختلفة عن معتقداتهم لتعزيز اختلاف المعرفي. (Kagan.D.M. , 1992, PP 129-179)

دراسة صلاح الخراشي (1994) التي هدفت إلى:

- التعرف على بعض الكفايات الرياضية لدى طلاب شعبة الرياضيات في كليات التربية، ومدى فهمهم بنية الرياضيات وطبيعتها.
- وصف مقترح تحليل الرياضيات المدرسية لتنمية الكفايات الرياضية، وفهم بنية الرياضيات، وطبيعتها لديهم، ودراسة فعالية تنفيذ هذا المقترح في تنمية هذين الجانبين لدى طلاب شعبة الرياضيات في كليات التربية.

حيث تكونت عينة الدراسة من مجموعتين:

- المجموعة الأولى أجريت عليها دراسة وصفية وشملت 144 طالبا بالسنة الرابعة شعبة الرياضيات في كليات التربية بالإسكندرية ودمنهو ووطنطا خلال الموسم الجامعي: 1991-1992.

- والأخرى أجريت عليها دراسة تجريبية وضمت طلاب السنة الرابعة شعبة الرياضيات في كلية التربية بجامعة الإسكندرية خلال الموسم الجامعي 1992-1993، حيث وزعوا على مجموعتين ضابطة وتجريبية قوامها كل منهما 61 طالبا وطالبة، وقد تم تنفيذ المقترح التجريبي من خلال مقياس طرق تدريس الرياضيات.

وبعد جمع البيانات باستعمال اختبار الكفايات الرياضية، واختبار لفهم بنية الرياضيات وطبيعتها وتحليل النتائج إحصائيا توصل الباحث إلى النتائج الآتية:

- وجود فرق بين متوسط درجات أفراد عينة الدراسة الوصفية في اختبار الكفايات الرياضية، و75% من النهاية العظمى - كمحك لتقييم الأداء - لغير صالحهم، وهذا يعني بداية وجود فرق في الكفايات الرياضية على مستوى تذكر التعريفات، والنظريات، والقوانين، واستخدامها في حل المشكلات.

- وجود فروق بين متوسط درجات أفراد عينة الدراسة الوصفية في اختبار فهم بنية الرياضيات وطبيعتها، و65% من النهاية العظمى - كمحك لتقييم الأداء - لغير صالحهم.

- يوجد ارتباط إيجابي ذو دلالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد اختبار الكفايات الرياضية ومتوسط درجاتهم في اختبار فهم بنية الرياضيات وطبيعتها. - فاعلية مقترح تحليل الرياضيات المدرسية في تنمية الكفايات الرياضية موضع الدراسة، وتنمية فهم بنية الرياضيات وطبيعتها. (صالح الخراشي، 1994، صص 241-300).

من خلال الدراسات السابقة نسجل ما يأتي:

- تناولت الدراسة الأولى في الترتيب (دراسة صالح نويوة) التكوين أثناء الخدمة لأساتذة التعليم الثانوي والذي يشمل الأيام الدراسية والندوات التربوية مع مفتشي المواد واللقاءات التنسيقية الداخلية التي تتم بين الأساتذة داخل الثانوية الواحدة. - واهتمت الدراسات الثانية والثالثة بالتكوين قبل الخدمة.

- مكونات النمو المهني المرتبط بالخبرات الـ فنية لمعلمي المستقبل أو المبتدئين، والشروط التي تجعل خبرة التدريس أكثر فائدة. هذا بالنسبة لدراسة كاجان Kagan التي اهتمت بالجانب الأدائي.

- أما دراسة صلاح الخراشي فاهتمت بالجانب المعرفي الذي يعنى بتنمية الكفاءات الرياضية وفهم بنية الرياضيات.

إِ أننا في هذه الدراسة سنتناول التكوين أثناء الخدمة بشقيه الأدائي المتمثل في الندوات التربوية مع مفتش الرياضيات لأساتذة التعليم المتوسط والتكوين المعرفي الذي كفلت به جامعة التكوين المتواصل، مركزين على اتجاههم نحو عملية التكوين أثناء الخدمة وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية:

2. تساؤلات الدراسة:

ما هي اتجاهات أساتذة الرياضيات للتعليم المتوسط بو يتي ورقلة وغرداية نحو التكوين أثناء الخدمة؟

2-1. التساؤلات الفرعية:

1. ما طبيعة استجابة أساتذة الرياضيات للتعليم المتوسط بو يتي ورقلة وغرداية على كل بند من بنود استبانة اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة؟

2. هل تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافاً ذا إحصائية باختلاف الجنس (إناث/ذكور)؟

3. تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافاً ذا إحصائية باختلاف الخبرة المهنية (أكبر من 14 سنة/أقل أو يساوي 14 سنة)؟

وكإجابة مؤقتة على التساؤلات السابقة وفي ظل انعدام الدراسات السابقة- في نفس الموضوع وفي حدود علم الباحث- فإن فرضيات الدراسة تـ مـ اـ غ على النحو الآتي:

3. فرضيات الدراسة:

نتوقع اتجاهات سلبية نحو التكوين أثناء الخدمة لأساتذة الرياضيات في المرحلة المتوسطة بو يتي ورقلة وغرداية.

3-1. الفرضيات الفرعية:

1. نتوقع استجابات ذات اتجاه سالب على كل بند من بنود إستبانة اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة.

2. تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافاً ذا إحصائية باختلاف الجنس (إناث/ذكور).

3. تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافاً ذا إحصائية باختلاف الخبرة المهنية (أكبر من 14 سنة/أقل أو يساوي 14 سنة)

4. أهمية الدراسة:

تبرز أهمية الدراسة الحالية في أنها:

1. تعتبر الدراسة الأولى (في حدود علم الباحث) التي تعنى بمتغير اتجاه لأساتذة الرياضيات التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة في ظل الإصلاح الذي تشهده المنظومة التربوية الجزائرية.

2. توفر لـكقائمين على تكوين أساتذة الرياضيات إطاراً علمياً مقنعاً في تحديث أهداف وآليات واستراتيجيات التكوين أثناء الخدمة.

5. الهدف من الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى:

1. الكشف عن اتجاهات أساتذة الرياضيات للتعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة.

2. بناء أداة تقيس اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة.

3. الكشف عن مدى تأثير اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة بمتغيري الجنس، الخبرة المعنية.

4. حدود الدراسة

تكونت عينة الدراسة من 90 أستاذاً للتعليم المتوسط في الرياضيات بـو يتي ورقلة وغرداية مستفيدون من التكوين أثناء الخدمة موزعون حسب متغيري الدراسة كالآتي:

الجدول رقم 02: يوضح توزيع العينة حسب متغيري الجنس والخبرة المهنية في و يتي ورقلة وغرداية

الو ية	الجنس	الخبرة المهنية
--------	-------	----------------

	ذكور	إناث	<= 14 سنة	> 14 سنة
ورقلة	43	11	45	09
غرداية	29	07	30	06
المجموع	72	18	75	15

وقد تم اختيار العينة بالطريقة العشوائية الطبقية وبالتمثيل النسبي من المجتمع الأصلي الذي يضم 150 أستاذا حاضرا متحانات التكوين التي تنظمها جامعة التكوين المتواصل حيث حضر بوية ورقلة 91 أستاذا وبوية غرداية 59 أستاذا، وقد سحب من المجتمع الأصلي 90 فردا يمثلون عينة الدراسة، أي بنسبة 60 %. كما أجريت الدراسة الميدانية في الفترة الممتدة ما 27 جوان إلى 02 جويلية 2009 بجامعة التكوين المتواصل بكل من و يتي ورقلة وغرداية.

ولجمع بيانات الدراسة صمم الباحث استبانة ا تجاه نحو التكوين أثناء الخدمة، والتي مرت بالخطوات الآتية:

❖ الإطلاع على الأدب النظري من أجل ا ستفادة من جهود الباحثين السابقين، إ أنه لم نجد أداة تقيس هذا المتغير بالضبط رغم كثرة الأدوات التي تقيس ا تجاهات لمختلف السمات النفسية.

❖ تحديد التعريف الإجرائي للمتغير قيد الدراسة على النحو الآتي:

ا تجاه نحو التكوين أثناء الخدمة هو شعور وجداني يظهر في حب أو كره الإقبال أو الإعراض على التكوين أثناء الخدمة (أو عدم ذلك) أو الطرح الفعلي للأسئلة (أو عدم ذلك) على الأستاذ من طرف الطالب في ا ماضرات أو الأعمال التطبيقية أو على زملائه الطلبة، ينشأ من خلال المدركات التي تكونت لدى الطالب على أهمية طرح الأسئلة ال نفية، ودور كل من الأسرة والأستاذ في تشجيع الطلبة على ذلك.

❖ بناء على الخطوة السابقة تم تحديد أبعاد هذه السمة، ثم تحليل كل بعد إلى مؤشرات، كما تم تغطية هذه المؤشرات ببندود على النحو الآتي:

- أهمية التكوين أثناء الخدمة: البنود 1-5-7-12-13-15-16.

– المكونون(مفتشوا مادة الرياضيات وأساتذة الرياضيات المشرفين على التكوين):
البنود 6-8-9-11-17.

– المكون الوجداني: البنود 14-18.

– المكون السلوكي: البنود 2-3-4-10.

❖ عرض الأداة على 7 محكمين (أساتذة جامعيين لهم دراسات في اتجاهات) حيث
تم الموافقة على جميع بنود بأنها تقيس سمة اتجاه.

❖ تطبيق الأداة على عينة استطلاعية تقدر بـ: 30 أستاذ رياضيات معنيون بعملية
التكوين أثناء الخدمة:

– حساب الـ مدق بطريقة التناسق الداخلي: حيث أن كل البنود كان لها ارتباط ذو
دلالة إحصائية مع اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة وذلك عند 0.05 أو 0.01.

– حساب الـ مدق التمييزي لبنود الأداة حيث أن جميع البنود كان مميزة بين
المجموعتين الطرفيتين في العينة الاستطلاعية.

– حساب ثبات الأداة باستعمال معامل ألفا كرونباخ والذي بلغت قيمته 0.901
وهي قيمة عالية تدل على ثبات الإستبانة.

❖ تحديد المتوسط الحسابي 54 (18 × 3) كمعيار لتحديد طبيعة اتجاه، فإذا كان
درجة المفحوص أكبر من 54 دل على أن له اتجاه إيجابي نحو التكوين أثناء الخدمة، أما إذا
كانت درجته أقل من 54 دل على أن له اتجاه سالب نحو التكوين أثناء الخدمة.

6. مصطلحات مرتبطة بالدراسة:

1-7. التكوين أثناء الخدمة: هو التكوين الذي تنظمه جامعة التكوين المتواصل،
يتلقى فيها الأستاذ تكويناً معرفياً في مقاييس أساسية واستكشافية حيث تمثل مقاييس
الرياضيات المقاييس الأساسية، ويدوم هذا التكوين لستة سداسيات حسب نظام ل.م.د.
للحصول على شهادة ليسانس مهنية. كما يشمل أيضاً الندوات التربوية والأيام الدراسية
التي ينظمها مفتشوا التربية والتعليم الأساسي لمادة الرياضيات لـ أستاذة الرياضيات
لمرحلة التعليم المتوسط.

7. المعالجة الإحصائية:

تمت المعالجة الإحصائية للبيانات باستعمال برنامجي Excel 2007 و SPSS 17.0.

8. عرض وتحليل نتائج فرضيات الدراسة:

9-1. عرض وتحليل وتفسير نتائج الفرضية 1:

نمت الفرضية الفرعية الأولى على أنه: "نتوقع اتجاهات سلبية نحو التكوين أثناء الخدمة لأساتذة الرياضيات في المرحلة المتوسطة بويحي ورقلة وغرداية".

الجدول رقم 03: يبين عدد ذوي اتجاه السلبي ونسبتهم المئوية

عدد أفراد العينة	عدد ذوي اتجاه		نسبتهم المئوية
90	السالب	66	73.33 %
	الموجب	24	26.66 %

نلاحظ من الجدول السابق أن عدد ذوي اتجاه السالب نحو التكوين أثناء الخدمة 66 فردا أي بنسبة تقدر بـ: 73.33 % وهي نسبة عالية تشمل تقريبا ثلاثة أرباع عينة الدراسة وعليه نقبل الفرضية المتنبأة.

وتفسر هذه النتيجة بأن التكوين أثناء الخدمة بـ يغتنه الحالية يستجيب إلى احتياجات أساتذة الرياضيات في مرحلة التعليم المتوسط خاصة تلك المتعلقة بتأهيلهم لتنفيذ المناهج الحديثة والمرتبطة ارتباطا مباشرا بعملهم اليومي مع تلاميذهم في الصفوف الدراسية، وتعود شدة اتجاه السالب إلى أن الأساتذة يشعرون بضغوط من الوصاية التي تلزمهم بالتدريس وفق المقاربة بالكفاءات في حين أن الندوات التربوية مع المكونين تركز في أغلبها على الملاحظات على الكفايات اللازمة للوصول إلى تحقيق، كما أن التكوين في جامعة التكوين المتواصل يركز على الجانب المعرفي ويهمل بشكل كامل التدريب على الأداء. وهذا المطلب في نوعية التكوين-التركيز على الأداء- هو ما ذهبت إليه توصيات الورشة التعليمية في عمليات وأساليب تدريب المعلمين أثناء الخدمة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة سنة (1988) إلى أنه يجب الأخذ باتجاهات الجديدة في طرق الأداء، وأن تتجه إلى جانب العمل التعاوني والممارسة الذاتية مع إلقاء أحاديث قيادية ومفيدة توضح الخبرات المستخدمة والإكثار من حلقات المناقشة لتكوين اتجاهات صالحة إزاء مسائل التربية وعرض

التجارب التوضيحية بالنماذج العملية مع استعمال أسلوب النقد واختراع وسائل التحسين. (محمد أوباجي، 2006، ص 113) كما أن طبيعة التكوين قبل الخدمة أو أثناءها عندنا- في الجزائر- يزال يتبع طرقا تقليدية يكون فيه المتكون مجرد ملتقي وهو ما يخلق اتجاهات سلبية نحو عملية التكوين. وننفق في هذا الطرح مع الباحث حبيب تيلوين إذ يقول: لقد أصبح تكوين المعلم في أفضل الحالات سوى تجمعات لمعلمين تلقى فيها دروس توضيحية من قبل أحد المعلمين تتبع بمناقشة وهذا فيما يتعلق بالتكوين أثناء الخدمة. أما التكوين الأولي فإنه يختلف عنه كثيرا في المدة والتركيز على المعارف الأكاديمية. (حبيب تيلوين، 1998، ص ص 403-405)

ولمعرفة طبيعة اتجاه أساتذة الرضيات للتعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة بشكل أدق حللنا استجابات أفراد العينة على كل بند من بنود الإستبانة وذلك من خلال عرض وتحليل الفرضية الفرعية الأولى.

9-2. عرض وتحليل نتائج الفرضية الفرعية 1:

نستنتج من الفرضية الفرعية الأولى على أنه "نتوقع استجابات ذات اتجاه سالب على كل بند من بنود إستبانة اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة".
الجدول رقم 04: يبين عدد ذوي اتجاهات الموجبة ونسبتهم المئوية وعدد ذوي اتجاهات السالبة ونسبتهم المئوية على كل بند من بنود الإستبانة

الرقم	البنود	عدد ذوي اتجاه الموجب	نسبتهم المئوية %	عدد ذوي اتجاه السالب	نسبتهم المئوية %
1	أرى أن عملية التكوين أثناء الخدمة تعود بأي نتائج على التلاميذ.	22	24.44	61	67.78
2	أواظب الحضور لعملية التكوين أثناء الخدمة.	40	44.44	36	40
3	أستعمل أي وسيلة للنجاح في امتحانات التكوين أثناء الخدمة.	38	42.22	33	36.67

4	أحضر متحانات التكوين أثناء الخدمة هروبا من المساءلة القانونية.	42	46.67	34	37.78
5	أرى أن التكوين أثناء الخدمة بشكله الحالي ناجح في أداء وظيفته.	15	16.67	63	70
6	أحببت التكوين بسبب الكفاءة العالية للمكونين.	22	24.44	43	47.78
7	أعتقد أن البرامج التكوينية الحالية بعيدة عن حاجات الأستاذ التدريسية.	9	10	68	75.56
8	أشعر بالرضا في الندوات التربوية مع مفتش المادة.	59	65.56	22	24.44
9	كثيرا ما يساعدنا المكونون على تذليل صعوبات التدريس.	49	54.44	30	33.33
10	كثيرا ما أغيب عن عملية التكوين أثناء الخدمة.	49	54.44	30	33.33
11	ما يعجبني في الندوات التربوية أن أغلب مؤطريها يركزون على تدريب الأساتذة على كيفية الأداء فيما يخص التدريس بالمقاربة بالكفاءات بدل الوقوف على المطلحات.	46	51.11	25	27.78
12	هدي من التكوين حول على شهادة ترقيني في السلم فقط.	23	25.56	53	58.89
13	أرى أن أداء تلاميذي في الرياضيات تحسن كنتيجة لعملية التكوين أثناء الخدمة.	21	23.33	51	56.67
14	أنتظر عملية التكوين بفرغ البر.	21	23.33	43	47.78
15	ما يميز البرامج التكوينية الحالية صلتها الوثيقة بحاجاتي التدريسية.	18	20	64	71.11

16	إن أهم شيء في الندوات التربوية هو تبادل الخبرات مع الأساتذة خارج إطار الندوة في فترات الراحة.	5	5.556	82	91.11
17	من أسباب نفوري من عملية التكوين أثناء الخدمة أن أداء أغلب المكونين ضعيف.	21	23.33	37	41.11
18	أشعر بالحيوية في الحصة التكوينية.	26	28.89	48	53.33

نلاحظ من الجدول السابق أن استجابات على البنود: 1-5-7-12-13-15-16 كانت سالبة بدرجة كبيرة حيث بلغت أقل نسبة لذوي اتجاه السالب 53.33% وبلغت أكبر نسبة 91.11% وهي تنتمي إلى بعد أهمية التكوين ما عدا البند 18 الذي ينتمي إلى البعد الوجداني. وهذا ما يؤكد التفسير الذي ذهبنا إليه في الفرضية الأولى وهو أن الأساتذة لم يلمسوا فوائد للتكوين أثناء الخدمة بل يرون أنه توجد صلة بينه وبين حاجاتهم التدريسية كما أنه لم يكن له أثر على أداء تلاميذهم ويفسر ذلك إلى أن أساتذة الرياضيات خاصة ذوي الخبرة المرتفعة-يمثلون في هذه الدراسة نسبة 83.33%- يهتمون أكثر بآثار التكوين على التلاميذ، وهذا يتفق مع دراسة كاجان Kagan المشار إليه أنفا الذي توصل إلى أن التحول في اهتمامات التكوين ينتقل من الذات إلى قضايا تدريسية ثم إلى تعلم التلاميذ.

وما زاد من سلبية اتجاه هو إدراك الأساتذة أن الفائدة الأولى والأخيرة من وراء التكوين أثناء الخدمة خاصة في جامعة التكوين المتواصل الحول على شهادة فقط وربما بأي وسيلة وهو ما نستشفه من استجابة على البند 3 إذ أن نسبة 36.67% كانوا موافقين على ذلك في حين أن الذين عارضوا ذلك لم تمثل نسبتهم نصف العينة وعند مناقشتنا لسبب هذه الرفضات أثناء حراسة امتحانات، رد الكثير منهم أن السبب الرئيس في ذلك هو رؤيتهم للتكوين أنه مجرد تسوية وضعية، لنقلهم من الصف 11 إلى الصف 12 حسب التلميذ الجديد المدرس في 2008. (الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، 2008، ص 26)

ويتضح أن استجابات على البنود: 6-14-17 كانت نسبة ذوي اتجاه السالب تتراوح بين 41.11% و 47.78% في حين أن نسبة ذوي اتجاه الموجب في هذه البنود لم تصل إلى 25% أي ما يمثل ربع العينة وهو ما يعكس درجة عدم الرضا على أداء المكونين

واعتقاد أغلب أفراد العينة أن المكونين يدرسون بطريقة كلاسيكية وكأنهم ينقلون معارف إلى طلبة في الجامعة النظامية ولم يراعوا خائص المكونين، وعند مناقشتنا لبعض المكونين عن سبب هذه النتيجة، عذروا أنفسهم بأنهم لم يتلقوا تكويناً جيداً يؤهلهم لأداء هذه المهمة. وقد يكون هذا مفسراً لنتيجة البند 9 الذي قد ينظر إلى نتيجته أنها تنسجم مع استجابات البنود التي تنتمي لنفس البعد-المكونين- وتفسر نتيجته أيضاً بأن أغلب أفراد العينة أراحوا لفظ المكون على المفتشين وهو ما نجده في استجابة على البندين: 8-9 إذ كانت نسبة ذوي اتجاه الموجب فيهما في حدود 50%. و يعكس هذا ارتفاع النسبي في الرضا على أداء مفتشي الرياضيات واقعا وإنما يعود فيما نعتقد إلى أن أفراد العينة قارنوا أداء مفتشي الرياضيات بالأساتذة الجامعيين فيما يخص احتياجاتهم التدريسية فكانت الملح مفتشي الرياضيات.

كما يلاحظ من الجدول السابق أن البنود: 2-3-4-10 التي تنتمي إلى بعد المكون السلوكي تراوحت نسب ذوي اتجاه الموجب ما بين 42.22 % و 54.44 % في حين تراوحت نسب ذوي اتجاه السالب ما بين 33.33 % و 40 % وتعكس هذه النسب اعتقادات: - فائدة من التكوين أثناء الخدمة بـيعة الحالية، - وأنه مجرد تسوية لوضعية قانونية تشترط حصول أستاذ التعليم المتوسط على شهادة الليسانس. وطبقاً لنظرية التعلم الاجتماعي فإن سلوك الفرد إنما تحدده اعتقاداته أو توقعاته أكثر مما توجهه المعطيات الواقعية (محمد شحاتة، 2000، ص447). فإذا كانت توقعات أساتذة الرياضيات واعتقاداتهم نحو عملية التكوين أثناء الخدمة سلبية فإن سلوك الغياب وعدم تكرار أو الحضور خوفاً من المساءلة القانونية تعتبر نتيجة تكاد تكون حتمية، بل إن التكوين بـيغته الحالية سبب في ظهور سلوكيات غريبة عند المربين مثل أن الغاية تبرر الوسيلة وهو ما يتضح جلياً في استجابات البند 3.

3-9. عرض وتحليل نتائج الفرضية الفرعية 2:

نمت الفرضية الفرعية الثانية على أنه: "تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافاً ذا إحصائية باختلاف الجنس (إناث/ذكور)"

البيانات الإحصائية	ن	م	ع	قيمة ت	مستوى
--------------------	---	---	---	--------	-------

المجموعات				الد لة
الإناث	17	50.05	7.318	غير دال
الذكور	73	48.08	10.553	

يتضح من الجدول أن المتوسط الحسابي للإناث (50.05) أكبر من المتوسط الحسابي للذكور (48.08) إ أن هذا الفرق غير دال إ حائيا وهو ما تشير إليه القيمة الـ لة لة التي بلغت (0.731) وعليه فإننا نقبل الفرضية الـ لة المقترحة. وتتفق هذه النتيجة مع ما توصل إليه صالح نويوة أنه توجد فروق بين الجنسين في آراء الأساتذة حول فعالية التكوين أثناء الخدمة. وتتفق هذه النتيجة مع ما توصل إليه صالح نويوة في دراسته.

ونفسر هذه بأن الأساتذة الذكور والإناث يعيشون نفس الظروف في التكوين قبل وأثناء الخدمة ولديهم نفس الـ لة اهتمامات التدريس ويتطلعون إلى تكوين يعود بالفائدة على تلاميذهم، كما أن متغير الـ لة اتجاه نحو التكوين أثناء الخدمة يرتبط بطبيعة الرجل أو المرأة، إضافة إلى أن المنظومة التربوية الجزائرية تفرق بين الجنسين في هذا الـ لة.

4-9. عرض وتحليل نتائج الفرضية الفرعية 3:

نـ لة الفرضية الفرعية الثالثة على أنه: " تختلف اتجاهات أساتذة الرياضيات في التعليم المتوسط نحو التكوين أثناء الخدمة اختلافا دال إ حائيا باختلاف الخبرة المهنية (أكبر من 14 سنة/أقل أو يساوي 14 سنة)"

البيانات الإحصائية	ن	م	ع	قيمة ت	مستوى الدلالة
خبرة مهنية < 14	67	47.68	9.19	1.093	غير دال
خبرة مهنية => 14	23	50.69	12.05		

يلاحظ من الجدول السابق أن المتوسط الحسابي لذوي الخبرة المهنية تفوق الأربع عشرة سنة (47.68) وهو متوسط يدل على اتجاه سالب نحو عملية التكوين أثناء الخدمة، بينما بلغ المتوسط الحسابي لذوي الخبرة المهنية أقل من أو تساوي أربعة عشرة سنة (50.69) وهو متوسط يدل على اتجاه سالب نحو عملية التكوين أثناء الخدمة، إ أن المتوسط الحسابي يعد مؤشرا كافيا للحكم على وجود فروق جوهوية بين مجموعتين، وهذا ما تؤكدده قيمة ت

(1.093) وهي غير دالة، وعليه نقبل الفرضية الـ 1 الفرية المتبناة.

وتخالف نتائج هذه الدراسة دراسة صالح نويوة وهو اختلاف منطقي يرجع إلى اختلاف طبيعة الموضوعين والعينة.

ويرجع عدم وجود فروق تعزى إلى عامل الخبرة المهنية إلى أن أغلب أفراد العينة متساوون في المستوى الأكاديمي (غير حاصلين على شهادة ليسانس) وبالتالي اهتمامهم وحاجياتهم ومن ثم اتجاههم نحو التكوين سيكون غير مختلف تماما.

وفي ختام هذا المقال يتوجه الباحث للقائمين على عملية إعداد أساتذة الرياضيات بالمقترحات الآتية حتى يكون حجم مداخلات عملية التكوين (المال، الجهد، والوقت) بمقدار مخرجاته (أستاذ كفء، وبأقل جهد ووقت ممكنين)

مقترحات

- 1- إجراء دراسة وطنية لتقييم عملية إعداد أساتذة الرياضيات أثناء الخدمة.
- 2- إشراك أساتذة الرياضيات الناجحين في عملية إعداد برامج التكوين وتنفيذها.
- 3- استفادة من خبرات الدول التي تشهد تطورا ملحوظا في تدريس الرياضيات خاصة دول جنوب شرق آسيا: سنغافورا، كوريا الجنوبية، وتايوان (علي القربي، 2008)
- 4- الاستفادة من الدراسات التي تهتم بإعداد المعلمين ومنها دراسة الباحث (رسالة ماجستير بعنوان فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى التحصيل الدراسي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط بمدينة ورقلة)
- 5- اعتبار إعداد المعلمين عملية اقتصادية استثمارية.
- 6- التركيز في إعداد أستاذ الرياضيات على ما يعود على التلميذ بالفائدة على مجرد توسيع المعارف العلمية للأستاذ.
- 7- التحفيز المادي والمعنوي للأساتذة الناجحين يساعد على خلق جو تنافسي وبالتالي الإقبال على عملية التكوين الذاتي للأستاذ الرياضيات وهو شيء غائب تماما في برامج إعداد المعلمين.
- 8- التركيز على المتعة في عملية التكوين أثناء الخدمة وتنظيمها في جامعات صيفية.
- 9- إن تعميق أثر العملية التعليمية/التعليمية يحتاج إلى زيادة حصة التدريب للأساتذة الرياضيات ومن هذه القاعدة ترداد المهارة في مختلف جوانبها العملية والنفسية، والفكرية

وا اجتماعية، والنظرية، والتطبيقية، وهذا ما يحتاج إليه المعلم بالفعل، وهو ما أثبتته الكثير من الدراسات والأبحاث.

10- أهمية المهارات أو بـ ورة أعم الكفاءات التي نبحث عنها في أداء أستاذ الرياضيات تختلف عن أهمية احتياجنا للمناهج التي تتواكب مع ظروف مواجهة القرن الحادي والعشرين، ولعل هذا ما يثار خلال هذه الأيام من خلال المؤتمرات واللقاءات والندوات التي تبحث عن الجديد.

إننا بـ مدد البحث حاليا عن أهمية وجود من ينتج! بل من يعلم التلاميذ كيفية الإنتاج، لأن ا عتماد على الإنتاج كان و يزال يعتمد على (شراء الجاهز من الأعمال) التي قد تناسب وقد تناسب أهداف العملية التعليمية/التعليمية. (كريا يحي ل، 1420هـ)

المركز الجامعي غرداية

معهد العلوم ا اجتماعية

قسم علم النفس

إستبانة ا تجاه نحو العملية التكوينية

الأستاذ الكريم، الأستاذة الكريمة:

نضع أمامك مجموعة من العبارات لغرض معرفة اتجاهك نحو العملية التكوينية، وذلك بوضع علامة x في الخانة التي تنطبق عليك، علما أنه توجد إجابات صحيحة وأخرى خاطئة وإنما لكل أستاذ(ة) اتجاهه الخاص به نحو عملية التكوين أثناء الخدمة، حيث أنك ستجد أمام كل عبارة خمس بدائل للإجابة وهي: موافق بشدة - موافق - محايد - معارض - معارض بشدة.

وفيما يلي مثال يوضح لك كيفية الإجابة.

مثال توضيحي:

بعد قراءة العبارة: "أفضل شراء ملابس برفقة أصدقائي"

إذا كنت معارض بشدة لهذه العبارة فإن إجابتك تكون كالآتي:

معارض بشدة	معارض	محايد	موافق	موافق بشدة	العبارة
×					أفضل شراء ملابس برفقة أصدقائي

بيانات شخصية:

الجنس: عدد سنوات الخبرة المهنية:

الرقم	البند	بدائل الإجابات			
		موافق بشدة	موافق	محايد	معارض جدا
1	أرى أن عملية التكوين أثناء الخدمة تعود بأي نتائج على التلاميذ.				
2	أواظب الحضور لعملية التكوين أثناء الخدمة				
3	أستعمل أي وسيلة للنجاح في امتحانات التكوين أثناء الخدمة.				
4	أحضر متحانات التكوين أثناء الخدمة هروبا من المساءلة القانونية.				
5	أرى أن التكوين أثناء الخدمة بشكله الحالي ناجح في أداء وظيفته.				
6	أحببت التكوين بسبب الكفاءة العالية للمكونين.				
7	أعتقد أن البرامج التكوينية الحالية بعيدة عن حاجات الأستاذ التدريسية.				
8	أشعر بالرضا في الندوات التربوية مع مفتش المادة.				
9	كثيرا ما يساعدنا المكونون على تذليل صعوبات التدريس.				
10	كثيرا ما أتغيب عن عملية التكوين أثناء الخدمة.				
11	ما يعجبني في الندوات التربوية أن أغلب مؤطريها يركزون على تدريب الأساتذة على كيفية الأداء فيما يخص التدريس بالمقاربة بالكفاءات بدل الوقوف على الملاحظات.				

					هدفي من التكوين الحول على شهادة ترقيني في السلم فقط.	12
					أرى أن أداء تلاميذي في الرياضيات تحسن كنتيجة لعملية التكوين أثناء الخدمة.	13
					أنتظر عملية التكوين بفارغ البر	14
					ما يميز البرامج التكوينية الحالية صلتها الوثيقة بمحتج التدرسية.	15
					إن أهم شيء في الندوات التربوية هو تبادل الخبرات مع الأساتذة خارج إطار الندوة في فترات الراحة.	16
					من أسباب نفوري من عملية التكوين أثناء الخدمة أن أداء أغلب المكونين ضعيف.	17
					أشعر بالحيرة في الحصة التكوينية.	18

المراجع:

- 1- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2008) الجريدة الرسمية، العدد 59.
- 2- حبيب تيلوين (1998) إشكالية تكوين المعلمين في الجزائر والآفاق المستقبلية، منشورات جامعة الجزائر، ج1.
- 3- خالد بن محمد بن ناصر (2001) العلاقة بين اتجاهات معلمي الرياضيات نحو مادة الرياضيات ورضاهم الوظيفي وبين تحصيل تلاميذهم في الصف السادس ابتدائي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الملك سعود.
- 4- زكريا يحيى ل (1420هـ) المعلم العربي أين هو من عو ر تقنية المعلومات؟ مجلة التدريب والتقنية، العدد 11، مكة: جامعة أم القرى.
- 5- صالح نبوية (2009) استجابات أساتذة التعليم الثانوي لفعالية برامج التكوين أثناء الخدمة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة.
- 6- صلاح الحراشي (1994) الكفايات الرياضية وفهم بنية الرياضيات وطبيعتها لدى الطلبة معلمي الرياضيات وفعالية تحليل الرياضيات المدرسية في تنميتها-دراسة وصفية تجريبية- المؤتمر السنوي الأول في م ر تحديات الواقع والمستقبل، مركز تطوير التعليم الجامعي، القاهرة: جامعة عين شمس.
- 7- صلاح الحراشي (د.ت) إدراك المعلم خائص محتوى منهج الهندسة للصف الثامن الأساسي وأثر ذلك على تنفيذ المنهاج، الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، دراسات في تدريس الرياضيات، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر المجلد (15) ص ص (367-415).
- 8- صلاح الدين إبراهيم حماد (2009) معايير اختيار المعلم في الفكر الإسلامي كمدخل لضمان الجودة من وجهة نظر المشرفين التربويين وجماعة المديرين للمدارس، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 41، غزة: جامعة الأقصى.
- 9- صلاح الدين محمود علام (2000)، القياس النفسي والتربوي، ط1، القاهرة: دار الفكر العربي.
- 10- عبد الرحمن صالح الأزرق (2000) علم النفس التربوي للمعلمين، ط1، بيروت: دار الفكر العربي.
- 11- عقيل بن ساسي (2007) فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى التحصيل الدراسي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط دراسة تجريبية بمدينة ورقلة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة.

- 12- علي القرن ي(2008) أسرار الفوز بألومبياد التعليم، مجلة جسور: تربوية إلكترونية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، العدد2.
- 13- عنتر لطفي عُجْد (1996) ملامح التغير في منظومة إعداد المعلم في ضوء التحديات المستقبلية، مجلة التربية، العدد 56، القاهرة: جامعة الأزهر.
- 14- فاطمة الزهراء بوكرة أغلال (2006) الإصلاح التربوي في الجزائر، مجلة الباحث، العدد 4 تيزي وزو: جامعة مولود معمري.
- 15- عُجْد الساسي الشايب (1999) تقويم أهداف منهاج الرياضيات في الطور الثاني من التعليم الأساسي وفق ت نيف بلوم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر.
- 16- عُجْد أوباجي(2006) إدراك أساتذة التعليم الثانوي العام والتقني لمعوقات التفكير ا بتكاري المتعلقة بالمدرسة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية و اجتماعية، جامعة الجزائر
- 17- عُجْد شحاتة(2000) قياس الشخصية، ط2، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- 18- مديرية التربية لولاية غرداية، م لمحة الدراسة و امتحانات، نتائج شهادة التعليم المتوسط في الرياضيات، دورات: 2007-2008-2009.
- 19- مديرية التربية لولاية ورقلة، مركز التوجيه المدرسي (2005) قراءة لنتائج شهادة التعليم الأساسي دورة ماي 2005.
- 20- مديرية التربية لولاية ورقلة، م لمحة الدراسة و امتحانات، نتائج شهادة التعليم الأساسي والمتوسط في الرياضيات، دورات: 2004-2005-2006-2007.
- 21- م طفى عبد السميع وسهير عُجْد حوالة(2005) إعداد المعلم تنميته وتدريبه، ط1، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع.
- 22- وزارة التربية الوطنية، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم، استخدام تكنولوجيايات الإعلام و اتال في التكوين عن بعد، أطلع عليه مباشرة بتاريخ: 2010/06/10 من: <http://www.infpe.edu.dz/index.php>
- Flockton, L. & Crooks, T. (1998) Mathematics Assessment Results 1997: National Education Monitoring Report 9. University of Otago, N.Z.: Educational Assessment Research Unit.
- 23- Kagan.D.M(1992) Professional growth among pre-service and begging teacher, Review of educational research, N° 32.

24-

نؤويل الطالب الإسلامي بين النظر الفخر وحبلة إلهال

الرأاب

- مقارلة فف الحقولة الففلة -

عبء الرففم عزاب

قسم اللغة العربية وآاءابا

جامعة الأمفر عبء القاءر - قسلففنة

مقدمة

1- موضوع الباء وءوافعه:

يُعبء الباء فف فارفء الأراء الإسلامي، وخاصة فف البانب الكلامف المأعلق بالعقاءء وما فكون أفعفا لها أمرا ذا بال، إء لفس من الآق الآعأااء بأن أقلام الباففن وعقولهم قء أأقق لها الكشف والإسفار عن فمفع آقائفه سواء ففما ففألق بماءفه العلمفة أو بالمناهج المسأعملة والمأطقة ففه، ولا سفما ففما انشعبأ إلفه آراء ومأاهب أكابر المفكرفن من علماء الإسلام الاءفن أركوا رصفاء علمفا فمأل بآرا زافرا فمور بمأألف النظرفاء والأآكام المأعلقة بشأف فروع المعرفة فف هاءفك الآقب من الفارفء، وهذا ما فآض البافأ العلمف ففءفعه إلف الفففش عنه، فصوصا فف القرون الفالفة الهجرفة المأوالفة وما آاورها آاف القرن السادس، وهف الفرة الذهبفة الأئفرة والمأسمة بالفراة والفمفز والفف أأقق ففها الازدهار والألق العلمف اللامع للمسلمفن ما لم ففأقق فف سواها من القرون، فكانأ الملكاء العلمفة نضفآة راسآة والإأناآ الفكرف ثرا غفرافا، وهو ما عبأأ عنه آفر فعبفر صراعات المأاهب الفكرفة واأأكاأافا وما آلففه نزعافافا من أفاففن الباءل فف مأألف شؤون الآفة ومناهجها الففنفة والعقلفة والسفاسفة.

وما آوف من أأالاف فكرفة بفن الفرق الفف آفلأ بها ألك الفرة - القرن الرابع

المجري تحديداً - وكانت بها ملأى خصوصاً بين كبريات الفرق السياسية والدينية التي جرى بينها اختصاص وصراع فكري وسياسي بسبب ما اعتقدته من أصول الدين وقواعده يتخرج فهمها للدين ومسائله على ضوء هاتيك القواعد والأصول كالإباضية والمعتزلة والخوارج والأشاعرة وسائر خدينتهما من الفرق الإسلامية التي تطوح بينها الخلاف إلى أقصاه.

"ولا عجب فقد انعكست أصول فهم الدين لتلك الفرق على واقع العمل بعد واقع الفكر فراحت كل فرقة سياسية ودينية تُؤسّسُ أُسساً وتُقعد قواعد وتُوصل أصولاً في سبيل بناء منهجها والدعوة إليه وتحمل المشاق العلمية والعملية من أجله...¹. وما من شك في أن هذا الصراع الفكري الذي استعر أواره في تاريخ تراثنا الديني قد أفرز ركائماً هائلاً من الأفكار والمناهج تشد القارئ له والمطلع عليه إلى البحث فيه شدةً "خصوصاً في المناهج والأفكار التي انتسبت إلى علماء سمّت بهم مكانتهم العلمية إلى مستوى التجديد والاجتهاد والفهم والتأصيل والتأويل في مجال علم الأصوليين: علم أصول الدين أو ما يسمى بعلم الكلام أو التوحيد وأصول الفقه ومناهج الاستنباط"².

فمن ثمة رأينا ضرورة التعريف بالمنهجية النظرية الاستدلالية التي استخدمتها الإباضية من خلال المباحث المتعلقة بأصول العقيدة الإسلامية وأركانها المعروضة في أجلّ مضامها العلمية، ومن ثمّ فإن الإشكال الرئيس الذي يدور عليه موضوع البحث هو:

*- ما هي ضوابط الإباضية في الاحتجاج والاستدلال على كليات مسائل العقيدة والشرعية وأصولهما؟.

*- وما هي الدوافع الموضوعية والمؤثرات الفلسفية التي صاغت الشخصية الإباضية في منظومة الجدل العلمي؟.

*- وما هي أهم المقولات الإبتيمية التي يتكئ عليها الخطاب الإباضي في إثراء البرنامج العقدي والتشريعي للفكر الإسلامي؟.

لقد رأينا أن ما يلفت النظر إلى الدراسات المقدمة في مجال علم الكلام أو ما اصطلح عليه ابستميا في عرض مسائل العقيدة الإسلامية والدفاع عنها بمنهج الاستدلال العقلي، يجدها من النزرة والقلة ما يدخلها في حكم الدراسات غير الكافية على مستوى الآثار والإسهامات في مجالات العلوم الشرعية أو في مجال المنهج الذي اعتضدت به الإباضية

وشاركت من خلاله في تشييد البنية الاستدلالية للعقيدة الإسلامية داخل مذهبي المعتزلة والخواارج " الذي كان حدثاً فكرياً ودينياً متألقاً في تاريخ الفكر الإسلامي. فهو ميلاد جديد للمنهج الاستدلالي المتوسط بين العقل ودليل النقل"³. أو كما يدل عليه العنوان بين "التزام النص وحجية إعمال الرأي". هذه كبرى التساؤلات الرئيسة لهذه الدراسة المتفرعة من الإشكال الرئيس والمتمثل في إجلاء الطبيعة النظرية والصيغة المنهجية التي اعتمدها المذهب الإباضي في الحجاج على العقيدة الإسلامية بطريقته السنية.

2- منهج البحث:

رغبة منا في طرق ما لم يكن مطروقاً، لسدّ فراغ علمي، فضلنا أن تكون الدراسات في مجال علم الكلام من جهة المنهج النظري الذي تعرض به تعبر من أقل الدراسات التي تتناول بالمعالجة والتحليل التراث النظري الذي خلفه علماء الكلام والفلسفة الإسلامية، السبب الذي يفضي إلى قلة إحاطة بأصالة مناهج علمائنا في هذا المجال، وخصوصاً عند أئمة الإباضية؛ التي ما تزال أرضية بكرّاً لم تحظ بما هي جديرة به من الدرس والتمحيص، وجلّ ما حظيت به من بحوث دراسية قليلة وإشارات علمية لطيفة إنما كان يُنصَّب - بوجه خاص - على دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية في ضوء البحث في المؤثرات الفلسفية بين المذاهب وفق المعطى التراثي؛ إذ لم نجد من تعرّض لمنهج الإباضية الاستدلالي على مسائل العقيدة بصورة كافية توجب الاعتبار. وهذا ما دفعنا على طرق هذا الموضوع والتبحر في لجّته معتمدين على المنهج الذي يتلاءم مع طبيعة البحث وبوأم مادته العلمية ألا وهو المنهج التحليلي التفسيري مع انتهاج منهج النقد والحفريات التاريخية أحياناً فيما يكون داعياً له. "على اعتبار أن التحليل والتفسير هو السبيل الكاشف عن الطبيعة النظرية لمنهج أي نسق معرفي"⁴. سواء كان مذهباً فقهياً أو تياراً فكرياً.

لذلك كان الاعتماد كثيراً على الدراسات في مجال العقيدة الإسلامية وعلم الكلام والفلسفة وعلم الفقه وعلم البلاغة العربية وعلوم اللغة واللسان التي اتخذت من جهود الجويني إمام الحرمين (ت 478 هـ) في: "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد". وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في: "المقصد من الضلال وإحياء علوم الدين". والشهرستاني (ت 548 هـ) في: "الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي". وشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ) في: "مجموع الفتاوى". وعضد الدين

الأبيجي (ت 756 هـ) في: "المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد علي بن محمد الجرجاني".
وعبد الر بن بن خلدون (ت 808 هـ) في: "المقدمة". وقطب المذهب الإباضي الشيخ محمد
بن يوسف أطفيش (ت 1332 هـ) في: "التبيل وشفاء العليل". وعرفان عبد الحميد
في: "دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية". واللواء حسن صادق في: "جذور الفتنة في الفرق
الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات". ومحمد عبد الحليم عبد الفتاح في:
"موسوعة الأديان". وعبد المنعم الحفني في: "موسوعة الفلسفة والفلاسفة". والشيخ محمد
الغزالي في سلسلة: "جرعات الحق المر". ومحمد بومعيرة في: "منهج الإمام الجويني في
الاستدلال على العقيدة - رسالة الماجستير في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية، 2002/2001. مرجعية لها.

أما خلال محاولة ضبط الجهاز الاصطلاحي للبحث فقد كُنّا نعود باستمرار إلى لسان
العرب لابن منظور ومعجم مصطلحات الإباضية وذلك لبساطة هذه المعاجم اللغوية
والكلامية وراثتها وبعدها عن التعقيد في المفاهيم.

➤ مدخل إلى علم الكلام الإسلامي ❖ تعريف الكلام:

■ الكلام: القول، وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم
يكن مكتفياً بنفسه وهو الجزء من الجملة. ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام
والقول إجماع الناس على أن يقولوا: "القرآن كلام الله" ولا يقولوا: "القرآن قول الله".
ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر⁵.

■ الكلام: هو ما سمع وفهم، وقيل: هو حروف مؤلفة دالة على معنى⁶. وهو
"ألفاظ تشتمل على معانٍ تدلّ عليها ويعبر عنها"⁷.

فاللغة وسيلة التفاهم وأداة للتعبير عن المعاني، وهي تتكون من كلمات، وكل ما
تركب من كلمتين أو أكثر، وأفاد معنى تاما يسمى- في اصطلاح النحاة- كلاما، أو
جملة مفيدة. هذا من حيث الاشتقاق اللغوي لمصطلح الكلام أما من حيث الدلالة
البلاغية "فلعل الكلام حول مفهوم الخبر والإنشاء قد نشأ مع نشأة الجدل في عصر
المؤمن حول فتنة القول أو الكلام بخلق القرآن"⁸.

وينحو مفهوم الكلام في أدلة الفلاسفة وأقطاب الفرق والعقائد الإسلامية
مدلولاً ابستيميا آخر، فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بها أمر وناهٍ ومخير، دل

على ذلك ما أوحاه إلى رسله في القرآن والتوراة والإنجيل، وهذا الكلام عند الجويني إمام الحرمين (ت 478 هـ) لا مفتتح لوجوده، قال في ذلك: "وأطبق المنتمون إلى الإسلام على إثبات الكلام، ولم يصر صائر إلى نفيه ولم ينتحل أحد في كونه متكلماً نحلة نفاة الصفات، ثم ذهب المعتزلة والخوارج والزيدية والإمامية ومن عداهم من أهل الأهواء إلى أن كلام الباري تعالى عن قول الزائفين حادث مفتتح الوجود"⁹.

"وكلام الله تعالى على قياس هذا الأصل واحد غير متعدد، قديم غير مجدد، متعلق بجميع المتعلقات، ولم يصر أحد من أهل الإسلام إلى إثبات كلام متجدد فهو صالح لأنه تتعلق به جميع المتعلقات المتجددة، ولم ينحصر إمام الحرمين عند هذا الحد من السير، بل امتدت هجمته الجدلية إلى المعتزلة الذين زعموا أن كلام الله مخلوق كما يخص قول من امتنع من تسميته مخلوقاً مع القطع بحديثه"¹⁰.

من هنا تبين ماهية الكلام من حيث بنيته في النفس حيث يمكن الاستدلال له من جهة اللغة وإطلاق اللسان، لأن العرب تسمى ما جال بالبال كالألف قائماً بالنفس ويؤيد هذا الطرح المعرفي قول الجويني: "وإن رددنا إلى إطلاق أهل اللسان عرفنا قطعاً أن العرب تطلق كلام النفس والقول الدائر في الخلد وتقول كان في نفسي كلام، وزورت في نفسي قولاً واشتعار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر ناثر أو شعر شاعر" وقد قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفوائد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً.

وكلام الله تعالى القديم ليس هو بحروف أو أصوات غير مشابه لكلام المخلوقين، وليس يقع بجراحة متعلق بالمأمورات والمنهيات والمخبرات ولا يتحدد في نفسه، بل المتعلقات هي المتجددات¹¹. ويبدو واضحاً مما تقدم أن علم الكلام هو ذلك العلم الذي يختص بموضوع الإيمان العقلي بالله تعالى. حيث يشكل غرضه العام الانتقال بالمسلم من التقليد إلى اليقين وإثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين بها.

ومن خلال هذه المقاربات المعرفية حري بنا أن نبسط المفهوم الإبستيمي لعلم الكلام من منوال علم الكلام الإسلامي، حيث اختلف تعريف العلماء حوله اختلافاً يوازي اختلافهم في وجهات النظر:

1- فالإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ)، يعرفه بقوله: "علم الكلام مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عبادته على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. كما نطق بمعرفة القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أموراً فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف تلبيسات أهل البدعة ا مدثة على خلاف السنة الماثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله"¹².

2- ويعرفه عضد الدين الأيبكي (ت 756 هـ)، بقوله: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة، والمراد بالعقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ، فإن الخصم وإن أخطأناه، لا نخرجه من علماء الكلام"¹³.

3- ويعرفه التهانوي (ت 1158 هـ)، بقوله: "علم الكلام: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه، وفي اختيار إثبات العقائد على تحصيلها، إشعار بأن ثمة الكلام إثباتاً على الغير وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها، وإن كانت مما يستقل العقل فيه"¹⁴.

4- ويعرفه ابن خلدون (ت 808 هـ)، بقوله: "علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"¹⁵.

5- ويعرفه الجرجاني (ت 816 هـ)، بقوله: "علم يبحث فيه ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيود الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة أو علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد، وما يتعلق به من الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب، وقيل: الكلام هو العلم بالقواعد الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة"¹⁶.

وتأسيساً على هذه المقاربات المعرفية المختلفة لعلم الكلام يمكن استنتاج جملة من أمور هي:

أ- "إن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي ثبتت بالوحي ولهذا فهو يعرف أحياناً بـ"علم النظر والاستدلال".

ب- إن وظيفة علم الكلام إنما هي دفع الشُّبُه وردِّ الخصوم والاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية كما يراها السلف وأهل السنة¹⁷.

ج- من العلماء من يرى أن لعلم الكلام وظيفتين مزدوجتين هما:

*- أولاً: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

*- ثانياً: دفع الشبه ورد الخصوم عنها.

"وهذا الخلاف الأخير يرجع كما يقول الأستاذ المرحوم مصطفى عبد الرزاق: "إلى الاختلاف في مسألة: هل أن العقائد الدينية ثابتة بالشرع، وإنما يفهمها العقل والشرع ويلتمس لها بعد ذلك البراهين النظرية؟ أو هي ثابتة بالعقل بمعنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها؟"¹⁸.

ومن أشهر أسماء علم الكلام، أنه سميَّ النظر العقلي في العقائد الدينية بأسماء مختلفة، منها:

أ- الفقه الأكبر: حيث سَمَّاه بهذا الاسم الإمام أبو حنيفة (ت 150 هـ) في كتابه الموسوم بـ "الفقه الأكبر" حيث يذكر الإمام بأن "الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفصل الأصل على الفرع معلوم"¹⁹.

ب- علم النظر والاستدلال: سميَّ بهذا الاسم باعتبار المنهج الذي يعتمد عليه والذي يقوم على التأمل الفكري والنظر والاستدلال في مباحثه وموضوعاته²⁰.

ج- علم التوحيد والصفات: سميَّ بهذا الاسم باعتبار الموضوع، إذ أن مشكلة التوحيد والصفات الإلهية تكونان أشهر مباحث هذا العلم وأهمها.

د- ويسمى أيضاً بعلم أصول الدين: لأنه يتعلق بالنظر في أصول العقيدة الدينية وأركانها، مقابل علم "الفقه" الذي يتعلق بالفروع العملية للشرعية الإسلامية.

يقول الشهرستاني (ت 548 هـ): "قال بعض المتكلمين: الأصول هي معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته؛ ومعرفة الرسل بآياتهم وبيئاتهم... ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً.

ومن تكلم في الطاعة والشيعة كان فروعياً. والأصول هي موضوع علم الكلام؛ والفروع هي موضوع علم الفقه²¹.

هـ- أما الاسم الشائع لهذا العلم فهو "علم الكلام" وذلك لجملة أسباب هي:

- 1- إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها في العصر الأول، كانت مسألة كلام الله تعالى، وهل هو أزلي قائم بذاته؟ أم مخلوق حادث؟ فسمي العلم بأهم مسألة فيه.
- 2- أو إن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد وليس يرجع إلى عمل.
- 3- أو إنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في توضيحه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسماً مرادفاً للثاني وسمي كلاماً في مقابل كلمة "منطق".
- 4- أو إن أبوابه عنونت بـ "الكلام في كذا".
- 5- أو إنه لقوة أدلته صار كأنه "الكلام" دون ما عداه من العلوم، كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو "الكلام".

6- ولعل أوجه الأسباب في تسميته بالكلام أن أصحابه تكلموا حيث كان السلف يسكت فيما تكلموا فيه. فقد أورد السيوطي (ت 911 هـ) في كتابه الموسوم بـ "صون المنطق"²². عن مالك بن أنس - رحمه الله - قوله: "يَا كُمْ والبدع؟ قيل يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكنت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان". وأورد عنه ابن عبد البر، قوله: "الكلام في الدين أكرهه، ولا زال أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهنم والقدر، وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا في فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إليّ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل"²³.

وروي ابن بابويه القمي عن الإمام جعفر الصادق - رحمه الله - قوله: "إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا"²⁴. وفي نفس السياق يمكن إيراد قوله ﷺ: {إن الله شرع لكم أموراً فأتوها وتحاكم عن أشياء فاتتهوا عنها وسكت عن أشياء رمة بكم لا نسيان منه فلا تسألوا عنها}²⁵.

ويدل على ذات السياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة، 101، 102).

❖ الدلالة الفلسفية للمقولات: CATEGORIES

بعد الإفاضة المفهومية لكل من القول والكلام معجميًا ودلاليًا ومحاولة سحب المصطلحين على موضوع بحثنا، نقفز رأسًا إلى بسط المدلول الإبستيمي للمقولات فهي تطلق ويراد بها "أنواع الصفات المضافة أو المسندة أو المقولة، أي المولات المعرفية التي نستطيع أن نصف بها فردًا كائنًا ما كان. فإذا سأل سائل عن أي شيء ما هو؟ كان حتمًا أن يقع الجواب تحت واحد منهما، فالمقولة معنى كلي يمكن أن يدخل محمولاً في أي قضية.

واختلف الفلاسفة في عددها، فأرسطو الفيلسوف اليوناني يجعلها عشرة تقابل جميع الأجوبة لجملة الأسئلة التي يمكن أن تثار بصدد شيء ما. وهذه الأسئلة عشرة يجاب عنها بعشرة محمولات هي:

الجوهر، والكم، والكيف، والإضافة، والفعل، والانفعال، والمكان، والزمان، والوضع، والحال.

فإذا سألت عن سقراط مثلاً، ما هو؟ وكان الجواب بأنه إنسان فيلسوف، فقد علمت جوهره.

وإذا سألت عن شيء وكان الجواب ثلاثة أمتار، فالجواب وصف لكميته. وقد يوصف الشيء بكيفيته فيقال بأنه أبيض. وقد يوصف بإضافته إلى شيء آخر فيقال إنه أكبر أو أصغر منه أو بمكانه فيقال إنه في أثينا، أو بزمانه فيقال القرن الخامس قبل الميلادي، أو بوضعه فيقال إنه جالس، أو بملكه أي بحالته فيقال بأنه شاهر السلاح، أو بالفعل فيقال إنه يجادل، أو بالانفعال فيقال إنه غاضب. وكانط الفيلسوف الألماني يجعل المقولات معانٍ إبستيمية رابطة بين الظواهر المعروضة في المكان والزمان، ويجعلها أربعاً، هي: الكم، والكيف، والإضافة، والجهة، وتنقسم كل منها بدورها إلى ثلاث:

فالكم ينقسم إلى الوحدة والكثرة والجملة، والكيف إلى موجود وسلب وحد، والإضافة إلى جوهر وعلية وتفاعل، والجهة إلى مكان وضرورة واستحالة²⁶.

➤ مفهوم الإباضية بين الاشتقاق اللغوي والمسرد التاريخي

الحديث عن الإباضية يقودنا حتماً إلى البحث في الفرق والعقائد الإسلامية وهو بدوره يسعى إلى توثيق التراث الديني والفكري لرسالة الإسلام العالمية، وبقينا منّا "بأنّ العمل المصطلحي شديد الأهمية لتلمس مفاتيح المذهب، كما أنه شديد الأهمية في المقارنة من خلال المصطلحات والمفاهيم مع المذاهب الأخرى، وهو أخيراً مُهمٌ لأنه يضع خريطة لركائز المذهب، وللقواعد والأصول والأدلة التي استخدمت عبر العصور... كما هو عمل مهم يتعرف من خلاله الدارسون على أصول المذهب ومفاهيمه، وآليات وأدوات الاجتهاد فيه"²⁷.

❖ مفهوم الإباضية معجمياً ودلالياً:

ورد مصطلح الإباضية في الحقل المعرفي الخاص بالحضارة والعقيدة والفقه والمذاهب بكسر الهمة أو فتحها، يقول القطب أطفيش (ت 1332 هـ) أشهر مراجع الإباضية: "الإباضية بكسر الهمة على أنه الأصحّ".

وهي تسمية اصطلاحية تطلق على أتباع الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ / 711م) في العقيدة والفقه والحضارة.

جاء في معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، "... عُرِفَ أتباع (الإباضية) في التاريخ منذ صدر الإسلام، وكانت جماعتهم تُسمّى أهل الحق وأهل الدعوة وأهل الاستقامة، ولم تختل لنفسها اسم الإباضية، بل دعاها به غيرها، نسبة إلى عبد الله بن إباح التميمي، ثم قبلته نزولاً على الأمر الواقع، فكان الإباضية ينسبون أنفسهم إلى الفكرة لا إلى زعيم أو إمام، ويعتقد الإباضية أن منهجهم هو الفهم الصحيح للإسلام كما أوضحته مصادره الأساسية من الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين"²⁸.

❖ مسرد تاريخي للمذهب الإباضي:

"الإباضية مذهب إسلامي صحيح، تصدر المذاهب والفرق الإسلامية في نشأته، وكان ذلك على يد الإمام التابعي جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ)، ولكنه يُنسب إلى عبد الله بن إباح التميمي (ت 86هـ/705م) نسبة غير قياسية، وإنما بسبب ما اشتهر به ابن إباح من مراسلات سياسية دينية، مع الخليفة عبد الملك بن مروان، ونقده لأسلوب الحكم الأموي، الذي ابتعد عن نهج الخلفاء الراشدين، ودعوته الحكام الأمويين للعودة إلى سيرة

الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده أو اعتزال أمر المسلمين. كما عُرف بمواقفه الحازمة ومواجهته الصارمة لانحراف الخوارج عن الفهم السليم لأحكام الإسلام وتعاليمه.

وظهر عند الناس بمظهر الزعيم؛ فعُرف أصحابه باتباع ابن إياض أو الإباضية، وغدت بذلك هذه التسمية، نسبة اصطلاحية يُعرف بها أتباع الإمام جابر بن زيد، الذي يمثل أسس مذهبهم في العلم، وهو ما اتفقت عليه المصادر الإباضية²⁹.

إن مخالفة عبد الله بن إياض لنافع بن الأزرق عام 64هـ/683م لا تعني أنه رسم بفعله ذلك - منهج الإباضية، لأن دوره هنا وفي كل مواقفه، إنما هو إبراز الرأي لا إنشاؤه، فالرأي رأي جابر بن زيد إمام المذهب، هو المنشئ له؛ وعبد الله بن إياض هو المنقذ المبرز لذلك الرأي. إن مسألة إمامة جابر بن زيد للإباضية، والذين تزخر كتبهم بآرائه الفقهية والسياسية، لم تعد قابلة للأخذ والرد نظراً لتضافر الأدلة القوية على صحتها وهو ما أدركته الدراسات الأكاديمية³⁰.

لم يكن أتباع جابر بن زيد يستعملون مصطلح الإباضية على الأقل في القرنين الأول والثاني، وإن تداوله مخالفوهم وأصبح تسمية مشهورة، التصقت بهم، بحيث لم يستطيعوا دفعها، يقول السالمي:

إن المخالفين قد سمونا بذلك غير أننا رضينا

وأصله أن فتى إياض كان محامياً لنا وماض

مدافعاً أعداءنا بالحجة وحامياً إخواننا بالشوكة³¹.

❖ التأسيس والمنهج وأبرز الشخصيات:

يبدو أنّ بدايات استعمال جابر بن زيد للفظ "الإباضية" كان مع نهايات القرن 3هـ/9م. وذلك عند عمرو بن فتح النفوسي (ت 283هـ/896م) في كتابه الموسوم ب: "الدينونة الصافية"، ثم في كتاب الجامع للكدمي (ق 4هـ/10م) وكتاب الموازنة لابن بركة (ق 4هـ/10م).

وخلف أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي جابر بن زيد في إمامة المذهب، فكان العامل على نشر الإباضية في المشرق والمغرب، انطلاقاً من البصرة في العراق إلى عُمان

بحدودها السياسية القديمة التي تصل إلى البحرين شمالاً، وإلى سومطرة جنوب شرق آسيا باندونيسيا. وقد وجدت الإباضية في اليمن وفي خراسان. وأسهمت التجارة العُمانية في إيصال الإسلام إلى بلاد الهند وماليزيا والصين، وإلى بعض الجمهوريات الإسلامية ا ماذية لروسيا الاتحادية حالياً، وإلى مناطق واسعة من إفريقيا الشرقية، بخاصة كينيا وتنزانيا ومدغشقر وجزيرة زنجبار.

"انتقل المذهب الإباضي مع كَلَمَة العلم إلى بلاد المغرب، واعتنقه البربر في شمال إفريقيا: ليبيا، وتونس، والجزائر. ومنها إلى مصر والأندلس وبلاد السودان الغربي: كالسينغال ومالي والنيجر وتشاد وغانا.

تستند الإباضية في منهجها المعرفي إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، واتسمت هذه المنهجية بالاعتدال بين التزام النص وإعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال.

ولما عرفت الإباضية بيئات عديدة، ومجتمعات متباينة واعتنقتها أجناس مختلفة، كان ذلك عاملاً أسهم في ثراء فقهها وبروزها الحضاري"³².

❖ مراحل تأسيس المذهب الإباضي:

لقد مرّت الإباضية في خضم تأسيسها بمراحل ومحطات عديدة أهمها:

* – أولاً: مرحلة التأسيس في القرن الأول الهجري وبداية الثاني، وتشمل مرحلة البصرة وانتشار المذهب على يد كَلَمَة العلم في المشرق والمغرب.

* – ثانياً: مرحلة إقامة الإمامات في القرن (2هـ/8م)، كإمامة طالب الحق باليمن، والإمامة الأولى والثانية في عُمان، التي استمرت إلى القرن (14هـ/20م) وإمامة الرستميين في بلاد المغرب في القرنين (2 و3هـ/8 و9م).

* – ثالثاً: مرحلة الأزمات والمواجهات مع أنظمة حاولت إزالة دولة الإباضية: كالفاطميين في بلاد المغرب، والعباسيين والبويعيين في بلاد المشرق، وكلها كانت في القرن (3هـ/9م). وتحقق للفاطميين إسقاط الرستميين، الأمر الذي لم يتحقق للعباسيين في شأن

الإمامة بعُمان.

إلا أن الإباضية هناك دخلت في أزمة ازدواجية السلطة، بحيث عاشت عُمان تحت سلطة الإمامة في شق من جغرافيتها، وعرف الشق الآخر نظام الملك المتوارث، تحت أسرة النباهنة أولاً، ثم أسرة البوسعيدين التي أقامت سلطنة قوية بداية من القرن (12هـ/18م).

*- رابعا: مرحلة التجمعات في بلاد المغرب: انتقل الإباضية إلى تجمعات تحت سلطة هيئة من المشايخ، أطلقوا عليها تسمية "العزّابة"، أشرفت على المجتمع في كل جوانبه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى اليوم، وبقي العلماء يشرفون بشكل مباشر على المجتمع الإباضي مشرقاً تحت نظام الإمامة ثم السلطنة، ومغرباً تحت نظام العزّابة، وخير نموذج للتكافل الاجتماعي وشيوع الروح الدينية في نسقه المادي والأدبي سلطنة عمان بالمشرق العربي وغرداية ومنطقة ميزاب بمغربه هذه الأخيرة التي تبقى شاهدة على سمو الروح في الصحوة الإيمانية ومسالك الصيرورة الاجتماعية الناجحة التي ينصفها الواقع وتؤيدها الحقائق والمنجز القومي الإيجابي في تفعيل الحراك الجمعي والسياسي والحفاظ على التماسك الاجتماعي الذي قلّ نظيره حتى في الدول الكبرى.

وهذه دلالة قوية تصرخ في آذان الكثير من المنصفين في المعطى السياسي والديني، باعتبار أن "الإباضية في منهجها المعرفي تستند إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، وهي أقوى المذاهب الإسلامية في تبني روح الإسلام بين التزام النص و حجية إعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال"³³.

➤ أبرز الشخصيات:

كل أمة تزخر بكبار شخصياتها العلمية والسياسية والأدبية والدينية، ولقد تربعت الإباضية على أرضية واسعة في الوطن العربي والإسلامي بكبار العلماء.

فمن أبرز علماء الإباضية بالمشرق الإسلامي:

1- بعد إمامها جابر بن زيد الذي "يعد من أوائل المشتغلين بتدوين الحديث آخذاً العلم عن عبد الله بن عباس (ترجمان القرآن) الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: {اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل}"³⁴. وعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها -

وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهم من كبار الصحابة، مع أن جابرًا قد تبرأ منهم.

2- "أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: من أشهر تلاميذ جابر بن زيد، وقد أصبح مرجع الإباضية بعده مشتهراً بلقب القفاف، توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (158 هـ).

3- الربيع بن حبيب الفراهيدي (ق 2هـ/8م) الذي عاش في منتصف القرن الثاني للهجرة وينسبون له مسنداً خاصاً به يسمى "مسند الربيع بن حبيب" وهو مطبوع ومتداول"³⁵.

4- "ومن أبرز العلماء الذين تعاقبوا على المذهب الإباضي في المشرق الإسلامي نجد كلا من:

- محمد بن محبوب في (ق 3هـ / 9م).
- ومحمد بن سعيد الكدمي في (ق 4هـ / 10م).
- ومحمد بن بركة البهلوي في (ق 4هـ / 10م).
- وسلمة بن مسلم العوتي في (ق 6هـ / 11م).
- وأحمد بن عبد الله الكندي في (ق 6هـ / 12م).
- ومحمد بن إبراهيم الكندي في (ق 6هـ / 12م).
- والإمام عبد الله بن زيد السالمي (ت 1332هـ / 1914م)³⁶.
- أما في المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي) أيام الدولة العباسية، فمن أئمتهم:
- الإمام الحارث بن تليد.
- أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.
- أبو حاتم يعقوب بن حبيب.
- حاتم الملزوزي.

ومن الأئمة الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية نسبةً إلى مؤسسها عبد الر بن رستم (ت 171هـ / 887م) وعاصمتها "تاهرت" بالجزائر، ودامت مدة حكم هذه الدولة تحت تنوير المذهب الإباضي 133 سنة³⁷.

ومن العلماء الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية:

- "سلمة بن سعد: حيث قام بنشر المذهب الإباضي في إفريقيا في أوائل القرن الثاني الهجري.
- ابن مقطير الجناوني: حيث تلقى علومه في البصرة وعاد إلى موطنه في جبل نفوسة بليبيا ليسهم في نشر المذهب الإباضي.
- عبد الجبار بن قيس المرادي: كان قاضيًا أيام إمامهم الحارث بن تليد.
- السمع أبو طالب: من علمائهم في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وكان وزيرًا للإمام عبد الوهاب بن عبد الر بن رستم، ثم عاملًا له على جبل نفوسة بليبيا.
- أبو ذر أبان بن وسيم: من علمائهم في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، وكان عاملًا للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم على حيز طرابلس³⁸.
- "أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي: مؤسس نظام الحلقة (ت 440 هـ / 1049م).
- أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني، ومعاصره أبو عمار بن الكافي (ق6هـ/12م).
- أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792 هـ/1389م).
- عبد العزيز بن إبراهيم الثميني (ت 1223 هـ/1808م).
- محمد بن يوسف أطفيش (ت 1332/1914م)، ويعد قطب ومرجع الإباضية في الجزائر.
- إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، وسليمان بن عبد الله الباروني، وإبراهيم بن عمر بيّوض وعلي يحي معمر وكلهم من فطاحلة المذهب الإباضي في المغرب الإسلامي - الجزائر تحديدًا...³⁹.
- ومن خلال هذا المسرد التاريخي للمرجعيات الإباضية مشرقًا ومغربًا، يتجلى واضحًا الحضور القوي - زمنيًا ومكانيًا - لهذه الحركة الدينية والفرقة الكلامية "التي أسهمت بتراثهم المكتوب في الفكر الإسلامي، والفكر السياسي ببناء كيانات الإمامة، وتطبيق السياسة الشرعية المقتضية آثار الخلفاء الراشدين، ولهم دور بارز في نشر الإسلام وحضارته وذلك في حقول التجارة، وال عمران والري والنظم الاجتماعية والتربوية"⁴⁰.
- مدخل إلى العقائد الدينية والفكرية للإباضية

من أهم المشكلات التي تقف أمام محاولة تقنين وضبط المصطلح الكلامي، وعلاقته بأطر الحجاج العقلي في الاستدلال على العقيدة، تناثر المصطلحات الكلامية داخل المنظومة الدينية للمذاهب والفرق والجماعات مما يحتاج إلى أناة وتمهل حتى يمكن جمع شتات تلك المصطلحات... "فالنص الديني المقدس "القرآن الكريم" معجزات ربانية وطاقات لغوية ونصوص عقديّة وتشريعية أزلية لا تنضب، وإبداع إلهي متجدد لا تقيده مبادئ مطلقة، ومن ثمّ فإنّ القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار"⁴¹.

فالمذهب الإباضي امتداد تاريخي للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي والفلسفي في الاستدلال على العقيدة -في عصوره الذهبية الأولى- من الاجتهاد بالعقل في ضوء تعاليم الكتاب والسنة، ولقد أثارت الإباضية الكثير من الجدل وأحدث الكثير من أساليب الحجاج في الدفاع عن الموروث الحضاري للإسلام وكانت -أي الإباضية- ميلاد عهد جديد لفتوحات عوملة النص الديني مما تمخض عنها الكثير من الفرق والمذاهب كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة فيما بعد... الذين أرسوا دعائم أصول الدين فيما أرسى غيرهم أسس أصول الفقه ويؤكد هذه المسلمة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ)، قائلا: "... وإن كان مقصوده بالأصولي مَنْ يعرف "أصول الفقه" وهي أدلة الأحكام الشرعية على طريقة الإجمال، بحيث يميّز بين الدليل الشرعي وبين غيره؛ ويعرف مراتب الأدلة؛ فيقدم الراجح منها -وهذا هو موضوع أصول الفقه- فإن موضوعه معرفة الدليل الشرعي ومرتبته، فكل مجتهد في الإسلام أصولي؛ إذ معرفة الدليل الشرعي ومرتبته بعض ما يعرفه المجتهد، ولا يكفي في كونه مجتهداً أن يعرف جنس الأدلة بل لا بدّ أن يعرف أعيان الأدلة، ومَنْ عرف أعيانها وميَّز بين أعيان الأدلة الشرعية وبين غيرها كان بجنسها أعرف، كمن يعرف أن يميز بين أشخاص وغيرها، فالتمييز بين نوعها لازم لذلك، إذ يتمتع تمييز الأشخاص بدون تمييز الأنواع.

فالأصوليون يذكرون في مسائل أصول الفقه مذاهب المجتهدين كمالك، والشافعي، والأوزاعي، وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، ومذاهب أتباعهم... وقد عرفوا أصول الفقه بأعيانها مستعملين إياها في الاستدلال على الأحكام"⁴². "إن العقل المؤمن مرصّد واعٍ يلتقط كل ما يمس الإسلام من قريب أو من بعيد، فإن المهتمين بأمر

الإسلام يرصدون ما يمس حقيقة رسالته ومسار دعوته وشؤون أمته، وعوامل المد والجزر، واليقظة والغفلة، ثم يقدمون حساباً مضبوطاً لما رصده ...⁴³.

لقد قدمت الإباضية للناس حقائق ناصعة عن الإسلام تعلمتها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن فيض عالم الترجمة ونقل علوم الغير إلى المسلمين وبمنظرة ثابتة للتاريخ ووقائع الأحداث القريبة والبعيدة وتحليل صحيح لها. كما "عرفت دور العقيدة في تكوين النهضات، فقرروا أن يجعلوا هذه العقيدة طاقة يتحملون بها المتاعب ويستهنون في سبيلها بالتضحيات الجسيمة"⁴⁴.

➤ أفكار ومعتقدات الإباضية

– المقولات الكلامية بين جدلية الخطاب الديني وتحليلات الأنساق المعرفية –

ما يجب تأكيده بادئ ذي بدء أن فرقة الإباضية هي التي تنصدر قافلة المذاهب والفرق والجماعات في النظرية والممارسة في العالم الإسلامي – حالياً – فلئن كانت فرقة الخوارج قد نشأت بعدما هو معروف من قضية التحكيم التي خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، ودب الخلاف بين الخوارج فتنفروا أحزاباً، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة: ولكن يجمع الكل على مبدئين اثنين:

أحدهما: إكفار عثمان وعلي، ومعاوية، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بالتحكيم.

ثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث: يقول به أكثر الخوارج وهو الإكفار بارتكاب الكبائر.

فهل تجاوزت الإباضية المعايير الدينية لشرح البرنامج الأصولي للإسلام وتأصيله؟.

وهل طوّعت منظومة الحجاج لديها لهذه العالمية "عقيدة من مفردات الفكر الإسلامي التي تعتمد على نصوص قاطعة في كتاب الله وسنة رسوله! ويستطيع قارئ القرآن الكريم أن يطالع هذه العالمية في سور التكويد، والقلم، وص، وسبأ، والفرقان، والأنبياء، ويوسف، والأعراف، والأنعام، أي في عشرة مواضع متفرقة، وجميع هذه السور مكية؟"⁴⁵. "ولسنا نعرف من فرق الخوارج فرقة باقية إلى اليوم غير فرقة الإباضية، وهي أعد لها ..."⁴⁶.

ومن الزخم العقائدي والفكري الذي وقع لنا من حجاجهم في الاستدلال على العقيدة والتي تأثرت إلى حد كبير بمعتقدات الإباضية ومبادئهم ما يلي:

"أصحاب عبد الله بن إباح الذي خرج في أيام مروان بن محمد، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية، فقاتله ببسالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقاً له في جميع أحواله وأقواله قال: إن مخالفتنا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومُنَاكَحَتُهُمْ جائزة، وموارثتهم حلال وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. وحرام قتلهم وسيبهم، إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجّة. وقالوا: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى. وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم، وقالوا في مرتكبي الكبائر: إنهم موحدون لا مؤمنون ثم اختلفوا في النفاق: أيسمى شركاً أم لا؟. قالوا: إنّ المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا موحدين، إلا أنهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا بالكبيرة لا بالشرك وقالوا: كل شيء أمر الله تعالى به فهو عام ليس بخاص وقد أمر به المؤمن والكافر وليس في القرآن خصوص. وقالوا: لا يخلق الله تعالى شيئاً إلاّ دليلاً على وحدانيته، ولا بد أن يدلّ به واحد. وقال قوم منهم: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل ويكلف العباد بما أوحى إليه. ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلاً" 47.

"وإباضية اليوم إحدى فرق الخوارج المعتدلين وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة يسكنون سلطنة عمان" 48. ومن مواقع انتشارهم ونفوذهم أنه "ما يزال لهم وجود إلى وقتنا الحاضر في كل من عُمان بنسبة مرتفعة وليبيا (بجبل نفوسة) وتونس (جزيرة جربة) والجزائر (غرداية ووادي ميزاب) وفي واحات الصحراء الغربية وفي زنجبار التي ضمت إلى تانجانيقا تحت اسم تنزانيا" 49.

"ولمّا ظهرت المذاهب الدينية تأثر الفكر الإسلامي بها إلى حد كبير، ذلك لأن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذي يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة - من المسلمين - ليأخذ كلّ منه ما يشهد لمذهبه، ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلاً لا ينافي مذهبه ولا يُعارضُ عقيدته" 50.

لقد كانت فرقة الإباضية من بين هذه الفرق التي تأولت كثيراً من آيات القرآن الكريم على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهاً عقلياً حدسياً من أجل خدمة مبادئها التي تدّين بها. وإذا ذهبنا نستعرض ما كتبه المفسرون من الإباضية في تفاسيرهم والأصوليون في معتقداتهم وأفكارهم، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات، التي تخدم أصولهم والتي تتقاطع مع الأصول الخمسة المنسوبة لفرقة المعتزلة في الجوهر لا في المظهر في المعنى والسياق وليس بالضرورة في المباني والمناهج. وهذه الأصول الخمسة التي يجمعون عليها، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وللإباضية آراؤهم في الاستدلال على أصول العقيدة الإسلامية "كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منّا فلا ينبغي أن نطن بأنفسنا استدراكاً عليهم" ولكن يقتضينا الإنصاف للحقيقة أن عقائدهم أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة توائم بين تداعيات إثبات النقل وتحليلات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي بالرغم من العدول أحياناً من سلطة وقدسية النص قال عليه الصلاة والسلام {مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأَيْهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ} ⁵¹. ويؤيد ذات السياق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة، 55، 56). وقوله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء، 59). وهذه الأصول أمر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشريح حيث قال: "اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن فيما في سنة رسول الله، فإن لم يكن فيما اجتمع عليه الناس، وفي رواية فيما قضى به الصالحون" ⁵².

فأما الأمر باتباع الكتاب والسنة في نفس السياق فكثير جداً كقوله تعالى:

- ✓ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء، 64).
- ✓ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء، 65).
- ✓ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام، 153).
- ✓ ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف، 3).

✓ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف، 157، 158).

✓ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور، 63).

✓ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب، 36).

✓ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر، 7).

وقال عليه الصلاة والسلام: {أنتم شهداء الله في الأرض} ⁵³.

وتأسيسا على هذه المقاربات النصية القاطعة والأزلية والمقدسة، فإن المذهب الإباضي تبني مشروعيتها نصًا وروحًا ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس، لقد استقلت الإباضية عن غيرها من الفرق والمذاهب بالرأي والموقف وأدركت في بداية تعاملها مع الدين البعد الرسالي للاجتهاد بالرأي وفضيلة التقارب مع المذاهب، ومعرفة الإسلام، بعد القرآن والسنة فقه حياة، والفقه والإجماع والاجتهاد لابد من دراسة واسعة واسعة لمختلف المذاهب والأفكار والعقائد. فهل هذه الفرق الكلامية خطأ عقلي وخطيئة خلقية، يقول الشيخ محمد الغزالي ر ه الله: "إن العلم والإيمان قرنيان، بل شيء واحد في الحقيقة! وأنه ليس هناك يقين ديني يناقض يقينًا علميًا، وأن كلمات الله في وحيه ترديد لكلماته في صحائف الكون والحياة، وفي قيام السماوات والأرض" ⁵⁴.

❖ الأفكار والمعتقدات:

إن مصدر الاعتقاد عند الإباضية والاستدلال عليه نابع من الخبر المتواتر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وتقوم أدل عقائدهم على المعادلة الفلسفية الآتية:

← 1- كلام برهاني وهو ما وقع فيه من نص قرآني أو حديث قطعي الثبوت والدلالة.

← 2- قول جدلي وهو ما ائتلف من المشهورات المستنبطة من الاستدلال والحجاج العقلي والمذهبي...

← 3- قول خطائي وهو ما ائتلف من المظنونات المترجمة الصدق على الكذب وهذه قضايا في تأويل الخطاب الديني لدى الإباضية تتناولها بالقبول والرد حسب المقاييس العلمية والمصادر النقلية على النحو الآتي:

1- صفات الباري سبحانه وتعالى هي هو؟ أم هي غيره؟ فمذهب الإباضية يرى أن صفاته الذاتية هي ذاته لا بشيء زائد عليه. ووافقهم على هذه المقولة الجدلية الفيلسوف ابن عربي الأندلسي، وقال لا فرق بين قول القائل: إنّ صفات الله تعالى غيره، وبين قول اليهود: إنّ الله فقير (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، إلاّ تحسين العبارة. ويظهر من خلال كتبهم ومرجعياتهم تعطيل الصفات الإلهية؛ وهم يلتقون إلى حد بعيد مع المعتزلة في تأويل الصفات ولكنهم يدعون أنهم ينطلقون في ذلك من منطلق عقدي، حيث يذهبون إلى تأويل الصفة تأويلاً مجازياً بما يفيد المعنى دون أن يؤدي ذلك إلى التشبيه. وللتأويل المجازي نكات بلاغية أشار إليها شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بقوله: "إن الفائدة في استعمال اللفظ المجاز دون الحقيقة قد يكون لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظماً ونثراً، أو للمطابقة والمجانسة والسجع، وقصد التعظيم، والعدول عن الحقيقي للتحقير؛ إلى غير ذلك من المقاصد في الكلام" 55.

ولكن كلمة الحق في هذا الصدد تبقى دائماً مع أهل السنة والجماعة المتبعين للدليل، من حيث إثبات الأسماء والصفات العليا لله تعالى كما أثبتتها لنفسه، بلا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تمثيل 56.

2- القول برؤية الباري سبحانه في الدار الآخرة، فالإباضية ينكرون ذلك؟ رغم ثبوتها في القرآن الكريم ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّنُونَ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة، 22-23). والمنع قول عائشة رضي الله عنها من الصحابة وقتادة والزحشري وغيرهم من المعتزلة والشيعة، والحجة قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام، 103) 57.

- 3- يؤولون بعض مسائل الآخرة تأويلاً مجازياً كالميزان والصراط.
- 4- أفعال الإنسان خلق من الله واكتساب من الإنسان، وهم بذلك يقفون موقفاً وسطاً بين القدرية والجبرية.
- 5- نفي التشبيه عن الله سبحانه وتعالى، فهذا يقول الإباضية، وكل ما ورد مما يوهم التشبيه فهو مؤول بما يليق به، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر، 14). فأثبت عيوناً كثيرة. وقال سبحانه في نفس السياق: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه، 39). فدللت هذه الآيات على أنها غير مراد ظاهرها.
- 6- أو مقولة من قال: إن القرآن غير مخلوق، فعند ا قيقين في الإباضية أن القرآن مخلوق، إذ لا تخلو الأشياء إما أن تكون خالقاً أو مخلوقاً. وهذا الكتاب (القرآن) الذي بين أيدينا نقرؤه ونرتله مخلوق لا خالق لأنه منزل ومتلو، وهو قول المعتزلة وقد وافقوا الخوارج في ذلك، يقول الأشعري: "والخوارج جميعاً يقولون بخلق القرآن"⁵⁸.
- 7- مقولات الإباضية في أصناف الناس:
- مؤمنون أوفياء بإيمانهم .
 - مشركون واضعون في شركهم .
 - قوم أعلنوا كلمة التوحيد وأقروا بالإسلام لكنهم لم يلتزموا به سلوكاً وعبادة. فهم ليسوا مشركين لأنهم يقرون بالتوحيد، وهم كذلك ليسوا بالمؤمنين؛ لأنهم لا يلتزمون بما يقتضيه الإيمان. فهم إذا مع المسلمين في أحكام الدنيا لإقرارهم بالتوحيد وهم مع المشركين في أحكام الآخرة لعدم وفائهم بإيمانهم ولمخالفتهم ما يستلزمه التوحيد من عمل أو ترك⁵⁹.
- 8- للدار وحكمها عند محدثي الإباضية صور متعددة، ولكن محدثيهم يتفقون مع القدامى في أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام هي دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي.
- 9- يعتقدون بأن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والخيول وكل ما فيه من قوة الحرب حلال وما سواه حرام.

10- قولهم في مرتكب الكبيرة إنه كافر كفر نعمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة، 44). وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران، 97). فكل من لم يحكم بما أنزل الله وهو مستطيع فهو كافر، وكل تارك للحج وهو مستطيع فهو كافر بنعمة الله التي أنعم عليه من الاستطاعة⁶⁰.

كما أن مرتكب الكبيرة كافر لا يمكن في حال معصيته وإصراره عليها أن يدخل الجنة إذا لم يتب منها، فإن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلا إذا تابوا منها قبل الموت. فالذي يرتكب كبيرة من الكبائر يطلقون عليه لفظة (كافر) زاعمين بأن هذا كفر نعمة أو كفر نفاق لا كفر ملّة، بينما يطلق عليه أهل السنة والجماعة كلمة العصيان أو الفسوق، ومن مات على ذلك، في اعتقاد أهل السنة، فهو في مشيئة الله، إن شاء غفر له بكرمه وإن شاء عذبه بعدله حتى يطهر من عصيانه ثم ينتقل إلى الجنة. غير أن جماعة الإباضية فيقولون بأن العاصي مخلد في النار، وهي بذلك تتفق مع بقية الخوارج والمعتزلة في تخليد العصاة في جهنم⁶¹.

11- خلود الفاسق الذي مات غير تائب في النار، ووافقهم على هذه المقولة السعد من المالكية، وقيل: إنه من الشافعية، ونص كلامه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء، 48). وهنا ينكرون الشفاعة لعصاة الموحدين؛ لأن العصاة - عندهم - مخلدون في النار فلا شفاعة لهم حتى يخرجوا من النار فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون من مات مصرّاً غير تائب، إنما الشفاعة لمن مات على صغيرة، أو مات وقد نسي ذنبا أن يتوب منه، أو لزيادة درجة في الجنة، أو لتخفيف الموقف على المؤمنين وإراحتهم منه إلى الجنة، بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ يَمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر، 18). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء، 28). وقوله عليه الصلاة والسلام لعشرته: {إنني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة. (الحديث): "لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"}.

12- ينفون شروط القرشية في الإمام إذ إن كل مسلم صالح لها، إذا ما توفرت فيه الشروط، والإمام الذي ينحرف ينبغي خلعُه وتوليُّه غيره، وعدم لزوم الإمامة في

قريش مقولة الأنصار وعمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري من الصحابة، واختاره العلامة الموريتاني الشنقيطي صاحب أضواء البيان وغيره من العلماء⁶².

13- من مقولات الإباضية تهجم بعضهم على الخليفة الراشد عثمان بن عفان وعلى معاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص رضي الله عنه، فهم يرون في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنهم كغيرهم في الأعمال لا في درجات الصلوة والمنزلة الأخروية. فالعاصي منهم كغيره من بعدهم كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ (الحجرات، 2). وقوله تعالى عند ذكر بيعة الراضون: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح، 10). وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاني منهم وجلد الشارب وقطع يد السارق منهم وهجر عاصيهم، وقوله: {لو سرق فاطمة ابنتي لقطعت يدها} ووافقهم على هذه فرقة المعتزلة وهو رأي الصحابة أنفسهم في بعضهم وهم أسوة⁶³.

14- من مقولات الإباضية الإمامة بالوصية باطلة في مذهبهم، ولا يكون اختيار الإمام إلا عن طريق البيعة، كما يجوز تعدد الأئمة في أكثر من مكان.

15- لا يوجبون الخروج عن الإمام الجائر ولا يمنعون، إنما يجيزونه، فإذا كانت الظروف موالية والمضار فيه قليلة، فإن هذا الجواز يميل إلى الوجوب وإذا كانت الظروف غير موالية والمضار المتوقعة كثيرة والنتائج غير مؤكدة فإن هذا الجواز يميل إلى المنع. ومع كل هذا فإن الخروج لا يمنع في أي حال، والشراء (أي الكتمان) مرغوب فيه على جميع الأحوال ما دام الحاكم ظالماً⁶⁴.

16- تعتقد الإباضية بالقضاء والقدر أنه مقدر من الله تعالى، وأن الخير والشر خلق من الله وكسب من العباد، وها هنا يوافقون أهل السنة والجماعة في هذا، والاستدلال والحجاج قوله تعالى:

- ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، 54).

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات، 96).

- ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء، 23).

17- أنهم يطلون الصلاة بالقنوت فيها، ومنه قول (آمين) مستدلّين بقوله تعالى:

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة، 238). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: {صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام آدميين}⁶⁵.

18- أنهم لا يقولون بالمسح على الخفين، وأن الصلاة لا تجوز به والمنع مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة، 6).

19- من مقولات الإباضية في الآداب والأخلاق والمعاملات تحريم حلق اللحية، وقد أجمع على توقيرها الصحابة وقد نهي رسول الله ﷺ عن حلقها، وقال: {جزوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا المجوس، وفي رواية خالفوا أهل الكتاب ...}. لأنه فيه تشبيه بالنساء، وقد نهي النبي ﷺ عن التشبه بهن، وفيه: أن توقيرها من الحصال العربية التي أمر رسول الله ﷺ بافظة عليها بقوله: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}. واللحية عربية والحلق أعجمي. والله در الإباضية في هذا التوجه الأخلاقي الذي ينم عن الوازع الديني والكمال الخلقي وروح الإنتماء والأصالة⁶⁶.

20- من أبرز أبجديات التأويل الإباضي لآيات الله الشرعية والكونية التي يبرهن عليها التاريخ وينصفها الواقع المعيش تحريمهم تعاطي السجائر (الدخان) تحجباً من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ (الأعراف، 157).

وقد ثبت بالتجربة العلمية القطعية أن الدخان من الخبائث ويؤيد هذا آخر ما توصل إليه العلم الحديث أن (الدخان مضر بالصحة، وبات يهدد الإنسانية عن بكرة أبيها لذا قللت الدول المنتجة من شأنه وباتت تفرض العقوبات والضرائب الجزافية على متعاطيه وتحرمه في الأماكن العمومية كيفما اتفق) وقد قال المبعوث رمة للعالمين بتحريم الخبائث، وقد اتفق الأطباء على ضرره وتجنب المضرة واجب شرعاً وعقلاً، كما فيه إضاعة للمال، وقد نهي الإسلام ورسوله ﷺ عن إضاعة المال بقوله: "لا تزولا قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث، منها وعن ماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه". وقول الباري سبحانه: ﴿وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء، 26 - 27).

21- للإباضية نظام اسمه (حلقة العزابة) وهي هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاًحاً، تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي: الدينية والتعليمية

والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما تمثل مجلس الشورى في زمن الظهور الدفاع، أما في زمن الشراء والكتمان فإنما تقوم بعمل الإمام وتمثله في مهامه.

كما لديهم منظمة اسمها (إيروان) تمثل المجلس الاستشاري المساعد للعرابة وهي القوة الثانية في البلد بعدها⁶⁷. و"إيروان" جمع "إيرو" وهو لفظ أمازيغي، يعني طالب العلم الذي حفظ القرآن الكريم وتفرغ للدراسة غالباً. ويتشكل من مجموع هؤلاء الطلبة هيئة إيروان؛ وهي القوة المساندة للعرابة، لها نظم وتقاليد، وكثيراً ما يُسند لهم العرابة أعمالاً، كما يجتارون منهم الأعضاء الجدد في الحلقة.

وقد أسس هذا النظام الشيخ عمي سعيد بن علي الجري (ت 927 هـ) حين قدم مزاب في منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، إحياء للعلم.

لإيروان مقر خاص بهم في المسجد، فيه يجتمعون ويتداولون مهامهم ومسؤولياتهم، يسمى "تَدَارُتْ نِيرَوَان" أي "دارُ إيروان"⁶⁸. "وهي إحدى أقدم المؤسسات الدينية في العالم أجمع، حيث تواصل عملها وعطاءها طيلة ثمانية قرون متواصلة دون انقطاع، وقد أدرك المؤسسون الأوائل من مشايخ المذهب الإباضي في وادي ميزاب أن المجتمع الإباضي مجتمع مسجدي يعيش على هدى الكتاب والسنة النبوية ... وهي حلقة دعوية تربوية تعليمية..."⁶⁹.

وفي الختام نؤيد ما ذهب إليه الشيخ محمد الغزالي رمة الله عليه عندما قال: "وها هنا يجب التأكيد أننا نحترم أئمة الفقه الكبار احتراماً عميقاً، واحترام المدارس التي نشأت حولهم أو نشأت مستقلة عنهم ما دامت تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ"⁷⁰. قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف، 81). الخاتمة:

استهدف هذا البحث القيام بمحاولة قراءة الأنماط الفكرية والدينية ذات النزوع الكلامي للمذهب الإباضي، وقد انطلق من ضرورة ممارسة نقدية تحليلية لظاهرة الفرق والمذاهب الكلامية التي تُسقى بماء واحد وتتكى في الاستدلال على أحكام الدين الإسلامي -عقيدة وشريعة- على خطاب واحد متعدد Unidimensionnel القرآن الكريم والحديث الشريف كأبرز المرجعيات في التأويل.

لقد تمت معالجة موضوعات المذهب الإباضي بطريقة التزمت المنهج العلمي القائم على الموازنة والمقارنة والربط الموضوعاتي والتاريخي بين الفروع والأصول، كما

نوقشت عقائد الإباضية مناقشة علمية حرة، مما دفع بآلية البحث ممارسة تعتمد الإحصاء وتوظيفamol التراثي بالقدر الذي يتيح للملاحظات التخلص من الانطباعية، ويعين من خلال استقراء الدلالات الكلامية والفلسفية على إيضاح نتائج ربما اختلفت وراء الحكم الذاتي المعتمد على الحدس... والنظر إلى المسائل المختلفة على أنها وجهات نظر اجتهادية بحتة. والتي تحمل القبول والرد والرغبة عن اصطناع ا مابة والابتعاد عن أسباب العصبية.

وبعد، فإن المذهب الإباضي مذهب مفتوح على غيره، ولم يفقد الثقة بذاته يوماً، الأمر الذي جعله شاهداً على العصر محفوراً في الذاكرة والوجدان العربي والإسلامي - اليوم - فلم يعرف العصبية والجمود والانغلاق على الذات، وتلك علة خلوده وحضوره في معركة المفاهيم.

ومن أدل النتائج التي توصل إليها البحث وأحاطت بها هذه الدراسة حول المذهب الإباضي والحفر في مكوناته النصية ومحمولاته الإستيمية من وحي التأويل بين التزام النص وحجية إعمال الرأي ما يأتي:

1- إخراج بحث جامعي لإبراز دور المذاهب والفرق الدينية في إثراء المنظومة التشريعية والعقدية للإسلام في ضوء الدراسات الكلامية والفلسفية.

2- تناول البحث بعض المقولات الإباضية في تتبع دقيق واستقصاء كامل في إطار المرجعيات النصية والمعرفية ا بطة بها.

3- سدّ فراغ علمي بالمكتبة الجامعية ودعوة الباحثين والعارفين لحقيقة المذاهب الكلامية في العالم الإسلامي -اليوم- لتناول ظاهرة المذهب الإباضي بوصفه نقطة تركز لعالمية الإسلام وتحديات العولمة.

4- صراع المذاهب الفكرية وفضيلة التقارب بينها أفرز أفانين الجدل في مختلف شؤون الحياة ومناهجها الدينية والعقلية والسياسية في عصر يكاد يفقد الأمة الإسلامية التمسك بهويتها، وبذا يصبح تعدد المذاهب والفرق والجماعات في الدفاع عن العقيدة والموروث الحضاري للإسلام ضرورة حتمية.

5- اعتبار النص الديني المقدس سلطة عقدية وتشريعية مطلقة وأزلية وإبداع إلهي متجدد لا تقيده مبادئ مطلقة، ومن ثمّ فإن القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار.

- 6- اعتبار المذهب الإباضي امتداداً تاريخياً حياً للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي في الاستدلال على العقيدة منذ العصور الذهبية الأولى للإسلام.
- 7- الإباضية هي الفرقة الكلامية التي تتصدر قافلة المذاهب والفرق حالياً في النظرية والممارسة ويؤيد هذه الطلائعية قوة انتشارها في العالم الإسلامي وقوة خطابها الديني والفكري المعتدل.
- 8- لقد تأوّلت الإباضية كثيراً من آيات الخطاب القرآني على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهاً عقلياً يركز على الحدس من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها.
- 9- عقائد الإباضية أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة كونها توائم بين سلطة النقل وتحليلات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي.
- 10- تتقاطع الأصول الفكرية للإباضية مع الأصول الخمسة للمعتزلة رغم الفرق في السياق والمنهج.
- 11- لقد تبني المذهب الإباضي المقاربات النصية المقدسة منهجاً وروحاً ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس.
- 12- اعتبار الإباضية الترجمة العملية لقواعد السلوك الفردي والجماعي القويم في الإسلام وتنمية روح الانتماء والتعاقد والتآلف والأصالة، وعلة ذلك هيئتها ومنظمتها التي تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاًحاً (حلقة العزابة وإروان) أنموذجاً.

الهوامش

- ¹ منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة: مُجَدِّد بومعيزة رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2001 – 2002 ص: ب.
- ² المرجع نفسه، ص ت.
- ³ المرجع نفسه، ص ت.
- ⁴ المرجع نفسه، ص ج.
- ⁵ لسان العرب: ابن منظور مادة (كلم)، مؤسسة دار الرسالة، بيروت لبنان، ط4، 1996.
- ⁶ الصاحب: أ د بن فارس، تحقيق أ د السيد صقر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت، ص81، وينظر، سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، ط2، 1994، ص26. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، تحقيق أ د مُجَدِّد جاد المولى وآخرين، طبعة دار الجبل، بيروت، ج1، د.ت، ص184.
- ⁷ كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر): أبو هلال العسكري، تحقيق علي مُجَدِّد البجاوي و مُجَدِّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، د.ت، ص69.
- ⁸ في البلاغة العربية: علم المعاني، البيان، البديع: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ت، 39.

- ⁹ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، 1987، ص 103.
- ¹⁰ منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة: مُجَدِّد بومعيزة، ص 50.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص 51.
- ¹² المنقذ من الضلال: أبو حامد الغزالي، طبعة مكتب النشر العربي، 1934، ص 79.
- ¹³ المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد الشريف علي بن مُجَدِّد الجرجاني: عضد الدين الأيجي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1997، ص 34/1.
- ¹⁴ كشاف اصطلاحات الفنون: مُجَدِّد بن علي التهانوي (مادة علم الكلام) كلكتا، د.ت، ص 1/30.
- ¹⁵ المقدمة: عبد الر بن بن خلدون، طبعة بيروت، 1956، ص 826.
- ¹⁶ كتاب التعريفات: الشريف علي بن مُجَدِّد الجرجاني، باب الكاف، القاهرة، ص 124.
- ¹⁷ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1997، ص 135.
- ¹⁸ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: مصطفى عبد الرزاق، القاهرة، ط2، ص 264.
- ¹⁹ كتاب الفقه الأكبر: الإمام أبو حنيفة، طبعة حيدر آباد، الركن، ص 6.
- ²⁰ شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازاني (ت 791 هـ)، مطبعة مُجَدِّد علي وأولاده، ط2، 1358، ص 39.
- ²¹ الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي: أبو الفتح الشهرستاني، مصر، 1929، ص 32/1 – 33. وينظر التفتازاني المصدر نفسه، ص 48. وينظر رسالة التوحيد مد عبده، نشرة مُجَدِّد محي الدين عبد الحميد، 1966، ص 8.
- ²² صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام: جلال الدين السيوطي، تحقيق علي سامي النشار، القاهرة، 1947، ص 23.
- ²³ مختصر جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر (ت 463 هـ) – باب ما يكره فيه المناظرة –، القاهرة، ط1، 1320، ص 153.
- ²⁴ رسالة التوحيد – باب التناهي عن الجدل – : ابن بابويه القمي، طهران، 1375، ص 197.
- ²⁵ حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه.
- ²⁶ موسوعة الفلسفة والفلاسفة ط- ي: عبد المنعم الحفني، الجزء الثاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2010، ص 1349 – 1350.
- ²⁷ معجم المصطلحات الإباضية أ- ش: تأليف مجموعة من الباحثين، الجزء الأول، مطابع النهضة، سلطنة عمان، 2008، ص ط - ي.
- ²⁸ معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ- ش، ص 2 – 3.

- ²⁹- معجم مصطلحات الإباضية، ص 3. وينظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة لعبد المنعم الحفني، أ - ض، ج 1، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 2010، ص 21. وينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق/ مكتبة مدبولي، ط1، 2004، القاهرة، ص 197. وينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت ص 149.
- ³⁰- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ-ش، ص 4 (بتصرف).
- ³¹- المرجع نفسه، ص 4.
- ³²- المرجع نفسه، ص 4 - 5.
- ³³- المرجع نفسه، ص 6 (بتصرف).
- ³⁴- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149.
- ^{*} - تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (ت 974 هـ)، حيدر آباد، د.ت، ص 38/ 2.
- ³⁵- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149 (بتصرف).
- ³⁶- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6.
- ³⁷- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 150 (بتصرف).
- ³⁸- المرجع نفسه، ص 150.
- ³⁹- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6 (بتصرف).
- ⁴⁰- معجم مصطلحات الإباضية، ص 6. وينظر كذلك أهم المصادر التي صاغت هذه المدونة وشبكتها المعلوماتية بين ص 6 و 7 لأهميتها.
- ⁴¹- بنية الإيقاع في الخطاب القرآني - مقارنة أسلوبية - : عبد الرحيم عزاب، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية والدراسات القرآنية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2009/ 2010، ص 150.
- ⁴²- مجموع الفتاوى الكبرى: شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، كتاب أصول الفقه، منشورات محمد علي ببيضون، ط1، 2000، بيروت لبنان، ص 11/ 185.
- ⁴³- سلسلة الحق المر: محمد الغزالي، شركة نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2008، ص 3/ 1.
- ⁴⁴- سلسلة الحق المر: محمد الغزالي، ط1، 2005، ص 2/ 115 (بتصرف).
- ⁴⁵- سلسلة الحق المر مد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 2005، ص 142.
- ⁴⁶- بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة: محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 2005، ص 182.
- ⁴⁷- ينظر الملل والنحل للشهرستاني، ص 1/ 134، 135. والفرق بين الفرق وبين الفرق الناجية: أبو منصور البغدادي، القاهرة 1910، ص 61. والتبصير في الدين: أبو المظفر الإسفرايني، تحقيق عزت عطار الحسيني، دمشق، 1940، ص 56. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، ص 100.
- ⁴⁸- جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق، ص 197.

- ⁴⁹⁻ موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات: مُجد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 155 (بتصرف).
- ⁵⁰⁻ بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة: مُجد حسين الذهبي، ص 171.
- ⁵¹⁻ رواه الترميذي في سننه.
- ⁵²⁻ مجموع الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، 227 / 11.
- ⁵³⁻ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز (1367). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز (949) عن أنس.
- ⁵⁴⁻ سلسلة الحق المر: مُجد الغزالي، نضضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 2008، ص 3 / 19.
- ⁵⁵⁻ مجموع الفتاوى الكبرى: تقي الدين بن تيمية، الجزء 11، ص 187.
- ⁵⁶⁻ ينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 150. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد (فصل التشبه والتأويل) من ص203 إلى ص249. كل ذلك لمزيد من الإلمام بخصائص الموضوع والتطرق إليه من شتى جوانبه، مراعين الإشارة والإيجاز.
- ⁵⁷⁻ ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق، مكتبة مدبولي، ط1، 2004، ص 198 (بتصرف).
- ⁵⁸⁻ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري (ت324هـ)، تحقيق مُجد محي الدين عبد الحميد، ط2، 1969، الجزء الأول، ص203.
- ⁵⁹⁻ ينظر موسوعة الأديان: محمود عبد الحليم عبد الفتاح، ص 151.
- ⁶⁰⁻ ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية: اللواء حسن صادق، ص 198.
- ⁶¹⁻ ينظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، فصل (الخوارج)، ص100.
- وموسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 152.
- ⁶²⁻ ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق، ص199. وموسوعة الأديان مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 152.
- ⁶³⁻ ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق، ص 199. و دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، ص 99.
- ⁶⁴⁻ ينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص 152 – 153.
- ⁶⁵⁻ ينظر كتاب الصحاح في الحديث النبوي الشريف، كتاب الصلاة.
- ⁶⁶⁻ ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات، ص 199، 200، 201 (بتصرف).
- ⁶⁷⁻ موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 153.
- ⁶⁸⁻ معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول، أ – ش، ص86.

- ⁶⁹- مقال منشور بجريدة الخبر تحت عنوان: "حلقة العزابة... مؤسسة دينية عمرها 8 قرون " تأليف الأستاذ بابا وموسى بلقاسم، عدد 6095، المؤرخ 22 أوت 2010، ص22.
- ⁷⁰- سلسلة الحق المرمد الغزالي ربه الله تعالى، الجزء الثالث ، ط5، 2008، ص 226.

الشكالة في بيع المثل التجاري

لطفي محمد الصالح قادري

جامعة ورقلة

مقدمة:

لما كان المثل التجاري يعد من أهم أملاك التاجر نظرا لقيمته المالية والاقتصادية المعتبرة وبالتالي فهو يمثل رصيذا وضمانا هاما وأساسيا للدائنين، إضافة إلى طبيعته المعنوية الخالصة بحيث لا يخضع البتة لقاعدة الحيازة في المنقول سند الملكية لأن مناط تطبيق هذه القاعدة هي المنقولات المادية، كل هذه الاعتبارات وأخرى أزت بالمشروع التجاري إلى تنظيم عقد يبيعه أو التنازل والتفرغ عنه وهذا إعمالا وتحقيقا منه للحماية القانونية اللازمة لجماعة الدائنين.

وسعيا من المشروع التجاري لأجل إضفاء حماية قانونية خاصة لجماعة الدائنين فقد أوجب المشروع على التاجر بائع المثل التجاري ضرورة إتباع إجراءات وقواعد شكلية غاية في الأهمية عند رغبته في التنازل عن المثل التجاري وذلك لوضع حد لأي تجاوز قد يبدد عنه كأن يتصرف فيه خفية أو بمقابل لا يتناسب وقيمه الحقيقية الأمر الذي يترتب عليه ضرر لهؤلاء الدائنين.

وواقع الأمر إن الإجراءات الشكلية التي فرضها المشروع حالة التنازل عن المثل التجاري بالبيع أو بأي طريق آخر لا ترمي فقط إلى حماية جماعة الدائنين وإنما تستهدف كذلك إلى حماية بائع المثل التجاري نفسه قبل المشتري وهذا تشجيعا للائتمان التجاري عن طريق تقدير ضمانات كافية لاستيفاء الثمن عند تأجيله وبصفة خاصة عند إفلاس المشتري وهذا ما يعد خروجاً عن القواعد العامة المألوفة في القانون المدني وهي قواعد خاصة لها مبررات وجودها وأساسها العملي والمصلحي.

وقد احتدم جدال فقهي حول مسألة الشكلية المفروضة في عقد بيع المثل التجاري

وموقعها في مجال التصرفات العقدية الواردة عليه تحت إشكالية مفادها هل الرسمية المقررة في بيع المحل التجاري مستوجبة للإثبات أم هي ركن ركين في العقد بحيث يفضي تخلفها توقيع البطلان المطلق عليه؟ وسنعمل في هذه الورقة على بيان المقصد التشريعي للمشرع من وراء فرضه الشكلية وهذا عبر النقاط الآتية:-

أولاً: ضرورة العقد الرسمي

عقد بيع المحل التجاري من العقود الرضائية التي تنشأ عن طريق توافق وتطابق الإيجاب والقبول على جميع المسائل والعناصر الجوهرية المدرجة في العقد، وقد أكد القضاء المصري هذا المبدأ في أحد قرارات كمة النقض التي أفادت بأنه « لا يشترط لإنعقاد عقد بيع المتجر أو إثباته أن يكتب أو أن يشهر لأنه عقد رضائي يتم بإرادة طرفيه كما لا يشترط فيه أن يبين فيه مشتملاته المعنوية والمادية وقيمة كل منها على حدة، وما إستلزمه القانون رقم 11 لسنة 1940 من كتابة للعقد وشهره، وبيان العناصر المبيعة وقيمة كل منها على حدة مطلوب ليحفظ البائع بحقه في امتياز البائع وبحقه في الفسخ ولا أثر له بالتالي على قيام العقد»¹.

ويفهم مما سبق أن المشرع المصري ذهب في قانونه الصادر تحت رقم 11 لسنة 1940 أن بيع المتجر هو من العقود الرضائية ولا يحتاج لقيامه إتباع أي إجراء شكلي، وما قرره المشرع من إجراءات شكلية إلا تحقيقاً لحماية البائع حتى يحتفظ بممارسة حقه في الامتياز والفسخ قبل المشتري إذا لم يلتزم بما عليه من واجب دفع الثمن، حيث تنص المادة الأولى من القانون رقم 11 لسنة 1940 «ثبت عقد بيع المحل التجاري بعقد رسمي أو بعقد عرفي مقرون بالتصديقات على توقيعات وأختام المتعاقدين»².

غير أن قانون التجارة المصري الجديد رقم 17 لسنة 1999 أخذ منحى آخر بخصوص الرسمية في عقد بيع المحل التجاري حيث جعلها ركناً ركيناً في العقد يترتب على تخلفها البطلان المطلق وهي نقلة نوعية في مذهب التشريع المصري بخصوص الشكلية في عقد بيع المتجر إذ من اعتبارها أي الرسمية مجرد أداة تحفظ حق البائع في ممارسة ضماناته إزاء المشتري حتى حال إفلاسه، والمتمثلة في الامتياز والفسخ إلى اعتبارها ركناً أساسياً لقيام عقد بيع المحل التجاري لا يتصور بدونها.

وهذا ما أورده المادة 37 فقرة 01 بقولها «كل تصرف يكون موضوعه نقل ملكية المتجر أو إنشاء حق عيني عليه أو تأجير استغلاله يجب أن يكون مكتوباً وإلا كان باطلاً».

وبناء على هذا لم يعد عقد بيع المتجر عقدا رضائيا كما عرفناه في ظل قانون رقم 11 لسنة 1940 وإنما أصبح عقد شكليا تكون الكتابة أحد أركانه.³

أما في التشريع الفرنسي فقد أجاز المشرع التجاري التنازل عن المحل التجاري سواء بعقد رسمي أو بعقد عرفي بخلاف المشرع الجزائري الذي أخذ منعرجا آخر حيث جاءت أحكامه التجارية المنظمة لعقد بيع المحل التجاري أكثر صرامة وتعلقا بالنظام العام وهذا ما أكدته المادة 79 من القانون التجاري بقولها « كل بيع إختياري أو وعد بالبيع وبصفة أعم كل تنازل عن محل تجاري ولو كان معلقا على شرط أو صادر بموجب عقد من نوع آخر أو كان يقضي بانتقال المحل التجاري بالقسمة أو المزايدة أو بطريق المساهمة به في رأس مال الشركة يجب إثباته بعقد رسمي وإلا كان باطلا».⁴

وفهم صراحة من هذه المادة أن أي تنازل عن المحل التجاري أو التصرف فيه بالبيع لابد من إفرغه في عقد رسمي وهذا تحت طائلة البطلان حالة المخالفة، ومن ثم فهذه المادة 79 من القانون التجاري الجزائري يعد إستثناء عن الأصل العام في الإثبات بالنسبة للمواد التجارية الذي يعتبر الإثبات فيه حرا طليقا تبعا لما تنص عليه المادة 30 من القانون التجاري الجزائري التي تجيز إثبات جميع التصرفات القانونية في الميدان التجاري بكافة طرق ووسائل الإثبات تماشيا مع واقع التجارة والتي تقوم على دعامتي السرعة والثقة والائتمان، وقد تضاربت آراء القضاة الجزائريين بين من يعتبرون الرسمية في عقد بيع المحل التجاري هي شرط لازم لتتمام العقد فقط وبين من ذهبوا إلى حد اعتبارها ركنا ركينا فيه أسوة بالمشرع المصري.⁵

حيث ذهب الاتجاه الأول إلى القول بأن عقد بيع المحل التجاري طبقا للقواعد العامة يتم بتراضي المتعاقدين وذلك بتبادلهم الإيجاب والقبول وتحديد العناصر الرئيسية في العقد العرفي وما الرسمية التي فرضها وأوجبها القانون سوى إجراءات تستلزم لتتمام العقد وعليه فالشكلية ليست ركنا فيه، ومن ثم جاز للمحكمة حالة تخلفها ونكول أحد المتعاقدين عن إتمامها أن تحكم بتوجيه الأطراف أمام الموثق لاستكمال إجراءات الرسمية الخاصة بالبيع النهائي وفي حالة الامتناع يقوم الحكم مقام العقد.

أما الاتجاه الثاني فأعتبر الرسمية ركن ركين في العقد لا قيام له بدونه ومؤيدهم فيما ذهبوا إليه أن القاضي إذا مكن له تصحيح العقد العرفي كان من السهل التحايل على القانون والتهرب من الشروط التي فرضها وأمام هذا التباين والانفراج في المواقف أصدرت المحكمة

العليا قرارا بتاريخ 97/02/18 ملف رقم 156136 الغرفة المجتمعة قضت فيه أن العقد العرفي المتضمن بيع مل تجاري يعد باطلا بطلانا مطلقا لكونه يخضع لإجراءات قانونية من النظام العام ولا يمكن تبعا لما تقدم أن يصححها القاضي بحكمه على الأطراف التوجه أمام الموثق لإتمام إجراءات البيع.⁶

كما قضت المحكمة العليا في أحد قراراتها تحت رقم 80160 بقولها "من المقرر قانونا أنه يجب الإثبات بعقد رسمي وإلا كان باطلا، كل تنازل عن مل تجاري ولو كان معلقا على شرط، أو صادرا بموجب عقد من نوع آخر، أو كان يقضي بانتقال الحل التجاري بالقسمة أو الزيادة أو بطريق المساهمة به في رأس مال الشركة... لذا فإن القرار الذي فصل في طلب الطاعنين للرجوع إلى الأمكنة وقضى بالرفض، صدر مستوجبا للنقض والإبطال".⁷

وهناك قرار آخر صادر عن المحكمة العليا تحت رقم 136139 الغرفة مجمعة قضى بما مضمونه: "...وضمن هذه الظروف إنه يتعين على قضاة الموضوع أن يقضوا بطلان العقد العرفي المتعلق ببيع القاعدة التجارية ويأمروا بإرجاع الأطراف إلى الحالة التي كانوا عليها قبل إبرام العقد وفقا لاحكام المادة 103 من القانون المدني، وبما أن القرار المنتقد لم يراع القواعد القانونية المبينة أعلاه فإنه يستحق النقض".⁸

وحقيقة فإن العقد الرسمي باشرطه كأداة وحيدة للإثبات بشأن بيع الحل التجاري وهذا تحت طائلة البطلان يمكن المشرع من تحقيق مقاصد اجتماعية واقتصادية غاية في الأهمية فمن الناحية الاجتماعية يسمح العقد الرسمي بحماية أطراف العلاقة القانونية من الوقوع في تصرف خطير قد ينجز عنه خسارة مالية فادحة الأمر الذي يجعل المتعاقدان يترتبون عند إقبالهم على بيع أو شراء المحلات التجارية إضافة إلى ما توفره الرسمية من تقليل للمنازعات القضائية الدائرة حول بيع الحل التجاري ناهيك عن حماية البائع وتوفيرها ضمان له بما يمكنه من ممارسة حقه في الامتياز أو الفسخ حال عدم وفاء المشتري بثمن البيع.

كما لا يفوتنا أن نوه إلى أهمية الرسمية في عقد التنازل عن الحل التجاري من الناحية الاقتصادية وهذا ما يظهر من خلال رسوم التسجيل والضرائب التي تعتبر من جملة إيرادات الخزينة العمومية، حاصل القول العقد الرسمي يعتبر حجة على المتعاقدين وعلى الغير ولا يمكن الطعن بخلاف ما يتضمنه إلا بدعوى التزوير وهي بذلك تمكن حائز الحل التجاري من الانتفاع بمحلته التجاري انتفاعا كاملا وهادئا، إذ معلوم أن الحل التجاري لا يخضع لقاعدة

الحيازة في المنقول سند الملكية لأنه مال معنوي بحسب طبيعته.⁹

كما أن الرسمية تحدد بصورة دقيقة بعيدة عن أي شك أو ضن عناصر الحل التجاري التي دخلت في نطاق العملية وشملها التنازل، وصفوة القول وحاصله إن عقد بيع الحل التجاري طبقا للتشريع الجزائري يعد من العقود الرضائية ومن ثم فإذا بيع حل تجاري مبدئيا يكون العقد صحيحا طالما توافرت في العقد الشروط الموضوعية العامة والمقررة في القواعد المنصوص عليها في القانون المدني وتم دفع الثمن بين يدي الموثق بشرط أن تكون البيانات إلى إستلزمها القانون وأوجبها كاملة وصحيحة غير منقوصة أو مخالفة لواقع الأمر.¹⁰

وكما أن المشرع التجاري الجزائري استلزم تحت طائلة البطلان ضرورة إفراغ عقد التنازل عن المتجر في وثيقة رسمية، فإنه عمل كذلك على اشتراط الإشهار الرسمي لهذا التنازل تحت طائلة نفس الجزاء وهذا ما أقرته المادة 83 من القانون التجاري الجزائري وأعادت تأكيده المحكمة العليا في قرارها الصادر عنها تحت رقم 125118 بقولها "من المقرر قانونا أن كل تنازل عن حل تجاري، ولو كان معلقا على شرط يجب إثباته بعقد رسمي وإعلانه في النشرة الرسمية للإعلانات القانونية خلال الآجال المحددة وإلا كان باطلا وبدون أثر...".¹¹

ثانيا: ميدان تطبيق النص القانوني

إن اشتراط الشكلية كأساس هام لإثبات التنازل عن الحل التجاري لا يستلزمها المشرع في عقود البيع فقط وإنما يوجبها أيضا في عقود أخرى وحالات غير البيع، كالوعد بالبيع ويأخذ حكمه الوعد بالشراء كذلك التنازل عن الحل التجاري لصالح شركة قائمة أو في طور التكوين والتأسيس أو في حالة قسمة الحل التجاري سواء بين الشركاء أو الورثة، كذلك حالة بيع الحل بالمزايدة، كل هذا أورده المادة 79 من القانون التجاري الجزائري بقولها « كل بيع اختياري أو وعد بالبيع وبصفة أعم كل تنازل عن حل تجاري ولو كان معلقا على شرط أو صادر بموجب عقد من نوع آخر وكان يقضي بانتقال الحل التجاري بالقسمة أو المزايدة أو بطريق المساهمة به في رأسمال شركة يجب إثباته بعقد رسمي وإلا كان باطلا... ».¹²

كما أكد القضاء الجزائري ضرورة الرسمية الخاصة بإثبات التنازلات عن المحلات التجارية في قرار اخر للمحكمة العليا تحت رقم 138806 بقولها "من المقرر قانونا انه زيادة على العقود التي يأمر القانون بإخضاعها الى شكل رسمي، يجب تحت طائلة البطلان، تحرير العقود التي تتضمن نقل ملكية عقار أو حقوق عقارية أو ملات تجارية في شكل رسمي...".¹³

وسنعمل في هذا الفرع على توضيح الحالات التي اشترط فيها المشرع الجزائري الرسمية كأساس لإثبات التنازل عن الحل التجاري عبر النقاط التالية:-

أ. حالة الوعد بالبيع

يحصل كثيرا في الواقع العملي أن يكون بيع الحل التجاري مسبقا بوعد بالبيع، والوعد بالبيع في حقيقة الأمر ليس سوى اتفاق يجري بين الواعد والموعد ويلتزم الواعد بمقتضاه بإبرام البيع إذا أعلن وصرح الموعد له عن رغبته في ذلك في ظرف مدة معينة، ويتبن مما سبق أن الوعد بالبيع لا يعتبر مجرد إيجاب بالبيع كما أنه لا يصل إلى حدود ودرجة البيع النهائي، ولكنه مرحلة متوسطة من شأنها التمهيد لوقوع البيع النهائي، وحقيقة الأمر الوعد بالبيع عقد وهو يختلف عن عقد البيع ذاته الذي لا يقوم ولا ينقذ إلا إذا رغب الموعد له في إبرام البيع*، ومن ثم لا يعتبر الوعد بالبيع بيعا معلقا على شرط ولذلك لا ينشأ البيع بأثر رجعي يرتد إلى وقت حصول الوعد ولا يعتد بوجود البيع إلا من الوقت الذي يعلن الموعد له عن قبوله إبرام العقد بما يتضمنه من اتفاقات ثانوية ومسائل أخرى.¹⁴

والوعد بالبيع بمثابة عقد إذا أصدر فيه الطرفان الإيجاب والقبول المتطابقين مع خلو الإرادة من جميع العيوب التي قد تعثر بها إضافة إلى الأهلية وسلامتها، ويجب أن يتوافر في عقد الوعد بالبيع كافة الشروط الشكلية الواجب توافرها في عقد البيع ذاته لأن الغرض من الوعد بالبيع هو التمهيد لوقوع البيع النهائي، الأمر الذي يجب معه أن يفرغ في شكل رسمي يشتمل على كافة البيانات التي قررها المشرع التجاري في ن المادة 79 الانفة الذكر، فإذا نكل وامتنع الواعد عن إبرام العقد النهائي لبيع الحل لتجاري يمكن للموعد له إعلان رغبته في الشراء ورفع الأمر إلى القضاء واستصدار حكم بثبوت البيع وصحته.¹⁵

ويستفاد مما سبق ومن ن المادة 79 تجاري جزائري أن الوعد ببيع الحل التجاري لا بد أن يتم إثباته بعقد رسمي حيث يثبت للموعد له الحق في طلب ثبوت العقد وصحته حال نكول الواعد وهذا ما قضت به المحكمة العليا الغرفة التجارية في احد قراراتها حيث قضت بأنه «من المقرر قانونيا أن الوعد ببيع القاعدة التجارية يستوجب إثباته بعقد رسمي تحت طائلة البطلان، ولما كان من الثابت في القضية الحال، أن قضاة الموضوع لما قرروا رفض دعوى المدعية التي طلبت من المدعى عليها تنفيذ الوعد ببيع القاعدة التجارية مستنديين في ذلك على كون المدعية لم تقدم ما يبرر اتفاق الطرفين مع إنعدام العقد الرسمي وفقا لما تشترطه المادة

79 من القانون التجاري يكونون بقضائهم كما فعلوا طبقوا القانون تطبيقا صحيحا».¹⁶

كما لم يقف المشرع الجزائري على ضرورة العقد الرسمي في أي تنازل عن المحل التجاري بأي طريقة من طرق نقل الملكية بل إستلزم إلى جانب الرسمية ضرورة إشتغال المحرر الرسمي على البيانات التي تعكس رسميته وإلا كيف العقد على أساس أنه عقد عرفي وهذا ما جاء في قرار المحكمة العليا تحت رقم 68467 بقولها "إثبات عقد بيع حرر أمام الموثق ولم يتوافر على كل الشروط القانونية يجعل العقد عرفيا".¹⁷

كما نرى المشرع المصري منحى المشرع الجزائري بخصوص ضرورة الرسمية في الوعد ببيع المحل التجاري حيث نصت المادة 101 من القانون المدني «وإذا إشتراط القانون لتمام العقد إستيفاء شكلا معين فهذا الشكل يجب مراعاته أيضا في الاتفاق الذي يتضمن الوعد بإبرام العقد». كما قرر المشرع المصري حماية خاصة للموعد له ببيع قاعدة تجارية حيث أنه أعطى له الحق في مباشرة دعوى ثبوت العقد وصحته في مواجهة الواعد الناكل عن وعده بحيث يقوم الحكم القضائي الحائز لقوة الشيء المقضي به مقام العقد وهذا ما أورده المادة 102 من القانون المدني المصري بقولها «إذا وعد شخص بإبرام عقد ثم نكل وقاضاه المتعاقد الآخر طالبا تنفيذ الوعد وكانت الشروط اللازمة لتنفيذ العقد وبخاصة ما يتعلق منها بالشكل، متوافرة، قام الحكم متى حاز قوة الشيء المقضي به مقام العقد».¹⁸

ب. حالة تقديم المحل التجاري كحصة في شركة

معلوم أن رأسمال الشركة يتكون غالبا من الحصة العينية أو النقدية التي يقدمها الشركاء أثناء تأسيس عقدها، وبالتالي من الجائز طبقا للقواعد العامة أن يكون المحل التجاري أو أحد عناصره المعنوية تابعا لرأسمال الشركة سواء على سبيل الانتفاع أو على سبيل التملك وتجري أحكام عقد بيع المحل التجاري على هذه الحالة، كما قد يقدم المحل التجاري كحصة في شركة في طور التكوين أو لشركة قائمة مسبقا وفي الحالتين أوجب المشرع التجاري إعمالا له المادة 79 من القانون التجاري وجوب إتباع إجراءات شكلية معينة في تقديم المحل تملكا للشركة ومن أهم هذه الإجراءات الرسمية، وقد أورد المشرع الجزائري الأحكام المنظمة لعقد التنازل عن محل تجاري لصالح شركة في طور التكوين أو لشركة قائمة في المادة 117 منه.

فإذا قدم شخص له التجاري كحصة في شركة في طور التكوين يستتبع انتقال المحل إلى الشركة وخروجه عن ضمان دائنه، مقابل حق الشريك مقدم المحل في موجودات الشركة

وحقه الإجمالي في الأرباح التي قد تحققها، وقد اعتبر المشرع الجزائري أن شهر الشركة المقدم إليها المحل التجاري على سبيل التملك وحده كافيا بحيث يغني عن إتباع إجراءات شهر المحل التجاري الجاري بها العمل في الأحوال العادية، فقد أوجب إيداع العقود التأسيسية والعقود المعدلة للشركة لدى المركز الوطني للسجل التجاري وتنشر حسب الأوضاع الخاصة بكل شكل من أشكال الشركات وهذا ما نصت عليه المادة 117 فقرة أولى بقولها «يخضع كل تقديم لمحل تجاري إلى الشركة للشروط التالية في حالة ما إذا كان المحل التجاري المقدم يتعلق بشركة في طور التكوين فيكون النشر المقتضى لإحداث هذه الأخيرة كافيا...».¹⁹

أما إذا قدم المحل التجاري وتم التنازل عنه على وجه التملك لصالح شركة قائمة فعلا فقد أوجب المشرع الجزائري في المادة 83 و79 من القانون التجاري ضرورة شهر هذا التنازل على استقلال نظرا لأن التنازل عن المحل التجاري لمصلحة الشركة جاء لا حقا على قيامها ومن ثم فالواجب لا يغني عنه واجب سبقه، ويحظر القانون تحرير العقد التعديلي للعقد التأسيسي للشركة الذي يثبت تقديم هذه الحصة إلا بعد انقضاء مدة 15 يوما تسري من تاريخ انقضاء المهل المنصوص عليها في المادة 83 من القانون التجاري الجزائري التي تقضى بأنه «كل تنازل عن محل تجاري على الوجه المحدد في المادة 79 أعلاه، يجب إعلانه خلال خمسة عشر يوما من تاريخه، يسعى المشتري تحت شكل ملخ أو إعلان في النشرة الرسمية للإعلانات القانونية، وفضلا عن ذلك في جريدة مخصصة بالإعلانات القانونية في الدائرة أو الولاية التي يستغل فيها المحل التجاري».²⁰

كما تنص المادة 117 من القانون التجاري الجزائري فقرة 02 «أما إذا كان المحل التجاري المقدم يخر شركة مكونة مسبقا، فإن الحصة المقدمة في هذه الحالة يجب أن تكون محل نشر خاص حسب ما هو مبين في المادتين 79 و83 من هذا القانون، إن مدة خمسة عشر يوما التي أوجبه المشرع كمدة يشترط انقضاؤها حتى يتم شهر تعديل العقد التأسيسي للشركة نظرا لتقديم المحل التجاري على سبيل التملك، والحكمة من استوجابها تمكين جماعة الدائنين من تقديم معارضتهم التي تثبت دينهم الواقع على ذمة صاحب المحل الذي تنازل عن له لصالح الشركة، حيث يوضحون في معارضتهم مقدار الدين وسببه وكذا الموطن المختار للدائن».²¹

إذ يجوز تقديم براءة الاختراع كحصة في الشركة لكن يشترط أن يتم ذلك في عقد

مكتوب ولا يجوز الاحتجاج بالحصة إلا بعد قيدها في السجل الوطني لبراءات الاختراع الممسوك من قبل المعهد الوطني الجزائري للملكية الصناعية، وبعد ذلك تمتلك الشركة البراءة ملكية تامة.²²

وفي التشريع اللبناني يوجب المشرع ضرورة إشهار تحويل ملكية المتجر إلى الشركة، حتى يصل إلى علم الدائنين كل ما يتصل بالمتجر وما يطرأ عليه من تصرفات تتعلق بها مصالحهم المادية، وهذا الإشهار أوجبه المادة 37 فقرة 01 من قانون المؤسسة، كما يتوجب على المتنازل أيضا قيد العقد في السجل التجاري ونشر خلاصة عنه في جريدة رسمية مختصة بالإعلانات القانونية ملية وأخرى وطنية.

ج. حالة بيع المحل التجاري بالتقسيط

البيع بالتقسيط بوجه عام هو البيع الذي يتفق فيه على أداء الثمن على أقساط دورية سواء كانت هذه الدوريات شهرية أو سنوية، وقد إنتشر البيع بالتقسيط إنتشارا مذهلا وإن كان نادرا في بيع المحال التجارية، والحكمة من تقرير هذا النوع من البيوع، تمكين أصحاب الدخل والأرباح الضعيفة أو المتوسطة من اقتناء العيون المبيعة دون أن يرهقهم الوفاء بالثمن بصفة حالية وآنية وفي ذات الوقت تمكين البائع من تصريف مبيعاته وزيادتها على وجه خاص غير أن البيع بالتقسيط ينطوي على أخطار على البائع ذلك أن ملكية المبيع تنتقل إلى المشتري بمجرد العقد وقد يحصل أن يفلس المشتري أو يعسر فلا يحصل بذلك البائع إلا على جزء من حقه من الثمن الإجمالي المقرر كما يتعرض لحالة أخرى تشكل خطرا عليه وهي تصرف المشتري في المبيع لصالح ثان حسن النية يجعل هذا الأخير يحتج على البائع بقاعدة الحيازة في المنقول سند الملكية، ودراء لهذه الأخطار التي قد يتعرض لها البائع وخصوصا بائع المحل التجاري فقد استوجب المشرع الجزائري طبقا له المادة 79 تجاري الأنفة الذكر وجوب تحرير عقد التنازل عن المحل التجاري مهما كانت طبيعة التنازل والتفرغ عنه في رر رسمي تحت طائلة البطلان، حيث تسمح الرسمية المقررة لزاما لإثبات عقد التنازل عن المحل التجاري تمكين البائع من إثبات حقه الغير مدفوع، وكذا ممارسة حقه في الامتياز والفسخ.

صفوة القول أن التنازل عن المحل التجاري بأي شكل من الأشكال العقود سواء عن طريق المساهمة أو المزايدة أو المساهمة به في رأس مال الشركة يتعين إثبات ذلك التنازل وإفراغه في عقد رسمي رر لدى الموثق وذلك ما أقرته الغرفة التجارية بالمحكمة العليا في أحد قراراتها

بقولها «ومن المقرر قانونيا أنه يجب الإثبات بعقد رسمي وإلا كان باطلا كل تنازل عن مل تجاري ولو كان معلقا على شرط أو صادر بموجب عقد من نوع آخر أو كان يقضي بانتقال المحل التجاري بالقسمة أو الزيادة أو بطريقة المساهمة به في رأس مال الشركة».²³

ثالثا: البيانات الإجبارية

من المقرر في القواعد العامة أن حق المشتري في العلم الكافي بالمبيع ثابت له انطلاقا من كونه الطرف الضعيف عادة في العلاقة العقدية، وهدف المشرع من تقري هذا الحق هو تمكين المشتري من الإحاطة الشاملة بالمبيع على نحو تستتير من خلاله إرادته، بما يجعله عالما بكل خفايا المبيع وأسراره حتى تتجه إرادته عن قناعة تامة لإبرام العقد، ولما كان المحل التجاري مال منقول معنوي بحيث يصعب على المشتري تحديد قيمته الحقيقية وبخاصة القيمة المالية المستحقة لمشتملاته المعنوية وأن شراء المحل التجاري يرمي من ورائه الشاري إلى استثماره وإعادة استغلاله على نحو يدر عليه ربحا أكثر، لذلك أوجب المشرع الجزائري على البائع لحله التجاري وجوب ذكر بعض البيانات المتعلقة بالمحل بحيث يترتب على إهمالها وعدم ذكرها أو التصريح بها على خلاف الحقيقة والواقع جزاء قانوني خطير يهدد أحيانا قيام عقد البيع برمته، وسنعمل في هذا الفرع عبر النقاط الآتية بيان هذه المعلومات والحكمة التي توخاها المشرع من إجبار البائع على الإدلاء بها صحيحة والجزاء المترتبة عن تخلف أحد هذه البيانات أو ذكرها غير صحيحة.

أ. البيانات الواجب ذكرها

سعيًا من المشرع الجزائري لحماية مشتري المحل التجاري من الوقوع في الخديعة والتدليس الذي قد يبادر به التاجر من خلال رفع ثمن المبيعات والأرباح المحققة في السنوات السابقة أو إخفاء الأعباء والديون التي ترهق المحل عن طريق التلاعب بالأرقام المدونة في دفاتر الحسابات أو التخفيف من شروط الإيجار حتى يزيد من قيمة المحل التجاري ويحصل على ثمن مرتفع عند بيعه، لهذه الأسباب وأخرى استوجب المشرع التجاري الجزائري بنصه صراحة في المادة 79 فقرة 02 من القانون التجاري على وجوب تضمن العقد البيانات التالية:-

- اسم البائع السابق وتاريخ سنده الخاص بالشراء ونوعه. ويسمح هذا البيان من تمكين المشتري التعرف على صفة البائع من حيث كونه حائزا على المحل بصفة قانونية ومشروعة غير مغتصب له أو ممتلكه بصفة عرضية وهذا ما يثبت سلامة حياته من قبل البائع الحالي مما

يطمنن المشتري من أن سبب الملكية صحيح، إذ معلوم أن الحيازة كسبب من أسباب الملكية ولو بحسن نية لا تسري على الحل التجاري نظرا لطبيعته المعنوية الخالصة.²⁴

- وجوب ذكر الثمن الخاص بالبيع (الحل التجاري) ككل وقيمة مشتملاته المادية والمعنوية كل على حدة وهذا البيان وإن كان استلزامه يرمي إلى وقوف المشتري عند الثمن الذي يستوجب عليه دفعه حتى لا يدعي البائع بخلاف ما أتفق عليه بعد إبرام عقد البيع خصوصا وأن الحل التجاري يتعرض لارتفاع قيمته وللانخفاض حسب المتغيرات الاقتصادية الخيطة به، كما أن اشتراط ذكره يمكن البائع من الاحتفاظ بحقه في الامتياز عند عدم دفع الثمن من قبل المشتري أو حتى الجزء المتبقي منه كما يمكن البائع من تقرير التعويض المستحق له بعد طلب الفسخ حالة امتناع المشتري عن الوفاء بالتزامه الخاص بدفع الثمن.

أما عن قائمة الامتيازات والرهون المترتبة عن الحل التجاري فهذه البيانات تسمح بإبراز الوضعية الحقيقية للمركز المالي للمتجر وهي تعد بمثابة ضابط ومعياري يستعين المشتري بناءا عليها في تقدير القيمة المستحقة للمحل التجاري بمعرفة حجم الديون الواقعة عليه، ومما لا شك فيه أيضا أنه من حق المشتري أن يكون مطلعاً وعالماً على وجه يقيني بكافة الرهون التي تثقل الحل والتي قد تلعب دوراً جوهرياً في قرار المشتري بشراء المتجر أم العدول عن هذا العقد.

استوجب المشرع أيضاً على التاجر البائع ضرورة إدراجه لرقم الأعمال التي حققها في كل سنة من سنوات الاستغلال الثلاثة الأخيرة أو من تاريخ شراء الحل إذا لم يقيم التاجر باستغلاله منذ أكثر من ثلاثة سنوات، ولا شك أن اشتراط المشرع لهذا البيان له حكمته ومقصده الاقتصادي والضريبي إذ يتبين لمصلحة الضرائب حقيقة الأرباح التي كان يحققها الحل وهل هي مطابقة لما كان يصرح بها التاجر سابقاً أم لا، مما قد يعرضه لمتابعة جزائية إذا وجد فارق كبير بين حجم الأعمال المصرح بها عند بيعه لمحلته التجاري وبين ما كان يصرح به قبل البيع وهذا ما يجعل التجار يتوخون الصدق في التصريح بأرباحهم لمصلحة الضرائب لأنهم يدركون أنه في حالة تنازلهم عن الحل التجاري ملزمون بذكر الرقم الحقيقي للأعمال ترغيباً للمتنازل له في شراء الحل التجاري لأن المشتري على ضوء هذه الأرقام يقدم على الشراء أو يتراجع عنه.²⁵

- كما استلزم المشرع حالة إيجار التاجر البائع لعقار يزاوّل فيه نشاطه التجاري وكان

الحق في الإيجار له أهمية خاصة انطلاقا من موقع العقار المستأجر وما يساهم به في التشهير بالحل خصوصا للعملاء العارضين، استلزم المشرع أن يبين البائع تاريخ الإيجار ومدته واسم وعنوان المؤجر والحيل بحيث يمكن المشتري بعد الإطلاع على هذه البيانات معرفة ما إذا كان عقد الإيجار على وشك الإنتهاء أم لا، وبطبيعة الحال قيمة الإيجار ومدته تمكنان المشتري من عقد العزم على شراء الحل التجاري أم العزوف عنه خصوصا إذا اكتسى الحق في الإيجار أهمية بالغة بحيث يتوقف نشاط المتجر عليه.

وصفوة القول أن المشرع الجزائري، بنصه على وجوب ذكر هذه البيانات وترتيبه الجزء القانوني الملائم حالة المخالفة سواء بعدم ذكرها أو إهمالها أو إدراجها بصفة مخالفة لحقيقة الأمر وواقع الحال، سعى إلى إضافة حماية ارادة المشتري حتى يهتدي إلى المركز القانوني والمالي الحقيقي للمحل التجاري المبيع، بما يمكنه من التعرف عن كتب والإحاطة بالجوانب الاقتصادية والقانونية المتعلقة به وهذا بلا شك له تأثيره البالغ المدى على قرار المشتري بخصوص العزم على شراء أو العدول عنه، كما أنه من شأن إلزام البائع إدراج هذه البيانات تعزيز الثقة ودعم الائتمان في مجتمع التجارة وتنقيته من شتى أساليب الاحتيال والخداع التي يلجأ إليها التجار عديمي الضمير والنزاهة لتحقيق مكاسب مالية جمة على غير وجه حق والإيقاع بضحاياهم من التجار المبتدئين أو عديمي الخبرة.

إضافة إلى ما تمكنه هذه البيانات من تسليط رقابة الدولة على حجم أرقام الأعمال المحققة في عالم التجارة وهذا ما تستفيد به في إعدادها لتقاريرها الإحصائية عند حاجتها ذلك أو أن تتأسس أحد هيئات الدولة كطرف مدني وتطالب التجار المصرحين بحجم أعمال أقل مما هو وارد في الواقع الميداني، بدفع مستحقات الخزينة العمومية من الضرائب الجزافية الغير مجتابة.²⁶

ب. جزاء عدم ذكر البيانات

استكمالا للأدوات القانونية التي منحها المشرع التجاري الجزائري لمصلحة المشتري قصد حمايته من التلاعب والاحتيال الذي قد يبادر به التاجر بائع الحل التجاري عند قيامه بالإدلاء بالبيانات الإجبارية في عقد البيع والتي أوردناها سابقا في معرض الحديث عن مضمونها والحكمة من تقريرها، أعطى المشرع التجاري الجزائري للمشتري الحق في مباشرة دعوى البطلان وذلك خلال السنة الموالية من تاريخ إبرام العقد كجزاء على مخالفة البائع

للاللتزام الواقع عليه والمتمثل في ذكر البيانات المنصوص عليها في المادة 79 من القانون التجاري الجزائري الآنف الذكر، وحي بالبيان ومن خلال إطلاعنا على الفقرة الأخيرة من المادة 79 تجاري التي تنص على «... يمكن أن يترتب على عدم ذكر البيانات المقررة قانونا بطلان عقد البيع بطلب من المشتري إذا كان طلبه واقعا خلال السنة» ويفهم أن تقرير البطلان وإصداره من قبل كمة الموضوع أمر غير ملزم للقضاء لان صيغة المادة 79 في فقرتها الأخيرة جاءت مبتدأه بقولها « يمكن أن يترتب» وهي دلالة قوية على أن استجابة قضاة الحكم لدعوى البطلان المرفوعة من قبل المشتري خلال السنة الموالية لإبرام عقد البيع انطلاقا من إهمال البائع ذكر البيانات هو أمر جوازي بمعنى أن كمة الموضوع لها كامل الصلاحية ومطلق السلطة التقديرية في تقرير البطلان من عدمه ذلك أنه لو أراد المشرع إجبار القضاة على الاستجابة لطلب المشرع الرامي لإبطال العقد لأورد ذلك بلفظ يفهم منه التأكيد والإلزام بقوله يجب أن يترتب أو ببساطة يترتب بدلا من كلمة يمكن، وبناء على ما تقدم يتعين على المحكمة دراسة وقائع وملابسات القضية لتأسيس حكمها ومن ثم يجوز لها الحكم ببطلان العقد إذا لاحظت أن إهمال البيانات المطلوبة قانونا كان من طبيعته أن يؤدي المشتري إلى الوقوع في خطأ، بما يجعل إرادته غير مستتيرة بحكم إهمال هذه البيانات الأمر الذي دفعه إلى التعاقد دون علمه بالحقيقة المتعلقة بالحل، وعليه قبول القاضي لطلب الإبطال المرفوع من جهة المشتري يشكل بالنسبة له طبقا لما نص عليه المشرع الجزائري في الفقرة الأخيرة من المادة 79 تجاري مسألة ملائمة يملك فيها كامل ومطلق السلطة التقديرية ولا يخضع في ذلك لرقابة المحكمة العليا.²⁷

فإذا اعتبر القاضي أن الطلب مؤسس قانونا، أي أن البيانات التي لم يوردها البائع كانت من الأهمية بمكان وذات طابع جوهري، بحيث لو أطلع عليها المشتري وعلم بمضمونها لم يبرم عقد البيع ففي هذه الحالة وإعمالا من القاضي لحماية المشتري الجاهل بمضمون وحقيقة الحل التجاري يحكم ببطلان العقد مما يترتب عليه عودة الأطراف إلى الأوضاع التي كانوا عليها قبل التعاقد، أما إذا اقتنع القاضي أن طلب البطلان غير مؤسس أي ليست له مبررات ودوافع قانونية جدية كأن تكون البيانات التي لم تذكر غير جوهريّة أو ليست لها الأهمية التي تجعل تخلفها يغطي على المشتري حقائق هامة عن قيمة الحل التجاري وجوهره الإقتصادي ففي هذه الحالة يحق للقاضي رفض طلب المشتري ببطلان العقد.

ويعتبر البطلان في هذه الحالة بطلانا نسبيا لهذا لا يمنح المشرع الحق في تقديمه أو

طلبه إلا للمشتري بإعتباره صاحب المصلحة الأصلية ولما كان هذا البطلان نسبيا فإن عبء إثبات تخلف البيانات ودرجة أهميتها في إنارة الحقيقة والعلم لدى المشتري يقع بلا شك عليه، فيلتزم بإثبات أن تخلف هذه البيانات سبب له الاندفاع إلى التعاقد عن غير بصيرة ودون تحري وتحقيق مسبقين بحيث لو علم بها لما أقدم على اتخاذ قرار التعاقد، وعليه لا يحق للمشتري التمسك بالتدليس إلا إذا أغفل البائع إدراج وذكر هذه البيانات عن سوء نية وقصد مغرض من شأنه التأثير المباشر على قرار المشتري، كما أن المشتري ملزم بمباشرة دعواه الخاصة ببطلان العقد خلال سنة من تاريخ إبرامه، وهذه المهلة الممنوحة للمشتري كأجل لمباشرة دعواه بصفة رسمية وعلى ما قضى به القضاء الفرنسي تحسب وتسري تبعا لذلك من تاريخ البيع وليس من تاريخ الحيازة والسؤال الذي قد يتبادر إلى أذهاننا هل يجوز للمشتري أن يتنازل خلال هذه المدة عن حقه في رفع دعوى البطلان؟.

والجواب هو نعم حيث تطبق في هذا الصدد القاعدة المعروفة في مجال البطلان النسبي والتي تقضي بأن حق طلب إبطال العقد يزول بالإجازة الصريحة أو الضمنية والجدير بالذكر أن الإجازة تستند إلى التاريخ الذي تم فيه إبرام العقد دون الإخلال بحقوق الغير.²⁸ ج. جزاء عدم صحة البيانات

تقتضي الممارسات التجارية النزاهة والصدق لاعتبارات اجتماعية وقيمة ولا اعتبارات أخرى ترتبط بشكل أساسي وجوهري بالبيئة التجارية التي تتسم بالسرعة والثقة والائتمان ومن هذا المنطلق فإن التاجر بائع المحل التجاري ملزم إزاء المشتري بأن يصرح بصدق ويدلي على وجه الصحة بجمع المعلومات والبيانات المتضمنة إلزاميا في عقد البيع، وعليه يحق للمشتري توظيف دعوى الضمان في الحالة التي يدلي بها البائع بالبيانات بطريقة مخالفة لحقيقة وواقع الأمر، وهذا ما أكدت عليه المادتين 376 و379 من القانون المدني الجزائري حيث تنص المادة 379 بقولها «يكون البائع ملزما بالضمان إذا لم يشتمل المبيع على الصفات التي تعهد بوجودها وقت التسليم إلى المشتري أو إذا كان بالمبيع عيب ينق من قيمته أو من انتفاع به بحسب الغاية المقصودة منه حسبما هو مذكور بعقد البيع، أو حسبما يظهر من طبيعته أو استعماله، فيكون البائع ضامنا لهذه العيوب ولو لم يكن عالما بوجودها».²⁹

وعليه فللمشتري طبقا لما تقتضي به قواعد الضمان المعمول بها في القواعد العامة أن يطالب بإبطال العقد أو تخفيض قيمة المبيع وللقاضي بما يملكه من سلطة تقديرية وبما يحوزه

من خبرة في المسائل المعروضة عليه أن يستجيب لأحد طلبات المشتري بما يحقق المصلحة للطرفين فإذا رأى مثلاً أن المشتري أراد أن يتعسف باستعمال حقه في دعوى الضمان كان له تخفيض الثمن حتى يحمي البائع من تعسفه، ويجب أن نبرز في هذا المقام أن القضاء الفرنسي وعلى ما أسترر عليه وجرى به العمل توسع في تطبيق عيوب الرضا في مجال عقد البيع الوارد على مل تجاري، بحيث يسر وسهل في إبطال العقد لعيب من عيوب الإرادة التي قد تعترى المشتري وهذا التوسيع والتيسير في حقيقة الأمر يجد مؤيده لاعتبارات اقتصادية وقانونية وقيمة، فالنسبة للاعتبار الاقتصادي يعتبر الحل التجاري من الأموال المنقولة وذات القيمة المالية المعبرة وبذلك فالتصرف به أو لأجله بيعاً أو شراءً ينطوي على خطورة بالغة نظراً لقيمتها المالية الجمة وعليه لابد أن يكون التصرف القانوني الصادر سواء من البائع أو المشتري تصرفاً صادراً عن قناعة ورضا تام، أما الاعتبار القانوني فمؤداه أن الحل التجاري من الأموال المعنوية وهذا ما يخلق للمشتري صعوبة بالغة في إدراك قيمته الحقيقية على نحو يطمئن فؤاده إلا إذا أعانه البائع على ذلك، أما الاعتبار القيمي فيتمثل في أن تسهيل إبطال عقد بيع الحل التجاري بسبب عدم ضمان البائع أو تدليسه يعتبر بمثابة جزاء عادل وقاسي في نفس الوقت على البائع بما من شأنه تطهير الساحة التجارية من كل أشكال الاحتيال والتدليس وبما يضيفي الأخلاق النزينة والقيم السامية في مجتمع التجارة وهو بلا شك يزيد في تعزيز دعائم الثقة والسرعة والائتمان.

وعليه يجوز للمشتري التمسك بالتدليس والغش لمباشرة دعوى الضمان التي قررها المشرع التجاري الجزائري لمصلحته وأكد عليها في قانونه وتحديد المادة 80 من القانون التجاري حيث تنه على أنه «يكون البائع ملزم بضمان ما ينشأ عن بياناته غير الصحيحة حسب الشروط المقررة في المادتين 376 و 379 من القانون المدني بالرغم من كل شرط مخالف في العقد».³¹

ومما سبق يظهر جلياً وبوضوح أن التدليس أو الغش أو الغلط الذي يقع فيه المشتري الذي أقدم على إبرام عقد بيع الحل التجاري يجب أن يكون نتيجة لتلك البيانات الواهية والغير حقيقية والتي صرح وأدلى بها البائع، إذ من المسلم به قانونياً أن هدف المشرع التجاري الجزائري من إلزام البائع ذكر البيانات المتعلقة بالحل التجاري والتي نصت عليها المادة 79 من نفس القانون يرمي إلى حماية المشتري من حيث تمكينه من التعرف عن كذب وبصورة جلية للمركز المالي الحقيقي للمحل التجاري حتى يقف عند قيمته المستحقة بما يبعده عن كل

غبن أو ضرر مادي فاحش تترتب عليه نتائج وخيمة في المستقبل كان في غنى عنها ويعد ن
المادة 79 تجاري جزائري من النظام العام.

وصفوة القول يجدر بنا التمييز بين دعوى البطلان المبنية على إهمال ذكر بيان
إجباري في عقد البيع والتي يتعين على المشتري رفعها خلال السنة التي تعقب تاريخ إبرام
عقد البيع، عن دعوى الضمان بسبب العيوب الخفية التي يجب على المشتري إخطار البائع
أولا باكتشاف العيب خلال مدة سنة من تاريخ الحياة، وإلا سقط حقه حيث اعتبرت
الحاكم الفرنسية أن دعوى الضمان تبقى مفتوحة أي يجوز رفعها طالما لم يحز المشتري على
الخل التجاري كما اعتبرت أن المهلة الممنوحة للمشتري غير قابلة للانقطاع.³²
الهوامش:

1. معوض عبد التواب، الموسوعة التجارية الشاملة، ج1، ط1، دار الفكر والقانون، المنصورة، 2000،
ص267.
2. سميحة القيلوبي، الخل التجاري، ط4، دار النهضة العربية، القاهرة، 2000، ص.59
3. سميحة القيلوبي، المرجع نفسه، ص.60
4. المادة 79 من الأمر رقم 59/57 المتضمن القانون التجاري، المعدل والمتمم .
5. فرحة زراوي صالح، الكامل في القانون التجاري الجزائري، ج1، نشر وتوزيع ابن خلدون، 2001،
ص.212
6. حمدي باشا عمر، القضاء التجاري، دار هومة، الجزائر، ص. 62
7. قرار المحكمة العليا 80160، المؤرخ في 05/01/1992، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني
للأشغال التربوية، 1995.
8. قرار المحكمة العليا رقم 139136 المؤرخ في 18/02/1997، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني
للأشغال التربوية، 1997.
9. عمر زيتوني، حجية العقد الرسمي، مجلة الموثق، عدد 03، الغرفة الوطنية للموثقين، 2001، ص.41
10. فرحة زراوي صالح، المرجع السابق، ص.209
11. قرار المحكمة العليا 138806 المؤرخ في 09/07/1996، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني
للأشغال التربوية، 1997.
12. المادة 79 من الأمر رقم 59/75 المتضمن القانون التجاري المعدل والمتمم .
13. قرار المحكمة العليا 138806 المؤرخ في 09/07/1996، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني
للأشغال التربوية، 1997.
14. علي حسن يونس، الخل التجاري، دار الفكر العربي، القاهرة، 1974.

15. احمد رز، القانون التجاري الجزائري، ج4، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.
16. قرار المحكمة العليا 53630 المؤرخ في 1996/07/09، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني للأشغال التربوية، 1997.
17. قرار المحكمة العليا 68467 المؤرخ في 1990/10/21، المجلة القضائية، عدد 01، الديوان الوطني للأشغال التربوية، 1992.
18. علي حسن يونس، المرجع السابق، ص.161.
19. سمير حسين الفتلاوي، العقود التجارية، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2001، ص.137.
20. المادة 83 من الأمر رقم 59/75، المتضمن القانون التجاري المعدل والمتمم .
21. سليمان بوذياب، مبادئ القانون التجاري، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص.194.
22. حسين بن الشيخ، بحوث في القانون، دار هومة، الجزائر، 2000، ص.20.
23. مصطفى كمال طه، القانون التجاري، الدار الجامعية، 1999، ص.28.
24. احمد رز، المرجع السابق، ص.48.
25. احمد رز، نفس المرجع، ص.49.
27. سمير جميل الفتلاوي، المرجع السابق، ص.129.
28. فرحة زراوي صالح، المرجع السابق، ص.219.
29. محمد حسنين، الوجيز في الملكية الفكرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.250.
30. المادة 379 من الأمر رقم 58/75 المتضمن القانون المدني المعدل والمتمم.
31. المادة 80 من الأمر رقم 59/75 المتضمن القانون التجاري المعدل والمتمم.
32. فرحة زراوي صالح، المرجع السابق، ص.219.



LE CONCEPT ACHAT INDUSTRIEL: UNE APPROCHE GLOBALE

Amel MEZAOUR

Institut National de Commerce -Alger

Résumé:

L'article propose une analyse globale du concept achat industriel , la plupart des recherches mettent en avant l'aspect comportemental de l'acheteur, il y'a eu à cet effet plusieurs models de comportement d'achat industriel.

Cependant, certains auteurs soulignent les tâches de l'acheteur tout en mettant en avant les aptitudes qu'il doit avoir, ces dernières étant indispensables face aux multiples problématiques de l'achat industriel.

Ainsi, cet article nous montre à travers la diversité des intervenants lors de l'achat industriel et les autres concepts traités à quel point la réussite de l'entreprise dépend de la maîtrise globale de l'achat industriel.

I. Introduction:

Le concept achat industriel fait l'objet de plusieurs études de la part de grands auteurs , mondialement connus . La maîtrise de ce concept trouve toute son importance lors de la passation de marchés publics.

De nos jours les entreprises réalisent que leur réussite dépend aussi de la maîtrise de leurs relations en amont. Ces relations en amont se créent officiellement lors d'un achat industriel.

Amel MEZAOUR

Cet article se veut une participation à fournir dans le cadre des recherches effectuées dans le domaine « Achat Business to Business ». En effet , il s'agit d'observer lors de cet achat l'ensemble d'activités et de comportements gérés par l'acheteur industriel quelque soit le secteur d'activité dans lequel il exerce .

Ceci tout en se situant dans une optique d'adaptation à la demande du client, de la maîtrise qualité /coût , de rentabilité et surtout de contingence. C'est dans cette optique que se situent les multinationales, et c'est dans cette optique que doivent se situer les entreprises algériennes. Ceci, afin de ne pas s'enfoncer dans une économie basée essentiellement sur ses exportations d'hydrocarbures (95% de nos recettes en devises provenant des hydrocarbures) .¹

Cet article a pour objet d'avoir une approche globale du concept achat industriel afin d'en tirer des leçons.

Il s'agira donc dans cette perspective de s'intéresser à la problématique suivante: « En quoi consiste l'approche globale du concept achat industriel? ».

Nous tenterons dans ce qui suit de répondre à notre problématique en définissant l'achat industriel puis en analysant les situations auxquelles doit faire face l'acheteur.

Nous nous intéresserons en second lieu aux intervenants dans l'achat industriel puis aux aptitudes que doit avoir l'acheteur.

Nous développerons ensuite les tâches de l'acheteur puis les catégories d'achat industriel.

Nous décrirons en dernier lieu les principaux models d'achat industriel, pour finir avec les étapes simplifiées du processus d'achat industriel.

1- Quelques définitions de l'achat industriel:

Webster et Wind définissent l'achat industriel comme étant «La procédure de prise de décision par laquelle des organisations formelles établissent leurs besoins d'achat de produits et de services ».²

Joncour Yves et Penaud Pascal définissent l'achat industriel

comme suit: «L'achat industriel est l'action de se procurer par contrat et moyennant compilation , les biens et les services dont l'entreprise à besoin , c'est une des phases de l'approvisionnement».³

Alain –CH Matinet et Ahmed Zilem se sont joint aux auteurs précédents pour définir l'achat industriel comme étant : « L'opération par laquelle une entreprise (l'acheteur) acquiert auprès d'une autre entreprise (le vendeur) la propriété de biens ou le bénéfice d'une prestation de service en contrepartie du règlement , dans des conditions négociées , d'un montant déterminé qu'elles ont accepté » .⁴

Dans l'entreprise , la fonction achat consiste à prospecter les marchés , négocier et sélectionner les produits ou services répondant aux besoins internes ou externes de l'entreprise .

A la lecture de ces définitions,⁵ il est clair que l'achat ne désigne pas uniquement les achats destinés à la production mais recouvre également tous les autres achats de l'entreprise.

2- Les problématiques auxquelles l'acheteur industriel doit faire face:⁶

Dans un environnement incertain , l'acheteur industriel doit être d'une grande compétence, afin de pouvoir faire face aux problématiques qui se traduisent par les questions suivantes:

2.1- Pourquoi acheter?

Pour améliorer les activités productrices ou commerciales de l'entreprise , car si on achète des produits à un moment donné, c'est que l'on n'est pas en mesure de créer ces articles et produits par ses propres moyens. Alors, on peut se poser la question : Ne serait-t-il pas préférable pour l'entreprise de créer elle-même ce dont elle a besoin?

2.2- Quand acheter?

C'est un aspect très important nécessitant une vraie science des achats; la solution consiste à déterminer le point de réapprovisionnement.

2.3- Ou acheter?

C'est tenir compte de la position géographique des différentes sources d'approvisionnement, en considérant leurs incidences sur les

modes et conditions de règlements les plus avantageuses.

2.4- Comment acheter?

C'est tout l'art de l'acheteur . Pour bien acheter , il faut savoir ce que l'on veut et faire en sorte de l'obtenir, les normes techniques, définies par le bureau d'étude, détermineront la qualité et la forme, lesquelles seront vérifiées à la réception par un service de contrôle bien équipé pour exercer son action très importante.

Pour une qualité donnée ,le prix est facteur primordial et son appréciation est parfois relative , l'un l'estime normale , l'autre exagéré c'est donc toujours le critère qualité qui sera le bon .

3- Les intervenants dans l'achat industriel:⁷

Ces intervenants sont les suivants:

3.1- Les prescripteurs: Ils sont externes ou internes à l'entreprise. Ils vont définir les caractéristiques du produit à acheter. Ce sont les bureaux d'études.

3.2- Les conseillers: Ils suggèrent le choix d'un produit ou d'un fournisseur compte tenu de leurs compétences ou de leur statut .

3.3- Les informateurs: Ce sont les journaux professionnels et les salons;

3.4- Les filtres: Ce sont les contrôleurs, la direction financière etc...

3.5- Les acheteurs: Ce sont ceux qui recherchent, collectent, traitent, et contrôlent les informations sur les différents fournisseurs potentiels et leurs produits. Ils doivent être constamment à l'écoute du marché. Et ils prennent également en charge la présélection et la sélection finale des fournisseurs mis en concurrence.

3.6- Les utilisateurs: Ce sont les services opérationnels;

3.7- Les décideurs: Ce sont ceux qui vont choisir finalement le fournisseur et le produit.

4- Les aptitudes que doit avoir l'acheteur:⁸

Ces aptitudes peuvent être intellectuelles ou personnels comme suit:

4.1- Aptitudes intellectuelles:

- **La rigueur** Pour chaque achat qu'il réalise, l'acheteur doit aborder avec le fournisseur toutes les modalités de l'achat pour aboutir à un accord sans équivoque qu'il devra ensuite formaliser rigoureusement.

- **L'organisation** L'acheteur doit être capable d'organiser son travail et l'ensemble des informations qu'il recueille .

- **Les capacités d'analyse et de synthèse** Lorsqu'il met plusieurs fournisseurs en concurrence, il doit être capable d'analyser chaque offre point par point puis grâce à son esprit de synthèse de sélectionner l'offre la plus intéressante dans sa globalité.

4.2- Aptitudes personnelles:

- **La sociabilité et les aptitudes de communication**

Le métier d'acheteur est avant tout un métier de contact . Comme l'acheteur répond aux besoins de l'entreprise, il est en relation permanente avec les utilisateurs internes et les fournisseurs externes. S'il n'a pas le goût des contacts humains , cela sera aussi désagréable pour lui que pour ses interlocuteurs.

- **La curiosité et l'ouverture d'esprit**

Ces 2 qualités permettent à l'acheteur de rester en état de veille afin de porter attention à toutes les innovations intervenant sur les marchés fournisseurs, susceptibles d'intéresser son entreprise. Cet état de veille doit être permanent, il doit donc correspondre à une curiosité et une ouverture d'esprit naturelles chez l'acheteur .

- **La fibre commerciale**

Le métier d'acheteur est très proche de celui de vendeur car l'acheteur doit faire preuve de persuasion et savoir convaincre ses fournisseurs de lui accorder les conditions qu'il demande .Pour cela , il doit être capable de vendre l'entreprise auprès de ses fournisseurs .

- **Le goût du risque**

Chaque changement de fournisseur peut constituer un risque pour l'entreprise .

Le rôle de l'acheteur est de le minimiser , mais il doit malgré tout savoir le prendre , à un moment donné .

- Le sens de l'essentiel

Parmi les différentes tâches qui lui incombent , l'acheteur doit être capable d'établir des priorités dans l'ordre des tâches à accomplir mais aussi du temps à leur consacrer et des moyens à mettre en œuvre .

- L'esprit du travail en équipe

L'acheteur est amené à travailler énormément avec les autres fonctions de l'entreprise, il est donc essentiel qu'il doit prédisposer au travail en équipe .

- L'honnêteté

La fonction d'acheteur est exposée à la corruption car certains fournisseurs ne négligent aucun moyen de convaincre l'acheteur de les sélectionner. L'acheteur doit pour toutes ses décisions être guidés par l'intérêt de son entreprise et en aucun cas par son intérêt personnel .

5- Les tâches de l'acheteur:⁹

L'acheteur doit assumer des tâches nombreuses et variées comme suit:

- Satisfaire les besoins internes de l'entreprise en assistant les utilisateurs dans la définition et la formalisation de leurs besoins et en sélectionnant les fournisseurs .

- Contribuer au profit de l'entreprise en recherchant en permanence le meilleur rapport qualité/service / prix.

- Assurer la qualité de ce qui est consommé par l'entreprise en faisant un suivi des performances des fournisseurs .

6- Les catégories d'achats:¹⁰

Les décisions prises par les acheteurs industriels dépendent de la situation d'achat rencontrée . Il est devenu classique de distinguer trois catégories d'achat :

6.1- Le simple ré achat:

Celui-ci correspond à une situation traitée de façon routinière.

L'entreprise choisit parmi des fournisseurs figurant sur la liste, en accordant une grande importance à l'expérience acquise. Les représentants des fournisseurs déjà en place s'efforcent de maintenir la qualité du produit et du service. Afin de faciliter le ré achat ils proposent des procédures de commande automatisées. Les représentants ne figurant pas sur la liste ont de grandes difficultés à pénétrer l'entreprise. Leur espoir est d'arriver à convaincre l'acheteur que de nouvelles caractéristiques du produit, de nouvelles conditions ou de nouvelles opportunités justifient de reconsidérer le problème. Ils s'efforcent d'obtenir au moins une petite commande initiale.

6.2- Le ré achat modifié:

Il s'agit d'une situation dans laquelle l'acheteur envisage de modifier les caractéristiques techniques, les prix et les conditions des produits qu'il achète. Il cherche en fait à améliorer ses performances à l'achat. Une telle situation se traduit souvent par un accroissement du nombre d'intervenants dans la décision. Les fournisseurs déjà en place tentent de considérer leur positions; les autres y voient une chance de disputer l'affaire.

6.3- Le nouvel achat:

Cet achat correspond au cas où l'entreprise envisage d'acheter un produit ou un service pour la première fois. Plus les coûts et les risques sont élevés, plus le nombre d'intervenants s'accroît ainsi que l'activité de recherche d'information. Une situation de nouvel achat offre au vendeur de vastes possibilités mais lui posent aussi de nombreux problèmes: il doit attendre un grand nombre de parties prenantes à la décision et fournir quantité d'informations et d'assistance avant d'espérer remporter l'affaire.

7- Description de quelques modèles de comportement d'achat industriel:¹¹

Ils se présentent comme suit:

7.1- Le modèle de LEVITT:

Le processus d'achat en milieu industriel est fonction du degré de

répétition de l'acte d'achat et du type de produit. Des chercheurs ont proposés , à la suite de leurs enquêtes quelques modèles descriptifs de comportement d'achat et de la tactique à adopter par les fournisseurs pour s'adapter au mieux à chaque situation d'achat . Cette tactique est comme suit:

Tableau 01 : Le modèle de Levitt

	Achat répété sans modification	Achat répété avec modification
Technique du fournisseur habituel	- Incitation au réapprovisionnement automatique à l'identique - Recherche de l'accroissement de sa part de marché	-Incitation au passage de l'achat épisodique à l'achat habituel . - Recherche de l'accroissement de sa part de marché
Technique du fournisseur Potentiel	- Convaincre le client de modifier son réapprovisionnement	- Conforter le client dans sa recherche de réapprovisionnement modifié. -Essayer de s'intégrer dans le nombre de fournisseurs habituels .

Source : Dayan Armand , « Marketing B to B » , édition Vuibert , 5^{ème} édition , paris , 2002 ,page 65.

Cet auteur envisage 2 cas: celui de l'achat répété sans modifications et celui de l'achat répété avec modifications . Il décrit les options stratégiques qui s'offrent aux fournisseurs habituels et aux fournisseurs potentiels pour agir sur la firme acheteuse .

7.2- Le modèle de Robinson et Faris:

Ces auteurs ajoutent dans leur modèle une situation supplémentaire aux 2 précédentes ; le nouvel achat .

-Dans l'achat répété sans modification, situation la plus simple et aussi la plus fréquente, la phase prépondérante est celle d'évaluation des

performances; le rôle du service des achats est également prépondérant, et on s'adresse de préférence aux fournisseurs habituels. Dans ces conditions ceux-ci essaieront d'obtenir des procédures de réapprovisionnement automatique pour court-circuiter en permanence d'éventuels nouveaux concurrents, alors que ces derniers devront essayer d'inciter l'entreprise acheteuse à passer de l'achat sans modifications à l'achat avec une certaine modification, ce qui sera alors pour eux l'occasion d'être consultés .

- Dans l'achat répété avec modification, favorable aux nouveaux fournisseurs , les anciens s'efforceront d'obtenir de leur clients qu'ils maintiennent

l'achat sans modifications, pour éviter que d'autres soient consultés ; ils peuvent ici aussi essayer d'obtenir les réapprovisionnements automatiques facilités par des procédures simplifiées de commande (par télex ou par téléphone).

- Dans la situation d'un achat nouveau , un grand nombre de fonctions de l'entreprise interviennent et c'est la situation la plus favorables pour les nouveaux fournisseurs ; c'est en effet l'occasion de parler à chacune des fonctions , dans son rôle au sein du centre d'achat , le langage approprié à ses attentes et à ses motivations. C'est aussi dans cette situation que le fournisseur potentiel capable d'anticiper ou de reconnaître un besoin et d'y apporter sa solution sera dans une position privilégiée – au moins pour être consulté, c'est à dire pour franchir le barrage des fournisseurs habituels déjà en place .

7.3- Le modèle de CARDOZO:

Cet auteur considère que le processus d'achat n'est pas toujours linéaire, avec des phases indépendantes les unes des autres , et fait la distinction entre deux politiques d'achat; par évaluation simultanée et par évaluation séquentielle.

Dans la situation d'évaluation simultanée, c'est un produit répondant à des caractéristiques bien définies dans des conditions acceptables de risque et de prix que cherche l'entreprise, et les fournisseurs potentiels doivent se tenir prêts à lui offrir à tout moment –

et à un prix compétitif- des produits répondant exactement aux caractéristiques exigées.

Dans la situation d'évaluation séquentielle , l'entreprise élimine successivement ses fournisseurs habituels consultés un par un , jusqu'à trouver celui qu'elle juge capable de répondre à ces attentes dans les limites de risques acceptables .Il semble que cette manière de procéder soit celle d'entreprises qui désirent s'adapter le plus vite possible à toute innovation technique . Pour avoir une chance d'être consulté, le fournisseur potentiel doit figurer sur la liste des fournisseurs possibles, par exemple en offrant dans un premier temps un certain nombre de conditions spéciales en veillant bien, cependant à rester dans les limites de la crédibilité et du sérieux .

7.4- Le model de SHETH:

Il s'agit d'un model global de comportement des acheteurs industriels comprenant 3 parties qui correspondent aux principaux éléments de comportement d'achat, ces parties se présentent comme suit:

- Le centre d'achat et ses membres

Les attentes de leur motivations découlent de leur formation, de leur expérience, de leur style de vie et du rôle qu'ils jouent dans l'entreprise. Ils se comportent selon un processus d'apprentissage, attachant beaucoup d'importance à l'expérience acquise et déformant l'information à travers leur manière de percevoir. Pour l'auteur, les attentes explicites portent sur la qualité des produits, les délais de livraison, les services associés aux produits et les prix dans un ordre décroissant; les attentes implicites porteraient sur la réputation, la taille, la localisation des fournisseurs potentiels et l'existence de relations de réciprocité avec les acheteurs.

- L'influence de la situation d'achat sur le processus d'achat et sur les critères individuels ou collectif de la décision

Armand Dayan pense que l'urgence du besoin favoriserait plutôt les décisions individuelles, de même que la petite dimension des entreprises et de la centralisation des opérations d'achat. A l'inverse , les décisions collectives sont favorisées par la grande taille de

l'organisation , ainsi que l'importance des produits et leur nouveauté , et par l'intensité du risque perçu.

- La décision collective

Caractéristique principale du processus d'achat industriel , elle-même caractérisée, entre autre chose par les conflits inévitables de personnes et de motivation .

Armand Dayan expose quatre manières de résoudre ces conflits. Les deux premières considérées comme utiles et rationnelles, sont d'une part la « résolution de problèmes » que l'on établit un consensus après une recherche active de nouvelles informations, un examen plus approfondi des informations disponibles et une étude des sources d'approvisionnement qui n'ont pas été assez étudiées, cette démarche tend à minimiser le conflit, d'autre part la persuasion. Les deux autres sont s'une toute autre nature puisqu'il s'agit de marchandages ou de négociations ou l'on admet implicitement les divergences fondamentales d'appréciation de chacun et les conflits interpersonnels, ou l'on ne cherche plus à convaincre rationnellement mais à obtenir par un jeu de donnant- donnant et de concession réciproque, actuelles ou futures.

- D'autres modèles récents

A tous ces travaux des années 70 se sont ajoutées des recherches d'autres auteurs , dont voici les principales :

- Le supplier CHOISE MODEL et le MATBUY MODEL

Ils appartiennent tous les deux à un courant de recherche appelé « inductif » et étudient les comportements des différents individus en interaction dans le centre d'achat , les critères et les règles de sélection des fournisseurs ainsi que la relation dynamique de ces individus avec les différentes phases du processus d'achat .

- Le modèle dyadique et le modèle d'interaction

Ils appartiennent tous les deux à un courant de recherche appelé « interactif » qui inclut la relation fournisseur client à l'intérieur d'un réseau de relations inter-organisationnelles, considère le couple ou «dyade» vendeur, acheteur comme réciproquement actif, et étudie à la

fois le processus de vente et le processus d'achat.

8- Les étapes simplifiées du processus d'achat industriel: ¹²

Ces étapes peuvent se présenter comme suit:

8.1- Apparition, reconnaissance , identification d'un besoin:

Dès que quelqu'un dans l'organisation croit percevoir un besoin susceptible d'être satisfait par un fournisseur extérieur, la situation d'achat existe virtuellement .

Les utilisateurs directs d'un produit ou d'un équipement peuvent y participer, tout comme n'importe qui d'autre dans l'entreprise ... et même les fournisseurs potentiels qui pourront l'aider à travers une solution et par là même augmenter leurs chances d'obtenir le marché .

8.2- Définition des caractéristiques du produit:

Formuler correctement le besoin va aider à trouver comment le satisfaire mais il est clair que le fournisseur qui interviendrait à ce stade se trouverait en position privilégiée pour obtenir la commande, surtout si alors qu'il a aidé le bureau d'études, par exemple à déterminer la solution à apporter, la demande d'achat est libellée de telle façon que le service des achats ne puisse s'adresser qu'à lui. Mais un aspect très important de la recherche d'une formulation adéquate d'un besoin et de la manière qu'on reconnaisse généralement les services que les systèmes informatique de gestion de production peuvent rendre pour résoudre les difficiles problèmes d'ordonnancement de productions discontinues en petites séries , « moins de la moitié des entreprises susceptibles d'utiliser de tels systèmes , l'analyse des spécifications du ,système adapté à l'entreprise a conduit à réorganiser l'ordonnancement sans faire appel à une solution informatique jugée trop complexe et manquant de flexibilité ».

8.3- Recherche et comparaison critique des fournisseurs:

Le service des achats est très souvent prépondérant dans cette phase du processus , bien que d'autres à l'entreprise ou à l'extérieur-prescripteurs internes et externes - y participent également .On a tendance généralement à s'adresser aux sources habituelles

d'approvisionnement, ainsi qu'a celles qui ont une bonne réputation .Et comme l'acheteur souhaite toujours des informations sur le fournisseur avant de s'adresser à lui , il est important pour tout les vendeurs de se faire connaître de leurs clients potentiels que ce soit par la visite des représentants, l'envoi de documentation, la participation aux expositions etc...

8.4- Examen des offres:

Avant de choisir un fournisseur, on examine les différentes offres et on mène le cas échéant des entretiens préliminaires avec les fournisseurs, donc les propositions paraissent intéressantes dans un premier temps.

8.5- Choix du fournisseur:

Des chercheurs ont montré que ce n'est que lorsque les différents fournisseurs proposaient des produits parfaitement substituables que le prix minimal était un critère de choix ; mais si des produits sensiblement équivalents peuvent entraîner des coûts d'utilisation différents, le critère sera cette fois celui du coût total minimal . Mais d'autres ont montré que s'agissant souvent de décisions de routine sans appel d'offres, la fidélité de l'acheteur aux fournisseurs habituels est générale et que ces relations se perpétuent à la satisfaction mutuelle des parties même si ce n'est pas pour l'acheteur l'optimum économique.

Par contre s'agissant de produits substituables, des chercheurs ont montré que la préférence était donnée aux fournisseurs d'abord selon leurs capacités à satisfaire les spécifications demandées puis leurs possibilités de fournir l'entreprise au moment désiré, enfin le niveau de prix proposé, d'où l'importance pour le vendeur de connaître les besoins de ses clients potentiels.

8.6- Evaluation des performances:

En dehors du cas d'achat répétitif , les acheteurs cherchent à évaluer tout de suite les performances de leurs acquisitions : le vendeur a donc tout intérêt à donner une satisfaction maximale même s'il n'a fourni qu'un produit mineur ou une seule fois car la manière dont il sera jugé va déterminer la poursuite ou l'arrêt d'autres commandes .

8.7- Rétroaction en cas d'insatisfaction:

Qu'elle soit totale ou partielle, une insatisfaction sur la qualité , le niveau de performance du produit ou du service entraînera le retour à la phase « recherche de fournisseurs » , ou encor à « la définition des caractéristiques du produit » voir même plus en amont , à un examen critique du besoin ressenti : quel est sa réalité ? A t-il été correctement formulé ? Ne pourrait-on pas le satisfaire autrement ?

Le processus d'achat industriel dépend des situations d'achat ; nature des produits, degré de répétition de l'acte d'achat etc .

Conclusion:

De nos jours la concurrence est devenue très rude , par conséquent les entreprises qui survivent sont celles qui font preuve d'innovation et d'imagination , d'adaptabilité et surtout de compétitivité face aux exigences et aux besoins des consommateurs toujours plus nombreux . Pour cela on assiste alors à une nouvelle conception de l'entreprise , une dimension stratégique de l'entreprise justement relancée par la sortie de crise .

C'est ainsi que dans le cadre de cette nouvelle stratégie de l'entreprise , des concepts jadis ont été reléguées au second plan refont surface s'imposant ainsi comme étant des concepts de premier rang au sein de l'entreprise . Tel est le cas du concept achat industriel qui devrait être maîtrisé par nos entreprises , tout comme il a été maîtrisé par les concurrents étrangers . Cette considération suffit à fonder le rôle stratégique de l'achat , ce dernier est donc une affaire de professionnels qui détiennent les clés d'une valeur ajoutée spécifique leur permettant d'établir la meilleure collaboration possible avec le meilleur fournisseur pour des besoins soigneusement définis .

Ces acheteurs ne peuvent revendiquer une place à part dans l'entreprise et un statut enviable que s'ils apportent par un professionnalisme affirmé , une valeur ajoutée irremplaçable .

La fonction achat est l'une des 5 fonctions principales de l'entreprise qui contribue directement à la création de valeur et ceci en utilisant de nombreux moyens qui requièrent une forte intelligence du

jeu du marché et des mécanismes de la performance de l'entreprise qui demande du talent et une capacité organisationnelle qui permet d'optimiser les activités et de coordonner entre elles de façon à dégager un maximum de valeur qui permettra à l'entreprise de garder sa place dans son secteur d'activité.

Il convient de préciser également que l'acheteur est le premier maillon d'une chaîne d'efficacité car le système d'entreprise absorbe des entrées d'une extrême diversité pour alimenter son cycle d'exploitation et de délivrer le maximum de profits.

Notes

¹ Mebtoul Abderrahmane, « L'Algérie face aux défis de la mondialisation », tome 2, édition office des publications universitaires, alger, 2002, p74-p75.

² Dzever Sam, « Le comportement d'achat industriel », édition economica, paris, 1996, page 16

³ Joncour Yves et Penaud Pascal « L'achat public dans le secteur public, optimiser la fonction achat /approvisionnement dans le secteur public », les éditions d'organisations, paris, 2000, page 8.

⁴ Martinet Alain et Silem Ahmed, « Lexique de gestion », les éditions DALLOZ, 4 éme édition, paris, 1996, page 4.

⁵ Person Helen, « Guide pratique de la fonction achats et approvisionnements en PME /PMI », édition maxima ,2 éme édition, paris, 2000, pages 23-24.

⁶ Bernaténé Henri, « L'achat », les éditions d'organisation, paris, 1993, p67 et 68.

⁷ Bauman C, Fouchard M, Maniak R, Molliex V, Soyer R , « Marketing industriel », les éditions NATHAN , paris ,1997,p 31.

⁸ Person Helene, op-cit , pages 62-63 .

⁹ Person Helene, op-cit , pages 56-57.

¹⁰ Dubois Bernard ET Kotler Philipe, « Marketing Management », les éditions publiunion, 9 éme édition, paris, 1997, p 228.

¹¹ Dayan Armand, « Marketing B to B », edition vuibert, 5éme édition, paris, 2002, de la page 64 à 69.

¹² Dayan Armand, « Marketing B to B », édition Vuibert, 5^{ème} édition, paris, 2002, de la page 58 à 61.